

صفحات من تاريخ مصر

٦

تاريخ مصر

من الفتح العثماني
(إلى قبيل الوقت الحاضر)

تأليف: عمّار الاسكندري و سليم حسن
وراجعه: الكتّابن ا.ج. سيفدج



الناس: مكتبة مدبولي - القاهرة

تاريخ مصر

من انفتح العثماني
(إلى قبيل الوقت الحاضر)

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة مدبولي
الطبعة الثانية
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الناشر
مكتبة مدبولي
ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع
تليفون ٥٧٥٦٤٢١

صَفَحَاتٍ مِنْ تَارِيخِ مِصْرَ

⑥

تَارِيخُ مِصْرَ

مِنَ الْفَتْحِ الْعُثْمَانِي
(إِلَى قُبَيْلِ الْوَقْتِ الْحَاضِرِ)

مَعَ نَبْذٍ فِي أَهْبَارِ بَعْضِ الْأُمَمِ الَّتِي ارْتَبَطَتْ بِمِصْرَ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ

تَأْلِيفُ

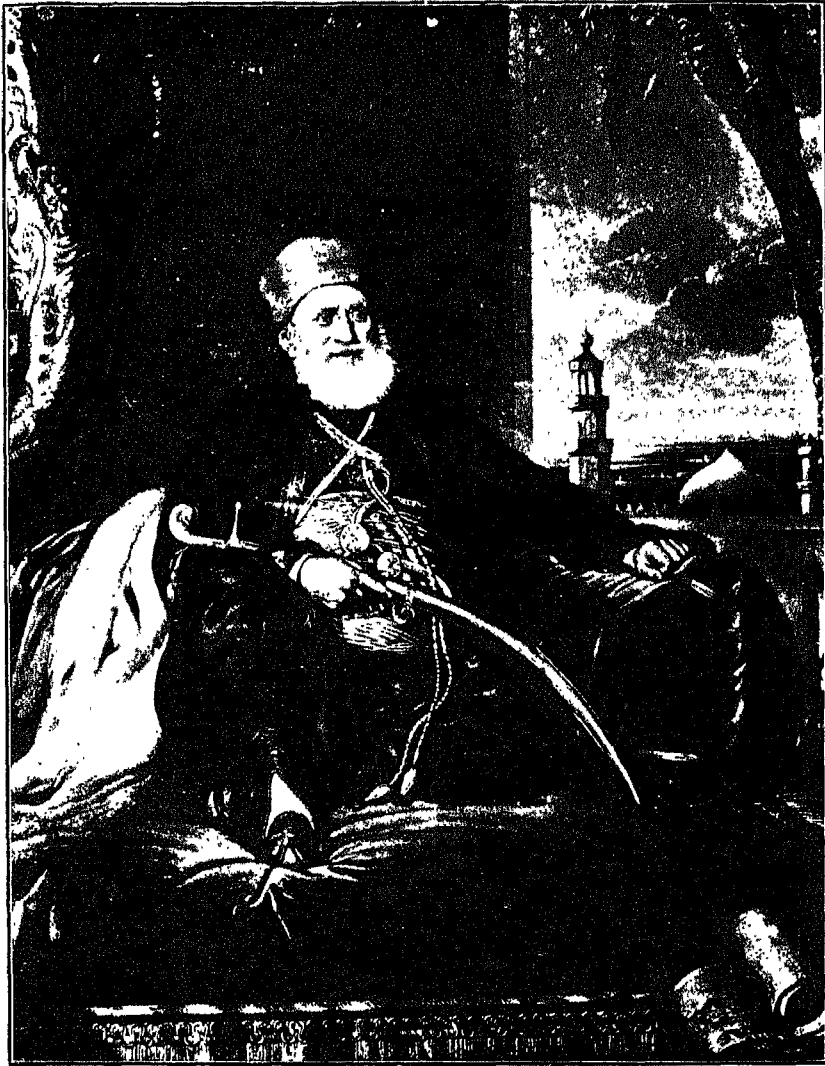
عَمْرٍاءُ الْإِسْكَندَرِي وَ سَلِيمُ حَسَنَ

وَرَاجِعُهُ

الْكَبْتَنُ أ.ج. سَفِيدُج

مَكْتَبَةُ مَدْبُولِي
الْعَامَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



محمد علي باشا

رأس الاسرة المحمدية العلوية

(عن صورة بدار الكتب السلطانية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى يَقْصُ الحَق ، من أنباء ما قد سبق ، والصلاة والسلام على محمد
أفضل من صدق فيما نطق ، وعلى آله ضياء العَسَق ، ونظام النَّسَق . وبعد فهذا
الكتاب يُعْتَبَر كجزء ثانٍ لأول — هو « تاريخ مصر الى الفتح العثمانى » — غير
أن السابق ، لتطاول عصوره وتعدد أجياله ، كان مجمل العبارة ، لطيف الإشارة ، وهذا
اللاحق ، لتقارب العهد بحوادثه ، وتعاضل العبرة بوقائعه ، صار مسهب القول فى جملة
أغراض عامة ، وفى حوادث مصر الهامة خاصة

وهو باتباعه هذه الخطة يطابق منهاج دراسة التاريخ لتلاميذ السنة الثانية من
المدارس الثانوية المصرية ، مُلَمَّاً بوقائع يحتملها المقام ويوجب سردها منهاج اجمالاً
وإن لم يُصَرِّح بها تفصيلاً ، كما أنه بمزاياه المعهودة النظير فى صنوه يُفسح الرجاء لأن
يقبل عليه غير التلاميذ من القراء

وقد استقى هذا الكتاب من أوثق كتب التاريخ المعتبرة عربية وفرنجية أهمها :
تاريخ ابن اياس ، تاريخ القرماني ، تاريخ الاستحقاق ، دولة المماليك للاستاذ السير
وليم ميور ، تاريخ تركيا للاستاذ استانلى لينبول ، تاريخ أوروبا (مجموعة — رِفْنَجْتُون) ،
الترك العثمانيون تأليف كريسي ، اضمحلال الدولة الإغريقية واستيلاء الترك على
القسطنطينية تأليف إدوين بيرز ، دائرة المعارف البريطانية ، القاهرة وبيت المقدس
ودمشق للاستاذ مرجوليوث ، دليل دار الآثار العربية ، تحفة الناظرين للشيخ الشرقاوى ،
حقائق الأخبار عن دول البحار لصاحب السعادة اسماعيل باشا سرهنك ، قصة
القاهرة للاستاذ استانلى لينبول ، مصر فى القرن التاسع عشر تأليف كمبرون ، نابليون

فى مصر تأليف الحاج براون ، الانقلاب المصرى تأليف پيٲن ، تاريخ الجبترى ،
البحر الزاخر لمحمود باشا فهمى ، مذكرات عن محمد على تأليف مرى ، محمد على
ومصر تأليف سذت چون ، خطط على باشا مبارك ، بعض كتابات السُن فلب ،
« الخديوية » تأليف ذيسى ، « مصر » تأليف البارون دى ملرئى ، مصر والخديوى
تأليف إدون ديليون ، تكوين التاريخ الأوربى تأليف هلمند رُوز ، دليل دار الآثار
المصرية ، مصر الحديثة للورد كرومر ، الاقتصاد السياسى للطلبة المصريين تأليف
الاستاذ طُد ، تاريخ القناطر الخيرية تأليف الماجور براون ، تكوين مصر الحديثة للسير
أوكلند كلنشن ، المجلترة فى مصر تأليف ملنر ، تقارير معتمدى برطانيا العظمى فى مصر
هذا وان عظيم الشكران وجزيل الشناء لمن كان لهم آثار مساعدة فى تجميل رونق
هذا الكتاب بالصور البديعة ، وأجدرهم بالذكر حضرة البارع الدقيق على افندى يوسف
الموظف بتنظيم القاهرة

وفى نية المؤلفين اعداد كتاب فى جزءين فى تاريخ أوربا الحديثة وآثار حضارتها
وفى الرجاء أن ينتهى الجزء الأول منهما قريباً ان شاء الله تعالى ؟

وحرر بالقاهرة فى ٨ ذى القعدة سنة ١٣٣٤ الموافق ٦ سبتمبر سنة ١٩١٦

الباب الأول

عهد الدولة العثمانية

الفصل الأول

الفتح العثماني لمصر

كانت الدولة العثمانية منذ استتبّ سلطانها بآسيا الصغرى على تصادقٍ ومصافاةٍ العدواة القديمة لدولة المماليك الجراكسة المصرية ، تدور بين سلاطينهما رسائلُ الوداد وعقودُ المهادنة . بين مصر وتركيا وابتدأ ذلك من عصر السلطان الظاهر برقوق المصري ومُعاصره السلطان يَلدَرِم « بايزيد » العثماني

وبقيت هذه الحال مرَّعيّة الى زمن السلطان « بايزيد الثاني » ابن محمد الفاتح ، الحرب بين بايزيد الثاني وقايتباي إذ نازعه أخوه الأميرُ « جَم » في الملك ، فقاتله بايزيد وهزم جيوشه ، وفرّ جم الى الأشرف قايتباي سلطان مصر ملتجئاً فأجاره ، وطلب بايزيد تسليمه اليه فلم يجبه قايتباي ، فحقّد عليه . وانضم ذلك الى النزاع القائم بينهما على إمارة أبناء ذى الغادر* (التي كانت في حماية مصر ثم تدخلت الدولة العثمانية في شؤونها وادعت حمايتها) ؛

* وهي إحدى الدول التركية التي أسست على انقاض دول التتار ورأسها قراجا بن ذى الغادر وقد استولت على أكثر أرمينية وكردستان وديار بكر وخضعت أخيراً للمصريين فكان لا يتولى أمير منها الا باذن صاحب مصر ثم ان أحد أمراءها التجأ الى العثمانيين مستنصرأ فنصروه وولوه الامارة افتياتاً على المصريين ، بل أمدوه بما انتصر به على ولاية مصر فكان ذلك سبباً للنزاع بين الدولتين المصرية والعثمانية

والى ما بلغ بايزيد من أن قاينباى أخذ من رسول ملك الهند هدايا كان أرسلها الى السلطان بايزيد . فالتخذ بايزيد من كل ذلك ذريعة الى اعلان الحرب على الدولة المصرية ، فجهز جيشاً عظيماً توغل في البلاد الشامية الى قرب حلب حيث التقى به جيش المصريين ، فكانت الهزيمة على العثمانيين . فأتبعه بجيش آخر كانت صلح غير دائم عاقبته كسابقه . وزحف الجيش المصرى على البلاد العثمانية فالتقى بجيش جرار عثمانى ، فكانت الحرب بينهما سجالاتاً مدة انتهت بالصلح والمصافاة ، إلا أنها صارت سبباً لتجسيم التنافس والتراحم بين الدولتين على الاستئثار بالعظمة وبسط النفوذ والزعامة على الممالك الاسلامية)

اسباب جديدة
للمداوة

من أجل ذلك لم يدم هذا الصلح طويلاً ، اذ أخذ العثمانيون من جهة يحرضون القبائل والامارات التابعة لمصر على التخلص من سيادتها ، ويضعون العراقيل في سبيل تجارتها مع غربي آسيا وأواسطها ، مما جعل ورود الصوف ومنسوجاته وأنواع الفراء الفاخرة والماليك الجراكسة الى البلاد المصرية نادراً جداً بل ممتنعاً في أواخر أيام الغورى . وكان أشدها على المصريين امتناع ورود الرقيق من الممالك ، اذ هم مادة الجيش ورجال الحكومة . ومن جهة أخرى أخذ سلاطين مصر يُجبرون كل من التجأ اليهم من أبناء السلاطين العثمانيين والأمرأ الفارّين من وجه الدولة العثمانية ، ثم استرسلوا في الأمر وهبوا يوادّون من عادى العثمانيين من سلاطين الدول المجاورة لهم ، مثل (أوزون حسن) سلطان العراق ثم بعده الشاه اسماعيل الصفوى (المؤسس الثاني لدولة ايران الحالية) وغيرهما . ولم تزد هذه العواذ على أكثر من تبادل المراسلات مع أن الشاه حاول جعلها مخالفة دافع وهجوم فلم يفلح لبعده ما بين الأمتين في المذهب ، وذلك من اغلاط الغورى . واستطار شر هذه الإحن والأحقاد بسماح الغورى بأن يمر بطريق الشام الوفد الذى أرسله الشاه اسماعيل الى مملكة البندقية ليعرض عليها أن يتحداً معاً على محاربة العثمانيين ، وإجارة السلطان الغورى للأمير قاسم ابن أخى السلطان سليم الأول العثمانى ، وإجارة الشاه اسماعيل للأمير

حقده سليم على
فارس ومصر

مراد أخى قاسم ، وكان السلطان سليم أراد قتلها ، فطلبها منها فلم يجيبها . فكان ذلك (الى خوفه من استفحال دولة الفرس الجديدة أو تحول المودة القليلة بين مصر وفارس الى حلفٍ سياسى وتناصُرٍ حربى) سبباً لاعلان سليم الحرب على الفرس أولاً ثم على مصر ثانياً

ولما زحف السلطان سليم على بلاد الشاه اسماعيل وهزمه هزيمة منكرة أراد أن يحاربه فارس يكتسح جميع بلاده ويقضى على البقية من دولته . فوجد الشاه أتلّف كلّ ما خلفه فى مدنه وقلاع من المؤونة والذخائر ، وانتظر سليم ورود غيرها من بلاده ، فلم أن قبائل التركان وامارة الغادرية التابعة لمصر قد أغارت على قوافله ومنعت وصولها اليه ، فقلّت الأتوات فى معسكره واضطرب الجيش ، فخرمه ذلك ثمرة انتصاره

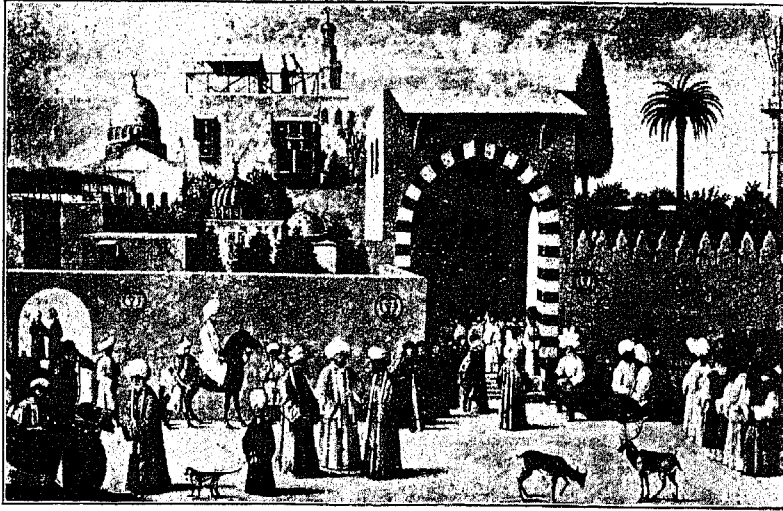
مساعدة مصر
لفارس

هذه كل المساعدة التى قامت بها مصر للشاه ، مع أنها لو سيّرت جيشاً يقطع خط الرجعة على العثمانيين لكان التاريخ على غير ما هو عليه . فاضطرّ سليم الى الرجوع الى بلاده منتقماً فى طريقه من امارة الغادرية ، فقتل أميرها علاء الدين وضمّ بلاده الى ملكه ، وولى غيره من أبناء أسرته الغادرية . واحتجّ الغورى على ذلك ، فقابل سليم احتجاجه برسالة رأس علاء الدين اليه . وحينئذ علم الغورى أن الحرب واقعة لا محالة ، فاستعد للملاقاته بتجهيز جيش عزم على أن يقوده بنفسه ، ولكن بعد فوات الفرصة : فان الشاه اسماعيل لم يعد فى القوة التى كانت له قبل : فقد هلك أبطاله ، وتشدّت شملُ رجاله ، وخرّبت بلاده ، فأمن السلطان سليم غائلته وتفرغ لحرب مصر . ومع كل هذا كان من الممكن انتفاع الغورى بما بقى للشاه من القوة ، ولكنه لم يفعل أو لم يُقنع الشاه بضرورة ذلك

أراد الغورى أن يستجمع كل ما عنده من قوة العدَد والعدّة . وكانت موارد الثروة قد نضبت بمصر لقطع البرتقال طريق التجارة الهندية عليها ، فلم يكذّ بهم بجمع الممالك حتى تخاذلوا وتعللوا عليه بقلّة النفقة المصروفة لهم وما هم فيه من العسر . وكان الفساد قد دب فى أخلاقهم ، وقلّت وطنيتهم ، وجرّأهم على ذلك ميلُ الغورى

استعداد
الغورى للقتال

الى ممالكه الخاصة الذين جلبهم لنفسه واتخذهم عدَّة له يتقوى بهم على المالك القدماء
 اذا هموا. به وبعد نساھل من الطرفين أمكن الغورى أثناء شتاء سنة ١٥١٥م (٩٢٢هـ) خروج الجيش
 المصرى الى الشام اعداد جيش يخرج به الى حدود آسيا الصغرى ، فجمع في هذا الجيش على قلته اكثر
 من في مصر من رجال القوة الحربية والأدبية : فخرج فيه الخليفة العباسى ، وقضاة
 المذاهب الأربعة ، ورؤساء مشايخ الطرق الصوفية وكبار العلماء والأعيان ، ورؤساء
 المغنين والموسيقين والمضحكين وأرباب الصناعات وغيرهم. وترك بمصر حامية من الممالك
 تقدر بنحو الفين ، وأتاب عنه الذوّادار الكبير « طومان باى » ابن أخيه . وبلغه أن
 الأسطول العثماني يقصّد الاسكندرية ، فعزّز حاميتهما ، وحصّن قلاعها بنحو مائتى
 مدفع . وخرج من القاهرة بموكب عظيم تتقدمه الطبول والزّمور وتُدقّ أمامه الكؤوس .
 خرج بهذا الجيش في شدّة حمارة الصيف على غير عادة الملوك في خروجهم ، فقاسى



السلطان الغورى في حاشيته — [وهو الجالس عن يمين الباب]
 (رسم على افندى يوسف — عن صورة بدار الأنار العربية)

الجنود الأهوال والشدائد في اجتياز صحراء طور سيناء وأودية فلسطين ، ودخل كل
 مدينة في الشام بموكب عظيم وخاصة مدينة دمشق وحلب وحماة

وخرج السلطان سليم من القسطنطينية بجيش عظيم مُدْرَبٍ على الحرب ذكر بعضهم أنه يبلغ ١٥٠ ألف مقاتل مسلّحين بكثير من المسكاحل والمدافع والبُنْدُقيات . الجيش العثماني
فلما صار على حدود الشام أراد أن يَكِيدَ للمصريين بمكيدتين ، نجح في أحدهما وأخفق في الأخرى :

ففي الأولى تمكن من أن يستميل إليه « خير بك » نائب حلب من قبل مصر خدع سليم
و « جان بُرْدِي الغزالي » نائب حماة ، ووعد الأول بولاية مصر والآخر بولاية الشام للغوري
ومع أن نائب الشام وغيره أخبروا السلطان الغوري بخيانة خير بك لم يعبأ بكلامهم
لما يرى من شدة تواضعه وإخلاصه

وفي الثانية أراد أن يخدع الغوري بصرفه عن القتال وأخذه على غرة ، فأرسل إليه رسل سليم
أولاً أثناء برؤوزه من القاهرة بتوسط الخائن نائب حلب رسالةً يعتذر فيها عما فرط منه للغوري
في شأن البلاد التابعة لمصر ويعده بأن يُعيدَها إليه ويفتح طريقَ تجارة الرقيق والصوف والفراء ، وبالجملة يفعل كل ما يطلبه الغوري . وكاد الغوري وأمراء عسكره
يُخدعون بذلك لولا مراعاتهم جانب الحيطة بالخروج إلى الشام . وأرسل إليه ثانية وهو
يحبب رسلاً عليهم أحد قواده وقاضى « عسكر الروم إيلي » يصرفون الغوري عن
قصده ، ويؤكدون إخلاص سلطانهم له وشدة رغبته في المهادنة والصلح بشرط أن
لا يتدخل الغوري بينه وبين الشاه اسماعيل الذي لم يقصد سليم بخروجه غيره
والذي أفتى علماء القسطنطينية بجواز حربه وقتله لرفضه وخروجه عن شعائر أهل الملة .
فأكرمهم الغوري وسيرهم معزّزين إلى معسكر سليم ، وأرسل إليه رسلةً صحبة أمير
كبير من المصريين يعرض عليه توسّطه في الصلح بينه وبين الشاه . فغضب سليم
وهمّ بقتل الرسول ، فَشَفِيعَ فِيهِ فَأَطْلَقَهُ مُهَانًا مُشْعَنًا ، وقال له قل لأستاذك : ان اسماعيل
الصفوي خارجي وأنت مثله ، وسأبدأ بك قبله ، وموعدا « مرج دابق » (على بعد يوم
شمالى حلب) فخرج الغوري في نحو ثلاثين ألف مقاتل ، وخلف أمواله وذخائره في
قلعة حلب الحصينة في حامية لها . فلما كان صبيحة يوم الأحد ٢٥ رجب سنة ٩٢٢

واقعة

مرج دابق

(وهو اليوم الذى سقطت فيه الدولة المصرية من عالم الدول المستقلة العظيمة) دهمه العثمانيون بجيش يربو على الجيش المصرى بأضعاف ، فعبأ الغورى كتابه . وكان من غلطاته الكبرى فى خرجته هذه أنه آثر مماليكه الخواص (الذين اشتراهم بماله) بكل كرامة ورعاية وإنعام ، وقصّر فى استجلاب مودة الممالك القدماء من عتقى السلاطين والأمراء ، حتى شاع بينهم أن السلطان يريد أن يجعلهم أمام مماليكه الخواص ليكونوا دريئة لهم من مدافع العثمانيين التى تفوق مدافع المصريين عظماً وسرعة قذف وبعْدَ مرمى . ففسدت نيات بعضهم ، وانضمّ ذلك الى خيانة « خير بك » و « جان بردى الغزالى »

فلما التقي الجمعان حملت الميمنة والقلب حملة أزالوا بها العثمانيين من مواقعهم ، وقتلوا منهم بضعة آلاف ، واستولوا على كثير من أعلامهم ومدافعهم ، وكادت الغلبة تكون للمصريين ، وهم السلطان سليم بالهرب ، لولا أن خير بك انهزم بكتيبته (وكان على الميسرة) ، وتبعه جان بردى الغزالى ، فاختل نظام الجيش المصرى . واتفق أن وصل للعثمانيين فى ذلك الوقت مدد من المدفعية ، وظهر كمين لهم أحاط بالجيش المصرى . ورأى الممالك القدماء من المصريين أن الممالك الخواص لا يقاتلون ، ففترت همهم وهنت عزائمهم ، ونحاذلوا ، ولم يصبروا على نيران المدافع العثمانية ، فركنوا الى الفرار ، وبقي السلطان الغورى فى جماعة قليلة يناديهم ليعودوا فلم يلتفتوا اليه ، ففُلج لساعته ، وسقط عن جواده . ولما شاع موته فى العسكر تفرّقوا ، واستولى العثمانيون على معسكرهم ، وغنموا منه ما لا يحصى ، ولم يوقف للغورى على أثره ، واستمرت الواقعة من طلوع الشمس الى ما بعد الظهر . ولما رجع المهزمون الى حلب انقلب عليهم أهلها ، واستولوا على ودائعهم عندهم ، وقتلوا بهم ، فلاقوا منهم شرّاً مما لاقوا من العثمانيين . وانتظر أهل حلب قدوم السلطان سليم فسلموه المدينة ، واستولى على قلعتها بدون قتال ، وغنم منها ألوف الألوف من الأموال والذخائر ، وخطب باسمه فى مسجدها ، وانضم اليه خير بك وغيره من الممالك الخونة ، وحلّقوا لحام أو قصروها ، وتزيوا بزى

موت الغورى

العثمانيين) ثم ذهب السلطان سليم الى دمشق ، فاستولى عليها ، ودانت له جميع مدن الشام بلا مُنازع . ومكث بها مدة ثلاثة أشهر يُرتبُ نظامها ، ويُحكِمُ أمورها

أما بقية المهزمين من المصريين فرجعوا الى مصر في حالة يرثى لها ، ورجع معهم جان بردى الغزالي وكأنَّه قصد برجوعه الى مصر أن يفتَّ في عَضْدِ المصريين ، ويكون عوناً وجاسوساً للعثمانيين ، وكانت أفعاله كلها في مصر ترمى الى ذلك ، لأنَّه خرج عَقِبَ دخوله مصر بحملة الى الشام ليُنْقِذَ غزاة من العثمانيين ، ففرق عساكره في البلاد ، ولم يلاق العثمانيين الاً بفشة قليلة لم تلبث ان انهزمت ، وكانت هزيمتهم سبباً في فشل طومان باي (الذي خلفه الغوري سلطاناً على مصر) في تأليف جيش عظيم آخر يدافع عن القاهرة . فقد كابد في جمعه مشقات عظيمة ، وتخاذل المماليك واشتروا عليه شروطاً أشدَّ مما اشتروا على الغوري ، وبَقُوا في خلاف : هل يحاربون العثمانيين على حدود

جزيرة الطور وهم منهوكون القوى من قطع الصحراء أو في شمالي القاهرة ، حتى دهمتهم جيوش العثمانيين وصارت على مقربة من القاهرة . فخرج طومان باي في جيش مختلط من جميع أجناس المحاربين ، وأسرع في حفر الخنادق ونصب المدافع في ظاهر الريدانية (صحراء العباسية وعين شمس الى بركة الحج) . وكان يظن أن الجيش العثماني يقابله

وجهاً لوجه فيها ، فكان غير ما ظن ، إذ لم يكد الجيشان يتلاقيان يوم ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ حتى افترق الجيش العثماني لكثرتة الى ثلاث فِرَق : فرقة كانت وجهتها المصريين بالريدانية ، وفرقة سارت تحت الجبل الأحمر والمقطم وأحاطت بهم من اليمين الى الخلف ، وفرقة سارت الى جهة بولاق وأحاطت بهم من الشمال . وصبر الممالك ساعة قُتل فيها عدد عظيم من العثمانيين وقوادهم ، منهم سنان باشا اكبر القواد والوزراء للسلطان سليم ، ولم يدم ذلك إلا ريثما تمت حركة الالتفاف ، وعندها وُجهت المدافع والبنادق على المصريين من كل صَوْب ، ولم يكن لهم نظيرها ، فلم يسعهم إلا الفرار . وصبر طومان وجماعة صبر الأبطال ، ولكنهم اضطروا أخيراً الى الفرار الى الجزيرة . وسار العثمانيون الى القاهرة فدخلوها فِرَقاً ونزل السلطان سليم بمعسكره

عودة الجيش
الى مصر

طومان باي
بمحاول المقاومة

واقعة الريدانية

دخول العثمانيين
القاهرة

الخاص على ساحل بولاق والجزيرة الوسطى* ولم يدخل المدينة . وبقى كذلك الى يوم الثلاثاء رابع المحرم سنة ٩٢٣ هـ . فلما كانت ليلة الأربعاء خامس الشهر لم يشعر السلطان سليم بعد صلاة العشاء إلا وقد هجم عليه في معسكره السلطان طومان باى بمن التف حوله من المماليك . فاختلف نظام المعسكر واختلط الحابل بالنابل ، وساعد المماليك كثير من العامة والغوغاء ونوتية بولاق . فما بزغ الفجر حتى قُتل من العثمانيين خلق كثير . ثم جاءت فرقة أخرى مدداً للمماليك بقيادة الدوادار الأمير علان من جهة الناصرية ، وحمي وطيس القتال بين الفريقين من بولاق الى الناصرية ، وملك المماليك أكثر المدينة بعد أن قتلوا الألوف في شوارعها وحاراتها من العثمانيين المتفرقين ثم جمع العثمانيون شملهم وطردها المماليك من حي بولاق الى قناطر السباع (السيدة زينب) حتى تحصنوا (المماليك) بحى الصليبية وحفروا الخنادق حولهم من جميع الجهات . وخطب يوم الجمعة للسلطان طومان باى على منبر جامع شيخون وغيره ، واستمر القتال كذلك أربعة أيام بلياليها من ليلة الأربعاء الى صبيحة يوم السبت ٨ المحرم . فحاصر العثمانيون حى الصليبية من كل جهاته ، واشتد الأمر على المماليك فتخاذلوا وتسلبوا عن السلطان طومان باى . فبقى يقاتل في نفر من المقدمين الأمراء وبعض العبيد ، حتى اذا لم يبق للدفاع فائدة فرّ الى بركة الحبش . (بين الساحل القبلي بمصر القديمة وبين معادى الخبيرى) وعدى من ساحل طره الى ضفة النيل الغربية بالجزيرة . واستولى العثمانيون على المدينة مرة أخرى . وطلع السلطان سليم الى القلعة بعد ذلك بعشرة أيام ، واستحوذ على ما فيها من الأموال والذخائر . وبقى بالقلعة نحو شهر شاع في خلاله ان طومان باى صار في عسكر عظيم ممن تراجع اليه من المماليك والتف حوله من عرب الصعيد ، وانه قادم الى القاهرة

مجهودات
طومان باى
الاخيرة

القتال في شوارع
القاهرة

وبعد أيام جاءت رسل من عند طومان باى الى السلطان يعرضون عليه الصلح بأن تكون مصر تحت سيادة العثمانيين في الخطبة والسكة والخراج ، وأن يكون

عرض الصلح

* هي الجزيرة التي أمام قصر النيل

طومان باى نائباً عن سلطان العثمانيين فى مصر ، فقبل ذلك السلطان سليم ، وأرسل اليه وفداً من قضاة مصر وأعيانها وبعض المقدمين . فلما وصلوا الى السلطان طومان باى بجهة البهنسا ثار المماليك بطومان باى ، ولم يرضوا بالصلح وقتلوا بعض رجال الوفد ، فلم يسع طومان باى الاّ مجاراتهم مكرهاً ، وتقدم الى بلاد الجيزة لينازل العثمانيين فى موقعة فاصلة ، فاجتاز السلطان سليم الى النيل بجيوشه . والتقى الجيشان بقرب « وردان » يوم الخميس ١٠ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) فدارت الدائرة أولاً على العثمانيين وقتل منهم مئة عظيمة . الاّ أن نيران المدافع والبندقيات العثمانية مزقت جيش المصريين المختلط (الخالى يومئذ من أكثر المعدات الحربية) كل مُزَق ، فكانت هذه الموقعة الخامسة هى ختام الوقائع الحربية التى دافع بها المماليك المصريون عن بلادهم ، ولم يبق لهم بعدها قائمة الاّ ما كان من استبداد بعض سلاثلهم بشأن مصر كما سيأتى

أما السلطان طومان باى فإنه لما فر من وجه السلطان سليم ذهب الى أحد رؤساء الأعراب بالبحيرة المدعو « حسن بن مرعى » وكان له عليه أيدٍ عظيمة ، فاخفى عنده واستحلفه أن لا يخونه ، ولكنه نقض الحلف وكشف السلطان سليماً بأمره ، فأرسل اليه عسكرياً قبضوا عليه متنكرّاً فى زى الأعراب ، وجلبوا به الى السلطان سليم فحين رآه قام له وعاتبه ببعض الكلام وبقي معه فى معسكره سبعة عشر يوماً يحضر مجلسه ويسأله السلطان سليم عن شؤون مصر وإدارتها وسياسة أهلها وكيفية رعاها وجباية خراجها وبقية أمورها ، مما جعل طومان باى يطمئن اليه ويظن من إقباله عليه أنه سيكون نائباً عنه فى ملك مصر

غير أن ذلك كان استدراجاً من السلطان سليم ، إذ بعد ما وقف منه على كل قتل طومان باى ما أراد أمر فى يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) بأن يعودوا بطومان باى الى القاهرة فدخلوا به وهو بزي الأعراب من جهة شارع أمير الجيوش الى البرقوقية ، حتى اذا صارت تحت باب زويلة أنزلوه عن فرسه . وكان لا يدري ماذا

يُصنع به ، فلما رأى الحبال مُدْلَاة من حَلَقَةِ الباب علم أنه مشنوق ، فشهد وقرأ الفاتحة وسأل الناس أن يقرأوا له الفاتحة ، وشُنق بين ضحيج الناس عابيه بالبكاء . وبقي مصلوباً ثلاثة أيام ، ثم أنزل ودُفن خلف مدرسة الغورى (جامع الغورى) ، وكان له من العمر نحو ٤٤ سنة . ولم يُشْنَق ممن حكم مصر من الخلفاء والسلاطين سلطان غيره

السلطان سليم
في مصر بعد الفتح
أما السلطان (سليم) فإنه أقام بمصر نحو ثمانية أشهر (فكان معسكره أول الفتح ببولاق والجزيرة الوسطى . ثم أقام بالقاهرة نحو شهر ثم بمدينة الجيزة وأما به قرياً من شهر ثم أقام بجزيرة الروضة والمقياس مدة . ثم توجه بجنده الى مدينة الاسكندرية ، فكانت



السلطان سليم — فاتح مصر

(رسم على افندى يوسف)

مدة غيابه وإيابه ١٥ يوماً . ثم رجع وأقام بجزيرة الروضة وبنى له بها بجانب المقياس في طرف الجزيرة الجنوبي جَوْسَق من الخشب أقام به بقية المدة الآزمنة سيرا إقامة بيت الأشرف قايتباي المطل على بركة الفيل)

وفي أثناء إقامته بمصر سنَّ لها بعض أنظمة إدارية ، ونقل إلى القسطنطينية أكثر ما في القلعة ومنازل الأمراء والسلاطين والمساجد والزوايا والأربطة من النفائس والذخائر والكتب حتى أعمدة الرخام ومركباته

ونفى من مصر إلى القسطنطينية كل أبناء السلاطين وأكثر المقدمين والأمراء والخليفة العباسي بعد ما تنازل له عن الخلافة وأكثر العلماء والقضاة وكل من له نفوذ وإمرة بمصر

ثم أمر بجمع رؤساء الصناعات المشهورين بإجادة العمل فيها من كل الطوائف ، فجمعوا منهم نحو ألف صانع ونقلوهم إلى الأستانة ليدعوا الصناعات الدقيقة فيها ، فرجع بعضهم إلى مصر بعد عهده وبقي آخرون . قيل أنه بطل في مصر بذلك نحو ٥٠ صناعة ، فكان كل ذلك سبباً في تأخر مصر في الصناعات

أما ولاية مصر فاختارها السلطان سليم أثناء إقامته أكبر وزرائه « يونس باشا » والياً عليها ، ثم رجع عن ذلك قبيل سفره من مصر وولى عليها ملك الأمراء « خير بك » وولى على الشام (جان بردى الغزالي)

وباستيلاء السلطان سليم على مصر صارت البلاد جزءاً من الدولة العثمانية ويجدر بنا قبل الكلام على حكم العثمانيين في مصر أن نذكر شيئاً عن منشئهم ونهوضهم ، وأهم الحوادث في تاريخهم أيام حكمهم في مصر ، حتى نكون على علم بأهم الأحوال التي أحاطت بمصر في ذلك العهد



الفصل الثاني

نبذة في تاريخ الدولة العثمانية

١ — منشأ العثمانيين ونهوضهم *

الجنس التركي العثمانيون جيل من الأجيال التركية المتشعبة من الجنس المغولي المعتبر من أعظم الأجناس البشرية عدداً. وأصل منشأه « بلاد منغولية » ، ومنها انتشر غرباً وشمالاً وتشعبت منه في آسيا امم وقبائل استقلت بنفسها وصار لبعضها ملك كبير: مثل أمة « الهون » المفتحة شرقى أوربا يقودها زعيمها « أتيلاً » ، ومثل دولة الأتراك السلاجقة^(١) المستبدة بملك العباسيين ، ومنهم الدولة المعروفة بسلطنة الروم السلجوقية ، وقد سبق ذكرها في الكلام على الحروب الصليبية^(٢)

وفي أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر المسيحى) قامت للمغول دولة وثنية قوية بقيادة زعيمهم العظيم « جنكيز خان » ثم حفيده « هولاكو » ، فاكتمستحت ممالك آسيا الوسطى والغربية ، وقوت عرش الخلافة العباسية ، وأنت من فظائع التقتيل والتخريب ما لا ينساه التاريخ . وكانت القبائل التركية الاسلامية تفر من وجوههم مؤثرين الهجرة على الخضوع لجورهم . ومن هذه القبائل قبيلة صغيرة تدعى « الاغوز » ، خرجت من ديارها فى أواسط آسيا وغربت حتى وصلت الى آسيا الصغرى التى بقى جزء منها وقتئذٍ فى حوزة السلاجقة : تلك هى القبيلة التى نشأت منها الدولة العثمانية

ارطغرل وبينما تتجول هذه القبيلة فى آسيا الصغرى يرأسها كبيرها « أرطغرل » إذ وجدت

(١) سمووا السلاجقة نسبة الى « سلجوق » رئيس القبيلة التى نشثوا منها

(٢) كتاب تاريخ مصر الى الفتح العثمانى (صحيفة ٢٢١)

جيشين يقتتلان أحدهما من المغول ، والآخر من السلجوقيين . فانضمت الى الجيش الذى كاد يهزم ، وهو السلجوقى ، فانتصر بها على المغول وطردهم من بلاده . فرأى السلطان السلجوقى « علاء الدين » وجوب مكافأة « أرطغرل » على معونته له ، فأقطعه قطعة من الأرض قرب مدينة « بُرُوسَة » على تخوم أملاك الدولة الرومانية الشرقية تسمى « إيسكى شهر » (سُلطانونى) . فكانت مهد الدولة العثمانية ، وفيها وُلد « عثمان » بن « أرطغرل » الذى تُنسب الدولة اليه

ولد عثمان سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) فنشأ مولعاً بالحرب مُظفراً فيها ، فانتزع فى صباه من دولة الروم الشرقية مدينة « قَرَه حصار » وغيرها . فتحه سلطان « قونية » لقب « بك » ورقاه الى مرتبة الأمراء

وفى سنة ٦٩٩ هـ . (١٣٠٠ م) قضى المغول على البقية الباقية من الدولة السلجوقية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحكموا تلك البلاد بأنفسهم ، فاستقلت فيها عشر إمارات تركية ، إحداها إمارة « عثمان » الذى اعتبر من ذلك الحين المؤسس للدولة العثمانية وأول حاكم مستقل فيها . أمّا باقى الإمارات التركية فاندجحت فى هذه الإمارة على توالى الأيام ، وسموا أنفسهم عثمانيين أيضاً

وأخذ عثمان ينظّم أملاكه ويوسع نطاقها فى الجهة الغربية ، فاستولى على كثير من أملاك الدولة الرومانية الشرقية . وقبل وفاته فتح ابنه « أرخان » مدينة « بروسه » بعد حصار طويل ، فصارت بعد حاضرة للدولة

وفى سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) خلف عثمان ابنه « أرخان » (٧٢٦ — ٧٦١ هـ : أرخان ١٣٢٦ — ١٣٥٩ م) ، فواصل الحرب على الدولة الرومانية الشرقية ، فافتتح منها « نيقوميديّة » و « نيقية » (أزنيق) وكثيراً من البلاد الآسيوية التى كانت لم تزل فى حوزتها . ثم جنح « أرخان » الى السلم ، ف قضى نحو ٢٠ عاماً بلا طعن ولا نزال ، معنى فيها بتثبيت دعائم ملكه فى البلاد التى فتحها ، وإصلاح الحكومة وتنظيم الجيش . وقد كان لعمله الأخير أكبر أثر فى اتساع رقعة المملكة وتأييد مجدها ،

وذلك بفضل إنشاء طائفة « الانكشارية » (العسكر الجديد) ، التي كوَّنها وعنى بتدريبيها حتى صارت أهم فرقة في الجيش

الانكشارية ومنشأ هذه الطائفة ان الدولة كانت تأخذ كل عام نحو ألف صبي من أبناء النصراني الذين قُتل آباؤهم في الحرب ، وتلقنهم الدين الاسلامي ، وتربيتهم تربية عسكرية منظمة ، منطبقة على أدق القواعد الحربية التي امتاز بها الترك في ذلك الزمان ، حتى صارت هذه الطائفة لا مثيل لها في القوة والإقدام والمرانة على الحرب . وكان يُفتح أمامهم طريق الرقي الى أكبر المناصب في الدولة ، فعُدَّ ذلك أكبر مشجع لهم على الطاعة وخوض غمار الحروب ، وبقي هذا النظام متبعاً نحو ثلاثة قرون . غير أنه تسوَّهَل فيه أخريات هذه المدة ، فكانت الجنود الجدد تجمع من الاسرات التركية ، ومن أبناء الانكشارية أنفسهم . ولما طال عليهم الأمد استأثروا بالسلطة ، وأساءوا استعمالها ، وأصبحوا منبع الشغب والقلق في الدولة ، فقضى عليهم السلطان محمود الثاني أوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٢٦ م (١٢٤١ هـ)



بعض ضباط الانكشارية

(رسم على أفندي يوسف)

ولما أتمَّ « أرخان » تنظيم الجيش وإصلاح الشؤون الداخلية عاد الى العمل على مبدأ الفتوح العثمانية باوربا توسيع نطاق أملاكه ، فأغار على الشاطئ الأوربي ، واستولى فيه على مدينة « غلبوبولى » وغيرها من المدن شمالى مضيق الدردنيل (٧٥٨ هـ : ١٣٥٧ م) ، فكان ذلك مبدأ الفتوح العثمانية فى أوربا ، التى أخذت من وقتئذٍ تزداد وتعظم ويقفو بعضها بعضاً

ولما تولى الملك « مراد الأول » ابن أرخان (٧٦١ — ٧٩٢ هـ : ١٣٥٩ — مراد الأول ١٣٨٩ م) همَّ بمواصلة تلك الفتوح ، فأخضع معظم بلاد « الروملى » (الروم ايلي) واستولى فيها على « أدِرنة » (التى أصبحت عاصمة جديدة للدولة) و « فليبو بوليس » اخضاع الروملى (فليبة) ، وغيرها من المدن العظيمة ، فضاق بذلك نطاق أملاك الدولة الشرقية وهال هذا الفوز الكبير أمراء أوربا . فعزموا على ردّ الترك الى بلادهم فى آسيا ، فخرج لذلك الوجه ملوك « البوسنة » (البشناق) و « المجر » و « الصرب » بجيش عظيم ساروا به الى « أدِرنة » . فهزموهم الترك شر هزيمة سنة ٧٦٥ هـ ، (١٣٦٣ م) ثم قفوا على أثر ذلك باخضاع « بلغاريا » ، وضمها إلى أملاكهم اخضاع بلغاريا سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٨ م) . فعاوَد الفرعُ إماراتِ أوربا الشرقية ، وتحالفوا على قهر مراد . فسار الى الصرب ليردّهم ، فالتقى بهم فى واقعة « قوصوة » الشهيرة سنة ٧٩٢ هـ (١٣٨٩ م) ، فاضطلم جيوشهم اصطلاماً . إلا أنه قُتل على أثر الواقعة : طعنه صربى والعرب نار به من بين القتلى . وكانت نتيجة تلك الواقعة أن دخلت « الصرب » أيضاً فى حوزة الدولة العثمانية

ولم تكن غزوات مراد قاصرة على أوربا ، بل كان سيل جيوشه يتدفق على آسيا : فاستولى فى أوائل حكمه على مدينة « أنقرة » ، وواصل بعدُ فتوحه فيها ، فاندرجت أربع من الإمارات العشر التى قامت على أنقاض دولة السلاجقة فى سلك الأملاك العثمانية

ثم خلفه ابنه « بايزيد الأول » (٧٩٢ — ٨٠٥ هـ : ١٣٨٩ — ١٤٠٢ م) ، بايزيد الأول فلم يقلّ عن أبيه مهارةً وإقداماً . فأخضع باقى الإمارات التركية فى آسيا ، ووطّد

أركان دولته في أوروبا، وزاد عليها كثيراً من مدن الروملى، التي كانت لم تنزل بعد في يد المسيحيين

من أجل ذلك عمّ الهول والفرع معظم الأوربيين، من كثرة فتوح العثمانيين وسرعة تقدمهم في أوروبا، وقامت بها ضجة دينية للحض على غزاتهم. فقام البابا يدعو الناس باسم الدين الى مقابلتهم، وخرج لذلك جيش أوربى عظيم بقيادة «سجسجند» ملك الجرج، ضم بين كتابه كثيراً من فرسان فرنسا وألمانيا. وكان بايزيد إذ ذاك غائباً في آسيا، ففاز الأوربيون في بادئ الأمر، واستردوا من الترك كثيراً من المدن، ثم شرعوا في حصار مدينة «نيقوبوليس»، وهى من أمنع المدن على نهر «الطونة» فلما علم بايزيد بذلك أسرع للقائهم، فهزمهم هزيمة تُعَدُّ من أنكر الهزائم التي دوتها التاريخ، بحيث لم ينج من جيوشهم إلا النزر اليسير، سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٦ م)

حرب صليبية
أخرى تثار
على العثمانيين

واقعة
نيقوبوليس

وشرع بايزيد بعد واقعة نيقوبوليس هذه في غزو بلاد اليونان، فأخضع منها «تساليا» و«أبيروس»، وكان على وشك التآهب لفتح القسطنطينية، التي طالما تأقت نفسه ونفسُ الفاتحين من المسلمين لغزوها، لولا أن داهمتها غارة التتار على أملاكه الأسبوية بقيادة الجبار الشهير «تيمورلنك». فخرج بايزيد إصدّه، وتقابل الجيشان في «أنقرة» سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م)، فكانت الهزيمة على العثمانيين، وأخذ بايزيد أسيراً، فبقي في أسرهِ حتى مات كدّاً بعد ذلك بثمانية أشهر

واقعة أنقرة

وقد كادت هذه الهزيمة تكون قاضيةً على العثمانيين، لولا أن هلك «تيمورلنك» وتشتت شمل دولته إثر وفاته. وكان لبازيد أربعة أولاد، بقوا عشر سنين يقتتلون من أجل العرش

ثم انتهى الأمر بتغلب أحدهم «محمد الأول» (٨١٦ — ٨٢٤ هـ : ١٤١٣ — ١٤٢١ م)، فكان من خيرة سلاطين آل عثمان : لم شعث الدولة بعد أن مرّقها «تيمورلنك»، وكبح جماح الإمارات التي كانت أخذت تتمرّد على

محمد الأول

* من الأقاصيص المتداولة أنه وضع في قفص من حديد

الدولة لِمَا رَأَتْهُ من انهزامها الشنيع ، وأصلح ما أفسدته الفتن التي حدثت بينه وبين إخوته قبل خلوص الملك له . ولم يمض عليه ثمانية أعوام حتى استرجع للدولة كل ما كان لها قبل واقعة أنقرة . فكان ذلك من أعجـب ما وعاه التاريخ للدولة العثمانية

ومات السلطان « محمد الأول » سنة ٨٢٤ هـ (١٤٢١ م) في الثالثة والثلاثين من عمره ، خلفه « مراد الثاني » (٨٢٤ — ٨٥٥ هـ : ١٤٢١ — ١٤٥١ م) ، فعمل على مواصلة الفتوح التي وقَّعتها غارة تيغورلوك . وكان إمبراطور دولة الروم الشرقية قد مالاً أحد المطالبين بالملك من أبناء مراد ، فقابل ذلك مراد بمحاصرة القسطنطينية ، وقد كاد يفتحها لولا أنه اضطر إلى فض الحصار عنها لإخماد ثورة أثارها عليه في آسيا أحد إخوته

غارة هونياد



هونياد المجري
(عدو الترك العنيد)

ثم قامت بأوروبا نهضة جديدة لإخراج العثمانيين من هذه القارة . فخرج لذلك جيش جرار : جمعت كتائبه من ممالك أوربية عديدة ، يقوده « هونياد » القائد المجري العظيم ، الذي لم يرَ الترك قبل ذلك أحداً من المسيحيين في بأسه وبطشه . فاكسح الجيش كل شيء أمامه حتى اجتاز جبال البلقان ، فاضطر السلطان مراد إلى عقد مهادنة مع المسيحيين لمدة عشر سنوات ، على أن يتنازل عن الصرب ويعطى « بلاد الأفلاق » للمجر (معاهدة إزجيدن سنة ٨٤٨ هـ : ١٤٤٤ م)

ثم رأى مراد أن يستريح من غناء الملك ، فتنازل عن العرش لابنه « محمد الثاني »

واقعة ورنه (وكان حديث السن) ، وأقام بأسيا يطلب الراحة . فلما رأى المسيحيون ذلك طعموا في الدولة ، فنقضوا عهدهم ، وزحفت جيوشهم بقيادة « هونياد » على الأراضي العثمانية ، واستولت على كثير من حصون بلغاريا . فلما علم مراد بذلك رجع الى الملك وسار بجيش اليهم . وكانوا قد استولوا على « ورنه » ، فالتقى بهم خارج المدينة في معركة فاصلة ، انتهت بانهزام المسيحيين هزيمة شنيعة ، وقُتل فيها بعض ملوكهم وأمراهم سنة ٨٤٨ هـ (نوفمبر سنة ١٤٤٤ م) . وكان العثمانيون أثناء الموقعة يحملون في جملة أعلامهم لواءً معلقاً عليه صورة من المعاهدة ، تذكر للأعداء بغدرهم وتقضهم لليهود والمواثيق . ثم أتم مراد إخضاع البوسنة والصرب ، ومات عام ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م) ، فترك لابنه محمد الثاني ملكاً واسعاً ثابت الأركان

تولى « محمد الثاني » الشهير بمحمد الفاتح (٨٥٥ — ٨٨٦ : ١٤٥١ — ١٤٨١ م) وهو في الحادية والعشرين من عمره ، فبادر بالتأهب لفتح القسطنطينية ، وأعد لذلك المعدات العظيمة . وفي سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) تم له فتحها بعد أن أعيا كثيراً من ملوك المساميين قبله ، ففتى بذلك على دولة الروم الشرقية القضاء الأخير . ويُعد فتح القسطنطينية من أهم الحوادث التاريخية . كما يعتبر عام فتحها (٨٥٧ : ١٤٥٣ م) مبدأ التاريخ الحديث

٢ — * اضمحلال الدولة البوزنطية * *

وسقوط القسطنطينية في يد العثمانيين

ذكرنا في كتاب « تاريخ مصر الى الفتح العثماني » أن قسطنطين الأكبر نقل عاصمة الدولة الرومانية الى مدينة « بوزنطة » على شواطئ البوسفور سنة ٣٣٠ م ،

* أى الدولة الرومانية الشرقية . سميت البوزنطية نسبة الى بوزنطة الاسم القديم لمدينة القسطنطينية . وتعرف أيضاً بالدولة « الاغريقية » لانطباع المسحة الاغريقية فيها قبل نقل العاصمة اليها بمدة طويلة

وأنها سُميت من ذلك الحين بالقسطنطينية منسوبة إليه . وفي سنة ٣٩٥ م تم تقسيم الدولة الى قسمين : الدولة الغربية ، وعاصمتها رومية ، والدولة الشرقية ، وعاصمتها القسطنطينية

فلم تعمّر الدولة الغربية طويلاً لكثرة غارات الأمم المتبربرة عليها ، اذ استولى عليها اقوط سنة ٤٧٦ م

أما الدولة الشرقية فلبثت نحو ١٠٠٠ سنة تمكنت فيها بفضل مناعة موقعها من رد غارات الأمم المتبربرة الأوربية من القوط والسلاف وغيرهم ، كما صدت غارات الفرس والعرب عن حاضرتها نفسها ، وعن معظم أوربا . ولكنها لم تستطع الدفاع عن أكثر أملاكها خارج أوربا : فقد رأينا كيف نزع العرب من يدها شرق آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ومصر وبرقة وافريقية وجزائر البحر الأبيض الشرقية

أنهكت كل هذه المكالجات قوى الدولة وقتت في عضدها ، إلى أن دخلت عليها عوامل فناء أخرى شديدة كان فيها القضاء على البقية الباقية منها . وهذه العوامل الجديدة ترجع الى ثلاثة حوادث عظيمة وهى : —

(١) غارة الصليبيين على القسطنطينية فى احدى حروبهم الصليبية التى شنوها على المسلمين ، وتأسيسهم دولة لاتينية بها استمرت نحو ٦٠ عاماً (٦٠٠ — ٦٦٠ هـ : ١٢٠٤ — ١٢٦١ م)

(٢) مهاجمة الترك لأملاكها من كل جانب

(٣) انتشار الوباء العظيم المعروف بالملوت الأسود

أما غارة الصليبيين على القسطنطينية فبيانها أن حملة صليبية كبيرة خرجت من ١٠ غارة اللاتين غربى أوربا سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٤ م) للاغارة على مصر (قلب الدولة الاسلامية فى ذلك الحين) ومرت الحملة فى طريقها على القسطنطينية ، فطمعت فى ثروتها العظيمة وأملاكها الشاسعة ، ورأى رجالها من ضعف الدولة الرومانية ما شجّعهم على ذلك . فذسوا غرضهم الأسمى ، واستولوا على القسطنطينية ، وأسسوا بها دولة تُعرف بالدولة

اللاتينية نسبةً الى لغتهم . وبَقُوا بها نحو ستين عاماً خربوا فيها كثيراً من البلاد ، ونهبوا معظم نفاثاتها القديمة ، ونقلوها الى بلادهم . ولم يُحدثوا في البلاد أى إصلاح أثناء اقامتهم بها ، لجهلهم بنظام الملك وادارة شؤون حكومة منتظمة مشيئة على أساس ممكن مثل حكومة الدولة الرومانية . وكانت البلاد في أيامهم (لاختلافهم في رأى وتناسفهم فيما بينهم) ميداناً للفتن والقلقل الدائمة . أما إمبراطور الروم فإنه انحاز الى آسيا الصغرى ، وجعل مقر ملكه في « نيقية » التي ما زالت حاضرة للروم حتى انتهزوا فرصة ضعف الصليبيين في سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) واستردوا القسطنطينية ، وأعادوا اليها مقر ملكهم

(١) نقص
ينايع الثروة

على أن الدولة لم تتخلص من كل ما لحقها من أذى هذه الحادثة ، فإن تشدَّت شملها أثناء حكم اللاتين كان قد ذهب برجلها الملمين بالقوانين وأنظمة الحكومة ، فلاقت صعوبة كبيرة في تشييد ما هدمه الصليبيون من جديد . وإن انتشار الفتن في البلاد هذه المدة حمل الكثيرين على المهاجرة من الأرض فباتت خراباً بلاقع بعد أن كانت من أخصب بقاع الدنيا ، واضطر أيضاً أصحاب المتاجر التي كانت تمر بين الشرق والغرب عن طريق البسفور الى تحويل متاجرهم الى جهات أخرى أكثر مأمناً وأقل اضطراباً

(ب) الفتن
الدينية

ثم لما رجع مقر الدولة الى القسطنطينية ، وحاول قيادتها إصلاح ما فسد منها ، وجدوا من المنازعات الدينية والاضطرابات الداخلية بين أهل الدولة أكبر عقبة في تحقيق أمنيته . فإنهم لما علموا أن الصليبيين عازمون على إعادة الكرة عليهم لجئوا الى التودد الى « البابا » ليدفعهم عنهم . فوعدهم هذا بمد يد المساعدة في ذلك ، وفي رد غارات الترك عن دولتهم ، اذا عملوا هم على توحيد الكنيستين : الشرقية بالقسطنطينية ، والغربية برومية ، واعتراف الأولى للبابا بالسيادة . فجداً القياصرة في ذلك ما استطاعوا وعزلوا من خالفهم فيه من البطارقة ، فكان ذلك سبباً في ظهور أحزاب متضادة : بعضها يؤيد البطريق ، وبعضها يعاضد الإمبراطور . وما زال الأمر كذلك

حتى تم توحيد الكنيستين في سنة ٨٤٣ هـ (١٤٣٩ م) عقب انعقاد مجلس ملي بايطاليا دعا البابا اليه القيصر وممثلي بطريرقية الاسكندرية . فثار غضب أهل القسطنطينية لذلك ، ولما رآه بعضهم بنفسه عند انعقاد المجلس من قلة نفوذ البابا بين دول أوربا الغربية وعدم مقدرته على مساعدة دولتهم بشيء ، وازداد حنقهم عند اعلان توحيد الكنيستين . ومن ذلك العهد استفحل خطب الفتن الدينية

على أن الفتن الداخلية في الدولة لم تكن قاصرة على الأمور الدينية ، بل كان (هـ) التنازع
على الملك
عرش الملك نفسه منشأ فتن مستمرة منذ عاد مقر الدولة الى القسطنطينية . فإن أول
إمبراطور انتزع هذه العاصمة من اللاتين (وهو ميخائيل الثامن) كان نفسه معتصباً
بالمُلك : اغتصبه من طفل كان وصياً عليه ، فأشعل الشرارة الأولى من نار المنازعة
في شأن العرش ، وبقيت هذه النار مستعرة حتى آخر أيام الدولة

وقد كان لغارة اللاتين على القسطنطينية ضرر آخر لا يقل عن جميع ما تقدم ، (و) غارات
شعوب البلقان
وذلك أن الشعوب القاطنة في البلقان بعد أن كانت خاضعة للدولة ، وملتزمةً بعضها
ببعض ، لعظم سلطانها وشدة بأسها ، وجدت من ضعف الدولة اللاتينية باعثاً على
استقلال كل منها بنفسها دون مراعاة لما يعود عليها من النفع من اتحادها . ثم
استطاع الشرّ بينها وصار بعضها يستعين بالأتراك وغيرهم على اقتناص ما تصل اليه
يده من أملاك الدولة . وبذلك كثرت غارات البلغار والصرب والمجر والتتار على
أملّاكها ، حتى صارت من اكبر العوامل على فنائها

وأما ثانی الأمور الأساسية التي أدت الى سقوط الدولة الرومانية الشرقية فهو ٢ . هجوم الترك
مهاجمة الترك لها من كل جانب بلا انقطاع : مُقتلين الكثير من سكان تلك الجهات ،
ومشردين الباقين أمامهم الى الفلوات والأطراف القاصية : مما خرب البلاد وذهب
بغالب أهلها

وزاد هذا النقص وبلاء عظيم انتشر في أوربانحو قرن من الزمان حتى أفنى ألوف
الألوف من أهلها : ذلك هو الوباء الهائل المعروف في التاريخ «بالموت الأسود» . ظهر

٣. الموت الاسود في شرق أوروبا عام ٧٤٧ هـ (١٣٤٧ م) ، ثم اطرَد الى باقى أنحاء القارة ، فكان أننى انتقل يفتك بالناس فتكاً ذريعاً ، حتى زادت نسبة من ماتوا به فى بعض الممالك على النصف^(١) وقد وجد هذا الوباء منبتاً خصباً له فى مدن الدولة الرومانية العاصمى بالسكان ، والتى لم تلقَ من حكومتها المشتغلة بالفن الدينى والقتال السياسى العناية اللازمة لاتخاذ التدابير الصحية التى تكفى لمقاومته أو لنقص فتكه ، حتى أصبح عدد سكان البلاد لا يكتفى لجمع الجيوش التى تقوم بالدفاع عن الدولة^(٢)

٣ — الدولة العثمانية فى أوج عظمتها *

(٨٥٧ — ٩٧٤ هـ : ١٤٥٣ — ١٥٦٦ م)

هكذا كانت حال الدولة الرومانية عندما جلس محمد الثانى على عرش آل عثمان ، فعمل فى الحال على تحقيق أمنية بيته ، وهى فتح القسطنطينية وجعلها مقراً له . فأعد لذلك جيشاً عظيماً سار به لفتح المدينة فى ربيع عام ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م)

شكّل المدينة

أما شكل المدينة فسهل التصوّر : إذ هى أشبه بمثلث متساوى الساقين محاط بالأسوار من كل جانب ، رأسه بارز شرقاً فى مياه البسفور ، والضلع الشمالى يحدها الميناء المسمى « القرن الذهبى » ، والضلع الجنوبيه يحدها بحر مرمرة . أما قاعدة هذا المثلث فهى الأسوار الغربية التى تفصل المدينة عن باقى القارة الأوربية

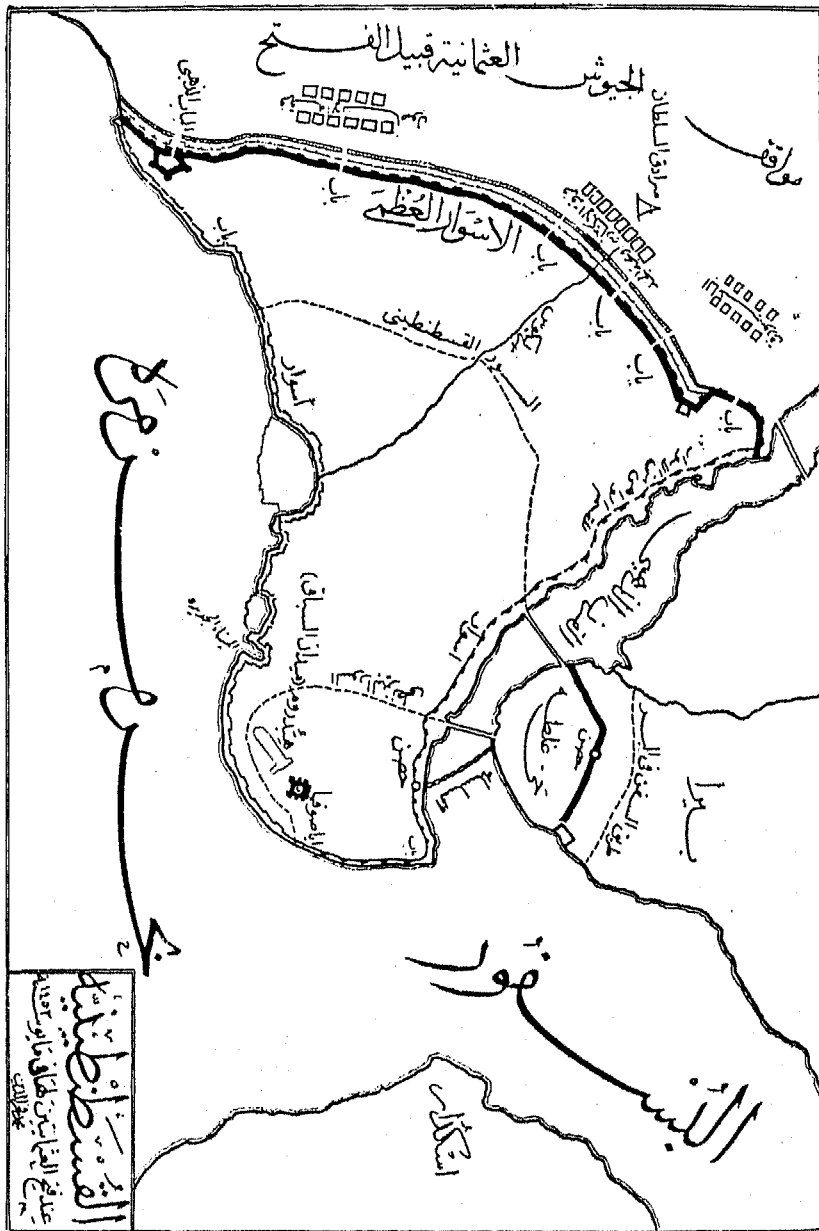
فبدأ السلطان بمهاجمة الأسوار الغربية ، وكانت تمتد من القرن الذهبى الى بحر مرمرة . ثم رأى على ضخامة مدافعه^(٣) أنه لا يستطيع التغلب عليها لمناعتها وعظم سمكها . فعمل على مهاجمة المدينة من أضعف جهاتها وهى الجهة المشرفة على القرن

مهاجمة المدينة

(١) كان عدد سكان إنجلترا فى ذلك الحين بين ٣,٠٠٠,٠٠٠ و ٤,٠٠٠,٠٠٠ ، فمات به أكثر من نصفهم

(٢) لم يفتك الوباء بالترك فتكا ذريعاً ، ولعل السبب الأول فى ذلك راجع الى اقامتهم فى الخلوات

(٣) قيل انها كانت أضخم مدافع عرفت الى ذلك العهد ، وكانت تقذف نحو ١٢ قنطاراً من الحجر على مسافة ميل



الذهبي . وكان الروم قد احتاطوا لذلك ، ومدّوا سلسلة عظيمة على مدخل القرن الذهبي ، حتى لا تدخله سفن الأعداء لتهاجم الأسوار من تلك الجهة . فلم يثنِ ذلك من عزم العثمانيين ، واحتالوا على نقل سفنهم الى القرن الذهبي بطريقة صعبة لا تزال

من أعجب ما حدث في التاريخ : وذلك انهم مهدوا طريقاً برياً بين البسفور والقرن الذهبي يبلغ طوله نحو الفرسخين ، ووضعوا عليه عوارض ضخمة من الخشب تندرج عليها اسطوانات طويلة من الخشب ايضاً (بكر) ، وسيروا فوقها ٨٠ سفينة صغيرة من أسطولهم الذي كان بالبسفور . فجرت عليها السفن والريج تدفع في شرايعها كأنها تجري على الماء ، حتى بلغت القرن الذهبي ، فنزلت فيه بلا عناء . وكان السلطان محمد أثناء نقل هذا الأسطول يضال حامية المدينة بالإلحاح على ضربها بالمدافع من باقي الجهات الأخرى . وعندئذ اشتركت السفن والجيش البري في ضرب الأسوار ، فلم تقو على احتمال هذه النيران . وحمل العثمانيون على المدينة حملة صادقة ، فدخلوها بعد قتال عنيف قُتل فيه امبراطور الروم « قسطنطين باليولوغوس » . وكان ذلك في أواخر عام ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) ، وبه سقطت دولة الروم الشرقية

فتح المدينة

ودخل السلطان محمد عاصمته الجديدة في موكب حافل ، وسارتوا الى كنيسة « أياصوفيا » ، فصلى فيها ظهر ذلك اليوم وبقيت مسجداً إسلامياً الى الآن . وهذا البناء من أجل آثار دولة الروم الشرقية ، ومن أحسن النماذج لفن المباني البوزنطية استولى السلطان محمد الفاتح على عاصمة الروم وهو لا يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، فلم تقف فتوحه عند ذلك ، ولم يابث أن تم له إخضاع معظم « المورة » و « الصرب » و « البوسنة » . وأراد الإغارة على ايطاليا وألبانيا ، فخل دونها وقوف « أسكندر بك الألباني » و « هونياد المجري » في طريقه اليهما

فتوح محمد الثاني
الأخرى

اسكندر بك

وذلك أن أولهما كان أول أمره في خدمة مراد الثاني ، ثم نصّبه والياً على ألبانيا (موطنه الأصلي) ، فخرج على الدولة وأراد أن يستقل بألبانيا . وساعدته طبيعة تلك البلاد الجبلية على صد الجند العثمانية سنة بعد أخرى ، فلم يقدّر للسلطان إخضاع ألبانيا إلا بعد عشرين عاماً ، أي بعد وفاة أسكندر بك في عام ٨٧١ هـ (١٤٦٧ م) . ولم يعيش محمد الثاني لتحقيق أمنيته في ايطاليا

أما « هونياد » فانه وقف للسلطان في « بلغراد » عام ٨٦٠ هـ (١٤٥٦ م)



جامع اياصوفيا

عند ما أراد الإغارة على المجر وألبانيا ، وهزمه هزيمة كبيرة اضطرته الى الرجوع عن تلك المدينة بعد أن خسر من جيوشه نحو ٢٥,٠٠٠ مقاتل ، فانصرف عن تلك البلاد الشمالية



محمد الفاتح

(رسم على افندى يوسف)

على أن صدّ جيوشه في هذين الموضعين لم يمنعه من مواصلة فتوحه في الجهات الأخرى . فاستولى في آسيا على « طَرَبِزُون » (أَطْرَابَرْزَنْدَة) من بقية أملاك الروم ، وأخضع إمارة « القَرَمَان » التركية إخضاعاً نهائياً . وفي سنة ٨٧٩ هـ (١٤٧٥ م) دانت له بلاد « القَرَم » فبقيت خاضعة للدولة نحو ثلاثة قرون من الزمان . ثم كان

عاقبة تغلبه على ألبانيا أن أزال أكبر عقبة في سبيل توسيع أملاكه من الغرب . فتوغل في أملاك البندقية توغلاً فزع منه البنادقة ، ولم يسعهم إلا أن عقدوا معه محالفة لتسلم لهم مدينتهم ، سنة ٨٨٢ هـ (١٤٧٧ م)

أما إيطاليا فلم يبرح أمرها قط من ذهن محمد الثاني . وكان جل أمانيه فتحها ورفع لواء الاسلام على رومية في الغرب ، كما رفعه على القسطنطينية في الشرق

محاولة
فتح إيطاليا

ورأى أن يمهّد الطريق لذلك بانتزاع جزيرة « رودس » من أيدي « فرسان القديس يوحنا » ، فسير عليهم أسطولاً عظيماً ، وضيق الحصار على جزيرتهم ثلاثة أشهر ، ولكنّه لم يقو عليهم ، وفترت همه جنود الانكشارية لعماً علموا أن السلطان منع استيلاءهم على شيء من غنائم الجزيرة . فاضطر محمد الى فض الحصار ، وأبرم مع الفرسان صلحاً عام ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م)

فرسان
القديس يوحنا

ثم عاد فوجّه همه لفتح إيطاليا ، فأرسل جيشاً استولى على مدينة « أثينز » سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م)

وكان في العام التالي يشتغل بإعداد حملة عظيمة لإتمام فتح تلك البلاد ، فمات فجأة عام ٨٨٦ هـ (١٤٨١ م) . وبموته انصرف العثمانيون عن هذه الجهة . وفي أيام خلفه أخلى العثمانيون « أنرانتو » ذاتها ، ولم يحتلوا بعدها شيئاً من الأراضي الإيطالية ثم خلفه أبنته « بايزيد الثاني » (٨٨٦ — ٩١٨ هـ : ١٤٨١ — ١٥١٢ م) ،

بايزيد الثاني

فكان أضعف سلاطين آل عثمان الى ذلك الوقت . ولم يكد يجلس على العرش حتى خرج عليه أخوه الأصغر « جم » مطالباً بالملك ، وكان قوى البأس ، فلاقى بايزيد صعوبة كبيرة في مكافحته ، الى أن اضطره الى الفرار الى مصر . وكان بايزيد محباً للسلم ، لا يدخل الحروب إلا مدافعاً ، ولم يزد في أملاك الدولة إلا بضعة مدن في مورة . وقد علمنا ما كان من أمره مع مماليك مصر وانتصارهم على جيوشه في الشام . على أن قوة الأسطول عظمت في عهده ، وصارت من ذلك الحين موضع خطر على الممالك الأوربية ، فلم يلبث أن اشتبك مع أسطول البنادقة في موقعة هائلة

هى فاتحة الانتصارات البحرية العثمانية على ممالك البحر الأبيض . وكانت جنود الانكشارية لا يعجبهم انكماش بايزيد وضعفه ، فالتفوا حول أصغر أولاده « سليم » ، وأرغموا بايزيد على التنازل عن العرش سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م)

فتولى السلطان « سليم الأول » (٩١٨ — ٩٢٦ هـ : ١٥١٢ — ١٥٢٠ م) ، فكان سليم الأول من أعظم سلاطين العثمانيين وأكثرهم انتصاراً وفتحاً . وكان مجيداً لقيادة الجيوش والسياسة ، كثير الاطلاع ، ولوعاً بالأدب ، إلا أن شيئاً يخالطه من القسوة والميل الى سفك الدماء . وقد قيل إنه قتل من أقاربه وعمّاله ما لم يقتله أحد قبله ولا بعده من ملوك آل عثمان . ورأى السلطان سليم أن يقف فتوح الدولة فى أوربا فترة ، وأن يستعيض عن ذلك بالاستيلاء على شىء من ممالك الشرق النفيسة

فبدأ بدولة فارس . وكان على عرشها حينئذٍ الشاه اسماعيل الصفوى ، وكان قد غزو فارس ذاع صيته بفتوحه العظيمة فى المشرق ، وأصبح لا يبالى بنشر مذهب الشيعة (الذى يفتته العثمانيون) فى آسيا الصغرى ، ويحرّض أمراء تلك الجهة على الخروج على العثمانيين . فعزم السلطان سليم على غزو فارس ، وعجّل ذلك إيواء الشاه اسماعيل لابن أخى سليم ، الفار من وجهه

ففى سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) خرج السلطان سليم بجيش عظيم يريد غزو الفرس ، ماراً فى طريقه على « ديار بكر » و « كُردستان » ، فتراجع الفرس الى داخل بلادهم وخرّبوا كل ما فى طريق الترك من المرافق ، كي تضمحل جيوشهم جوعاً وتعباً . ولما التقى الفريقان فى وادى « جلديران » قرب « تبريز » كانت الجنود العثمانية فى شدة التعب ، إلا أن الفرس لم يقوّوا على مقاومة قوة الانكشارية ، والمدافع العثمانية ، فانهمزوا شر هزيمة . فدخل السلطان سليم « تبريز » (حاضرة الفرس فى ذلك الوقت) وأمر بإرسال ألف من أمر صناعها الى القسطنطينية . ثم اضطر بعد أيام الى الانصراف الى بلاده ، لتمرّد جنود الانكشارية عليه . وكانت نتيجة تلك الحرب استيلاء العثمانيين على « ديار بكر » و « كردستان »

وبعد عامين (٩٢٢ هـ : ١٥١٦ م) خرج السلطان سليم لفتح مصر ، ففتحها
وتأثيره في الدولة
كما أوضحنا في غير هذا المكان . وجنى بيت آل عثمان من فتح مصر فائدة لم يجنها
من فتح غيرها من البلدان ، إذ أنه بتنازل الخليفة العباسي بمصر عن الخلافة للسلطان
سليم الأول سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) صار له ولسلاطين آل عثمان من بعده زعامة
على العالم الإسلامي لم تكن لهم من قبل . وكان السلطان سليم يتأهب بعد ذلك لفتح
« رودس » ، فمات قبل أن يتم عمله ، بعد ثمانية أعوام من حكمه

سليمان القانوني فتولى ابنه السلطان «سليمان القانوني» (٩٢٦ — ٩٧٤ هـ : ١٥٢٠ — ١٥٦٦ م) ،

وهو أعظم سلاطين آل عثمان ، وعصره أزهر عصر في تاريخهم ، إذ كانت للدولة
في أيامه مكانة لم تحزها قبله أو بعده . صادفت أيامه تلك النهضة العلمية العظيمة التي
انتشرت في أنحاء أوروبا في القرن السادس عشر من الميلاد المسيحي وحدثت بالغربيين
إلى تلك الاستكشافات العلمية والجغرافية (التي أسست عليها المدنية الحديثة والتي
كانت سائرة حينئذ بسرعة لم يسبق لها مثيل) ، فلم يقتصر العثمانيون على السير
بجانبيهم في ذلك المضمار ، بل فاقوهم فيه في عدة أمور ولا سيما الفنون الحربية . ولم
يكن بين ملوك أوروبا في عصر سليمان من يفوقه غزواً أو سياسةً أو إدارة

فتح بلغراد أما فتوح سليمان فلم تكن بأقل من فتوح سليم أو محمد الفاتح ، إذ تم له في العامين

الأولين من حكمه ما استعصى عليهما قبله : ففي سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م) استولى
على « بلغراد » ، وفي قابل فتح « رودس » ، انتزعها من فرسان القديس يوحنا
بعد حصار أظهر فيه من الكفاءة والدراية بالعلوم الحربية ما عظم به شأن الدولة في
أعين الأوربيين

غزو المجر على أن معظم غزوات سليمان كانت موجهة إلى الغرب للتغلب على النمساوالمجر ،

ولا سيما الأخيرة التي طالما وقفت في وجه العثمانيين ومنعتهم من الزحف في أوروبا إلى
ما وراء الصرب والبوسنة . ففي سنة ٩٣٢ هـ (١٥٢٦ م) غزا بلاد المجر ، فلما التقى
بجيشهم في موقعة « موهاكر » الفاصلة لم يثبت جيش المجر أكثر من ساعة واحدة

قُتِلَ فيها ملكهم «لويس الثانى» وكثير من الأمراء، وفتح السلطان معظم المدن والقلاع التى بالأقاليم الجنوبية. ثم ولّى على البلاد ملكاً من أهلها وهو «جان زابولى»، وغادرها. ومعه أكثر من مائة ألف أسير

وبعد خروجه من البلاد أغار عليها «فردنند» ملك النمسا، واستولى على مدينة «بودا»، وخلع الأمير الذى نصبه سليمان. فاستغاث الأمير بالسلطان، فخرج فى جيش عظيم مؤلف من ٢٥٠,٠٠٠ مقاتل و ٣٠٠ مدفع، فاسترد «بودا» وأعاد «زابولى» الى عرشه. ثم اتخذ عمل «فردنند» ذريعة للإغارة على النمسا، فسار نحو «ويانا» (فيينا). وكان فصل الشتاء قد أقبل وكثر المطر، فاضطر العثمانيون لترك مدافعهم الضخمة بالمجر. فلما وصل سليمان الى «ويانا» ألقى عليها الحصار عشرين يوماً سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٩ م)، ثم وجد أن الجو وقلة المدافع يحولان دون الاستيلاء على المدينة، فرجع عنها. وكان هذا أول نزال فشِلَ فيه، فلم ينسهِ طول حياته وبقي الحرب الى سنة ٩٤٠ هـ (١٥٣٣ م)، فتمّ الصلح على تقسيم بلاد المجر بين زابولى وفردنند. ولما مات الأول عام ٩٤٦ هـ (١٥٣٩ م) أغار فردنند على البلاد جميعها، فغزا السلطان سليمان بلاد المجر كرّة أخرى. وكان هذه المرة يترك حاميةً فى كل مدينة يفتتحها، لجعلها من الأملاك العثمانية. ثم تمّ الصلح بين الفريقين، فاعترف فردنند للسلطان بسيادته على المجر وترانسيلوانيا، وتعهد أن يدفع له جزية سنوية. وربما كان خذلانه أكبر لو لم يُشغل سليمان عن تلك الجهات بحروبه مع فارس وغيرها من بلاد المشرق. ومما فتحه السلطان فى المشرق جزء كبير من أرمينية وأرض الجزيرة والعراق وفيه مدينة بغداد العظيمة

وفى عصر هذا السلطان تقدمت البحرية العثمانية تقدماً عظيماً حتى صارت تهاجم الأمم فى جميع البحار، من البحر الأبيض فالبحر الأحمر، الى المحيط الهندى. وظهر فى الدولة إذ ذاك من مهرة الملاحين وأمراء البحر من تفتخرو بهم أعظم دولة بحرية. وفى مقدمتهم «أسرة بربروس» الشهيرة، ورأسها «خير الدين بربروس»

القوة البحرية

أكبر قواد أوربا البحرية في عصره . وُلد في جزيرة « لِسنبُوس » ، ثم اتخذ هو وأخوه قطع طريق البحر مهنةً لهما ، وكانت منتشرة وقتئذٍ في البحر الأبيض المتوسط
البحر الأبيض

ثم عظم شأنه في هذه المهنة وصارت له سطوة عظيمة ، واستولى على كثير من ثغور شمالي إفريقيا ، إلى أن صار صاحب الكلمة العليا في بلاد الجزائر . وعند ذلك

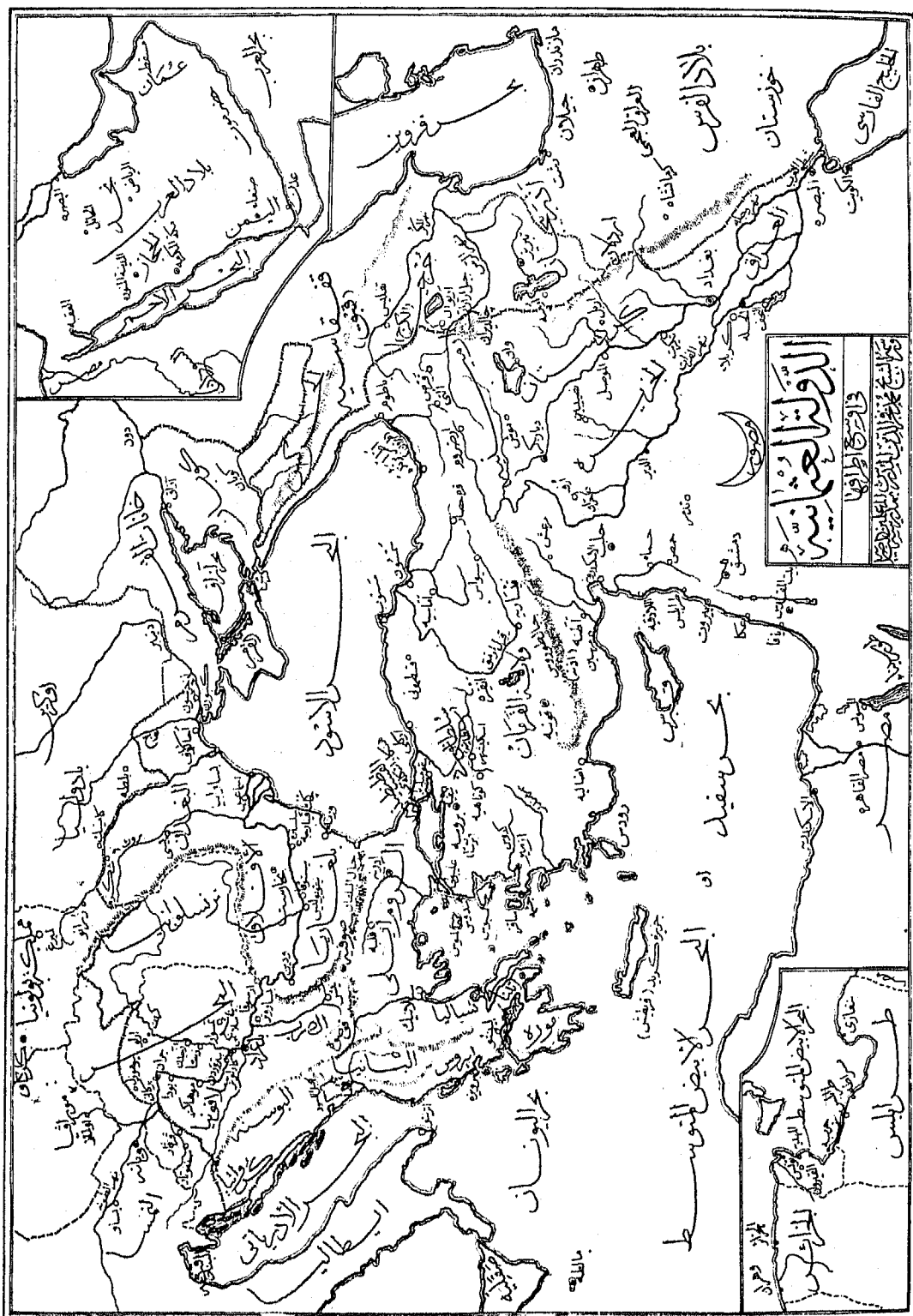
قدّم ولاءه للباب العالي ، فنصّبهُ السلطان سليم الأول حاكماً عاماً للجزائر سنة ٩٢٦هـ
خير الدين
بربروس

(١٥١٩ م) ، وأجزل له العطاء ، وأمدّه بألفي جندي من الانكشارية . وفي سنة ٩٤١هـ

(١٥٣٣ م) اختاره السلطان سليمان قائداً للأسطول العثماني الذي سيّره لمحاربة
أساطيل « شارل الخامس » « شَرَلْكان » ملك اسبانيا ، وكانت بقيادة « أندرِيادُورِيَا »
الحرب في تونس الجنوِيّ ، فقهره « بربروس » ، وانقضّ على سواحل إيطاليا ، فسلم ونهب منها
شيئاً كثيراً . ثم ولى وجهته شَطْر تونس يريد الاستيلاء عليها . وكان يحكمها وقتئذٍ
أحد ملوك الدولة الحفصية من بقايا الموحدين ، فلعجأ إلى شارل الخامس المذكور ،
فذهب شارل بنفسه إلى إفريقيا في جيش عظيم ، فلم يقدر بربروس على مقاومته ،
وانجلى عن المدينة . ثم وقع خصام بين الدولة والبندقية لاعتداء بعض لصوص البحر
من البنادقة على سفير الدولة في وقت السلم ، فخرج « بربروس » إلى البحر الأذرياتي
للاتقام من البندقية ، فاستغاثت البابا وشارل الخامس . فساعدوها بأسطوليهما ،
ولكن بربروس هزم الأساطيل الثلاثة في موقعة « بَرِيوزَة » سنة ٩٤٥هـ (١٥٣٨ م)
وقد حط ذلك كثيراً من شأن البنادقة

وفي عام ٩٤٨هـ (١٥٤١ م) أغار « شارلكان » على بلاد الجزائر ، فصده
بربروس ، وساعده الحظ بأن عصفت الرياح على سفن شارلكان فطمّتها . وبقى
بربروس مصدر الرعب والفرع في البحر الأبيض ، إلى أن أرسله سليمان القانوني
عام ٩٥٠هـ (١٥٤٣ م) لمساعدة حليفه ملك فرنسا في الإغارة على الأملاك الإسبانية .
فاستولى بربروس على « نيس » ، وبقى بفرنسا إلى أن خشى بأسه الفرنسيون
أنفسهم ، وأجزلوا له العطايا والهدايا ، حتى جلا عن بلادهم وذهب إلى الأستانة حيث
قضى بقية أيامه في هدوء متقلداً منصب قبودان باشا

الحرب
في الجزائر





سليمان القانوني

(رسم على افندي يوسف)

ومن أعظم أفراد هذا العصر أيضاً « بيري ريس » و « سيدي علي » ، وكانت
لها اليد الطولى في بسط نفوذ الدولة على شواطئ بلاد العرب وفارس والهند
ومنهم « بيالة باشا » ، فإنه حارب القائد الجنوبي « دوريا » وانتصر على أساطيله
انتصاراً مبيناً عند جزيرة « جربة » من أعمال تونس عام ٩٦٧ هـ (١٥٦٠ م)
ومن أشد رجال هذا العصر بأساً « دراغوت » (طرغود) : كان مثل بربروس
في أول أمره مشغولاً بقطع الطريق في البحر ، ولما علم بربروس بما له من الصيت

بيري ريس
وسيدي علي

بيالة باشا

طرغود

الهائل في ذلك ضمة اليه ونصبه وكيلاً له . ومن ذلك العهد أخذ يبدى من المهارة البحرية ما جعله أكبر قواد عصره ، وانتصر على « دوريا » في عدة مواقع . ومن أهم أعماله أنه فتح مدينة « المهديّة » عاصمة بلاد تونس في ذلك الوقت على أن الأساطيل العثمانية على قوتها وشدة بأسها لم تقدر على التغلب على « فرسان القديس يوحنا » أصحاب جزيرة مالطة . وكانت هذه الجزيرة قد أعطاهها لهم الامبراطور شارل الخامس عند ما طردهم العثمانيون من جزيرة « رودس » سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) ، فبقوا محافظين على مالطة من ذلك العهد ، وصدّوا عنها العثمانيين مراراً . وفي أواخر أيام سليمان أرسلت الدولة إليها أسطولاً عظيماً سنة ٩٧٣ هـ (١٥٦٥ م) بقيادة مصطفى باشا بيالة ودراغوت ، فحاصروها أربعة أشهر ثم اضطروا للجلء عنها بعد قتال عنيف ، وذلك لما أبداه فرسان القديس يوحنا من الشجاعة والصبر . ولم يبق من حاميتها بعد هذا الحصار الآسمائة فارس ، بعد أن كان بها تسعة آلاف !

فرسان
القديس يوحنا
وحصار مالطة

ومات السلطان سليمان عام ٩٧٤ هـ (١٥٦٦ م) أثناء غارته الأخيرة على المجر ، وكانت سنه اذ ذاك ستاً وسبعين سنة

٤ -- * ابتداء اضمحلال الدولة العثمانية *

(٩٧٤ — ١٠٤٩ هـ : ١٥٦٦ — ١٦٤٠ م)

أجمع المؤرخون على أن عصر سليمان الأكبر هو العصر الذي بلغت فيه الدولة العثمانية أقصى مجدها وعظمتها : ففي مدة ثلاثة قرون كسّيت قبيلة آل عثمان الصغيرة أن تبسط سلطانها ونفوذاها على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر . وتمت فتوحها من مكة المكرمة الى بودا من جهة ، ومن بغداد الى الجزائر من جهة أخرى . فكان كل سن الشاطئين الشمالى والجنوبى للبحر الأسود فى قبضة يدهم ، وجزء عظيم من مملكة النمسا والمجر الحالية يعترف بسلطانهم . وقد دان اسلاطنتهم أيضاً

أقصى اطراف
الدولة

شمالى إفريقيا ، من أطراف بلاد الشام الى حدود بلاد مراكش
وبعد موت سليمان ابتدأت الدولة فى الانحطاط المستمر ، اللهم الا فترات كانت اسباب انحطاط
الدولة تتمتع فيها وتظهر بعض مجدها العسكرى القديم . وترجع أسباب الانحطاط الى عوامل
خارجية وأخرى داخلية : فان نمو الأمة الروسية ، وظهور طائفة من أكابر القوادى فى
المجر وبولندة والنمسا ، لمن أهم الأسباب الخارجية التى أفضت الى اضمحلال الدولة
التركية ، وأدت الى انتقاصها الى مساحتها الحالية

ثم كانت ثمة جرائم داخلية تفت فى عظام الدولة ، وتثقل عرش مجدها وعظمتها
الأيكلىن . اذ أن حكم ولايات الدولة العثمانية المختلفة الأديان والمذاهب والأجناس ،
وحفظ نفوذها فيها ، يحتاجان الى نشاط وحكمة يفوقان مثلها فى إدارة شؤون الدول (١) اختلاف
الأديان
والأجناس
الأخرى المؤلفة غالباً من عنصر واحد ودين واحد ، لأن نفوذ الاتراك المستمد من
القوة العسكرية ، والذى يتحكمون به فى رقاب كثير من الشعوب الأجنبية المختلفة فى
كل شىء لم يكن ليدوم طويلاً الا بعناية خاصة بإعداد الجيش لكل طارئ فجائى من
جهة ، وبإرضاء تلك الشعوب المختلفة والتوفيق بينها واكتساب احترامها للدولة ،
من جهة أخرى

وذلك ما لم يتهيا للحكومة العثمانية بعد سليمان ، لأنها لم تُعز كل هذه الأمور شيئاً (٢) ضعف
السلطين
من الالتفات ، اذ بعد أن نهض الملوك السالفون من آل عثمان بالدولة الى ذروة مجدها
بما أنووه من الذكاء والحدق ، خَلَفَ من بعدهم خلفٌ أضاع تلك الأملاك الشاسعة
التي نالها أجداده بحدّ السيف وحافظوا على كيانها بحسن إدارتهم . ولم يكن لهؤلاء
السلطين الضعفاء هم الا الانغماس فى اللذات ، غير مكترئين بتضعضع ملكهم

فلما أصبح الجنود بلا سلطان شجاع يقودهم الى ساحة الوغى ، وسقطت هبة (٣) فساد
الجيش
السلطين من أعينهم ، أخذوا يشعرون بما لهم من الحول والقوة ، وابتدءوا يعزلون
ويؤلّون من السلطين من يشاءون ، مُبْتَرِزِينَ الأموال الكثيرة والأعطية الجزيلة من
كل سلطان يقيمونه على العرش . فأدّى استئثارهم بالسلطة الواسعة التى كانوا يستعملونها

حسب أهوائهم الى الانغماس فى الترف والفساد ، ففقد جنود الإنكشارية منهم بالتدريج ما كان لهم من الصفات الحربية القديمة ، وأصبحوا لا يوثق بهم فى ساحة القتال . فكان ما يُبذل لهم من العطايا عند تولّى كل سلطان ، تفوق قيمته فى أعينهم أعظم انتصار لهم فى ساحة القتال

(٤) عدم ادخال الاصلاحات الحديثة
هذا إلى أن الجيش لم يدخل فيه من الاصلاحات ما يجارى به جيوش الممالك الأوروبية الأخرى من استخدام آلات القتال الجديدة والتفنن فى الطرق الحربية التى كانت آخذة فى التحسن عندهم

على أن أعظم نقص ظير فى الجيش كان فى قواده وضباطه : فلم تكن ترقية (هـ) الرشوة القواد بحسب الكفاية الشخصية . بل بحسب ما يبذلونه من الرشوة لولاة الأمور وبطانة السلطان

وليس غرضنا هنا أن نذكر بالتفصيل حوادث انحطاط الدولة وتدهورها التى هى فى الجملة عبارة عن سلسلة هزائم يتخللها بعض انتصارات وعدة معاهدات صلح تخسر الدولة فى كل منها شيئاً من أملاكها ، ثم سير ملوك وحكام ضعفاء منهمكين فى الشهوات ، عُمي البصيرة ، إلا نفراً قليلاً نهضوا بالدولة فترات يسيرة . وانما غاية ما نستطيعه هنا هو أن نذكر بالإيجاز أهم الحوادث التى من أجلها انكشفت الدولة التركية وأصبحت فى حجمها الحالى :

سليم الثانى
بعد سليمان الأكبر تولى الملك ابنه « سليم الثانى » (٩٧٤ — ٩٨٢ هـ : ١٥٦٦ — ١٥٧٤ م) وكان ضعيفاً لاهياً سيكّيراً ، ولذلك لُقّب بالجنون
الانحطاط تدريجى
ولكن النظام الباهر الذى وضع أساسه سليمان ورجال دولته لم يتلاش دفعة واحدة على يد خلفه ، إذ كان كثير من عمّال سليمان لا يزالون بعد أحياء : يدبّ فى نفوسهم ذلك الروح العظيم الذى بثّه فيها مولاهم . ونخص بالذكر منهم وزيره « صُقلُ محمد » الذى لم يأل جهداً فى حكم البلاد على طريقة سيده ، فكان من أعماله أنه أمر « سينان باشا » فأخضع بلاد العرب عام ٩٧٨ هـ (١٥٧٠ م)

وبعد ذلك ابتدأ فتح جزيرة « قبرس » وانتزاعها من يد البنادقة ، وقام بأمر
هذه الحملة « لالا مصطفى » أحد نظراء « صقلي » . وقد كلف فتح هذه الجزيرة
الدولة خمسين ألف مقاتل ، أخفَظَتْ مصارعُهم قائدَهم مصطفى ، فلم يشتف لهم في
ساعة النصر إلاّ بالانتقام من قائد حامية الجزيرة شر انتقام ، إذ سلخ جلده حياً
وبهذا الفتح قويت شوكة العثمانيين في البحر ، إلاّ أن ذلك لم يدم طويلاً ،
حتى اتحدت عليهم اسبانيا والبابا والبندقية وغيرها (واشترك معهم فرسان القديس يوحنا)
في مايو سنة ٩٧٩ هـ (١٥٧١ م) . وكان غرض البندقية من هذا الاتحاد استرداد
جزيرة قبرس فقط ، غير أن « فليب » ملك اسبانيا أبى إلاّ أن يجعله تحالفاً عاماً ، فتم
الاتفاق على أن تكون أسبانيا والبابا والبندقية ، متحدة جميعاً على مغاربة تونس
وطرابلس والجزائر والترك ، وأن تحمى كل منها أملاك الأخرى ، وألاّ تعقد احداهن
صلحاً على انفراد ، وأن تعين كل من دول التحالف قائداً لأسطولها ، وأن تُوكَل
القيادة العامة الى « دون جون » النمساوى

ظهر أسطول الحلفاء في ١٦ سبتمبر سنة ١٥٧١ في مياه « مسيني » ، ولما وصل
الى « كُرفو » بلغه أن الأسطول العثماني في خليج « لينتو » . وفي سابع أكتوبر
كان الأسطولان على مقربة بعضهما من بعض في هذا الخليج . وكان أسطول الحلفاء
يشمل ٢٦٤ سفينة ذات حجوم مختلفة بعضهما مسلح بأضخم المدافع ، تحمل ٢٦,٠٠٠
جندي و ٥٠,٠٠٠ مجذّف وبحرى . أما الأسطول التركي فكان يحتوى على ٣٠٠
سفينة ، وما لا يقل عن ١٢٠,٠٠٠ جندي ومجذّف . وكان غرض أمير البحر
التركي (بيالة باشا) في الموقعة التي نشبت أن يشتّت جناحى اسطول خصمه ، غير
أن هذه الحركة لم تُفلح ، لأن « بربريجو » قائد سفن البندقية في الجناح الأيسر
و « أندرىا دوريا » في الجناح الأيمن احتميا بالشاطئ ، وبعد ذلك نشبت معركة
عنيفة خسر فيها الحلفاء خسارة عظيمة . غير أن البنادقة تمكنوا أخيراً من صد
عدوهم بعد جرح قائدهم « بربريجو » جرحاً مميتاً ، وقتل القائد التركي محمود

انتزاع قبرس
من البنادقة

الاتحاد على
الدولة

« سيركو » (شلوك) الذى كان يهاجمه . وفى غضون ذلك كان قلب الأسطول بقيادة « دون جون » منتصراً بعد كفاح شديد أشبه بالحرب البرية منه بالحرب البحرية . قُتل فيه القائد التركى « بيالة باشا » وسلم معظم المراكب التركية أو حُطِم . أما « على الألوج » (داي الجزائر) الذى كان متغلباً على ما أمامه من سفن « جنوة » فإنه لما رأى ما حلّ بالترك ولّى هارباً ، فتم بذلك النصر للمسيحيين

تأثير الموقعة

ويمكن معرفة ما لهذه الموقعة التى لم تستغرق أكثر من أربع ساعات من الأهمية اذا علمنا أن الترك لم تكن هُزمت فى البحار الى ذلك اليوم . أما الخسائر فلا يمكن تقديرها بالتحقيق ، غير أنه من المؤكد ان خسائر الترك كانت ضعفى خسائر الحلفاء ، وأن ما نجا من سفنهم لم يتجاوز الخمسين

وكان المنتظر بعد هذه الهزيمة المنكرة أن تفقد الدولة سيادتها على البحار . إلا أن ذلك لم يكن ، وغاية ما أثرت أنها برهنت لدول أوربا أنه يمكن التغلب على الترك . أما تأثيرها فى سيادة الترك فى البحر الأبيض خاصة فكان ضئيلاً جداً ، إذ أنهم بعد الهزيمة بمدة وجيزة أنشئوا لهم أسطولاً بلغ عدد سفنه ٢٥٠ . ومما يبرهن على قلة تأثيرها أيضاً أن البندقية نقضت عهدها مع حليفتها ، وطلبت الى الباب العالى أن يعقد معها صلحاً على انفراد ، وقبلت أن تبقى قبرس فى قبضة الباب العالى ، وان تدفع له الثمن الذى كلفه فتحها أيام

مسألة البندقية

بقيت بعد ذلك الدولة ربع قرن فى مُسألة مع البندقية ، وذلك لا يرجع الى تأثير المعاهدة فقط ، بل الى تأثير نفوذ بعض أزواج السلطان . إذ لما تولى مراد الثالث (٩٨٢ — ١٠٠٣ هـ : ١٥٧٤ — ١٥٩٥ م) الملك بعد موت أبيه سليم الثانى (وكان ضعيفاً) ترك مناصب الدولة تُباع لمن يدفع فيها أكبر قيمة . وكان طوع ارادة نساؤه وخاصة حظيته « صفية » ، وأصلها من سبى البندقية ، فتسلطت عليه فى مصلحة وطنها

ولما مات هذا السلطان خلفه ابنها محمد الثالث (١٠٠٣ — ١٠١٢ هـ :

١٥٩٥ — ١٦٠٣ م)، وهو واحد من أبناء مراد الثالث البالغ عددهم ١٠٢ . وقد قتل منهم محمد هذا ثمانية عشر عند توليته عرش الخلافة . ولم تضعف في أيامه سلطة « صفية » ، وبقيت هي صاحبة النفوذ والسلطان

سيكالا وكان أكبر مساعد لها في هذه المدة « سيكالا » ، وهو من عنصر جنوى : تزوج بأحدى حفيدات سليمان الأكبر ، وارتقى في الجيش العثماني بما كان له من الذكاء والحظوة . ولقد أدى خدمة عظيمة للترك في عام ١٠٠٤ هـ (١٥٩٦ م) ، وذلك انه بعد أن حارب الترك جنود النمسا وترنسلوانيا واستولوا على « إرنلو » : قضوا في مكائحتهم في سهل « كيرزت » ثلاثة أيام بانت الهزيمة بعدها في الترك ، وفكر السلطان مرتين في الحرب ، فحمل سيكالا على جيوش الأعداء ، وشدت شملها وأفنى من رجالها خمسين ألفاً

على ان هذا النصر لم يخلص الدولة من الثورات العسكرية والحروب الخارجية ، ابتداء ظهور النمسا على الدولة وما كانت تشعر به البلاد من الاستياء العام . وأوضح دليل على وهن نفوذها ان النمسا حينما عقدت معها صلحاً في عهد السلطان أحمد الأول (١٠١٢ - ١٠٢٦ هـ : ١٦٠٣ - ١٦١٧ م) وكان يناهز الرابعة عشرة من عمره ، لم تعاملها إلا معاملة النظير للنظير ، لا الضعيف للقوى ، ومنعت ما كان مفروضاً عليها من الجزية السنوية ثم سادت السكينة في الأصقاع التركية الشمالية لأن يدي امبراطور النمسا كانتا مغلولتين في حرب الثلاثين سنة ،^٢ وكان من مصلحته أن يكون على وفاق تام مع الترك ، على حين ان الدولة نفسها لم ترَ فائدة من مهاجمته لأنها كانت إذ ذاك قد استرجعت كل فتوحها

وفي سنة ١٠٣٢ هـ تولى السلطان « مراد الرابع » أريكة الملك (١٠٣٢ - مراد الرابع ١٠٤٩ هـ : ١٦٢٣ - ١٦٤٠ م) ، وكان شديد البأس ، ولوعاً بالحرب . إلا أنه رأى أن يُبرم عقد صلح من جديد مع امبراطور النمسا ليضمن به بقاء السكينة والهدوء

* حرب دارت بين كثير من دول أوروبا من سنة ١٦١٨ الى ١٦٤٨ م . وأصلها أسباب دينية

في أجزاء الدولة الشمالية مدة النصف الأول من القرن السابع عشر ، حتى يتمكن من توجيه كل قواه الى الفرس

الحرب
مع الفرس

كان مراد الرابع آخر ملوك آل عثمان الحربيين . وأول حرب أثارها كانت على مملكة فارس ، وسببها انه في مدة مراد الثالث قامت حرب مع الشاه كان النصر فيها حليف الترك ، وعُقد الصلح في عام ٩٩٨ هـ (١٥٩٠ م) ، فضمت الترك الى أملاكها بلاد « جرجيا » و « تبريز » وبعض الأقاليم المتاخمة لجنوبي بحر قزوين . إلا أن الفرس ما زالت تنازع الترك هذه الأقاليم حتى استرجعتها في عام ١٠٢٨ هـ (١٦١٩ م) ، وأرجعت حدود الدولة من هذه الناحية الى ما كانت عليه في عهد « سليم الأول » . فعزم مراد على فتح هذه الأصقاع ثانية ، فلاقى في سبيل ذلك أهوالاً عظيمة

اتحاد الفتن
الداخلية

فانه لما تولى عرش الخلافة وهو في الحادية عشرة من عمره كانت البلاد في حاجة الى رجل يقبض على زمامها بيد من حديد ، لتوالى المصائب عليها وهبوب عواصف الفتن والثورات فيها : فكانت الفرس منتصرة ، وآسيا الصغرى في ثورة ، وولاية الأقاليم متمردين ، وأصبحت بلاد المغرب مستقلة ، والخزينة خالية ، والجيش نائراً إلا أنه رغم كل هذه الصعوبات العظيمة تمكن بمساعدة أمته من حفظ كيان الدولة بعد انهزومات مؤلمة ، ففي التاسعة من حكمه ثارت الانكشارية وطلبوا رأس وزيره الأول « حافظ باشا » ، فسلم هذا نفسه اليهم فداءً لمليكه . إلا أن السلطان انتقم له بعد من هذه الفتنة الضالة شر انتقام ، اذ تمكن من قتل الثوار في كل اقليم وخصوصاً الانكشارية حتى تسكدست رؤوسهم على ضفاف البسفور . وقد قيل ان من قُتلوا في هذا الحادث يبلغون مائة ألف أوزيريدون

ومن ذلك العهد قبض السلطان مراد الرابع على زمام الأمور بكل يقظة ، فانتشر العدل وساد النظام في كل مكان بحالة لم ير مثلاً منذ أيام سليمان الاكبر ولما استتب الامن في نصابه سار مراد الرابع قاصداً حدود الدولة الاسيوية ينشر

فيها السكينة . ففي عام ١٠٤٥ هـ (١٦٣٥ م) أعاد فتح « اريوان » وعاقب ولاية آسيا الصغرى على تمردهم . وفي عام ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨ م) قصد « بغداد » ليسترجعها من يد الفرس ، فأخذها عنوة بعد أن أظهر في فتحها ضروب الشجاعة وبعد أن فنيت



مراد الرابع

(رسم على افندى يوسف)

كل حاميتها إلا ثلاثة آلاف . وتمّ بعدها عقد الصلح مع الشاه ، وكانت نتيجته أن استردّت الفرس بلاد « اريوان » ، أما بغداد فبقيت من هذا الوقت في يد الأتراك ، ودخل « مراد » القسطنطينية دخول المنتصر الظافر

وفي العام التالي وافته منيته وهو في الثامنة والعشرين من عمره . وبموته مات آخر سلطان حربى من ملوك آل عثمان

٥ - * عهد سلطة الوزراء - أسرة كُبريلى *

(١٠٤٩ - ١١٠٣ هـ : ١٦٤٠ - ١٦٩١ م)

تولى شؤون الملك بعد مراد الرابع السلطان « ابراهيم الأول » (١٠٤٩ - ١٠٥٨ هـ : ١٦٤٠ - ١٦٤٨ م) ، فلم يكن قوى العزيمة كسابقه . فدبّ في أيامه روح الفساد وسوء الادارة في داخلية البلاد ، ولذلك لم يفلح في فتح جزيرة إقريطش « كريت » بعد أن جهّز لها أسطولاً في عام ١٠٥٥ هـ (١٦٤٥ م) . ولم يمكث طويلاً حتى عُزل وقُتل

اضطراب الدولة وتولى بعده « محمد الرابع » (١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ : ١٦٤٨ - ١٦٨٨ م) .
ففي العام الثاني من حكمه هُزم الأسطول التركى في بحر الأرخييل ، وقامت الثورات الداخلية في آسيا الصغرى ، وأصبحت الحال في العاصمة أسوأ حال . إذ كان الوزراء يُؤثرون ويُعزلون تبعاً حسب إرادة نساء القصر ، وطبقاً لرغبات الجنود ، واحتل الدردنيل عام ١٠٦٦ هـ (١٦٥٦ م) أسطولاً للبنادقة هدد القسطنطينية نفسها . وقصارى القول ان الدولة في هذه الآونة كادت تتمزق شذراً ، لعدم وجود رجل قوى الشكيلة يدير شؤونها ، حتى قيضت لها المقادير رجلاً شديداً بالبأس حفظ كيائها هو وأفراد أسرته من بعده : ذلك الرجل هو « محمد كُبريلى » رئيس أسرة كُبريلى الشهيرة ، وهى من عنصر ألبانى استوطن القسطنطينية من زمن . وكان محمد هذا وقت ظهوره قد ناهز السبعين من عمره ، وكان محترماً من الصغير والكبير ، لقوة عقله وحسن أخلاقه . ولهذه الصفات اختارته أم السلطان « محمد الرابع » (الذى كان لا يزال فتى) صديقاً أعظم ، فقبل ذلك بشرط أن يُطلق له العنان في إدارة شؤون البلاد ، فكانت نتيجة ذلك أنه أظهر شدة بأس ، مقرونة بعدل ، فأعاد النظام في كل أصقاع الدولة .

محمد كُبريلى

وقضى في ذلك خمسة أعوام على أشد ما يكون وزير يقظة لكيد الكائدين ، وضرباً على أيدي المفسدين ، فلم تر الدولة في كل عصورها رجلاً مطاعاً مثله . ذلك على شدة فيه ، وقد قُتل في أيام وزارته بأمره ٣٦٠٠٠ شخص في سبيل توطيد السكينة وكان هو ومن خلفه من أفراد أسرته هم القابضين على زمام الأمور في البلاد العثمانية ، ولهم يرجع كل الفضل في انتعاش الدولة في النصف الأخير من القرن السابع عشر ، فكان همهم الأكبر أن يعيدوا للدولة مجدها القديم وأن يحيا في سبيل حكمها السنة التي سار عليها محمد الفاتح ومن قبله من السلاطين . وقد ظهرت ثمرة حكم محمد كبريلي في مدة وجيزة جداً ، إذ انمحت آثار الفوضى وعاد النظام الى نصابه . وفي العام الثاني من توليته طرد أسطول البندقية عن الدردنيل بعد قتل قائده « موسنيجو » ، واسترجعت الدولة جزيرة « ليموس » و « تندوس » . ثم ضيق الحصار على جزيرة « إقريطش » ، وأعد المعدات لتجديد الفتوح العثمانية في أوروبا . ولما مات « محمد كبريلي » في عام ١٠٧٢ هـ (١٦٦١ م) كانت كل أجزاء الدولة متحدة الكلمة منبثاً فيها روح النشاط ، متوجهة بكل قواها لمنازلة عدوها امبراطور النمسا لبس احمد كبريلي حلة أبيه وقبض على زمام الأمور بعده ، فكان مثله في الحزم ، وحنذا حذوه في سياسة البلاد . وكان مبدأ توليه شؤون الدولة هو أجل انفراط عقد المحالفة مع النمسا ، فسار على رأس جيش يبلغ ٢٠٠,٠٠٠ جندي وانقض به على بلاد النمسا والمجر عام ١٠٧٤ هـ (١٦٦٣ م) ، فعبر نهر الطونة عند « جران » واستولى على قلعة « نيوهوزل » وخرّب من « مرافيا » حتى أسوار مدينة « أولمتز » . إلا أن الحرب مع النمسا « لويس الرابع عشر » مدّت الى الامبراطور يد المساعدة نكابة بالترك الذين أهانوا سفيره في بلادهم . فأعد جيشاً يبلغ ٣٠,٠٠٠ مقاتل ، ولما وصل هذا الجيش الى « منتسكويلى » قائد الجيوش النمساوية أحس أنه يمكنه تهديد جناح الجيش التركي اذا زحف عليه من جهة « فينا » . إلا أن احمد تقهر الى الجنوب نحو « بودا » فتقابل الجيشان عند « سنغوتار » على نهر الراب سنة ١٠٧٥ هـ (١٦٦٤ م) ، فلم يقر

احمد على عدوه وانهمزم أمامه . ورأى الامبراطور أن يعقد صلحاً حتى يتخلص من معاهدة فرفار تدخل فرنسا في شؤونه ، فتم ذلك بمعاهدة « فرفار » في أغسطس سنة ١٦٦٤م ، وقد اعترف فيها بسيادة السلطان على « ترانسولانيا » . وبعدئذ وجه الصدر عنايته الى محاربة فتح افريطش البنادقة ، واشترك هو بنفسه في حصار « اقريطش » (كريت) ، وهي من خيرة أملاكهم ، فسقطت في يد الأتراك بعد حرب عوان في ١٧ سبتمبر سنة ١٦٦٩ م (١٠٨٠ هـ)

وعمد فراغه من حرب البنادقة دخل مع بولندة في حرب عوان . وسبب ذلك يرجع الى عسف البولنديين وظلمهم لقبائل « القوزاق » القاطنين مقاطعة « أوكرين » وكان البولنديون يعتبرونهم من رعاياهم ، ثم زاد غضب القوزاق وسخطهم على البولنديين حينما تولى « ميخائيل » ملك بولندة ، إذ كانوا يرون في توليته ابتداء عصر لاضطهادهم لأنه هو ابن اكبر ملك أجحف بحقوقهم وسامهم الخسف وسوء العذاب . فثاروا في عام ١٠٨١ هـ (١٦٧٠ م) وأذنوا بالحرب ذلك الملك الطاغى . إلا أنهم هُزموا على يد قائده الشهير « جون شو بيسكى »

فلما ضاقت بهم الحال ، وأيقنوا أن لا مناص من الخسف والظلم ، طلبوا الى الباب العالي أن يكونوا تحت سيادته ليحميهم من هذا الملك الغشوم ، فاعتزم « احمد كبريلي » هذه الفرصة وأعلن الحرب على بولندة بحجة حماية رعاياها المظلومين

ففي عام ١٠٨٣ هـ (١٦٧٢ م) ظهر السلطان بنفسه ومعه احمد كبريلي « أمام سقوط كامنيك حصن « كامنيك » المنيع وهو مفتاح مقاطعة « بادوليا » (في بولندة) ، فسقط الحصن في يد الترك في أقل من شهر . فجب عند ذلك ميخائيل ملك بولندة ، وعقد صلحاً مع الترك كان أهم شروطه أن يتنازل لهم عن « بادوليا » « وأوكرين » ويدفع جزية سنوية للباب العالي

إلا أن مجلس الأعيان البولندي رأى من العار قبول هذه المعاهدة ، وجمع كل جون سويسكى من استطاع تجنيدهم من الجند بقيادة « جون سويسكى » ليقاوم بهم عدوهم حتى

النهاية . وبالرغم من عدم مساعدة الدول الأخرى له ، والدسائس التي كانت تُكاد له في بلاده ، وتمرد الجنود عليه ، تمكن بحذقه ومهارته الحربية وقوة شكيمة من استدامة الحرب بينه وبين الترك أربعة أعوام ، فوقف تقدمهم في « بادوليا » و « غليسيا » وانتصر على أعظم قوادهم انتصارات باهرة في موقعي « سُكُزِم » سنة ١٠٨٤ هـ (١٦٧٣ م) و « لِمَبْرُغ » سنة ١٠٨٦ هـ (١٦٧٥ م) ، وشتت شمل الجيوش التركية الى أن اجتاز نهر « الطونة »



جون سويسكي
(عدو الترك اللدود)

وفي عام ١٠٨٥ هـ (١٦٧٤ م)
(وحينما كانت الحرب في متنهاها
من الشدة) مات الملك ميخائيل
فانتخب البولنديون بطاهم
« جون سويسكي » مايكاً عليهم
ولكنهم خذلوه مع جبههم له ، فبعد
توليته بيومين وجد نفسه وجيشه
محاطين بالترك عند « زُرَّانو »
على نهر الدنيستر ، ولم ينجده
البولنديون . ومع ذلك كانت هيئته
وشهرته اسماً سبياً في خلاصه من
هذه الورطة ، إذ فضل القائد

التركي ابراهيم أن يعقد صلحاً راجحاً على أن ينازل الأسد في عرينه . وفعلًا تم عقد
صلح « زرانو » سنة ١٠٨٧ هـ (اكتوبر سنة ١٦٧٦ م) ، وأهم شروطه أن تتنازل
بولنده عن « كامنيك » و « بادوليا » وجزء من « أوكرين » . وبعد مضي سبعة أيام
من تاريخ معاهدة « زُرَّانو » مات احمد كبريلي ، إلا أن سياسته لم تُقَدَّر معه
خلف احمد كبريلي في منصب الصدارة العظمى صهره « قره مصطفى » ، وكانت

أمانيه واطاعه لا تقل عن سلفه ، ولكنه لم يُعط نصيباً وافراً من المقدرة وحسن التدبير ، فهدم ما بناه محمد واحمد كبريلي بجدهما ونشاطهما بكبريائه وانغمسه في الشهوات وافتخاره الكاذب . وكان في بادئ أمره يشعر بحسن المستقبل ، فعزم عزمًا أكيداً على أن يخترق قلب البلاد الأوربية ويقضى عليها القضاء المبرم بفتح « ويانة »

نجاحه في
اول امره

فابتدأ يتأهب سراً بما لم يُسمع بمثله من قبل ، وجدد علاقته الودية مع « فرنسا » ، وعقد صلحاً مع « روسيا » ، ووثق صلته ببولندة . وكان غرضه من ذلك أن يترك الامبراطور وحيداً ، وأوشك أن يتم له فعلاً ما أراد ، اذ كان الجرج أيضاً ناقمين منذ سنتين على الامبراطور « ليولند » لتضييقه عليهم في معتقداتهم الدينية والسياسية ، فثاروا عليه سنة ١٠٨٥ هـ (١٦٧٤ م) بقيادة « توكولى » ، ثم انضم اليهم بعد أمير « ترنسالوانيا » ، فتمكنوا في عام ١٠٩٢ هـ (١٦٨١ م) من إجبار الامبراطور أن يعيد اليهم ما سلبهم من الحقوق السياسية ، ويمنحهم الحرية الدينية

الحرب مع النمسا

إلا أن « توكولى » لم يكتف بذلك ، بل رغب في أن يكون هو والياً على الجرج ، ولذلك صفا الى « قره مصطفى » الذى مناه بولاية الجرج اذا انضم اليه على الامبراطور وبذلك تم كل شئ ، « قره مصطفى » بعد أن وثق من عدم مساعدة « لويس الرابع عشر » الامبراطور ومن منعه ألمانيا أيضاً من مؤازرة النمسا

أماط « قره مصطفى » اللثام عن أغراضه سنة ١٠٩٣ هـ (١٦٨٢ م) وأعلن في ربيع ١٠٩٤ هـ (١٦٨٣ م) أن الجرج ولاية عثمانية ، وعبر نهر الطونة على رأس جيش يبلغ ١٥٠,٠٠٠ جندي . فلما رأى الامبراطور حرج موقفه وأن فرنسا تقف سداً أمامه في كل باب يطلب منه المساعدة ، يئس من مقاومة الترك

مساعدة
سويسكى
لامبراطور
النمسا

إلا أن « جون سويسكى » نكث العهد وأقنع أمته بضرورة مساعدة الامبراطور ، وفي ٣١ مارس أبرمت محالفة بين الدولتين تعهدت فيها بولندة بتجريد ٤٠,٠٠٠ مقاتل للدفاع عن النمسا

وكانت الجيوش التركية في هذه الأثناء متابعة الزحف « نحو فينا » حتى اضطرت

الامبراطور « ليول » الى الانتقال بحاشيته الى « بَسَاو » . وفي ٩ يوليو خفقت الأعلام التركية على مقربة من أسوار فينا ، وفي ١٤ منه حوصرت المدينة وحُفرت خنادق الحصار

وكانت حالة المدينة سيئة جداً ، غير متأهبة للحصار ، وكان عدد حاميتها ١٤٠٠٠ مقاتل فقط ، وهي غاصة بالقرويين اللاجئين اليها من الأرياف . وكانت أسوارها قديمة متداعية الى السقوط . على حين أن المهندسين من الترك ورجال مدفعيتهم كانوا من أمهر رجال أوربا في ذاك العصر

ومع كل هذا لم ينتفع قره مصطفى بهذه الفرصة ، وأضاعها بتلكئته وتوانيه ، فإنه بعد أن شتت شمل رجال الامبراطور وأنزلهم من معاقلهم ، وأصبحت المدينة ممكنة الفتح مُعَوِّرة من كل جهاتها ، لم يُقدِّم على مهاجمتها ، بل تردد ، وكان غرضه أن تسلم المدينة بلا حرب ويأخذ ما فيها من الخيرات لقمة سائغة لنفسه

وكان جون سويسكى في هذه الأثناء يجمع جموعه بكل سرعة عند « كِرَكاو » فشل الترك لانتفاذ المدينة . وكان « الدوق لورين » قائد قوات الامبراطور قد بُعد عن المجر وعسكر شرقى « فينا » على مسافة منها ، ووكل أمر الدفاع عنها الى الكونت استهريزبرج قائد الحامية ، ولم يجرؤ على الزحف لتخليص المدينة حتى أتاه « جون سويسكى » في ٢ سبتمبر سنة ١٦٨٣ م وتسلم قيادة جميع الجيش . ثم زحف نحو المدينة وصار على مقربة من معسكر الجيش التركى ، حين كانت الحاجة ماسة اليه جداً ، إذ كانت الأتراك قد تقبوا أسوار المدينة ، وتفشى المرض في أهلها . فلما رأت الحامية طلائع النجدة دبَّ في نفوسهم روح الأمل ، وأيقنوا أن النصر أصبح منهم قاب قوسين أو أدنى . وتمت لهم أمانهم بهجوم « جون سويسكى » على مقدمة الجيش التركى ، ثم باشتباكه معه في معركة عنيفة شتت فيها شمل الأتراك وانقذ المدينة . وقد نجح « قره مصطفى » بحياته بعد أن يئس من الخلاص . وجمع شتات جيشه المنهزم عند « بلغراد »

ومن هذا الحين ابتداء نجم الأتراك يأفل في أوربا . أما « قره مصطفى » فان الترك باعوه ذلك النصر المضيع بضرب عنقه . على أن خلفه ابراهيم كان نصيبه القتل واقعة بركاني والهزيمة أيضاً . اذ اندحرت الترك في نفس العام في شهر اكتوبر عند « بركاني » على يد « جون سويسكي » ، فأجلاهم عن كل بلاد المجر

وفي العام التالي (١٠٩٥ هـ : ١٦٨٤ م) انضمت جيوش البندقية الى جيوش « جون سويسكي » لاقتفاء جيوش الترك المنهزمة . وفي هذا العام عقد الحلف المقدس « الحلف المقدس » بين الامبراطور وبولندة والبندقية على الترك ، ولم تمض إلا فترة يسيرة حتى ظهرت ثمرته ، لأنه بالرغم من اعتزال « جون سويسكي » قيادة الجيش في ١٠٩٧ هـ (١٦٨٥ م) لاعتلال صحته وشيخوخته ، بقيت فتوح الحلف المقدس تمتد على نهر الطونة برّاً ، وفي البحر الأبيض المتوسط بحراً

خسائر الترك ولم تمض هذه السنة حتى استرد « دوق لورين » جميع المجر التركية عدا « بودا » ، واستولى الأسطول البندقي على عدة بلاد على ساحل « ألبانيا » . وفي العام المقبل سقطت « بودا » في يد « لورين » ، وأخضع لورين جميع المجر . وفي عام ١٠٩٩ هـ (١٦٨٧ م) دحر الصدر الأعظم عند مدينة « موهاكز » التاريخية ، واسترجع القائد « لورين » « كزواتيا » و « سلافونيا » وأخضع « ترانسيلوانيا » ، ثم عبر نهر « الطونة » وأخذ « بلغراد » عنوة ، واستمر في الزحف حتى وصل الى « نيش » عام ١١٠٠ هـ (١٦٨٨ م)

وكان مُرسيني أمير البحر البندقي في الوقت نفسه يظهر نشاطاً عظيماً في البحر الأبيض المتوسط ، اذ أخضع في عام ١٠٩٨ هـ (١٦٨٦ م) أهم بلاد المورة ، ولم يأت عام ١١٠٦ هـ (١٦٩٤ م) حتى خسرت الترك كل أملاكها في بلاد « اليونان » وعلى الساحل « الأذرياتي »

وكانت قد قامت ثورة في عام ١٦٨٨ في القصر السلطاني كانت نتيجتها عزل محمد الرابع وتولية ابنه سليمان الثاني (١٠٩٨ — ١١٠٢ هـ : ١٦٨٧ — ١٦٩١ م) ، فعهد

هذا أمر الصدارة العظمى الى « مصطفى كبريلي » اخي احمد كبريلي ، فأظهر ما هو مصطفى كبريلي مشهور عن رجال هذه الاسرة من شدة البأس وسعة الخلق . فاتبع سياسة التسامح الديني في كل أنحاء الدولة ، وأعاد النظام في الجيش ، فلم يمض عامان من توليته زمام الأمور حتى أصبح النصر حليف الترك . ففي عام ١١٠٢ هـ (١٦٩٠ م) استرجع مصطفى كبريلي « نيش » « وبلغراد » وغزا « المجر » ؛ ولكنه هُزم وقتل في موته في موقعة سالانكين سنة ١١٠٣ هـ (١٦٩١ م) في واقعة (سالانكين) على يد حاكم « بادن »

وبموت هذا الرجل قضى على آمال الترك المرجوة . واستمرت الحرب بعد مدة ثمانية أعوام كان النصر فيها سجالاً ، إلا أن جيوش الامبراطور وجيوش البندقية بقيت محافظة على « المجر » و « ترانسيلوانيا » وبلاد « المورة » ، وفي عام ١١٠٨ هـ (١٦٩٦ م) انتصرت الجيوش النمساوية بقيادة البرنس « يوجين » نصراً مبيناً على السلطان « مصطفى الثاني » (١١٠٦ — ١١١٥ هـ : ١٦٩٥ — ١٧٠٣ م) الذي كان يقود الجيش بنفسه عند « زنتا »

واقعة زنتا

وابتداء يظهر شأن بطرس الأكبر ، قيصر الروس العظيم ، فدخل في هذه الآونة الحرب ، وأخذ من العثمانيين بلدة « آزاق » . فلما رأى السلطان حرج موقفه ، وأن لا فائدة من امتداد أمد الحرب (إذ أيقن أنه بانقراض اسرة كبريلي قد انقضى عصر الفتوح) عقد صلح « كارلوتز » سنة ١١١٠ هـ (١٦٩٩ م) . وكان أهم شروطه معاهدة كارلوتز أن يسترجع الامبراطور كل بلاد « المجر » (ما عدا تمسوار) والجزء الأعظم من « كرواتيا » و « سلافونيا » ، وأن تكون له السيادة على « ترانسيلوانيا » . أما بولندة فانها استرجعت « بادوليا » وفيها « كلنيك » . وتنازلت الدولة أيضاً عن آزاق « للروسيا » . وأما البندقية فانها بقيت في بلاد المورة . ومنذ هذه المعاهدة سقطت هيبة الدولة من أعين دول أوروبا سقوطاً نهائياً

٦ -- الدولة العثمانية وحروبها مع روسيا والنمسا *

في القرن الثامن عشر

مقدمة أخذت الدولة العلية تضعف شيئاً فشيئاً خلال القرن الثامن عشر ، وذلك يرجع الى سببين عظيمين : الأول نهوض الأمة الروسية وتحالفها مع النمسا على الأتراك لبسط سلطانها وطرده الأتراك من أوروبا . والثاني اختلال النظام وسوء الإدارة في البلاد العثمانية وثوران من فيها من الشعوب المختلفة في وجه الدولة

المسألة الشرقية ولما ظهرت علامات الضعف والاضمحلال في الدولة أخذت دول أوروبا تنظر فيما سيؤول اليه أمرها ، ومن يكون الوارث لأملأ كها . وتُعرف هذه المسألة عندهم « بالمسألة الشرقية » . ويرجع تاريخها الى عام ١١٠٨ هـ (١٦٩٦ م) عند ما استولى الروس على مدينة « آزاق » التي تنازلت عنها الدولة للروسيا رسمياً في معاهدة « كرلوتز » كما تنازلت أيضاً عن بعض ممتلكاتها الى النمسا ، وبذلك دخلت سياسة الشرق الأدنى في طور جديد

وبعد هذه المعاهدة وقف تيار تقدم الروس في الجنوب فترة ، وذلك لِمَا تنازلوا للترك عنه في معاهدة « بروث » الآتية ذكرها سنة ١١٢٣ هـ (١٧١١ م) بعد أن انهزمت روسيا هزيمة منكرة . ولكن ما لبثت هذه الفترة ان انقضت وعادت روسيا الى مناوأة الترك طول القرن الثامن عشر بلا انقطاع

وكان ضعف الدولة المستمر في خلال هذا القرن سبباً لمشاكل جديدة وارتباكات شديدة بين دول أوروبا . فبينما كانت روسيا تبذل جهودها لبسط سلطانها على البحر الاسود كانت النمسا من جهة أخرى تعمل طاقاتها لمد أملاكها على نهر الطونة . الأ أن عمل كل من روسيا والنمسا كان داعياً لقلق فرنسا وتدخلها . وفي سنة ١١٨٨ هـ (١٧٧٤ م) ابتدأت مقاصد روسيا تظهر جلياً بعد معاهدة « كجوك قينارجة » (كُتْشُك كينارجي) التي سيأتي ذكرها . ففطنت انجلترا للأمر ، وأخذت تخاف

انحلال عرا الدولة العثمانية ، كما أخذت أوروبا من ذلك الحين تهتم أيضاً بالمسألة الشرقية وتنظر ان كان بقاء الدولة وحفظ كيائها في أوروبا خيراً من ضمها الى روسيا أم لا

وأول من عمل على توسيع نطاق الدولة الروسية وجعلها في مصاف دول أوروبا العظمى نهضة روسيا هو قيصرها بطرس الأكبر (١١٠٠ — ١١٣٧ هـ : ١٦٨٩ — ١٧٢٥ م) ، وبطرس الأكبر وكانت قبل عهده بعيدة عن الحضارة الأوروبية ، منزوية عن العالم المتمدين . فلما تولى هذا القيصر الملك عام ١١٠٠ هـ (١٦٨٩ م) خطا بها خطوات واسعة في سبيل العزّان ، اذ غير أنظمتها وسياستها الداخلية دفعة واحدة ، فاتخذ « بتروغراد » مقراً لملكه بعد ان كان مدينة (مُسكو) ، وأدخل العادات ووسائل المعيشة الغربية في بلاده ، وضرب بيد من حديد على سلطة الاشراف ، ووضع الكنيسة والجيش (الذي دربه على الأنظمة الأوروبية) تحت مراقبته نفسه . أما سياسته الخارجية فلم تقل حزماً وبعد نظر عن سياسته الداخلية ، اذ رأى أنه لا يتسنى للروسيا أن تكون مملكة تجارية الا اذا أرسخ قدمها على البحرين البلطى والاسود ، وكان الأول في قبضة السويد والثاني في يد الترك . فجعل همه ابتداء مناوأة السويد ، وبعد حروب طويلة تم له مقصده في معاهدة « نيستاد » سنة ١٧٢١ م اذ تنازلت السويد للروسيا عن ليفونيا ، وايشونيا ، وإنجريا ، وكرييا ، وغيرها

أما الترك فأخذ منها آراق في معاهدة « كركوتز » كما سبق . الا أن العثمانيين استردوها ثانية في عهد أحمد الثالث (١١١٥ — ١١٤٣ هـ : ١٧٠٣ — ١٧٣٠ م)

وذلك ان الروس لما هزموا « شارل الثاني عشر » ملك السويد في موقعة « بلطاوا » واقعة بروت لجأ شارل الى الترك وطلب منهم المساعدة ، فلبت الترك دعوته اذ وجدت في ذلك فرصة لاسترداد ما خسرت ، فشنت الحرب على روسيا . وبعد مواقع عنيفة تمكن القائد التركي (بلطجى باشا) من حصر الجيش الروسى ووشك القبض على قيصر الروس عند نهر « بروت » ، ولكنه نجا من الأسر بما قدمته زوجته « كترين » من الرشوة الى الخائن « بلطجى باشا » . فأفلت بطرس وجيشه (بل روسيا الجديدة كلها)



بطرس الأكبر

من براثن الغناء ، واضطرت الدولة
بعد هذه الغلطة الشنيعة الى عقد
صلح « بروث » عام ١٧١١م الذى
استرجعت به من روسيا ميناء
« آراق » . ويعتبر عقد الروس
لهذه المعاهدة على ما نالهم فيها من
الخصائر الطفيفة من اكبر سعودهم ،
إذ لو لم تقيد بها الترك وواصلت
عليهم الحرب ، لقضت لاحتالة على
دولتهم وهى فى إبان نهضتها

وبعد مضى خمسة عشر عاماً
على معاهدة « كرلوتز » أراد
« قورمجي على » الصدر الأعظم

أن يمحو العار الذى لحق الدولة فى هذه المعاهدة باسترداد بلاد المجر والمورة . وكانت
الفرصة سانحة له ، إذ كانت الدولة قد انتصرت على بطرس الأكبر (كما أسلفنا) ،
وكانت « الامبراطورية » (النمسا) قد أنهكتها الحروب الأوربية ، ولم يكن للبنادقة
من القواد مثل « مروسينى » وأمثاله حتى يقودوها الى الظفر ، فضلاً عن أن بلاد
المورة نفسها عندما غُزيت لم تُظهر أى مقاومة جدية ، فكانت النتيجة ان تمكن
قورمجي بزحف واحد من استرجاع بلاد المورة سنة ١١٢٧ هـ (١٧١٥ م)

على أنه لم يتم له فى المجر ما أراد ، فانه هُزم عند « بيتَر وَرْدِن » هزيمة منكرة
على يد الأمير « يوجين » فى أغسطس سنة ١١٢٨ هـ (١٧١٦ م) . وقتل الصدر
عامدة بساروتز فى هذه الموقعة ، فاضطر الباب العالى الى عقد صلح « بَسَارُوتز » عام ١١٣٠ هـ
(١٧١٨ م) . وكان أهم شروط هذا الصلح ان أبقت الدولة للنمسا مقاطعة تمسوار
وبلغراد ، وبقي معها المورة

وبعد معاهدة « بَسَارُوتْز » لم تفكر الترك في منازلة الروس ، بل وجهوا همهم نحو الحرب مع الفرس « فارس » اذ كانت نار الثورة متأججة فيها . ففي عام ١١٣٥ هـ (١٧٢٢ — ١٧٢٣ م) لجأ « الشاه طهماسب » الى روسيا والدولة ليساعده على منازع له في الملك ، فاتهمز الباب العالي هذه الفرصة واستولى على بعض جهات فارس ، وساعده على ذلك خروج الأرمن على الفرس

وفي عام ١١٣٦ هـ (١٧٢٤ م) عُدَّت معاهدة بين الترك والروس على أن تستولى روسيا على الأقاليم المحيطة ببحر قزوين وتستولى الترك على أقاليم « جورجيا » و « أذربيجان » ، إلا أن هذا الأمر لم يدم طويلاً ، اذ ظهر في فارس عام ١١٤١ هـ (١٧٢٩ م) زعيم قوى يدعى « نادر شاه » عمل على تخلص بلاده من نير الأجانب ، وما زال بالترك حتى أجلاهم عن البلاد الفارسية عام ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) بعد حروب طويلة

وكانت روسيا تريد امتداد الحرب بين الترك والفرس حتى تحقق غرضها في مسألة الوراثة البولندية (وهى تنصيب أمير من قبلها على هذه البلاد) . لذلك تنازلت للفرس عما أخذته في عام ١١٣٦ هـ (١٧٢٤ م) وأمدتهم بالذخائر ، وبهذه الحروب الفارسية ضيَّعت الدولة فرصة عظيمة بعدم مهاجمتها للروسيا أثناء حرب الوراثة البولندية . والسبب في ضياعها يرجع الى السلطان « احمد الثالث » ووزيره « ابراهيم » اذ كانا لا يميلان الى مناوأة روسيا والنمسا ، على حين كانت روسيا تسعى جهدها دائماً في مناوأة الدولة

وفي عام ١١٣٨ هـ (١٧٢٦ م) عقدت روسيا تحالف مع النمسا تعلم منها سر سياسة اتفاق روسيا والنمسا على الدولة . وكانا الدولتين في القرن الثامن عشر . وأهم شروطها أن تتعهد كل للأخرى أن تمددها بنحو ٣٠,٠٠٠ مقاتل اذا هاجمها غير الترك ، أما اذا كانت الدولة العثمانية هي المهاجمة فيجب على كلتا الدولتين أن تحارباها معاً بكل ما لديهما من القوة وبعد أن نجحت النمسا والروسيا في تنصيب أمير على « بولندة » من قبلها لم

يكن أمامهما عائق من مهاجمة الدولة والسعى في تقسيمها بينهما . وقد كانت الفرصة تأهب روسيا سانحة لروسيا في هذه الآونة لمحو أثر معاهدة « بروث » ، إذ أن بولندة التي كان يطمح بطرس الأكبر أن يجعلها الطريق الموصل الى بلاد الترك قد خضعت لنفوذ روسيا ، والترك مغلولو الأيدي في حربهم مع نادرشاه ، والنمسا أيضاً كانت تطمح الى الزحف على نهر الطونة لتعويض ما فقدته من الممتلكات في جهات أخرى من أوربا . هذا الى ان نادرشاه كان أكد لروسيا قبل صاحبه مع الدولة أن لا يسلمها بمكره اذا دارت رحى الحرب بينها وبين الترك ، والى أن روسيا فوق ذلك كان لها أعوان وجراثيم قنن في قلب المملكة العثمانية من الشعوب المسيحية التي كانت شديدة الميل الى روسيا ، حتى أنه لما أشيع خبر نشوب الحرب في عام ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) ثارت كل الرعايا المسيحيين العثمانيين آملين الخلاص من حكم الدولة . ومن هذا الوقت أخذت روسيا تستعمل اطماع هؤلاء الرعايا الدينية والوطنية في تمزيق اخشاء الدولة العثمانية وتبديدها

كل هذه الامور تدل على أن روسيا كانت تتأهب لمحاربة الدولة وتنتظر حدوث أى شىء تمسك به لشهر الحرب عليها . وفي عام ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) وجدت لذلك فرصة مناسبة وهي زحف جيوش من التتار على بلاد « القوقاس » (القبجاق) وأرمينية . وكان هؤلاء التتار خاضعين للدولة العثمانية ، فخرجت الجيوش الروسية لصددهم وغزوه في ديارهم ، ثم أخذت تتأهب للاقاة الترك ، فعمدت بالقيادة العامة الى « ميونخ » ، وضم هذا اليه غيره من الضباط الاجانب المستأجرين

القائد ميونخ وكان « ميونخ » هذا من أكبر قواد القرن الثامن عشر ، وُلد في ألمانيا وحارب في الجيوش النمساوية والبولندية والروسية . وبهر بطرس الاكبر بما له من الصفات الجريية العظيمة ، فسعى في استخدامه

الحرب في القرم وأول ما عزم عليه في هذه الحرب استرجاع « آراق » ، فأخذ يستعد في شتاء ١٧٣٥ - ١٧٣٦ م . وفي ربيع ١١٤٨ هـ (١٧٣٦ م) انقض على « القرم »

وناط حصار « آراق » بالقائد « لاسى » الأرندى . وفي شهر مايو وصلت أخبار الحملة الروسية الى القسطنطينية ، فأعلنت الدولة الحرب على روسيا في ٢٨ منه . وكان ميونخ وقواده قد توغلوا في شبه جزيرة القرم واحتلوا كثيراً منها . إلا أنهم تكبدوا في ذلك خسائر فادحة واضطروا للجلاء عنها والتراجع الى « أوكرين » في ٢٥ أغسطس سنة ١٧٣٦ بعد ان ارتكبوا في القرم من الفظائع والمنكرات ما لا يوصف

ثم دخلت الحرب في طور جديد لتجديد تحالف روسيا مع النمسا في ٩ يناير سنة ١١٤٩هـ (١٧٣٧م) تأكيداً لمعاهدة ١٧٢٦م ، فأثارت النمسا الحرب أيضاً على الدولة العثمانية التي قابلتها بمقاومة أدهشت أوروبا بأسرها : فاضطرت ميونخ الى التمهقر عن أوكرين ، وردت النمساويين مهزومين حتى إقليم « بنات » ، فأحجموا عن الحرب وأخذوا يفاوضون الدولة سرّاً في عقد الصلح معهم على انفراد . فعاظ ذلك ميونخ غيظاً شديداً . وكانت له آمال كبيرة في القضاء على الترك : من ذلك أنه عرض على قيصرية روسيا في ذلك العهد أساس ذلك المشروع الخطير الذي يسمى « المشروع الشرقى » وفحواه أن روسيا ترى أن لها الحق الطبيعي في الزعامة على المسيحيين من رعايا الدولة ، فيجب عليها أن تعمل على نشر الدولة « البوزنطية » بالقسطنطينية . ولذلك كان جل أمانى « ميونخ » مواصلة الحرب ، وبالفعل أغار على « ملدافيا » (البغدان) وهزم جيوش الدولة في « شكزيم » سنة ١١٥٢هـ (١٨ أغسطس سنة ١٧٣٩م) . إلا أن توالى هزائم النمساويين وعقدهم وحدهم الصلح مع الدولة قضى على أمانيه ، وخاصة بعد أن علم بعزم السويد على محاربة روسيا وقيام بعض الفتن في داخلية بلاده ، ولذلك رضيت روسيا بعقد الصلح وأبرمت مع الدولة معاهدة باغراد الشهيرة في سبتمبر سنة ١٧٣٩ م : ففي المعاهدة التي عقدت مع النمسا على انفراد أخذت الدولة العلية باغراد و « أرشوف » وجميع بلاد الصرب والبوسنة وبلاد الأفلاق والبغدان . أما روسيا فانها لم تأخذ مما فتحته سوى آراق بعد هدم قلاعها ، واشترطت عليها الدولة ألا تدخل أساطيلها في البحر الاسود ، بأن يكون بحيرة عثمانية بحثة

دخول النمسا
في الحرب

مهادنتها الدولة
على انفراد

المشروع الشرقى

معاهدة باغراد

وهذه هي آخر معاهدة رابحة عقدتها الترك مع الدول الأوروبية . وقد اقيمت الدولة في ابرامها مساعدة عظيمة من فرنسا ، لأنها كانت تخشى اتساع سطوة الدولتين : الروسية والنمسية

بعد ذلك ساد السلام بين روسيا والدولة مدة طويلة مات في أثناءها السلطان « محمود الأول » (١١٤٣ — ١١٦٨ هـ : ١٧٣٠ — ١٧٥٤ م) ، وخلفه السلطان « عثمان الثالث » (١١٦٨ — ١١٧١ هـ : ١٧٥٤ — ١٧٥٧ م) ، ولم يحصل في عصره شيء جدير بالذكر . ثم تولى بعده السلطان « مصطفى الثالث » (١١٧١ — ١١٨٧ هـ : ١٧٥٧ — ١٧٧٣ م) ، وكان ولوعاً بالحروب ، فلما رأى أن ازدياد نفوذ الروس في بولندة يتعاضم بهمة قيصرتهم العظيمة « كترين الثانية » التي تولت الملك سنة ١١٧٦ هـ (١٧٦٣ م) خشي على بلاده . ورأت ذلك أيضاً الحسكة الفرنسية بالنسبة لبلادها فوافقته على رأيه ، ولذلك عزم الباب العالي على منازلة الروس . وقوى عنده هذا العزم أن الروس كانوا منذ ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) يحرضون اليونان وتجدد الحرب و « الجلبين » و « البوسنيين » على الخروج على الدولة . وفي سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) اشتد حق الباب العالي إذ دخلت الجنود الروسية أملاك الدولة أثناء مطاردتهم لبعض البولندية الفارين من وجوههم ، وأحرقوا « بلطة » التابعة لخان القرم أحد ولاة الدولة . فأعلن الباب العالي الحرب على روسيا في ٦ أكتوبر سنة ١٧٦٨ لذلك وبجبهة الدفاع عن حرية البولنديين

ابتدأت الحرب بين الدولتين ، فلزم سوء الطالع الدولة من أول نشوبها ، فلم تلبث أن انهزمت أمام الروس على نهر دنيستر واحتلت روسيا « ملدافيا » (البغدان) وبلاد « الأفلاق » و « بَسَارَبيا » و « القرم » . وفي خلال هذه المدة كان الأسطول الروسي ظافراً في البحر ، فانتصر على أسطول الدولة عند ثغر « جَسَمَة » (شِزْمِي) في يوليو سنة ١٧٧٠ ، ولولا ما أبداه القبودان حسن باشا الجزائرلى من الشجاعة لأحرق الخطر بالقسطنطينية . وما زالت الجيوش الروسية تجدد في فتح بلاد

الدولة بقيادة القائدين العظميين « رومانوف » و « سوفاروف » وغيرهما حتى خشيت
الدولة العلية العاقبة وطلبت الصلح في سنة ١٧٧٤ م . وكانت « كترين » مشغولة



كترين الثانية

أيضاً بحرب بولندية وبثورة داخلية
أنارها قوزاق نهر الدون . وكانت
انجلترا أيضاً قد استرجعت قواها
من الجيوش الروسية لما رأت أنه من توالى
هزائم الترك ، فلم تر « كترين » بدءاً
من إيقاف الحرب مع الدولة مع كثرة
انتصاراتها فيها ، وأبرمت معها معاهدة
كجوق قينارجة (كزتشك كينارجي)
سنة ١١٨٨ هـ (١٧٧٤ م) . وهي
أهم معاهدة عقدت بين الدولة والروسيا

وأول طور جدى فى المسألة الشرقية . على أن روسيا لم تنل بهذه المعاهدة أملاً كما
شاسعة ، اذ كان ما أخذته قاصراً على « كنبورن » و « كرتش » و « آزاق »
والأقاليم المجاورة لها : مما ثبتت قدمها على شمالى البحر الأسود . ولكنها نالت بها
حقوقاً سياسية كبيرة كان لها شأن عظيم فى المستقبل ، لأن الدولة قبلت فى هذه
المعاهدة أن تضمن للروسيا حكومة عادلة وحرية دينية للأغابا المسيحيين ، وجعلت للروسيا
الحق فى المطالبة بحقوقهم كلما رأت حاجة الى ذلك . وهذا حق كبير لا يستهان به ،
اذ أخذته روسيا بعد ذريعة للتدخل فى شؤون الدولة كلما رأت ذلك من مصلحتها .
وقد كان ذلك أكبر مكدر لصفو الدول الأوربية على الدوام

سادت السكينة بعد ذلك فترة بين الدولة والروسيا ، ولكن « كترين » كانت
لا تزال مثبثة (بالمشروع الشرقى) وتمنى نفسها بإفناذه متى سنحت الفرصة . وفى
عام ١١٩٧ هـ (١٧٨٣ م) نقضت العهد وضمت القرم اليها بالرغم من تهادنها مع

نبذ روسيا
العهد

الدولة ، فخشيت فرنسا وأنجلترا من توغل كترين في الأملاك العثمانية ونصحت للباب العالي بالتنازل عن « القرم » و « كوبان » ، فتم ذلك بمقتضى معاهدة القسطنطينية سنة ١١٩٨ هـ (يناير سنة ١٧٨٤ م)

على ان روسيا لم تقف عند هذا الحد ، وذابت على إنفاذ مشروعها الشرق وتوسيع نطاق أملاكها من الأملاك العثمانية ، فأخذت تعمل منذ عام ١٢٠٠ هـ (١٧٨٦ م) على دس الدسائس في كل ولايات الدولة ، فنجحت دسائسها فعلاً في مصر (راجع ظهور على بك الكبير في الفصل النالى) ، وفي اليونان والبغدان . فشرعت الدولة تستعد للحرب الى أن أرغمتها روسيا على خوض غمارها بتعدّد إهاناتها وآخر ما حدث من ذلك ان « كترين » خرجت الى القرم في موكب حافل ،

تجدد الحرب

ولما وصلت في طريقها الى « خرسون » كتبت على احد أبوابها : « الطريق الى بوزنطة » ، إشارة الى أنها عما قريب ستفتح القسطنطينية . عند ذلك ثارت خواطر مسلمى الدولة ، واضطر الباب العالي الى اعلان الحرب على روسيا سنة ١٢٠١ هـ (١٧٨٧ م) . فأسرع القائد حسن باشا الى مهاجمة « كنيوزن » ، ولكنه ردّ عنها بعد أن تكبد خسائر فادحة لوقوف القائد العظيم « سوفاروف » في وجهه . وكانت روسيا قد عقدت معاهدة جديدة مع النمسا على الدولة العثمانية ، ولكن النمسا لم تقدر على القيام بمساعدة تذكر في هذه الحرب لاشتغالها بالاضطرابات القائمة في الأراضي الواطئة (وكانت من أملاكها) ، ثم اضطرت الى ابرام معاهدة « سيستوفا » مع الدولة سنة ١٢٠٦ هـ (أغسطس سنة ١٧٩١ م) ، وبذا انسحبت من الحرب . أما روسيا فانها بقيت قادرة على مواصلة الحرب بفضل مهارة « سوفاروف » ، فاستولى على جهتي « اوخاكوف » و « اسماعيل » سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) ، وانضم الى ذلك انتصارات الجيوش الروسية في « القوقاس » و « كوبان » . وأخيراً انتهت أوربا الى اطماع « كترين » ، ورأت أن لا بدّ من وقوفها عند حد ، فدخلت إنجلترا وبروسيا وهولندا في الأمر ، ولم تبدِ روسيا معارضة لأنها أخذت توجه انظارها نحو

فرنسا التي كانت نار الثورة تتأجج فيها و ينتظر اشتباك النمسا وبروسيا معها في حرب
وبذلك يخلو الجو للروسيا في بواندة . لذلك رضيت كثرين بمهادنة الدولة وأبرمت
معها معاهدة « ياسى » سنة ١٢٠٦ هـ (يناير سنة ١٧٩٢ م) . وأهم شروطها ان
اعترف الباب العالي بكل مواد معاهدة « كينارجى » وترك للروسيا أيضاً القرم
وباقى الأراضى العثمانية الى نهر الدنيستر . وبذا صارت روسيا صاحبة السيادة المطلقة
على شمالى البحر الاسود

هذا ما وصلت اليه الدولة في أواخر القرن الثامن عشر من جراء السياسة الروسية .
وقد خسرت أملاكاً أخرى في القرن التاسع عشر ، ولكن دول أوربا العظمى لم تسمح
للروسيا الى الآن بتنفيذ مايرمى اليه المشروع الشرقى الذى كان تحقيقه جل أمانها ،
وان يكن سمحت لغيرها بالتصرف في كثير من أملاكها

الفصل الثالث

حكم العثمانيين في مصر

(٩٢٣ — ١٢١٣ هـ : ١٥١٧ — ١٧٩٨ م)

باستيلاء السلطان سليم على مصر في سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) أصبحت جزءاً من
أمالك الدولة العثمانية ، ودخلت في طور طويل دام نحو ثلاثة قرون (٩٢٣ — ١٢١٣ هـ :
١٥١٧ — ١٧٩٨ م) لم يكن لها فيه شأن سياسى يذكر في التاريخ . وقد كانت
مصر في معظم ذلك العصر مشهدة للفتن والمُشاحات : إمّا بين سلاسل الممالك
أنفسهم ، واما بينهم وبين الولاة العثمانيين ، واما بين هؤلاء وجنود الحامية العثمانية .
وكل هذه الحوادث متشابهة ، ولم يكن لها أثر دائم في تاريخ مصر . لذلك نعدل عن
تتبع أخبار فتن ذلك العصر ، ونكتفى بالكلام على حالة البلاد فيه بوجه عام ، فنقول :

طور جديد في
تاريخ مصر

١ - * نظام الحكومة *

الحكومة في ثلاث سلطات
بعد أن نتمّ للسلطان سليم فتح مصر وضع لإدارتها نظاماً يكفل بقاء خضوعها وعدم استقلال أحد فيها بأمرها، فأودع مقاليد حكمها ثلاث سلطات، له من تنافس رجالها أكبر كفيل ببعيته :

١ . الولى السلطة الأولى - الولى، وأهم أعماله إبلاغ الأوامر التى ترد عليه من السلطان الى عمال الحكومة ومراقبة تنفيذها

٢ . الجيش والسلطة الثانية - جيش الحامية ، وقد كوّنه السلطان سليم من ست فرق (وجاقات) ، ونصّب عليهم قائداً يقيم بالقلعة ، وجعل على كل فرقة ستة من الضباط، وشكّل من هؤلاء الضباط مجلساً (ديواناً) يساعد الولى فى إدارة شؤون البلاد ، وجعل لهذا الديوان الحقّ فى رفض مشروعات الولى اذا لم ير فيها مصلحة

٣ . الممالك والسلطة الثالثة - الممالك : نصّب كل واحد منهم على سنجق (مديرية) من الأربع والعشرين مديرية التى تتكوّن منها البلاد . وكان هؤلاء الرؤساء من الممالك يُعرفون « بالبيكوات » وتسمى مديرياتهم « سناجق »

تعديل سليمان ولما انقضى حكم السلطان سليم فى سنة ٩٢٦ هـ (١٥٢٠ م) وخلفه السلطان سليمان القانونى أنشأ مجلساً من آخرين يُعرفان بالديوان « الأكبر » « الأصغر » ، يجتمع أولهما عند التحدث فى الشؤون الخطيرة ، ويجتمع الثانى كل يوم ، وأعضاء الأول من رجال الجيش والعلماء معاً ، وليس بالثانى أحد من العلماء ونحوهم . وأضاف سليمان أيضاً فرقة سابعة الى الجيش ضم اليها عتق الممالك . فبلغ بذلك جيش الحامية نحو ٢٠,٠٠٠ *

* وقد ادخل الترك كثيراً من الالاقاب فى مصر لا يزال كثير منها مستعملاً الى الآن منها : لقب « باشا » الذى كان يطلق على الولاة المرسلين من القسطنطينية ، ولقب « آغا » وكان يطلق على قائد الجيش أو الفرقة الواحدة ، ولقب « كتحدا » أو « ككية » وهو وكيل الباشا وكان يطلق أيضاً على موظف خاص فى كل فرقة بالجيش . أما لقب « بك » و « الافندى » فكان لـكل منهما معنى خاص فى مبدأ الامر فقد بالتدريج حتى صارا يستعملان فى معنيهما الحاليين

ذلك هو النظام الذى وضعه العثمانيون لإدارة مصر ، ولا غاية لهم منه سوى المحافظة على بقاء البلاد خاضعة للدولة ، سواء أكان ذلك فى صالحها أم لم يكن . وقد بقيت هذه السياسة ناجحة نحو قرنين من الزمان ، الى أن أخذت الدولة فى أسباب التقهقر ، وزحفت النمسا والروسيا على حدودها الشمالية ، فضعف نفوذها فى مصر ، وانتقلت السلطة الحقيقية الى أيدي المماليك

٢ - * الضرائب *

لما فتح العثمانيون مصر فى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) فرضوا عليها خراجاً سنوياً ^{المال الأميرى} يرسل للسلطان ، يجمع من ضرائب الأملاك وخاصة الأراضى . وكانت هذه الضرائب وميزات الملتزمين تسمى « الميرى » (أى الأموال الأميرية) ، وكان لكل جهة ملتزم يتعهد بتوريد ما يخصها من الخراج ، ومن أجل ذلك تُعفى أرضه من الضريبة ، ويكلف الفلاحون زرعها له بالجان ، علاوة على ضريبة أخرى يجيئها لنفسه منهم . وكانت حقوق هؤلاء الملتزمين ومناصبهم وراثية

وكان جانب عظيم من الأرض موقوفاً على المساجد والمدارس والأربطة وغيرها ^{الوقوف} من الأمور الخيرية ، وهو مُعفى أيضاً من الضريبة ويُزرع بعضه (إن لم يكن كله) بالتسخير^{*}

وأنشأ السلطان سليم بالقاهرة قلماً يعرف بقلم « الأفندية » لتقرير الضرائب ومراقبة جمعها وتسليمها من الملتزمين ، وجعل فيه دفاتر لحصر حساب الحكومة وأخرى لتدوين انتقال الملكية

فيعلم مما تقدم ان كاهل الفلاح كان مُثَقلاً بالضرائب وأعمال السخرة . ولست كثرة الضرائب مصابة وقف عند ذلك الحد ، فإن ما كان يتزده منه يكوّن المماليك أنفسهم كان

* روى ان السلطان سليم لما هم بمغادرة الديار المصرية شاوره « خير بك » فى ابقاء اوقاف المماليك أو حلها (وكانت نحو عشرة قراريط من ارض مصر ، جميعها معنى من الضرائب) ، فامر السلطان سليم بابقائها . فاعترض عليه وزيره ، فضرب عنقه

أدهى وأمرّ، فإنّ كل بيك من حكام المديريات كان يفرض على محصول الأراضى ضريبة لإدارة المديرية تسمى « كشوفية » ، وكثيراً ما يفرض على السكان ضرائب أخرى اضافية كلما احتاج الى المال لمحاربة نظرائه من المماليك أو مكافئة الباشا أو السلطان بهذه الضرائب المضاعفة ، التى لم يكن لها حد معلوم ، تسرّب الفقر الى أهل البلاد حتى وصلوا فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى الى درجة من الفاقة لم يسبق لها مثيل

٣ - * المباني *

لم تعد مصر بعد أن فتحها العثمانيون دولة ذات أملاك عظيمة كما كانت من قبل، بل صارت ولاية لا ثروة لها الأمن داخلها، وهذه الثروة ذاتها أخذت فى الاضمحلال بتسرّب الإهمال فى مرافق الزراعة والصناعة ، ثم إن اهتداء البرتقال الى طريق الهند حول جنوبى افريقية حول التجارة المارة بين أوروبا والهند من طريق مصر الى المحيط الاطلنقى (كما سيأتى ذكره) . كل ذلك أضعف كثيراً من ثروة البلاد فصارت لا تقوى على إنشاء الآثار العظيمة التى كانت تقام من قبل

على انه لم ينشأ عن هذه الحالة إهمال المباني جملةً . فالقاهرة مملوءة بالجوامع التركية ، وبها من السبل والأربطة (التكايا) والوكائل والربوع التى شُيّدت فى هذا العصر توخى الاقتصاد شئاً كثيراً ، وإنما نشأ عنها توخى الاقتصاد فى إقامة المباني وزخرفتها ، فلم تعد الجوامع تُبنى بتلك السعة العظيمة التى نشاهدها فى أبنية القرون السالفة ، ولم يُصرف على زخرفتها من المال شئاً يذكر بجانب ما كان يُنفق على مثلها فى تلك الأزمان . ومن نتائج الاقتصاد فى مباني هذا العصر أيضاً ان صارت السبل والمسكاتب تبنى لها ابنية قائمة بذاتها بعد ان كانت من ملحقات الجوامع

كذلك قات الدقة فى البناء ، لقلّة الثروة من جهة ، ولتقهقر الصناعات من أخرى . وليس من آثار هذا العصر ما يلاحظ عليه آثار الدقة الآ القليل ، ومثل ذلك شيد سبيل خسرو باشا فى أوائل عهد العثمانيين فى مصر . ومن أهم هذا النوع سبيل « خسرو باشا » بالنحاسين

المشيّد ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) وهو المجاور لقبة الصالح أيوب بالنحاسين وقصارى القول ان آثار العصر التركى فى مصر ، وان كانت جميلة فى بابها ، هى أقل رونقاً ودقة من آثار المماليك . وسواء فى ذلك المباني أو الترميمات ، فإن هذه الترميمات لم تناسب فى أى أثر رُمّم فى هذا العصر مع جمال البناء الأصل ، وكثيراً ما تكون أشبه بالرقع الخلقة فى الثوب الجميل

واستحدث العثمانيون فى بناء الجوامع بمصر الشكل التركى ، وهو متخذ من شكل كنائس « بوزنطية » القديمة . وأهم شئ فى أوضاعه اتخاذ القباب بدلاً من السقف المستوية ، فصارت القبة فى كل جامع هى المركز الذى يدور عليه البناء بعد ان كانت إشارة الى الأضرحة والتُزب فى الزمن السابق . ومن مميزات هذه المباني أيضاً اتخاذ « القاشانى » المحلى بالأشكال الفرنجية دون العربية ، وبناء المنائر الاسطوانية الشكل أو المنشورية الكثيرة الأضلاع جداً حتى تقرب من الاسطوانية ، وتنتهى غالباً بمخروط أو هرم كثير الأضلاع يتخذ من الخشب

فأول جامع بُنى فى مصر على هذه الأشكال البوزنطية هو جامع سليمان باشا الشهير الآن بسارية الجبل الذى شيد داخل القلعة سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨ م) . ويليه جامع سنان باشا ببولاق المشيّد سنة ٩٧٩ هـ (١٥٧١ م) ، ثم جامع الملكة صفية بالداودية المبنى سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م)

وقد حوكت الأوضاع العربية فى بعض مباني هذا العصر ، إلا أن هذه المحاكاة قلما كانت تامة ، حتى فى أقرب المباني الى الوضع العربى مثل سبيل عبد الرحمن كتخدا المبنى سنة ١١٥٧ هـ (١٧٤٤ م) ، وهو فى ملتقى شارعى النحاسين والجمالية . ويكفى للدلالة على أنه ليس عربى الشكل من كل وجه شكل شبايكه ومصبغاتها النحاسية . (قارن هذه بشبايك سبيل خسرو باشا العربية الشكل)

ولم يكن الولاة وحدهم هم المشيدين لهذه الآثار ، بل ان معظمها كان من عمل أمراء

كتخدا
شيخ المشيدين

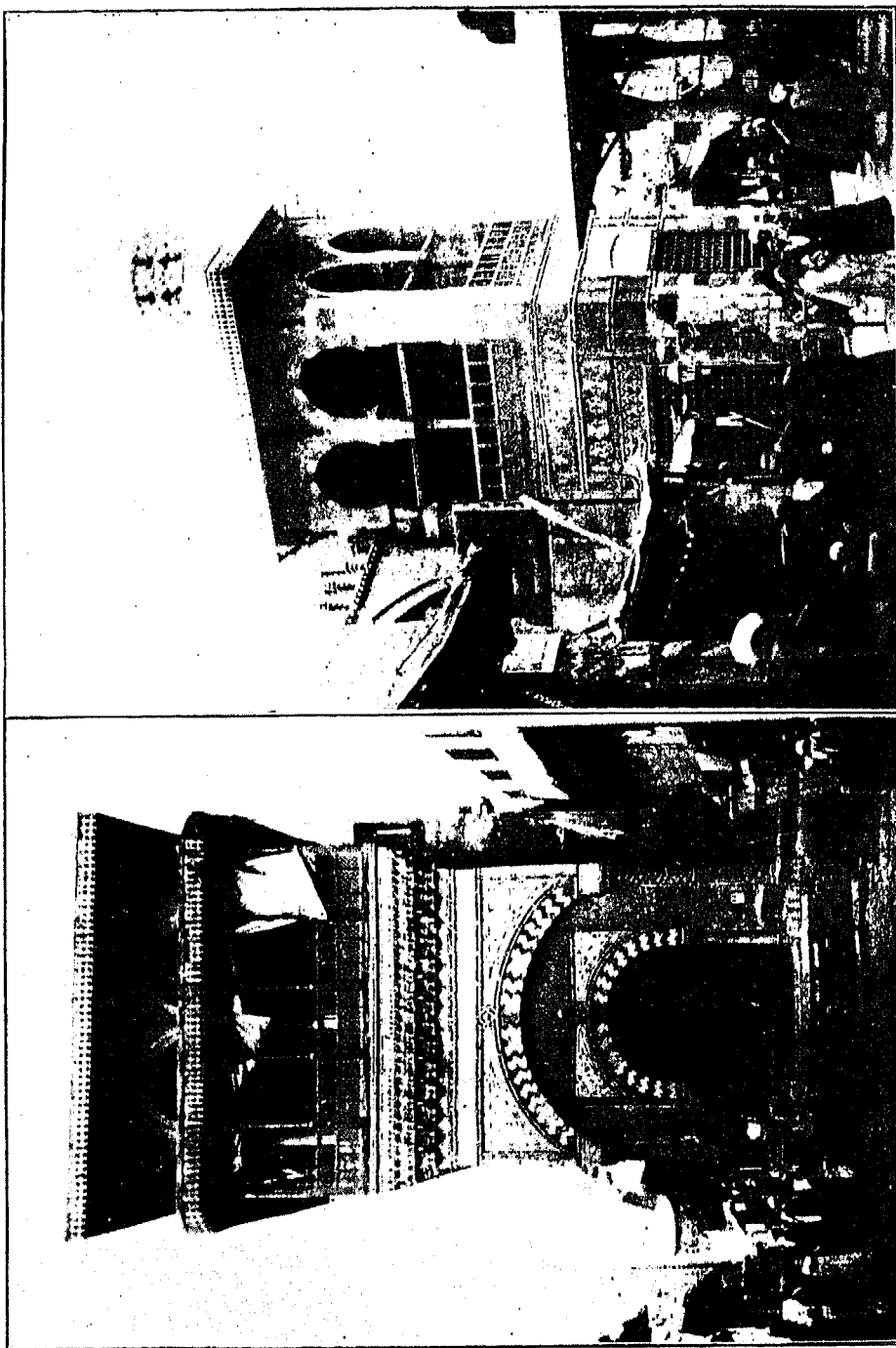
* القاشانى قطع من الخرف المطلق بالبناء عليها أشكال هندسية أو نباتية ملونة

الماليك أنفسهم . وشيخُ المشيدين والمؤمنين في ذلك العصر هو « عبدالرحمن كَتُخْدَا » من كبار الماليك الذين استحوذوا على جانب عظيم من السلطة في أواسط القرن الثامن عشر بعد الميلاد ، فان بالقاهرة من آثاره ١٨ جامعاً ما بين مُنشأ ومجدّد ، وذلك عدا الكثير من الزوايا والأضرحة الصغيرة التي رُمّمها ، وعدا السبل الكثيرة التي أنشأها ، وله أيضاً قناطر (كبارى) وأعمال أخرى هندسية . ومن أجمل آثاره سبيله الصغير ، السالف الذكر ، وان كان في الحقيقة أصغر أعماله . ومن مبانيه جامع خارج باب الفتوح وآخر بالقرب من باب الغُرب ملحَقُ به صهريج وسبيل ومدرسة . وبني صهريجاً آخر للسقائين بالقرب من جبّانة الأزبكية ، وجدّد ضريح السيدة زينب وضريح السيدة سَكينة ، وشيد غيرها بالقرب من باب القرافة وبجهة عابدين وغيرها . ومن أهم آثاره تجديداته بالأزهر ، فإن معظم ما جدّد أُوْزِد في هذا الجامع حتى جعله في شكله الحالي : من عمل عبدالرحمن كَتُخْدَا . ذلك الى ما أنشأه فيه من دور الكتب والمطابخ وغيرها تشجيعاً لطلب العلم

وآخر ما أقيم بمصر من الآثار التركية الجميلة المكتب والسبيل اللذان بناها السلطان مصطفى الثالث (١١٧٣ هـ : ١٧٥٩ م) تجاه مسجد السيدة زينب عند مدخل شارع الكومي الموصل للمدرسة السنية ، والمدرسة والسبيل والمكتب التي بناها السلطان محمود الأول (١١٦٤ هـ : ١٧٥٠ م) في شارع درب الجماميز في مدخل حارة الحبانية أمام قنطرة سنقر . والبناءان في قِمَّة ما وصل اليه فن العمارة التركية البعثة من الإتيقان

يعلم مما تقدم أن الآثار العربية لم تهمل أثناء العصر العثماني في مصر ، بل عُنِيَ بصيانتها وزيد عليها بقدر ما تسمح به ثروة البلاد في ذلك الحين . وإن ما أصاب الآثار العربية من الإهمال (بل الإِبادَة) لم يبتدئ إلاّ منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر م) عند ما استولت الحكومة على ريع الأوقاف التي كان يُصرف منها على صيانتها . وزاد الطين بلة ما ابتدأ به ذلك العهد من إصلاح البلاد

مقي اهملت
المباني العربية



سپیل و مکتب عبر الرحمہ کنڈرا

سپیل و مکتب فسرودہ بانا

(رسم علی افندی یوسف)

على النمط الأوربي ، إذ اقتضى ذلك انشاء شوارع مستقيمة بالقاهرة . وغالى القائمون بهذا الإصلاح ، فهدموا كثيراً من الآثار النفيسة لإيجاد فضاء للشوارع أو الميادين المراد انشاؤها . وأوضح مثال لذلك « شارع محمد علي » ، فإنه لم يتم انشاؤه إلا بعد أن هُدم لأجله الكثير من المباني الأثرية الفاخرة : من ذلك جامع بديع كان « بميدان » « باب الخرق » تلجج كتب التاريخ بفخامته^١ ، وجامع « قوصون » (قيسون) ، وجامع أزيلك (موضع العتبة الخضراء) ، وكان الأخيران من الجوامع الفخمة العظيمة

وربما كان الخطب أعظم لو لم تؤلف « لجنة حفظ الآثار العربية » : ألّفها الخديوى توفيق باشا سنة ١٨٨١م لمنع العبث بهذه الآثار والمحافظة عليها ، فكان لأعمالها أعظم ثمرة في ذلك

٤ — المماليك وأهل البلاد *

مماليك هذا العصر (مَن سبقهم من المماليك) لم يمتزجوا بالسكان الأصليين ، بل عاشوا مُتَرَفِّعين في مَعْرِزٍ عنهم . وقليل منهم من تزوج وكون له أسرة ، إذ كان دينهم الحروب والفروسية ، فلا يَرْضَوْنَ شَيْءَ يشغلهم عنها . ومعظمهم كان يموت في ساحة الوغى وسنّه لا تتجاوز الخامسة والثلاثين . ومن عاش منهم عيشة هادئة ورضى بالزواج (وهو التزير اليسير) كان نسله يندمج على مدى الأيام في المصريين

وقد غالى المماليك في أواخر العصر العثماني في ابتزاز الاموال من الاهلين ، وانغمسوا في الترف في مسكنهم وملبسهم ومعيشتهم ، على غير عاداتهم الأولى المبنية على الخشونة والسداجة في كل شيء ، وصارت حُلَّةُ البيك منهم لا يقل ثمنها عما يعادل ٦٠٠ جنيه الآن (مع عظم قيمة النقود في تلك الأيام) ، ولا يمتطون إلا خيول « نجد » العربية الاصيلة التي يبلغ ثمن أحدها نحو ٣٠٠ جنيه

ولم يكن ذلك قاصراً على البيكوات أنفسهم ، بل ان مماليكهم الذين لم يرتقوا بعد

* هو جامع اسكندر باشا المتولى على مصر سنة ٩٦٣ هـ ، وهو غير اسكندر باشا الفقيه الجركمى الذى انابه سنان باشا عند خروجه الى اليمن ، وسيأتى ذكره بعد

الى مراتب الرياسة كانت ركايبهم مزينة بأفخر الحرائر، ومُرَقَّشة من كل جانب بالذهب والفضة، على حين أن المصريين الاصليين لم يسمح لهم إلا بركوب البغال والحير



شكل مملوك

(عن كتاب وصف مصر)

فقر الأهلين وصار أهل البلاد هم العبيد الحقيقيين، و« المالك » هم السادة . اذ استولى المالك على جميع الأملاك إلا ما كان منها موقوفاً على الأعمال الخيرية في وصاية

العلماء . وتشعثت حال الفلاح حتى صار رثاً في ملابسه ومسكنه ومأكله : لا يكاد يُفنيق من دفع ضريبة شرعية أو غير شرعية حتى يطالب بدفع أخرى ، وإذا امتنع عن الدفع (فقراً أو ادّعاءً) ضُرب وعُذّب حتى يدفع ، وربما قُتل من أجل ذلك واختل الأمن في تلك الأيام ، وكثرت مناسر اللصوص وقطّاع الطرق ، فتأخرت التجارة ، وأهملت مرافق الزراعة ، وانقرض معظم الصناعات ، وكانت قد دخلت الزراعة والصناعة في طور تقهقر بعد أن نقل السلطان سليم أمر الصناع إلى القسطنطينية ، فقضى الفقر واختلال الأمن على البقية الباقية منها

وفي أواخر القرن الثاني عشره (الثامن عشرم) كان تكرير السكر لا يزال جارياً في بعض أنحاء البلاد ، وكذلك بقي أثر من صناعة الحرير والكتان التي كانت لمصر فيها شهرة فائقة من قبل ، كما بقيت نماذج من صناعة الزجاج على ان الذي لطّف هذه الحالة أن ما كان يُجَبّي من البلاد كان يصرف في نفس كرم الممالك البلاد : فالثروة التي كانت ترد متجزئة إلى خزائن الأمراء وتتجمع فيها ، تُنفق بعد متجزئة إلى التجار من الأهليين بعد دفع الخراج ، الذي لم يكن كبيراً . ولم يكن ظلم الممالك وعسفهم ليمينهم من الكرم وبذل الصدقات ، فكان كبار القوم يعيشون في رخاء وسعة ، وكانت بيوتهم مفتحة للقادمين في الغداء والعشاء . وكانوا في الاعياد يوزعون كثيراً من الارز والعسل واللبن على الفقراء والمساكين ، كما يوزعون عليهم الحلوى أيضاً في أيام الجمعة والمواسم

ولم يكن أمراء الممالك وحدهم هم أصحاب القصور الفاخرة ، بل شاركهم في ذلك كثير من التجار ، وكان من بين المنازل الكبيرة المطلة على بركة الازبكية (حديقة الازبكية الآن) منزل لتاجر شهير يدعى « أحمد الشرايبي » غاية في الحسن . وكانت لهذه الاسرة ثروة طائلة ، وبيتهم يؤمه العلماء من كل جانب لاشتماله على كل ما يرغب الطالب من الكتب ، التي كانوا يُعَنّون بجمعها من كل سوق ، ولا يضمنون على أحد باعارتها

درجة تقدم العلم
في ذلك العهد

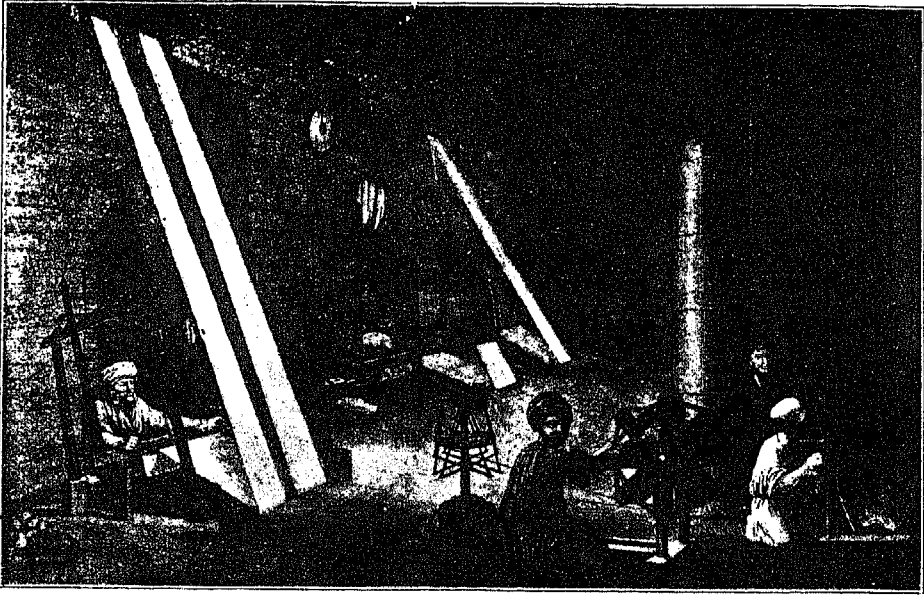
وان اهتمام هذه الاسرة وأمثالها بجمع الكتب وتسهيل اعارتها يدلنا بعض الدلالة على مقدار إقبال الناس على العلم في هذه الايام . ويؤيد لنا ميل الناس الى الانقطاع الى طلب العلم ذكر ذلك العدد الكبير من أهل العلم والتأليف الذين 'عنى' «الجبرى» بكتابة تراجمهم : من مشايخ الاساتذة والعلماء ، والمؤرخين والشعراء ، وغيرهم ممن ليس لهم نظير في زماننا . غير ان اشتغالهم كان قاصراً على مدارس قواعد العلوم اللسانية والشرعية والرياضة النظرية . فلا هم تأثروا بالنهضة العلمية باوربا ، ولا هم رجعوا الى النهضة العربية القديمة التي جعلت عصر الرشيد والامين والمأمون من أزهر عصور العلوم العملية

٥ — ﴿ تجارة مصر وشواطئ البحر الأبيض ﴾

وتأثيرها بالاستكشافات البرتغالية في افريقية

التجارة مصدر
ثروة عظيمة
للممالك

كان سلاطين دولتي الممالك البحرية والبرجية في سعة عظيمة من المال ، تبدل عليها مبانهم الشاهقة وآثارهم النفيسة . لأن موارد ثروتهم لم تكن بالطبع قاصرة على الزراعة التي هي أساس ثروة مصر الآن ، بل ان كثيراً منها كانت من الضرائب المفروضة على التجارة الهندية العظيمة عند مرورها الى اوربا . وذلك أنه قبل الاهتداء الى الطريق المؤدية من اوربا الى الهند حول جنوبي إفريقيا لم يكن للتجارة الهندية مع اوربا الا طريق البحر الأبيض المتوسط : تنقل البضائع برّاً من الخليج الفارسي الى البحر الأحمر الى اسكندرونه أو الاسكندرية على شاطئ البحر الأبيض ، ومنهما تنقل بطريق هذا البحر الى مدينة «البندقية» حيث توزع في اوربا . وسواء أُنقلت البضائع بطريق الخليج الفارسي أم بطريق البحر الأحمر (وهو الأغلب لموافقته) تمرّ لا محالة من أراضي الممالك ، اذ هم المالكون في ذلك الوقت لمصر والشام معاً . فانتفع الممالك بهذه المزية أيّما انتفاع ، وضربوا مكوساً كبيرة على التجارة عند دخولها في أملاكهم وعند خروجها منها ، فكان ذلك يأتيهم بدخّل لا يُستهان به



بقايا الصناعات المصرية
(١ - مصنع نسيج — ٢ - مصنع زجاج)

وقد كان لمرور التجارة الهندية من هاتين الطريقين أكبر أثر في ترويج تجارة البحر وجنوة والبندقية الأبيض المتوسط ، وعظمت بسببها ثروة الدولتين اللتين اشتهرتا بالملاحة فيه : وهما « جنوة » و « البندقية » ، ولا سيما الأخيرة ، فإنَّ تجارتها نالوا لدى الممالك حظوة كبيرة وصلت بهم في آخر الامر الى احتكار نقل هذه التجارة العظيمة

ولم يتفق المؤرخون على تفاصيل مقدار المكوس التي كان يجبيها الممالك من هذه مقدار المكوس التجارة ، ولكن المفهوم من تقدير معظمهم أنها لم تقلّ عن سدس ما تساويه البضاعة وقت وصولها الى حدود الاملاك المصرية ، وسدس ما تساويه أيضاً عند خروجها من موانئها . فاذا فرضنا أن أحد تجار العرب اشترى من الهند بضاعة بما يعادل ١٠,٠٠٠ جنيه مثلاً ، وسلك طريق البحر الاحمر حتى رسا بها في السويس ، أصبحت قيمتها بالطبع أعظم كثيراً مما اشترت به من الموانئ الهندية ، ولنفرض أنها صارت تساوي ١٨,٠٠٠ جنيه مثلاً . فيكون ما يدفع عنها من المكوس حينئذٍ يعادل ١٨,٠٠٠ $\times \frac{1}{4} = ٣,٠٠٠$ جنيه . ثم يشتريها تاجر آخر ، فينقلها الى الاسكندرية ليبيعها الى أحد تجار البندقية ، فتزيد قيمتها بالطبع بقدر ما دُفع عليها من المكس وأجر النقل وبقدر الربح الذي يريده التاجر الثاني ، ولنفرض أنها صارت تساوي ٣٠,٠٠٠ جنيه . فتكون مكوسها بالاسكندرية تعادل $٣٠,٠٠٠ \times \frac{1}{4} = ٥,٠٠٠$ جنيه . أى أن مجموع ما دُفع عليها من المكوس يبلغ $٣,٠٠٠ + ٥,٠٠٠ = ٨,٠٠٠$ جنيه ، وذلك عدا ما يكون قد دُفع عنها لعمال الحكومة على سبيل الهدايا أو الرشوة : مما يقدر بألف جنيه أو الفين ، أى أن مجموع ما دخل الاراضى المصرية من المال بسبب مرور هذه البضاعة فيها (١٠,٠٠٠ جنيه تقريباً) يقرب من الثمن الاصلى الذي دُفع عنها في الهند . زد على ذلك أن تجار العرب كانوا تحت رحمة الممالك : يصادرونهم أحياناً ، ويقترضون منهم قهراً كلما احتاجوا الى المال . ومن ذلك نعلم السر في بقاء دولتى الممالك البحرية والجرأكسة على تلك الدرجة العظيمة من الثروة التي مكنتهم من حفظ أبهة الملك وتشديد القصور الشاهقة والمباني الفاخرة جيلاً بعد جيل

ولا يخفى أن البضاعة التي اشتراها تاجر البندقية من مصر بمقدار ٣٥,٠٠٠ جنيه كانت تباع في أوروبا بأهبط الأسعار، وربما بلغ ثمنها هنالك ٧٠,٠٠٠ جنيه. فاشتعل الحسد في الممالك الأوروبية الأخرى من هذه الأرباح العظيمة التي لا ينقطع تدفقها في جيوب البنادقة والمصريين بسبب احتكار التجارة الهندية، فدفعمهم ذلك إلى التفكير في الاهتداء إلى طريق أخرى توصل إلى الهند، حتى ينالهم شطرٌ من أرباح تلك التجارة العظيمة. وساعد على إثارة هذه المهمة قيام النهضة العلمية العامة التي ابتدأت في أوروبا بعد فتح القسطنطينية (نهضة أحياء العلوم) وولدت في تلك البلاد روح الاستطلاع والاستكشاف

غيرة أوروبا
من البنادقة
والمصريين

نهضة أحياء
العلوم بأوروبا

وأول من فكّر من الأوروبيين في البحث عن طريق أخرى إلى الهند هم «البرتقال» في الاستكشاف وهم أمة تسكن الجزء الغربي من شبه جزيرة الأندلس: كانوا إحدى الإمارات التي استولت عليها العرب في الأندلس، وانسلخوا عن حكمهم قبل إجلاء العرب من تلك البلاد (في سنة ٨٩٧ هـ: ١٤٩٢ م) بقرنين تقريباً. ومن ذلك الحين أخذوا يدافعون عن استقلالهم من غارات مملكة «قشتالة» (كستيل) المجاورة لهم، حتى أمّنوا شرها بانتصارهم عليها في واقعة «الجبروتا» سنة ٧٨٧ هـ (١٣٨٥ م) ثم تولى عرش البرتقال الأمير «هنري» (الشهير بهنري «الملاح» لكثرة استكشافاته البحرية وعظم ما أصلحه في الملاحة)، فتمّ في أيامه من الاستكشافات ما نسخ آراء الأقدمين بشأن شكل العالم المعمور، وكانت عاقبته كشف طريق الهند والدنيا الجديدة

البرتقال ونهضتهم
في الاستكشاف

هنري الملاح
ومعاظنته
للملاحة

شرع هذا الملك منذ سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) في العمل على كشف طريق جديد للهند، فأقام بثغر «سجّر» في الجنوب الغربي من البرتقال (وهو يكاد يكون أقصى نقطة في أوروبا من جهة الغرب)، وأنشأ فيه مرصداً ومدرسة بحرية لتعليم الملاحة، ودعا إليها علماء الفلك وكبار الملمّين برسم المصورات الجغرافية، وعُني بصنع السفن العظيمة للاستكشاف خاصة، وأدخل فيها استعمال بيت الإبرة (البوصلة) ناقلاً

بحثه عن طريق
للهند
حول إفريقية

استعمالها عن العرب ، وحسن آلة « الأسطرلاب » التي يُعرف بها خط العرض بالتقريب

ثم عول بعد استشارة من حوله من العلماء على تتبع شاطئ أفريقية بقصد بلوغ الهند . وكان الشاطئ الغربي من أفريقية لا يعلم منه حينئذٍ لأهل أوربا شيء جنوبي « رأس بوجادور » . وكانت المصورات الجغرافية التي رسمها الأقدمون بعضها يمثل بقية أفريقية بنصف دائرة تمتد من الشمال الغربي (جهة مراكش) الى جنوبي البحر الأحمر ، وبعضها يتركه غير محدود اشارة الى أنه لم يكشف بعد

فراى هنرى أن يستكشف عن هذا الشاطئ ، حتى اذا سار حوله الى الشرق بلوغ
بحَثَ عن طريق تؤدي الى الهند من تلك الجهة . فأرسل لهذا الوجه بُوتاً بحرية الرأس الأخضر
سنة بعد أخرى ، فكان كل بعث يصل الى وراء ما وصل اليه سالفه ، حتى وصل آخر بعث في عهده الى « جزائر الرأس الأخضر » . وما زالت هذه الاستكشافات ينبع بعضها بعضاً حتى بلغ « برتولو ميودي باز » الملاح البرتغالي الشهير الى طرف أفريقية الجنوبي ، وسار حوله حتى وصل الى خليج « ألجوا » سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) . وسمى هذا الطرف « رأس الزوابع » (لهول ما لاقاه في السير حوله) ، ولكن ملك البرتغال (ابن هنرى) أدرك قيمة هذا الكشف العظيم ، ورأى أنه فاتحة خير لتحقيق أمنية دولته وهي الاهتداء الى طريق الهند . وعمل على مواصلة هذه الاستكشافات

وفي هذه الأثناء كان المستكشف العظيم « خريستوف كولومب » قد خرج في بعث بحري أمده به ملك الأسبان ، وسار به غرباً يأمل الوصول الى الهند من هذا الطريق الغربي اعتقاداً منه بكروية الأرض ، فوصل الى إحدى جزائر الهند الغربية سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . فظن الناس أن هذه جزء من بلاد الهند ، وأن « كولومب » قد كشف الإسبان طريقاً الى تلك البلاد اقصر وأسهل من الطريق الطويل الذي يعاني البرتغال كشفه . فوقفت الاستكشافات البرتغالية فترة من الزمن ، الى أن اتضح أن كولومب لم يهتد الى طريق الهند ذاتها ، وأن طريقه إن أدى اليها يكون أطول

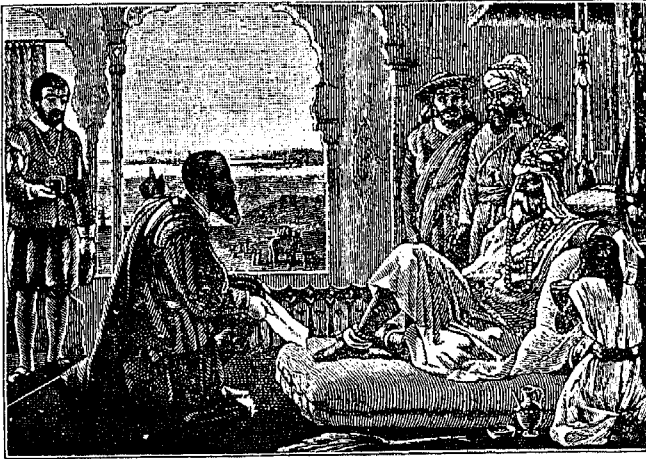
وقوف
الاستكشافات
البرتغالية فترة

من الطريق حول افريقية . فرجع البرتقال الى مواصلة استكشافاتهم ، وفي سنة ١٤٩٠ هـ (١٤٩٦ م) أرسل ملكهم « إمانويل » بعثاً لهذا الغرض برئاسة الملاّح العظيم « فاسكو دي جاما » ، فوصل الى رأس الزوابع الذي سماه تفاولاً « رأس الرجاء الصالح » . وبعد ان كابد مصاعب جمة في المسير حوله ، لشدة الرياح الجنوبية الشرقية ، سارازاء شاطئ افريقية الشرقي

استئناف
الاستكشاف
بقيادة فاسكو
دي جاما

ومن ثمّ شرع يسأل من الثغور التي يمر عليها عن الطريق المؤدية الى الهند ، فكان كلما حلّ بثغر وجده مسكوناً بالعرب ، فكانوا يمتنعون عن ارشاده ، مخافة أن يجرّ عليهم ذلك منافسة تجارية لا طاقة لهم بها . وبعد أن أخفق سعيه في « مزنبيق » و « كلوة » و « منبسة » فاز في « ملندة » ، حيث أخذ ما يلزمه من الزاد واصطحب معه أحد الهنود العالمين حق العلم بالطريق الى « قليقوت » (على الشاطئ الغربي للهند) . فوصلها « جاما » بهداية هذا الدليل في ثلاثة وعشرين يوماً

وصوله
الى قليقوت



فاسكو دي جاما في حضرة الزامرين

ولم يرحّب به في بادئ الأمر ملكها الملقب « زامرين » (أي ملك البحار) ، بل زاد في تنفيره منه تجار العرب في تلك الجهات ، إذ أفهموه أن البرتقال ليسوا إلاّ

لصوص بحر لا عمل لهم إلا النهب والسلب في البحار . ولكن « جاما » (أول مستعمر جاما والرايرين أوربي في الشرق) استعمل الملق والثبات ، وما زال بالزامرين يتلقه ويشرح له غرضه حتى استماله ورغبه في تبادل التجارة مع البرتغاليين ، وعقد معه معاهدة تجارية كانت بعد ذلك سبباً في زوال ملكه

بذلك تم للبرتغال كشف طريق جديدة للهند ، فكانت فاتحة لا تقابل عظيم تأثير كشف الطريق الجديدة في تجارة العالم بأسره ، اذ ان ثقل البضائع صار يُنفق عليه بهذه الطريق ثلث ما كان يُنفق بالطريق القديمة ، فوق متاعها ومضايقتها . فكانت النتيجة أن تحول مجرى هذه التجارة العظيمة من مصر والشام والبحر الأبيض المتوسط الى المحيط الاثنتي حول شواطئ افريقية

وقد وقع خبر كشف الطريق الجديدة وقوع الصواعق على مصر والأمة التجارية بالبحر الأبيض ، ولا سيما البنادقة ، لعلمهم ان فيه الضرر القاضية على أهم منابع ثروتهم . وكان البرتغال قد أخذوا في توسيع نفوذهم في بلاد الهند ، غير مكثفين بالعلائق التجارية بل استولوا بالسيف والمدفع على إمارة « قليقوت » وجعلوها في عداد مستعمراتهم

وذلك ان السلطان الغوري اتحد سراً مع البنادقة ومع ملك « قليقوت » (الذي اتضح له سوء نية البرتغال) على أن يعملوا معاً على نزع سيادة البرتغال من الشرق . فأنشأ الغوري أسطولاً عظيماً ، وساعده البنادقة بحلب الأخشاب اللازمة لبنائه ، فظهر الأسطول في البحار الهندية والتقى بسفن البرتغال بالقرب من شواطئ بمباي ، فكانت الغلبة للمصريين ، وقتل ولد الوالي البرتغالي (ألميدا) بالهند في تلك الموقعة . ولكن لم يلبث البرتغال أن جمعوا أسطولاً آخر ، وحاربوا المصريين في موقعة بحرية عظيمة بالقرب من جزيرة « ديُو » أمام بمباي سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م)

وانتصروا فيها على المصريين في موقعة كانت هي الفاصلة في أمر التجارة الهندية فإنه لما خضعت مصر بعد للدولة العثمانية لم يصبح لها من الأمر شيء في مكائفة البرتغال . ولما اشتد عبث البرتغال بسفن غيرهم ممن حاولوا الاتجار في تلك البحار ،

اتحاد الغوري
والبنادقة
والزامرين
على البرتغال

واقعة ديُو

تهاون العثمانيين بعث السلطان سليمان القانوني أحد ولاه مصر بأسطول لردعهم ، فلم يفلح . والحق أن العثمانيين لم ينتهزوا الفرص المناسبة لمنازلة البرتغال والاستيلاء على الثروة الهائلة التي كان يجنيها المماليك من مرور تجارة الهند من مصر والشام . فكان الواجب عليهم أن يتحدوا مع البنادقة (شركائهم في هذه الخسارة) ، ويستعينوا بهم في القضاء على أساطيل البرتغال ، ولكنهم غفلوا عن ذلك ، بل كانوا هم القاضين على قوة البنادقة بحروبهم التي شنوها عليهم واستيلائهم على كثير من أملاكهم ومن ذلك الحين كثر التلصص في البحر الأبيض ، ففضى على البقية الباقية من التجارة التي كانت تمر من هذا البحر

٦ — أشهر الولاة وأهم الحوادث ❊

خير بك أول من ولي العثمانيون على مصر من الولاة « خير بك » : ولأه السلطان سليم مكافأة له على مساعدته في فتح مصر والشام . وبقي في منصب الولاية أكثر من خمس سنوات كان فيها مكروهاً من جميع الرعايا المسلمين . فقرَّب منه اليهود والنصارى وأخذ بنصرهم ، فلم يغرن ذلك عنه شيئاً . ولما ازداد كُرْبُهُ من الحياة أفرج عن كثير من مسجونى القاهرة ، ووزع كثيراً من المال والخيرات على المساكين وخدمة المعاهد الدينية . وقد أبدى أسفه الشديد وهو في سياق الموت على ما فرط منه . ودُفن بمسجده الذى بناه بالتبانة بالقرب من باب الوزير بمجهة الخير بكية المسماة بهذا الاسم نسبة اليه

مصطفى باشا وخلفه « مصطفى باشا » زوج أخت السلطان سليمان القانوني . وهو أول من لقب بلقب باشا من ولاية مصر . وكان لا يعرف العربية ، ولا يُظهر شيئاً من الحفاوة للوافدين عليه والمهتئين له من أهل البلاد

احمد باشا ولم يمض عهد طويل بعد الفتح حتى ظهر فضل احتياط السلطان سليم لتقييد ومحاولته الاستقلال بمصر سلطة الوالى ، فان الوالى الثالث « احمد باشا » همّ بعمل ما كان يُخشى منه ، إذ

أراد الاستقلال بمالك مصر، فأمر بضرب السكة باسمه، والدعاء له في الخطبة . ولكنه لم يلبث أن قبض عليه وأرسل رأسه الى القسطنطينية بعد أن علّقت على باب زويلة على أن تاريخ مصر في القرنين الأولين من الفتح العثماني ليس به شيء من الأخبار الموثقة ، ولا يشتمل غالباً على غير سلسلة من الولاة لا يكاد الواحد منهم يعين حتى يُعزل ، منهم نفر قاموا بتشديد بعض المساجد والمدارس ، ومنهم من لم يشتغل بشيء سوى التزود من المال قبل أن تنقضى مدة ولايته . ومع ذلك كان ولاه القرن الأول وأكثر الثاني في العدل وضبط الأمور خيراً ممن أتى بعدهم

ومن أعظم الولاة العاملين في ذلك العصر « سليمان باشا » : نصّب على مصر سنة ٩٣١ هـ (١٥٢٥ م) ، فاهتم بالنظر في أحوال البلاد وإصلاح ما فسد منها ، فعين مأموراً لمسح الأراضي ، ورتب الضرائب على أحسن نظام ، واستحدث دفاتر جديدة لأعمال الحكومة ، وشيّد كثيراً من المباني النافعة . وفي مدة ولايته كثر تعدى سفن البرتقال على بلاد البحر الأحمر وسواحل الهند حتى قطعت المواصلات التجارية بين مصر وتلك الجهات . فاستعانت « درشاه » حاكم « كجرات » بالسلطان سليمان القانوني ، فأصدر السلطان أمراً الى سليمان باشا بإنشاء أسطول بالديار المصرية والخروج به الى البحر الأحمر لكسر شوكة البرتقال ، فجهز سليمان باشا الأسطول وشحنه بالجيوش وأقبح به من السويس سنة ٩٤٤ هـ (١٥٣٨ م) . فاستولى على « عدن » ، ثم توجه الى بلاد الهند ، فالتحم مع البرتقال في المياه الهندية في موقعة عظيمة كان النصر فيها للبرتقال بالرغم مما بذله سليمان باشا من الجهد العظيم

وكانت ولاية مصر قد أسندت أثناء اشتغال سليمان باشا بأمر حملة الهند الى اناة خسرو باشا « خسرو باشا » سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٥ م) ، فأنتم الإصلاحات التي بدأها سليمان باشا ثم زاد في مقدار الجزية التي تُرسل للدولة ، فاستدعى الى الاستانة مخافة أن يكون قد أحدث ضرائب جديدة تضر بالبلاد . ولما عاد سليمان باشا الى مصر تسلم مقاليد الأمور ثانية، وبقي والياً عليها الى أن استدعى الى الاستانة وأسند اليه مسند الصدارة العظمى بها

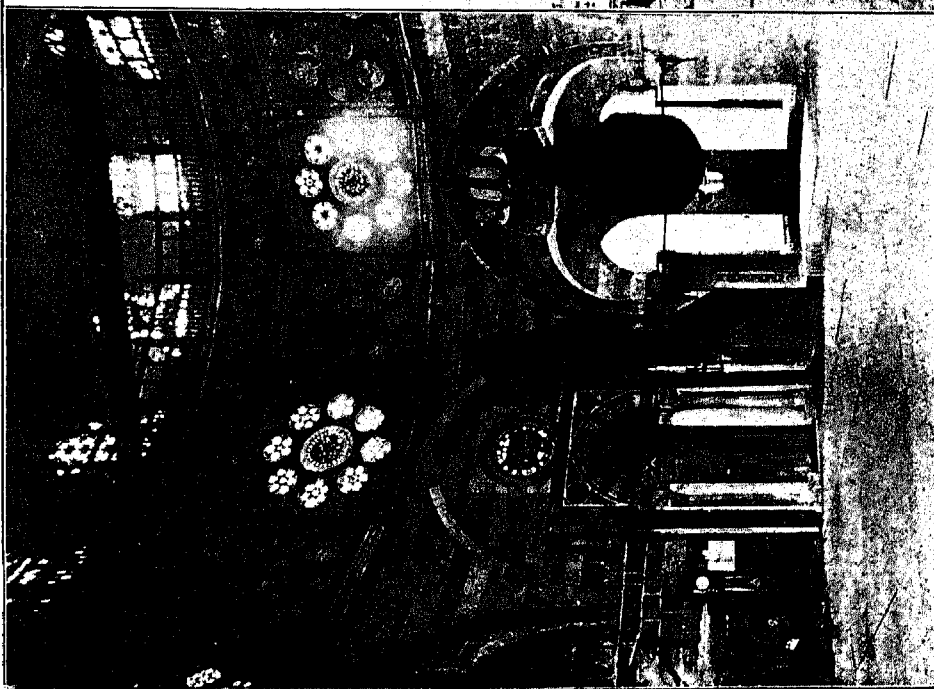
سليمان باشا
واصلاحاته

خروجه
لمحاربة البرتقال

- سنان باشا ثم تتالت الولاة على مصر حتى وليها « سنان باشا » سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧ م)، فأخذ يتصرف في شؤون البلاد بحكمة وتدبر، وبعد تسعة أشهر وردت عليه الأوامر السلطانية بأن يستعد لفتح بلاد اليمن واستخلاصها من « الزيديين ^(١) » فجهز جيشاً، وخرج به من مصر سنة ٩٧٦ هـ (١٥٦٨ م) بعد أن أناب عنه في الولاية لفتح اليمن « اسكندر باشا ^(٢) ». ولما عاد من فتح اليمن سنة ٩٧٩ هـ (١٥٧١ م) تسلم ولاية مصر ثانية وأخذ يشيد المباني، فأنشأ في بولاق (سنة ٩٧٩ هـ : ١٥٧١ م) رباطاً (تكية) ومسجداً كبيراً لا يزال إلى الآن من أعظم الآثار العثمانية بمصر، وهو ثاني مسجد بُني بها على الأشكال البوزنطية. وبقي سنان باشا بمصر سنتين كان أثناءهما موضع محبة الأهالي، لكثرة إصلاحاته وعظم مبراته
- مسيح باشا ومن أفضل الولاة الذين وُلوا مصر بعده « مسيح باشا » (٩٨٢ — ٩٨٨ هـ : ١٥٧٤ — ١٥٨٠ م)، وكان من أكثر الحكام عفة واستقامة، وأشدّهم حرصاً على نشر الأمن وإقامة العدل. إلا أنه تشدد في معاقبة المفسدين، فقتل منهم نحو عشرة آلاف. وشيّد مدرسة وتربة له خارج القرافة بشارع نور الدين بعرب اليسار، ووقف عليهما أوقافاً باسم الشيخ نور الدين القرافي
- اضمحلال نفوذ الولاة ثم أخذ نفوذ الولاة في الاضمحلال، لعجز الكثير منهم، وقوة شوكة الجنود بالبلاد وتدخّلهم في كل شؤونها، حتى صاروا هم الأمرين الناهين للولاة. فلما ولي « أويس باشا » على مصر (٩٩٥ — ٩٩٩ هـ : ١٥٨٧ — ١٥٩١ م)، وأراد أن ينظم أولاد العرب من المصريين في سلك الجيش، اشتعل لهيب الفتنة بين الجنود، ولم يقبلوا أن يتشبه بهم غيرهم في لباسهم، وهجموا على أويس باشا وأهانوه (٩٩٧ هـ : ١٥٨٩ م)، فاضطر إلى الإذعان لمطالبهم. ومما يجدر ذكره بمناسبة ولاية أويس باشا

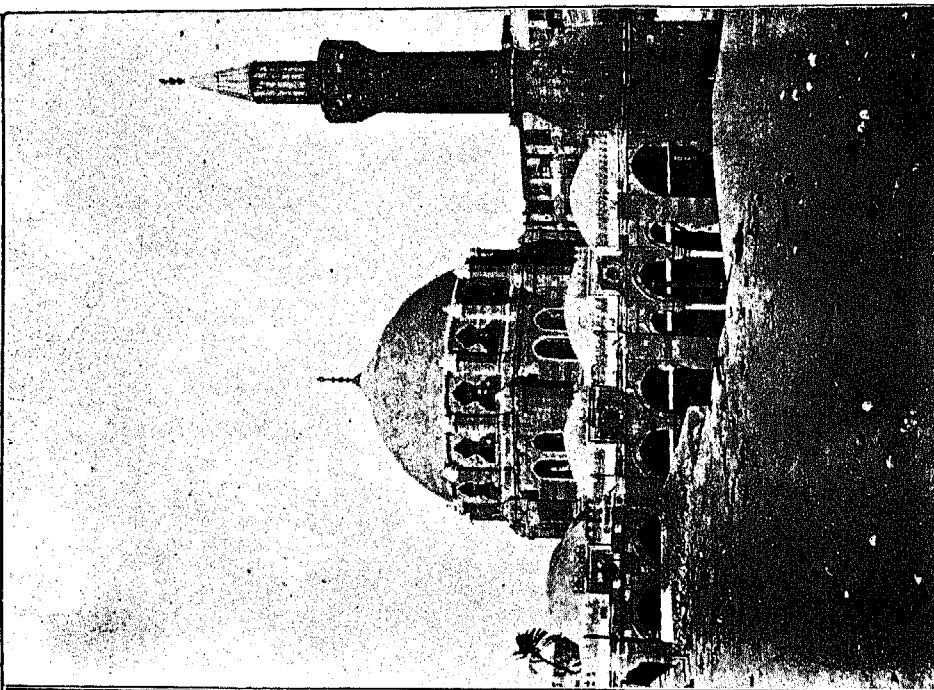
(١) وهم قوم من شيعة زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي كرم الله وجهه. وهم جملة فرق جهرتهم الآن باليمن ولهم فيها امام لا يزال خارجاً على الخلفاء من العرب أو الترك

(٢) اسمه اسكندر با. الفقيه الجركسي، وهو مسلم طبعاً



(٢)

(رسم على اقتدى يوسف)



(١)

جامع سانه بلنا
— (٢) من الداخل
(١) من الخارج

أنه حدث في عهده زلزال عظيم سقط به عدة منارات وبيوت ، وتماق جبل المقطم زلزال
قرب اطفيح الى ثلاث فلق تفجر منها الماء

وما زال روح الفتنة ينتشر في الجنود عاماً بعد عام ، ويشند تطاولهم على الولاة ، حتى
وُلِّي « قره مصطفى باشا » سنة ١٠٢٢ هـ (١٦٢٢ م) ، وكان قوى البأس ساهراً على
توطيد السكينة ، فأخذ يتجول بنفسه في الأسواق ، وينظر في الشكاوى والأسعار ،
ويحكم في الجنايات بنفسه ، فهابه الجنود . وكان لأعماله وقع حسن في القلوب ، وعظم
في أعين الناس . ولما جلس السلطان مراد الرابع على عرش آل عثمان سنة ١٠٣٣ هـ
(١٦٢٣ م) عزل هذا الوالى من مصر ونصب مكانه « على باشا الجشنجى » .
فطلبت منه الأجناد الأعطية المعتاد توزيعها عند تولية الوالى الجديد ، فلما لم يجب
طلبتهم لم يعترفوا بعزل قره مصطفى باشا ، واضطروا على باشا الى العودة من حيث أتى .
وعند ما ركب البحر أطلقوا على سفينته بعض القذائف من قلعة منار الاسكندرية * ،
فلم ينج إلا بصعوبة . ثم أرسل الجنود مندوباً منهم الى الاستانة ، فقال لهم أمراً
سلطانياً ببقاء قره مصطفى باشا فى الولاية ، فعاد الباشا الى مصر سنة ١٠٣٥ هـ
(١٦٢٥ م) . وفى عهده ظهر بالبلاد وباء شديد ، فصار يغتصب أموال المتوفين
لنفسه كأنه الوارث للناس . فرُفعت فى حقه الظالمات لدار الخلافة ، فعزله السلطان
ثم قُتل بعدُ بالقسطنطينية . ولقره مصطفى باشا من العمارات والمدارس التى شيدها
بمصر شئ كثير

ولم يكن الوباء الآنف الذكر الوحيد من نوعه فى هذا العصر ، بل حدث غيره
طواعين كثيرة ، وكانت تصحبها غالباً المجاعات (وتلك سنة معتادة فى التاريخ) .
ومن أوبئة هذه المدة طاعون جدت سنة ١٠١٢ هـ (١٦٠٣ م) فلك بكثير من
القرى والامصار ، وآخر تفشى بالبلاد سنة ١٠٢٨ هـ (١٦١٩ م) فاشتد بطشه حتى
أُقفلت الأسواق وتعطلت الأعمال . وفى سنة ١٠٣٠ هـ (١٦٢١ م) حدث غلاء

عظيم أعقبه وباء آخر بقي يفتك بالبلاد نحو ثلاثة أشهر . ولم يكد ينسى هذا حتى حدث سنة ١٠٣٥ هـ (١٦٢٥ م) وباء أنكى من السالف . وأعظم من هذا كله وباء حدث سنة ١٠٥٢ هـ (١٦٤٢ م) لم يُسمع بمثله من قبل ، كثرت فيه الموتان حتى صارت الموتى تدفن بلا صلاة ، وخربت به ٢٣٠ قرية . وأعقبه قحط وغلاء

تضاعف
نفوذ الجند

وفي هذه الأثناء كانت الجنود العثمانية بمصر دائبة على جمع السلطة في قبضتهم ، حتى جعلوا الولاية ألوية في أيديهم ، فعجزوا عن ردعهم وتأمين الرعايا شرراً فمأسداً . وصارت كل طائفة من الجند تأخذ في حمايتها جملة من التجار أو المزارعين أو الملاحين فيقتسمون معهم الأرباح ، وفي نظير ذلك يحمونهم من أداء حقوق الحكومة . وما زالوا في شغب على الولاية ، وهم معهم في مكلفات ، حتى عظمت قوة البيكوات المماليك ، فقصوا على نفوذ الطائفتين

✽ عودة النفوذ الى المماليك البيكوات ✽

أدت كثرة تنقل ولاية العثمانيين الى عدم تأييد نفوذهم في مصر ، والى استرجاع المماليك (الراسخة قدمهم بالبلاد) لكثير من قوتهم الأولى ، وساعد على نمو هذه القوة طول أمد النزاع بين الولاية والجند ، حتى اشتغل الطائفتان بمشاحناتهما عن كل ما سواها

اسباب عودة
النفوذ
الى المماليك

ومما ساعد المماليك على القبض على السلطة تمهيدهم الطريق لاتحادهم ، باختيارهم زعيماً من بينهم وهو حاكم القاهرة ، المسمى اذ ذاك « شيخ البلد » . وكان المماليك قد تعودوا من قديم الزمان جلب مماليك احداث وتدريبهم ليكونوا لهم حاشية وانصاراً . فسمحت لهم الدولة بالسير على هذا النظام ، فأصبح لزعمائهم من ذلك قوة لم يعد للولاية قبل بدفعها . وذلك ان المماليك الاحداث الذين يُشرون بالمال كانوا يُجرّرون عادة بعد بضعة أعوام ، فيبقون الحرمة لأسيادهم ، حتى اذا ولجوا أبواب الرقي ، وصاروا أنفسهم بيكوات ، لا يألون جهداً في تلبية دعوة مواليهم الأولين متى

شيخ البلد

استمدوا منهم المعونة . فكان يكون لشيخ البلد دائماً عصبية من مواليه وعنتقاه البيكوات يعظم بها شأنه ، وصار للماليك قوة لم يكتفوا باستخدامها في عزل من أرادوا عزله من الولاية ، بل أخذوا يطمحون الى التخلص من السيادة العثمانية جملة ، وبخاصة عند ما دخلت الدولة في طور التمهقر وشُغلت بحروبها مع النمسا والروسيا ، كما ذكرنا آنفاً

وتنبه بعض الولاة الى ما يرمى اليه الماليك ، فعملوا على دسّ الدسائس بينهم ، وتفريق كلمتهم . وكان الماليك منقسمين الى احزاب (أعظمها « القاسمية » ، و « الفقارية » *) ولم تسلم الطائفتان من عداوة بينهما . فلما عُهد بولاية مصر الى « حسين باشا كتحدا » سعى في تفريقهما ، وتفاقت العداوة بينهما حتى وصلت سنة ١١١٩ هـ (١٧٠٧ م) الى حد اثار بين الفريقين حرباً استمرت نيرانها ثمانين يوماً . وقيل ان المتخاصمين كانوا أثناء هذه المدة يخرجون من القاهرة نهراً للمحاربة ، ثم يعودون اليها بالليل فيبيتون فيها كغيرهم من السكان

وأُسفرت هذه الفتنة الطويلة عن قتل شيخ البلد « قاسم بك ابواظ » زعيم القاسمية . فخلفه ابنه « اسماعيل بك » . فأصلح ما بين الماليك ووحد كلمتهم ، وصارت لشيخ البلد الكلمة العليا على الوالى . فعمل الوالى سرّاً على تحريض الفقاريين عليه الى أن قتله أحدهم « ذو الفقار » ، فوهب له الوالى ثروة اسماعيل بك ، وأُسند منصب شيخ البلد الى « جركس بك » بعد أن فتك بأتباع اسماعيل بك . ويعرف اسماعيل بك هذا باسماعيل بك الكبير ، ومن آثاره بمصر سبيل ومكتب بمجهة سوق العصر القديم بمدخل الداودية وحوش الشرقاوى كانا من أجمل مباني ذلك العصر ، وبقي منهما الآن جزء خرب

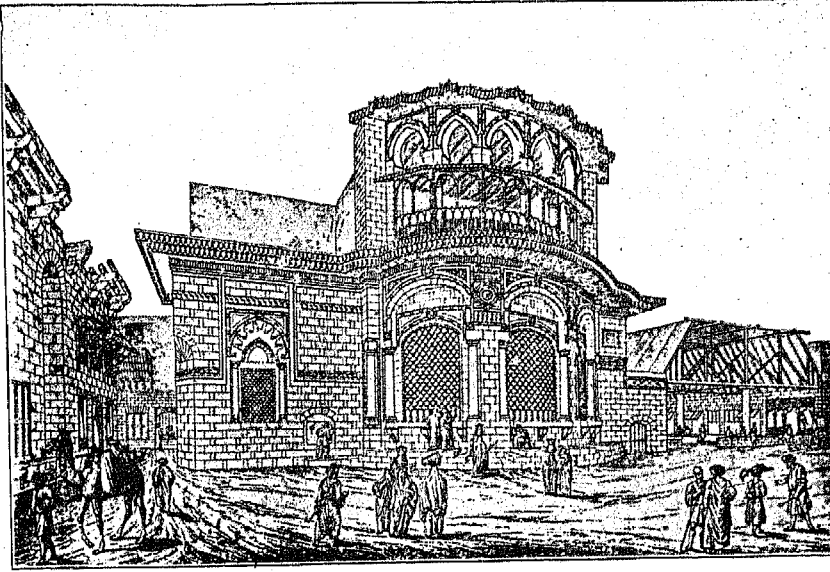
ثم استعان ذو الفقار بما آل اليه من الثروة في شراء الماليك وتدريبهم حتى صارت له قوة كبيرة ، فانتزع السلطة من جركس بك ووضع نفسه في منصب شيخ البلد . ولكنه لم يلبث ان ثار عليه الماليك وقتلوه . فقبض أحد قواده « عثمان بك »

* نسبة الى زعيمين لهما ، هما : قاسم وذو الفقار

الولاية يدسون
الدسائس بين
الماليك

القاسمية
والفقارية

اسماعيل بك
الكبير



سبيل ومكتب اسماعيل بك الكبير (في أيام رونقهما)

على السلطة ، فصار شيخاً للبلد بعد أن انتقم لسيده شرّ انتقام
وكان عثمان بك ذا مقدرة وبأس ، فعمل على توطيد السكينة وسهر على حفظ
الأمن وإقامة العدل ، فحسنت سيرته وأحبه الأهليون ، وبقي ذكره بعده زمناً طويلاً
حتى أنه لما نار عليه أعداؤه واضطروه الى الهروب من مصر صارت الناس تؤرخ
حوادثهم بسنة خروجه ، فكانوا يقولون : « هذا الأمر حدث بعد خروج عثمان بك
بكذا من السنين ، ووُلد فلان في سنة كذا من خروج عثمان بك »

عثمان بك

وسبب فراره من مصر أن قوى في عهده شأن حزبين من المماليك وهما :
« الكردغلية » و « الجلفية » ، فاتفق « ابراهيم بك » زعيم الحزب الأول و « رضوان بك »
زعيم الثاني على توحيد كلمة حزبيهما ، ونزع السلطة من عثمان بك ، وجعلها في أيديهما
معاً . وبعد نزاع طويل بينهما وبين عثمان بك تغلبا عليه ، ففرّ خوفاً منهما الى الشام
ثم اقتسما السلطة بينهما ، واتفقا على أن يشغلا منصبى شيخ البلد وأمير الحج
بالتناوب سنة بعد أخرى . ولما رأى الولاة أن السلطة قد سُلبت من أيديهم ، عملوا

ابراهيم بك
ورضوان بك

على النكاية ببرهيم بك ورضوان بك ، ودبروا لقتلها مكاييد لم يفلحوا فيها ، إلا أن البلاد لم تهدأ من الفتن بعد ، وبقي امراء المماليك في هيج على انفسهم هكذا كانت حالة البلاد في هذا العصر الأخير ، لا يكاد يفارقها الخلل والفوضى : تارة بثوران الجند ومكافحتهم للولاة ، وطوراً بتنازع المماليك مع الولاة مرة ومع انفسهم اخرى . وما زالت الحال كذلك حتى قبض على ازمة الأمور احد المماليك الاقوياء وهو « على بك الكبير » ، فكان ذلك ابتداء حوادث جديدة ذات شأن آخر

✽ زوال ما كان للسلطان من القوة والنفوذ في مصر ✽

على يد على بك الكبير

كان « على بك الكبير » في اول نشأته مملوكاً لابراهيم بك السالف الذكر ، نشأ على بك فما زال يتقدم عنده لذكائه ومقدرته ، حتى رقاها الى رتبة « بك » . ومن ذلك الحين اخذ « على بك » يعقد الآمال على ان يتقوى شيئاً فشيئاً حتى يصير يوماً ما شيخاً للبلد . فقصى ثمانية اعوام في شراء المماليك وتدريبهم ، ولم يدخر في اثنائها وسعاً في استجلاب مودة البيكوات الآخرين . واخيراً تنبّه شيخ البلد « خليل بك » الى افعاله ، ورأى ان يقضى عليه قبل ان يستفحل امره ، فهجم عليه بجيوشه ، فلم يقوَ عليه على بك فاضطر الى الفرار الى الصعيد . وهنالك التقى بكثير من الساخطين على خليل بك ، فانضموا اليه ، وزحف الجميع على القاهرة ، فدخلوها بعد ان انتصروا على خليل بك وأتباعه في عدة مواقع اظهر فيها على بك مقدرة كبيرة . وبذلك توليه شيخاخة البلد ثم له امر شيخاخة البلد سنة ١١٧٧ هـ (١٧٦٣ م)

وكان سيده ابرهيم بك قد مات قتلاً ، فلما تولى على بك شيخاخة البلد أمر بإعدام نائب المماليك عليه قاتله ، فلم يرق ذلك في أعين بيكوات المماليك ، وتآلبوا عليه وأجثوه الى الفرار الى

✽ سمي « الكبير » لكثرة انتصاراته

سلطان يمينه
في منصبه
شيوخ البلد، فرجع إلى القاهرة وتسلم زمام الأمور بها مرة أخرى
أمره
ولما استتب له الأمر سهر على إصلاح البلاد وتوطيد السكينة بها. ورأى أن
يكثر من أتباعه كي يأمن غوائل المستقبل، فرق ثمانية عشر من المالك إلى رتبة
البيكوية، ليكونوا هم وحاشيتهم أنصاراً له إذا احتاج إلى مساعدتهم
طامعه
ثم طمحت نفسه إلى الاستقلال بمصر، فشرع يعمل على ذلك سراً ويتنهرز له
في الاستقلال
كل فرصة

محاولة الباب
العالى قوته
ولما نشبت الحرب بين الدولة والروسيا في سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) طلب الباب
العالى من مصر أن تمدّه باثني عشر ألف مقاتل، فأذعن على بك لمطلب الدولة،
وشرع في جمع الجيش. ولكن الدولة شكّت في إخلاصه، واعتقدت أنه يجمع هذا
الجيش لمساعدة روسيا عليها لتساعده على الاستقلال بمصر، فأرسلت بكتاب إلى
الوالى بمصر تأمره فيه بقتل على بك

تنقيده الممالك
من الدولة
وكان لعل على بك عيون بالاستانة، فبادروا بتبليغه الخبر قبل وصول الكتاب إلى
مصر. فتربص لحامل الكتاب وقتله قبل أن يصل إلى الولى. ثم أعلن المالك أن
الدولة أرسلت في هذا الكتاب أمراً إلى الولى بذبح جميع الممالك. وكان «على بك»
خطيباً مؤثراً، فأثار حمية الممالك، ونفّرهم من الباب العالى، وذكّرهم بمجد سلاطين
الممالك الأقدمين، وإن الدولة تريد القضاء على هذا المجد، وعليهم أنفسهم. فأوقد
النار في قلوبهم، وقرّ قرارهم على خلع الباشا وإخراجه من مصر في الحال، والدفاع
عن استقلال البلاد. ثم أعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الجزية للباب العالى
اعلانه الاستقلال
سنة ١١٨٣ هـ (١٧٦٩)

فتح بلاد العرب
ولاشتغال الدولة بمحاربة روسيا لم تقدر على الالتفات إليه، فاتنهرز على بك هذه
الفرصة لتوطيد ملكه بمصر. ثم أرسل جيشاً لفتح بلاد العرب، فاستولى على «جدة»

لتكون له مركزاً للتجارة الهندية وموضعاً يراقب منه ملاححة البحر الأحمر ، ولم يلبث

ان أخضع باقى جزيرة العرب ، وفى ذلك الحرمان الشريفان

ثم وجه همة لفتح الشام ، فأنفذ لذلك جيشاً به ٣٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة «محمد بك» غارته على الشام
أبى الذهب ، فكان حليفه النصر واستولى على كثير من مدن الشام

وعند ذلك اكبر «أبو الذهب» على سيده هذا الملك العظيم ، فحسده . ورأى
أيضاً ان الدولة ربما التفتت لمصر وأرجعتها الى سلطانها فيصبح على بك وأتباعه فى
خطر ، فخطب وذا الباب العالى وافترق معه على ان ينزع الملك من على بك ، ويقبض

هو على زمام الأمور بمصر ، مع الخضوع للدولة . فقصد مصر بالجيش الذى كان معه
بالشام ، ولم يلبث ان استولى على البلاد ، وفر على بك الى عكا واحتجى بها كها مرة

أخرى . وهنالك وجد أسطولاً للروسيا ، ففاوضه بشأن تحالفه معها ، فأمدّه الاسطول
بالذخيرة والرجال ، وبذلك استرجع المدن السورية التى كان قد فتحها له أبو الذهب

وعادت الى الدولة بعد رجوع أبى الذهب عن الشام
استنجد على بك
بالروسيا

ثم جاءت الأخبار من مصر ان الناس فى استياء من حكم أبى الذهب ، وانهم
يودون قدومه لإيقادهم منه . فخرج الى مصر بقوة صغيرة ، فانتصر أولاً على جيوش

أبى الذهب بجهة الصالحية ، ثم دس هذا على رجال على بك من أوقع فى قلوبهم
الفتنة ، فانقلبوا على «على بك» وخذلوه . فانهزمت جيوشه وأخذ هو أسيراً الى

القاهرة ، فمات بها بعد بضعة أيام بسبب الجراح التى أصابته وهو يدافع فى الواقعة
الأخيرة دفاعاً شديداً

ومن أعماله تجديد قبة الامام الشافعى ، وإنشاء سوق ببولاق

وكافأ الباب العالى «أبا الذهب» على ذلك ، فنهجه لقب «باشا» وولاه حكم ولاية ابى الذهب

مصر سنة ١١٨٦ هـ (١٧٧٢ م) . فلم يتمتع بذلك ، إذ مات بعدها بعامين ، ودُفن

بجامعه الذى شيده أمام الأزهر . وهو آخر جامع كبير أنشئ بمصر فى عهد العثمانيين

عند ذلك قبض على ازمة الأمور اثنان من المماليك وهما : «ابراهيم بك»

ابراهيم بك و « مراد بك » ، واتفقا على ان يتوليا شياخة البلد وإمارة الحج بالتناوب كما حدث
ومراد بك بين رضوان بك و ابراهيم بك من قبل . فوقع بينهما شئ من الاختلاف في اول
الامر ، ثم صلح ما بينهما وبقيا قابضين على مقاليد الأمور من ذلك الحين الى أن
اغار الفرنسيون على البلاد سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) ، ما عدا فترة (من ١٧٨٦
الى ١٧٩٠ م) عاد النفوذ فيها الى العثمانيين

عودة النفوذ للدولة
وذلك ان الدولة ارسلت حملة لتوطيد السكينة وإطفاء الفتن التي انتشرت في
البلاد في اوائل حكم ابراهيم بك ومراد بك . فوصلت الحملة في شهر يونيه سنة ١٧٨٦ م
واستولت على القاهرة بعد قتال لم يقوَ فيه المماليك على مقاومة المدافع التركية ،
ففرَّ ابراهيم ومراد الى الصعيد

عودته
لابراهيم ومراد وعهد العثمانيون بشياخة البلد لاحد ييكوات المماليك المدعو « اسماعيل بك »
وفي سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) حدث بالبلاد وباء شديد اكتسح اسرة
اسماعيل بك ، فعاد ابراهيم بك ومراد بك من الصعيد واستردا منصبهما ، واخذوا
يحكمان البلاد بحزم لا بأس به . الا انهما اشتطَّا في ابتزاز اموال الناس ، وخصوصاً
التجار ، حتى الفرنج منهم . فكثرت شكاوى هؤلاء الى دولهم ، مما لفت نظر اوربا
الغارة الفرنسية الى مصر وجعله الفرنسيين ذريعة لاغارتهم عليها في ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م)



مراد بك

(عن كتاب وصف مصر)

ملخص بأهم الحوادث التاريخية الواردة في الباب الأول

٢	٥	
١٤٥٣—١٢٣٠	٨٥٧—٦٢٧	﴿ منشأ الدولة العثمانية ﴾
١٢٨٨—١٢٣٠	٦٨٠ — ٦٢٧	أرطغرل
١٢٦١—١٢٠٤	٦٦٠ — ٦٠٠	+ حكم اللاتين بالقسطنطينية علاء الدين السلجوقي يمنح أرطغرل « اسكى شهر » مولد عثمان فى اسكى شهر
١٢٥٨	٦٥٦	عثمان (تحت امرة علاء الدين) يفتح قره حصار وغيرها - يمنحه علاء الدين لقب بك
١٣٠٠—١٢٨٨	٦٩٩ — ٦٨٠	قضاء المغول على الدولة السلجوقية
١٣٠٠	٦٩٩	عثمان (مستقلاً) فتوح بروسة على يد ابنه ارخان
١٣٢٦—١٣٠٠	٧٢٦ — ٦٩٩	ارخان
١٣٥٩—١٣٢٦	٧٦١ — ٧٢٦	افتتاح نيقوميديّة وازنيق ٢٠ عاماً فى السلم وثبتت دعائم الملك انشاء طائفة الانكشارية ظهور الموت الاسود
١٣٤٧	٧٤٧	مبدأ الفتوح العثمانية باوربا (غلبولى)
١٣٥٧	٧٥٨	مراد الاول
١٣٨٩—١٣٥٩	٧٩٢ — ٧٦١	اخضاع معظم الروملى (أدرنة — فلبه) تحالف ملوك البوسنة والصرب والمجر عليه وقهره اياهم عند « أدرنة »
١٣٦٣	٧٦٥	

+ اشارة تدل على ان الحوادث خاصة بالدول المسيحية المعاصرة للدولة

* اشارة تدل على أنها خاصة بمصر

٢	١	٣
١٣٨٨	٧٩١	اخضاع بلغاريا انتصاره على أمراء أوروبا الشرقية في واقعة
١٣٨٩	٧٩٢	قوصوة واخضاع الصرب (عدا فتوحه في آسيا واندراج ٤ امارات تركية في سلك الدولة العثمانية)
١٤٠٢—١٣٨٩	٧٩٢—٨٠٥	بايزيد الاول اخضاع باقى الامارات التركية في آسيا وكثير من مدن الروملى — توطيد أركان الدولة في اوربا تحالف المسيحيين على العثمانيين ثانية بقيادة سجسمند ملك المجر
١٣٩٦	٧٩٩	قهر المسيحيين في واقعة نيقوبوليس غزو جزء من اليونان (تساليا وايروس)
١٤٠٢	٨٠٥	قهر تيمورلنك لبايزيد وأخذه أسيراً في انقرة
١٤١٣—١٤٠٢	٨٠٥—٨١٦	أربعة أولاد لبايزيد يتنازعون الملك
١٤٢١—١٤١٣	٨١٦—٨٢٤	محمد الاول (المتغلب عليهم) لمّ شعث الدولة بعد تمزيقها في واقعة انقرة
١٤٥١—١١٤١	٨٢٤—٨٥٥	مراد الثانى يعمل على مواصلة الفتوح العثمانية — يحاصر القسطنطينية
١٤٣٩	٨٤٣	+ توحيد الكنيستين (رومية والقسطنطينية) نهضة جديدة لاجراج الانراك من أوروبا انتصار المسيحيين بقيادة هونيات ومعاهدة
١٤٤٤	٨٤٨	ازجندن يتنازل عن العرش لابنه محمد الثانى — الاوريون ينقضون العهد

٢	٥	
		وينغرون على أملاك الدولة بقيادة هونياد
١٤٤٤	٨٤٨	مراد يرجع الى الملك ويهزمهم في واردة
		يتم اخضاع البوسنة والصرب
١٤٨١—١٤٥١	٨٨٦—٨٥٥	محمد الثاني يتأهب لفتح القسطنطينية
١٥٦٦—١٤٥٣	٩٧٤—٨٥٧	الدولة العثمانية في أوج عظمتها *
		محمد الثاني يفتح القسطنطينية - سقوط الدولة
١٤٥٣	٨٥٧	البوزنطية - ابتداء التاريخ الحديث
		اخضاع معظم المورة والصرب والبوسنة
		وقوف اسكندر بك وهونياد في سيل فتح
		ايطاليا والمجر
١٤٥٦	٨٦٠	هونياد يهزم السلطان عند بلغراد
١٤٦٧	٨٧١	اخضاع البانيا
		فتح طربزون واخضاع القرم
١٤٧٥	٨٧٩	اخضاع القرم
١٤٧٧	٨٨٢	قهر البنادقة وعقد محالفة معهم
		حصار رودس (لم يفلح لحسن دفاع فرسان
١٤٨٠	٨٨٥	القديس يوحنا)
١٤٨٠	٨٨٥	فتح اترنتو
		+ وصول برتولوميدياز الى طرف افريقية
١٤٨٦	٨٩١	الجنوبي
		+ وصول خرسثوف كلومب الى احدى
١٤٩٢	٨٩٧	جزائر الهند الغربية
١٤٩٦	٩٠١	+ وصول فاسكودى جاما الى قليقوت

٢	٥	بايزيد الثانى
١٥١٢—١٤٨١	٩١٨— ٨٨٦	اضعف سلطان الى ذلك العهد — مكافحات مع اخيه جم * انتصار المماليك على جيوشه فى الشام زيادة قوة الاسطول العثمانى — انتصاره على البنادقة
١٥٠٩	٩١٥	* موقعة ديو
١٥١٢	٩١٨	الانكشارية ترغمه على التنازل لاصغر أولاده سليم
١٥٢٠—١٥١٢	٩٢٦— ٩١٨	سليم الاول تحويل تيار الفتوح الى آسيا غزو فارس (الاستيلاء على ديار بكر وكرديستان) * فتح مصر (مواقع مرج دابق والريدانية ووردان) تنازل الخليفة العباسى بمصر عن الخلافة للسلطان سليم
١٥١٧—١٥١٦	٩٢٣— ٩٢٢	سليمان القانونى ازهر عصر فى تاريخ آل عثمان — تقدم عظيم فى العلوم واتساع كبير فى أملاك الدولة
١٥١٧	٩٢٣	
١٥٦٦—١٥٢٠	٩٧٤— ٩٢٦	
١٥٢١	٩٢٧	فتح بلغراد
١٥٢٢	٩٢٨	فتح رودس (من فرسان القديس يوحنا)
١٥٢٥	٩٣١	* تنصيب « سليمان باشا » والياً على مصر غزو الحجر — موقعة موهاكر — قتل ملكهم وتولية سليمان « جان زابولى » عليها غزو الحجر ثانية لاغارة ملك النمسا عليها —
١٥٢٦	٩٣٢	

٢	٥	
١٥٢٩	٩٣٥	الاغارة على النمسا وحصار ويانة
		عقد صلح مع النمسا على اقتسام البحر بين
١٥٣٣	٩٤٠	ملك النمسا وزابولى
		* اناقة خسرو باشا عن سليمان باشا لاشتغال
١٥٣٥	٩٤١	هذا بحملة بحرية على البرتغال
		* خروج سليمان باشا بأسطول من مصر
		لصد البرتغال في الشرق واستيلائه
١٥٣٨	٩٤٤	على عدن
		اغارة ملك النمسا ثانية على البحر وعودة
١٥٣٩	٩٤٦	السلطان الى غزوها
		اعتراف النمسا بسيادة السلطان على البحر
		وترسلوا نيا وتعهدها بدفع جزية سنوية له
		فتح بغداد
		تقدم القوة البحرية
		استيلاء « خير الدين بربروس » على الجزائر
١٥١٩	٩٢٦	وتنصيبه والياً عليها من قبل الباب العالي
١٥٣٣	٩٤١	قهره أساطيل شرلكان
		قهره أساطيل شرلكان والبابا والبندقية في
١٥٣٨	٩٤٥	موقعة برويزة
١٥٤١	٩٤٨	صده شرلكان عن بلاد الجزائر
		انتصار « بيالة باشا » على « دوريا » عند
١٥٦٠	٩٦٧	جزيرة جربة (تونس)
		« طرغود » يفتح المهدية عاصمة تونس
		حصار مالطة وعدم مقدرة البحرية العثمانية
١٥٦٥	٩٧٣	على التغلب على فرسان القديس يوحنا

٢	٥	
١٦٤٠—١٥٦٦	١٠٤٩—٩٧٤	* ابتداء اضمحلال الدولة العثمانية *
١٥٧٤—١٥٦٦	٩٨٢—٩٧٤	سليم الثانى (كان ضعيفاً لاهياً سكياً)
١٥٦٧	٩٧٥	* تنصيب سنان باشا على مصر
١٥٧١—١٥٦٨	٩٧٩—٩٧٦	* فتحه بلاد اليمن
١٥٧١	٩٧٩	انتزاع الترك جزيرة قبرس من البنادقة
		اتحاد أوربا على الدولة وقهرها في موقعة
١٥٧١	٩٧٩	« ليبنتو » البحرية
١٥٩٥—١٥٧٤	١٠٠٣—٩٨٢	مراد الثالث
١٥٧٤	٩٨٢	مسألة البندقية
١٥٨٠—١٥٧٤	٩٨٨—٩٨٢	* ولاية مسيح باشا على مصر
		* خروج الجنود العثمانية على أويس باشا
١٥٨٩	٩٩٧	لتجنيد المصريين
١٦٠٣—١٥٩٥	١٠١٢—١٠٠٣	محمد الثالث
		انتصار العثمانيين بقيادة سيكالا على النمسا
١٥٩٦	١٠٠٤	وترنسلوانيا في سهل كرزت
١٦٠٣	١٠١٢	* وباء في مصر
١٦١٧—١٦٠٣	١٠٢٦—١٠١٢	أحمد الاول
		استمرار الثورات العسكرية وابتداء ظهور
		النمسا على الدولة
١٦١٩	١٠٢٨	* وباء آخر في مصر
١٦٢١	١٠٣٠	* وباء آخر
١٦٤٠—١٦٢٣	١٠٤٩—١٠٣٢	مراد الرابع (من أعظم سلاطين العثمانيين)
		يوطد العلاقات مع النمسا ليوجه قواه الى الفرس
١٦٢٣	١٠٣٢	* تنصيب قره مصطفى على مصر
		* صرفه بعلى باشا الجشنجى — تمرد
		الجند لذلك

م	هـ	
١٦٢٥	١٠٣٥	✽ إعادة قره مصطفي
١٦٢٦	١٠٣٥	✽ وباء شديد في مصر
١٦٣٥	١٠٤٥	أعاد السلطان فتح أربوان
١٦٣٨	١٠٤٨	استرجع بغداد من الفرس
١٦٩١—١٦٤٠	١١٠٣—١٠٤٩	✽ عهد سلطة الوزراء — أسرة كبريلي ✽
١٦٤٨—١٦٤٠	١٠٥٨—١٠٤٩	ابراهيم الاول
١٦٤٢	١٠٥٢	✽ وباء بمصر وغلاء
١٦٤٥	١٠٥٥	لم يفلح في فتح جزيرة أقر يطش
١٦٤٨	١٠٥٨	عزل وقتل
١٦٨٨—١٦٤٨	١٠٩٩—١٠٥٨	محمد الرابع (ازدياد اضطراب الدولة)
١٦٤٩	١٠٥٩	انهزام الاسطول التركي في بحر الارخبيل
١٦٥٦	١٠٦٦	اسطول البنادقة يهدد القسطنطينية
١٦٦١—١٦٥٧	١٠٧٢—١٠٦٧	نهوض الدولة على يد محمد كبريلي
١٦٧٦—١٦٦١	١٠٨٧—١٠٧٢	وزارة أحمد كبريلي
١٦٦٣	١٠٧٤	الاغارة على النمسا والجر
١٦٦٤	١٠٧٥	انهزام الترك عند سنغوتار وعقد معاهدة فزفار
١٦٦٩	١٠٨٠	استيلاء الترك على أقر يطش من البنادقة
١٦٧٠	١٠٨١	+ خروج القوزاق على بولندة وانهزامهم على يد جون سويسكى
١٦٧٢	١٠٨٣	غزو الترك لبولندة وفتحهم كامنيك وتنازل بولندة لهم عن بادوليا واوكرين
١٦٧٥—١٦٧٣	١٠٨٦—١٠٨٤	رفض الشعب البولندى للمعاهدة وقهرهم الترك بقيادة جون سويسكى في شكزم ولمبرغ
١٦٧٦	١٠٨٧	صلح زراتو بين الترك وبولندة

١٦٨٣—١٦٧٦	١٠٨٧—١٠٩٤	وزارة قره مصطفى تأهيه سرّاً للاغارة على النمسا بتوثيق صلته بفرنسا والروسيا و بولندة منذ تداول عهده
١٦٨١—١٦٧٤	١٠٨٥—١٠٩٢	+ خروج المجر على النمسا
١٦٨٣	١٠٩٤	اغارة قره مصطفى على المجر
١٦٨٣	١٠٩٤	حصاره لمدينة فينا
		فشل الحصار لتفض جون سويسكى العهد ومؤازرته لامبراطور النمسا
		قتل قره مصطفى لفشله
		عقد الحلف المقدس بين النمسا و بولندة
١٦٨٤	١٠٩٥	والبندية على الترك
١٦٨٨—١٦٨٥	١٠٩٧—١١٠٠	خسائر متوالية للترك برأ وبحراً
١٦٩١—١٦٨٧	١٠٩٨—١١٠٢	سليمان الثانى
١٦٩١—١٦٨٧	١٠٩٨—١١٠٣	نهضة قصيرة على يد مصطفى كبريلى
١٦٩١	١١٠٣	موته فى موقعة سلا نكن
١٧٠٣—١٦٩٥	١١٠٦—١١١٥	مصطفى الثانى
		انتصار الجيوش النمساوية على الترك فى
١٦٩٦	١١٠٨	واقعة زنتة
		معاهدة كارلوتز (بين الترك والنمسا والروسيا
١٦٩٩	١١١٠	وبولندة)
		❖ الدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر — م ❖
١٧٢٥—١٦٨٩	١١٠٠—١١٣٧	+ نهضة روسيا على يد بطرس الاكبر
١٦٩٦	١١٠٨	استيلاء بطرس على آراق
١٧٣٠—١٧٠٣	١١١٥—١١٤٣	أحمد الثالث
		❖ تفاقم العداوة بين القاسمية والفقارية فى
١٧٠٧	١١١٩	مصر

٢	٥	انتصار الترك على الروس على نهر بروث
١٧١١	١١٢٣	وعقد معاهدة بروث
١٧١٥	١١٢٧	استرجاع قو مرجى على بلاد المورة من البنادقة
		انهزامه في الجرج على يد الامير يوجين عند
١٧١٦	١١٢٨	بيتروردين
١٧١٨	١١٣٠	معاهدة ساروتز
		حرب الترك مع الفرس (انتهت بجلاء الترك
١٧٣٥—١٧٢٢	١١٤٨—١١٣٥	عن فارس)
		* قتل اسماعيل بك شيخ البلد وتولى
١٧٢٣	١١٣٦	جركس بك شياخة مصر
		انتهاز روسيا فرصة اشتغال الترك بمحاربة
١٧٢٦	١١٣٨	الفرس وعقد محالفة مع النمسا على الدولة
١٧٣٠	١١٤٢	* تولى عثمان بك شياخة البلد بمصر
١٧٥٤—١٧٣٠	١١٦٨—١١٤٣	محمود الاول
١٧٣٥	١١٤٨	اشهار الروس الحرب على الترك
		دخول النمسا في الحرب وهزم الترك لها
١٧٣٧	١١٤٩	وللروسيا ومهادنة النمسا للترك على انفراد
		غيظ ميونخ (قائد الروس) وعمله على تحقيق
		المشروع الشرقى
		هزمه جيوش الترك في شكزم وعقد معاهدة
١٧٣٩	١١٥٢	بلغراد بين الترك والروسيا
		* اتفاق ابراهيم بك ورضوان بك على
		عثمان بك بمصر وطردهما اياه الى الشام
١٧٤٣	١١٥٦	واقسام السلطة بينهما
١٧٥٧—١٧٥٤	١١٧١—١١٦٨	عثمان الثالث
١٧٧٣—١٧٥٧	١١٨٧—١١٧١	مصطفى الثالث
١٧٦٣	١١٧٦	+ تولى كترين الثانية عرش روسيا

٢	١	
١٧٦٣	١١٧٧	* تولى على بك الكبير شياخة البلد بمصر
١٧٦٨	١١٨٢	اعلان الترك الحرب على الروس لتعديدهم
١٧٦٨	١١٨٢	على خان القرم
١٧٦٩	١١٨٣	* الباب العالى يستنجد على بك فى حربته
١٧٧٠	١١٨٤	مع روسيا
١٧٧١	١١٨٥	* اعلان على بك الكبير استقلاله بمصر
١٧٧٢	١١٨٦	انتصار الروس على الترك بحرا عند جشمة
١٧٧٣	١١٨٧	* ارسال على بك الكبير محمداً «أبا الذهب»
١٧٨٩—١٧٧٣	١٢٠٣—١١٨٧	للاستيلاء على الشام
١٧٧٤	١١٨٨	* اتفاق أبى الذهب مع الدولة وتوليته والياً
١٧٧٥	١١٨٩	على مصر من قبلها
١٧٨٦—١٧٧٥	١٢٠١—١١٨٩	* وفاة على بك
١٧٨٣	١١٩٧	عبد الحميد الاول
١٧٨٤	١١٩٨	معاهدة كجوق قينارجة بين الروس والترك
١٧٨٧	١٢٠١	* وفاة أبى الذهب
١٧٩٠—١٧٨٦	١٢٠٥—١٢٠٠	* اقتسام السلطة بين مراد بك وابراهيم بك
١٨٠٧—١٧٨٩	١٢٢٢—١٢٠٣	نقض كترين العهد وضم القرم اليها
١٧٩٠	١٢٠٥	معاهدة القسطنطينية بين الروس والترك
١٧٩٢	١٢٠٦	اعلان الترك الحرب على روسيا لتعدد
١٧٩٨—١٧٩٠	١٢١٣—١٢٠٥	اها ناتما لهم
١٧٩٨	١٢١٣	* رجوع السلطة الى الباب العالى فى مصر
		سليم الثالث
		استيلاء الروس بقيادة سوفاروف على
		اوخاكوف واسماعيل
		توسط انجلترا وغيرها فى ابرام معاهدة ياسى
		بين الروس والترك
		* رجوع السلطة فى مصر الى مراد بك
		وابراهيم بك
		* غارة الفرنسيس على مصر

الباثاني

تاريخ مصر

من الحملة الفرنسية الى انتهاء عهد محمد علي

الفصل الأول

الحملة الفرنسية على مصر

(١٢١٢ - ١٢١٦ هـ : ١٧٩٨ - ١٨٠١ م) .

قضت مصر تحت حكم ولاية العثمانيين والأجناد والماليك نحو ثلاثة قرون عانت فيها من أنواع الظلم وسوء الإدارة ما أضعف تجارتها وجعلها في معزل عن بقية العالم ، فأصبحت لا تدري شيئاً عن قوى الدول الأوربية وأطماعها ، أو علاقة بعضها ببعض . وقد كان يقيم بمصر في ذلك الحين كثير من جالية الفرنسيين والانجليز ، ولكن المصريين لم ينتفعوا بإقامتهم بينهم ، بل اكتفوا بالنظر اليهم بعين الازدراء والمقت ، ظناً منهم أن دولهم ما زالت على الضعف الذي سمعوه عنهم أيام الحروب الصليبية ، وفاتهم ان الزمن قد تغير ، وان أوربا أصبحت على مبلغ من القوة وسعة العلم وعظم الدراية بالفنون الحربية بحيث لا يمكن مصادمته الا بمثلها

حالة مصر
قبل الحملة

وكانت دولة فرنسا قد قويت شوكتها بين دول أوربا ، وظهر فيها في أواخر القرن الثامن عشر (من التاريخ الميلادي) قائد حربي عظيم أخذ يتغلب على بمالك

قوة فرنسا

أوروبا، وبات كثير من دولها في خوف منه : ذلك هو البطل الشهير « نابليون بونابرت »
وفي أواخر سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٨ م) جرّد « نابليون » هذا حملة على مصر ،
فامتلكها ، ودخلت البلاد من ذلك الحين في طور يُعتبر ابتداءً مبدأ تاريخها الحديث .
نعم لم يلبث الفرنسيون بمصر أكثر من ثلاث سنوات ، ولكن فتحهم لها كان الحلقة
الأولى من سلسلة حوادث ، لعبت أوروبا أهم أدوارها ، وأفضت عاقبتها الى المركز
الاجتماعى والسياسى الذى تشغله مصر الآن

ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر فجائية أو من خواطر اللحظات ، بل ان « لينيتز »^{*} متى فكر في الحملة
أحد وزراء لويس الرابع عشر الحّ عليه سنة ١٦٧٢ م بوجود غزو مصر ، ويّين له
ان امتلاكها يجعل فرنسا سيدة العالم . وقد رأى ذلك غيره من وزراء فرنسا بعده ،
ولكن فرنسا لم تخط خطوة في هذه السبيل الا في عهد « نابليون »
على ان نابليون نفسه لم يقدم على هذه الحملة الا بعد تفكير طويل : فاستشار
فيها العلماء ، وقرأ لأجلها الكتب ، وبعدئذٍ عرض اقتراحه على هيئة الحكومة
الفرنسية مع ايضاح طويل

أما أهم الأسباب التى حدت بنابليون الى الاقدام على هذه الحملة واقتنعت بها اسباب الحملة
الحكومة الفرنسية فهي : أولاً — رغبته في زيادة نفوذ فرنسا في البحر الأبيض
المتوسط وضم وادى النيل اليها ، لما فيه من الخيرات الكثيرة التى تغنى فرنسا عن
كثير من المستعمرات البعيدة ، ولما له من المكانة التجارية العظمى . وثانياً — تمهيد
الطريق لقهر الانجليز بطردهم من الهند واستيلاء الفرنسيين عليها ، لان مصر هى
مفتاح الطريق الى تلك البلاد . وفي الحقيقة كانت لنابليون اطماع كبيرة في الشرق
بأسره ، وكانت نفسه تتوق الى أن يأتى فيه بمثل ما أتاه الاسكندر من قبله^{*}
كل هذه الاعتبارات ، الى ما عسى أن يكون قد نال الفرنسيين المقيمين بمصر

* ووافقت الحكومة الفرنسية اخيراً على تجريد الحملة لأنها أخذت تخشى سطوته بعد
انتصاراته في أوروبا



نابليون بونابرت

من عسف الممالك وظلمهم ، جعلت فرنسا تتقدم على تجريد تلك الحملة ، مع ما فيها من المبادأة بالعدوان لسلطان آل عثمان الذي كان صديقها في ذلك الحين وراأت الحكومة الفرنسية أن يكون إعداد هذه الحملة بغاية التستر والتكتم ، كي لا يعلم بمسيرها احد وخاصة انجلترا اشد اعداء فرنسا في ذلك الحين . فجهز « نابليون » على إعداد ما يلزم لها من الجند والسفن الحربية والمراكب الثقالة ، فجهز

تدبير الحملة

لها نحره ، الف مقاتل ، عليهم ضباط من نخبة قواد فرنسا : مثل « كايبر » و « ديزيه » و « مينو » و « مورات » . وأعد لها اسطولاً كبيراً جعل على رأسه القائد العظيم « برؤي » ، وسأحه بالكثير من المدافع والذخيرة . واصطحب معه كذلك من لا يقلون عن مائة رجل من اعظم علماء فرنسا : جمعهم من اكبر اساتذة كل علم وفن ، وجهزهم بكثير الكتب والآلات العلمية ، مما رأى أن يكون له فائدة في الاستكشاف عن حال مصر خاصة والشرق عامة . ومن أهم ما عني باحضاره معهم مطبعة عربية كان للحملة منها فوائد كبرى

وفي اليوم الثاني من ذى الحجة سنة ١٢١٢ هـ (١٩ مايو سنة ١٧٩٨ م) اقلع نابليون بهذه القوة من ميناء طولون ، وانضمت اليها بعض المراكب من الجهات الاخرى . وقصد جزيرة مالطة ، فاستولى عليها بلا عناء ، وكانت اذ ذاك في يد « فرسان القديس يوحنا » . وترك احد قواده حاكماً عليها ، ثم غادرها

وكان إعداد هذه الحملة قد تم وعلمه بعض الدول ، غير انه لم يعلم بمقصدها أحد . وأوجست إنجلترا منها خيفة ، وظنت انها ربما تقصد شواطئ « ايرلندا » رجاء الإغارة على الجزائر البريطانية . فعهدت البحرية الانجليزية الى « نلسن » أمير البحر الانجليزي العظيم بان يتقنى اثر هذا الاسطول الفرنسى ، وأن يلحق به كل ما أمكنه من الضرر . فتلقى « نلسن » هذه التعليمات ، ولكنه لم يبحث عن نابليون غربى البحر الابيض حيث يُنتظر وجوده لو كانت وجهته الحقيقية ايرلندا ، بل اذاه ذكاؤه الفطرى ان يقصد « مالطة » . فلما وصلها وجد أن نابليون قد غادرها بجيشه منذ خمسة ايام ، وانه سار شرقاً . فادرك أن وجهة نابليون لا بد ان تكون مصر ، ورأى أن يتبعه اليها . وبالفعل وصل باسطوله الانجليزي الى الاسكندرية يوم ٨ المحرم سنة ١٢١٣ هـ (٢١ يونيه سنة ١٧٩٨ م) ، فلم يعثر للفرنسيين فيها على اثر . فبعث وفداً الى حاكم المدينة « السيد محمد كريم » (وكان مصرى الجنس) يستفسر منه عن قدوم اسطول فرنسى الى البلاد المصرية . فراع أهل المدينة رؤية الاسطول

خروج الحملة
من فرنسا

بحث نلسن
عن الاسطول
الفرنسى

الانجليزى ، وواجسوا منه خيفة ، اذ لم يكن لهم علم بعزم الفرنسيين على غزو بلادهم . وثاروا ايضاً فى امر استعلاء الانجليز عن مجيئ الاسطول الفرنسى ، فلم يعرفوا لاهتمامهم هذا علة . وذلك يدل على الدرجة التى وصلت اليها مصر فى تلك الايام من قِصر النظر وقلة الدراية باخبار العالم والتنافس الحاصل بين ممالكه . فاكّدر رجال « نلسن » للحاكم أن الاسطول الانجليزى ما اتى الى هذه البلاد الا ليدفع عنها الاسطول الفرنسى ، وان غاية ما يبغيه الانجليزان يُسمح لهم بانتظار الاسطول الفرنسى خارج الميناء ، وأن يشتروا من المدينة بالمال ما يحتاجون اليه من الزاد . فلم يقتنع السيد



نلسن

محمد كريم بحسن نيّة الانجليز ، وامتنع عن اجابة ملتسمهم ، وأجابهم بصراحة
(ما كانت لتغنى عنه شيئاً لو قصد الانجليز بالبلاد سوءاً) إذ قال : « ان مصر بلاد
السلطان . وليس للفرنسيين او سواهم شىء فيها ، فاذهبوا اتم عنا »

ولما كان هم نلسن منصرفاً الى مطاردة الاسطول الفرنسى ، لم يرَ داعياً الى استعمال
القوة فى الاسكندرية ، وأقلع عنها مؤقتاً ليتجول قليلاً فى البحر الابيض المتوسط
ويأخذ من بعض جزائره ما يحتاج اليه من الزاد

ومضى اسبوع بعد اقلاع العمارة الانجليزية ولم يظهر فى المياء المصرية احد من
الاعداء ، فبدأ روع الناس بالاسكندرية والقاهرة . وبيناهم كذلك اذا بالعمارة
الفرنسية العظيمة قد لاحت امام الثغر الاسكندرى ، فعاد الفرع وزاد عما كان ، وبعث
حاكم المدينة بالرسالة الى القاهرة على جناح السرعة ، يستنجد مراد بك و ابراهيم بك ،
ويصف لهما حرج الحالة ، وهول العمارة الفرنسية ، وقال عنها انها : « لا يُعرف اولها
من آخرها »

فلما وصل الخبر الى مراد بك أسرع الى مقابلة ابراهيم بك بمنزله (مستشفى قصر
العينى الآن) ، فبادر الى عقد جمعية عمومية من كبراء البلاد ، ليتداولوا فيما يجب
عمله لصد الأعداء . فاجتمعت الجمعية نوّاً من كبار المماليك والعلماء ، وحضرها
« بكر باشا » والى السلطان بمصر* . وبعد أن تباحثوا فى الأمر قرّروا على أن
يسير مراد بك الى الاسكندرية لصدّ الأعداء ، وأن يبقّى ابراهيم بك بالقاهرة
للدفاع عنها لو اقتضى الأمر ذلك

* كانت السطوة الحقيقية فى هذه الايام للممالك . ولكن لما كان هؤلاء يعلمون انهم
اجانب عن البلاد ، بعيدون عن أهلها فى الشعور والعادات ، خشوا ازدياد الجفاء بينهم ، وعملوا
على اكتساب مودة العلماء ليحببوا فيهم الامهين ، فكانوا يشاورونهم فى الأمر ، ويصفون لرغباتهم ،
حتى صار للعلماء قول مستمع فى ادارة شؤون الحكومة
اما والى فلم يكذب يكون له من الأمر شىء سوى تسلم الجزية وارسالها الى السلطان .
وكان الممالك دائماً يرتابون فى اخلاصه لهم ويخشون دسائسه لدى الباب العالى ، حتى ان « مراد بك »
قال لبكر باشا فى هذا الاجتماع الذى نحن بصدده : « ان الفرنسيين ما قدموا الى هذه البلاد الا
برضاء الباب العالى ، ان لم يكن بايعاز منه »

نزل الفرنسيين هذا ما كان من أمر المماليك . أما العمارة الفرنسية فانها وصلت أمام الاسكندرية في اليوم الثامن عشر من المحرم (أول يولييه) . وعند ذلك أرسلت زورقاً الى الميناء يطلب القنصل الفرنسي ، فتردد « السيد محمد كريم » أولاً في تسليمه ، ثم أذن له بالذهاب . فعلم منه نابليون ما كان من أمر العمارة الانجليزية وما يعده المماليك للدفاع عن البلاد . فأقرّ على انزال جيشه الى البرّ في الحال ، واختار لذلك نقطة غربي الاسكندرية بنحو ثلاثة أميال (العجى الآن) ، فسار بأسطوله اليها وشرع في انزال رجاله وعدده ليلاً بكل سرعة ، فتم له ذلك من غير أن يعترضه أحد . وبعد أن استراح برهة على الزمال جرد قسمًا من جيشه وسار على الأقدام قاصداً الاسكندرية . فقابلتهم قبيل الفجر بعض فصائل من عرب « أولاد علي » ، تبادلوا معهم بعض الطلقات ، ثم فروا مذعورين ، فاستمر الجيش في المسير نحو الاسكندرية ، حتى صار على مقربة من أسوارها

مهاجمة اسوار الاسكندرية فقابلتهم حامية المدينة بما لديها من وسائل الدفاع . فقسم نابليون رجاله الى ثلاثة أقسام وهاجم بهم الأسوار هجوماً عاماً من اليمين واليسار والقلب ، فدخلوا المدينة عنوة ، وانسحب الحاكم ورجاله الى قلعة « فاروس » في طرف الميناء الشرقية (قايتباي الآن) . ولما دخل الفرنسيون المدينة مخترقين شوارعها الضيقة ، أمطرهم الأهليون من نوافذ المنازل وابلاً من المقذوفات ، فقابلهم المتاحون بأشد منها ، وكادوا يفتكون بالعباد فتكاً ذريعاً ، لولا ان أرسل نابليون رسولا الى الاسكندريين ، يؤمنهم على أموالهم وأرواحهم ودينهم وتقاليدهم ، وأخبرهم بأن فرنسا لا تقصد سوء الآ بالمماليك ، وانها تحرص على مودة الأهاليين وودّ سلطانهم الأعظم . فهدأ الناس حقناً للدماء ، واستسلم اليه السيد محمد كريم ، لقلّة ما بقى معه من الذخيرة . فأكرم نابليون مشواه ، وقال له : « قد أخضعتك بالقوة ، ولي أن أعاملك معاملة الأسير ، ولكن نظراً لما أبديتّه من الشجاعة ، ولأن الشجاعة حليفة الشرف ، أردت اليك سيفك ، أملاً أن تُخلص للجمهورية الفرنسية بقدر ما أخلصت لتلك الحكومة العاتية » .

فأعرب السيد محمد كريم عن رغبته في خدمة الجمهورية ، وأبقاه نابليون في منصبه تحت إشراف « الجنرال كلير » (وكان هذا قد اضطرّ الى البقاء بالاسكندرية لجرح أصابه وقت مهاجمة الأسوار)

ولم تكد الجنود الفرنسية تنزل الى المدينة وتتجول في أحيائها ، حتى لحقهم الملل واستولت عليهم الكآبة ، فإنهم (فضلاً عن تألمهم من الحرّ الشديد الذي لم يعتادوه في بلادهم ، والذي كان بالطبع على أقصى درجاته في هذا الفصل من السنة) لم ترق المدينة في أعينهم ، ولم يجدوا فيها شيئاً من العظمة والبهاء ، مما سمعوا به قبل مجيئهم وكان من مميزات الاسكندرية في القرون الأولى ثم ذهب باضمحلال شأن المدينة على مدى الأيام . وكل ما وقع عليه نظرهم : من شوارع ملتوية ، وأزقة ضيقة قدرة ، وآثار مهملة ، وملابس وازياء لا تنطبق على ذوقهم الفرنسي ، لم يزد هم الا قنوطاً واعتقاداً بأنهم مسخرون في غزوة لا فائدة فيها

على ان نابليون ذاته لم يظهر عليه شيء من ذلك ، بل بقي ثابت الجأش ، كلّ نشاط نابليون حركة ونشاط ، ولم يكدر يتم له الاستيلاء على الاسكندرية حتى أمر بانزال كل المعدات الحربية الى البر ، كي لا يفاجئ « نلسن » على غير أهبة . ثم اتفت الى تنظيم حكومة الاسكندرية ، فعهد بإدارة شؤونها الى ديوان ، فشكل من سبعة اشخاص مختارين . وأمر بانزال جماعة العلماء الذين معه ، وكلفهم مباشرة البحث والتنقيب بالاسكندرية ، ريثما يتم له فتح العاصمة فيستدعيهم اليها ، فشرعوا في عملهم بكل همّة ونشاط . ومن انفع ما بدعوا به انهم رسموا مصوراً وافياً للاسكندرية وضواحيها

وقبل ان يزحف نابليون بجيشه الى القاهرة امر بكتابة منشور بالعربية ليلقى به منشور نابليون السكينة في قلوب الأهليين ، وعهد بكتابتة الى المستشرقين من علمائه ، وطبع بالمطبعة العربية التي معهم . وقد رأى نابليون في هذا المنشور ان يُخضع المصريين من باب الدين واحترامه لعقائدهم وخليفة نبيهم ، فغالى في مصانعتهم حتى شك معظم الأهليين في

صدق نيته ، واخذوا يهرعون الى القرى والبلاد التى بمعزل عن طريق الفرنسيين حتى لا يقعوا فى جبال مكايدهم . ومما قلّ من ثقة الأهلىن بهذا المنشور ان نابليون كان وعدمهم عند استيلائه على الاسكندرية بعدم التعرّض لحريتهم وتقاليدهم ، ولكن ما لبث ان جرّدهم من السلاح وامرهم أن يحملوا على صدورهم شارة الجمهورية الفرنسية (وهى قطعة مستديرة من القماش مؤلفة من ثلاثة الألوان : الازرق والابيض والاحمر) وهى بعض عبارات هذا المنشور العجيب ، نقلاً عن كتاب المؤرخ الشهير الشيخ عبد الرحمن الجبرتي الذى كان معاصراً لهذه الحملة :

بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله ، لا ولد له ولا شريك له فى ملكه . من طرف الفرنساوية المني على أساس الحرية والتسوية . السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنسية بونابارته يعرف أهالى مصر جميعهم ان من زمان مديد الصنائق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنسية ، ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدي . فحضر الآن ساعة عقوبتهم . واحسناته ، من مدة عصور طويلة هذه الزمرة الممالك المجلوين من بلاد الابهة والجراكسة يفسدون فى الاقاليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها . فاما رب العالمين القادر على كل شئ فانه قد حكم على انتضاء دولتهم . يأبها المصريون ، قد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه ، وقولوا للمعتزين . اننى ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين ، واننى اكثرت من الممالك اعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا أيضاً لهم : ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين الممالك والعقل والفضائل تضارب ، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يملكوا مصر وحدهم ويحتصوا بكل شئ أحسن فيها : من الجوارى الحسان والحيل العتاق والمساكن المفرحة . فان كانت الأرض المصرية التزاماً للممالك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم . ولكن رب العالمين رؤف وعادل وحليم . ولكن بعونه تعالى من الان فصاعداً لا يئأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية . فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور ، وبذلك يصلح حال الامة كلها . وسابقاً كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة والحلجان الواسعة والمتجر المتكاثرة ، وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من الممالك . أيتها المشايخ والتضاة والأئمة والجرجية واعيان البلد ، قولوا لامتكم : ان الفرنسية هم أيضاً مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك انهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخرابوا فيها كرسي البابا ، الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية الذين كانوا

يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرنسية في كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه ، أدام الله ملكه . ومع ذلك ان المماليك امتنعوا من اطاعة السلطان غير ممثلين لأمره . فما أطاعوا أصلاً الا لطمع أنفسهم . طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير ، فيصلح حالهم وتعلم مراتبهم . طوبى أيضاً للذين يعمدون في مساكنهم ، غير مائنين لأحد من الفريقين المتحاربين . فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب . لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً الى الخلاص ، ولا يبقى منهم أثر

ترك نابليون « كليبر » بالاسكندرية وشرع فى الزحف على القاهرة فى ٢٣ المحرم (٧ يولييه) . واختار لذلك طريق الصحراء الغربية مُختاراً مدينة « دمنهور » . وكان قد ارسل قسماً من جيشه بطريق الساحل الشرقى للاستيلاء على « رشيد »^(١) وعزّزه باسطول من المراكب الصغيرة ، حتى اذا تمّ لها فتح المدينة سار الاسطول فى النيل وبجانبه الجيش لينضمّا الى جيش نابليون عند « الرحمانية » . وجدّ « نابليون » فى البر حتى وصل الى دمنهور ، بعد ان لاقت جيوشه من التعب والحر والظما ما ذهب بقواهم^(٢) وزاد من سخطهم . فاستراحوا بها يوماً ، ثم واصلوا المسير نحو الرحمانية فجر يوم ٢٦ المحرم ، وقبل وصولها التقوا بشرذمة من المماليك لم تكدر تشتبك معهم حتى فرّت امام نيرانهم الحامية

ولما وصلوا الى الرحمانية رأّت جنود نابليون النيل لأول مرة ، فهرولوا اليه يطفئون ظمأهم ، ويمتعون ابصارهم التى ملّت الصحراء ورمالها ، وأبدوا رغبة عظيمة فى البقاء طويلاً بالرحمانية . فرأى نابليون أن يبقى بها بضعة أيام ريثما يلحق به الجيش والاسطول اللذان ذهبا لفتح رشيد

وكان هذان قد نجحا فى مهمتهما ، وسار الاسطول فى النيل ، وانضم الجيش الى نابليون . ثم سار الجيش ازاء الاسطول على ضفة النيل الغربية . الا ان الريح كانت شديدة ، فساقت الاسطول امام الجيش حتى وصل منفرداً الى « شبراخيت »

(١) وكانت اذ ذاك مدينة تجارية عظيمة وتمتاز عن الاسكندرية بكثرة حدائقها وجمال منظرها

(٢) لان اكثر الترع كان نيلاً

الزحف
على القاهرة

الوصول
الى الرحمانية

الاستيلاء
على رشيد

واقعة شبراخيت (بعد الرحمانية) ، فالتقى هنالك قبل وصول نابليون بأسطول المماليك وجيشهم المؤلف من ٤٠٠٠ فارس على رأسهم « مراد بك » ، فوقع الاسطول الفرنسى بين نارين ، وكاد المماليك يفتكون به ، لولا ان اشتعلت النار بذخيرة احدى سفن المماليك ، فعاقبهم ذلك حتى وصل نابليون . فقسم جيشه الى خمس مربعات ، وامسك عن اطلاق النار ، حتى اقدم عليه فرسان المماليك بشجاعتهم المعتادة ، ولما صاروا على مرمى مدافعه اطلقها عليهم ، فكانت تحصدهم حصداً ، فاضطر مراد بك الى الانحياز الى القاهرة بمن بقي من رجاله (٢٩ المحرم : ١٤ يولية)

وكان اهل القاهرة قد استولى عليهم الجزع منذ نزول الفرنسيين الى ارض الاسكندرية ، فلما جاءهم نبأ انهزام مراد بك بشبراخيت وتقهقره الى القاهرة هاجوا وماجوا ، واخذ الكثير منهم يفرون من المدينة . ولما سمع « ابراهيم بك » بتقهقر زميله شرع فى تحصين « بولاق » (فرضة القاهرة فى ذلك الحين) ، وعمل على نصب المدافع على النيل بين بولاق وشبرا . واقبل عليه الأهليون يساعدونه بكل ما لديهم من الوسائل ، فاكتظت بهم بولاق حتى كان يخيل للناظر ان سكان القاهرة انتقلوا اليها . وكان الجميع يزدادون فرحاً كلما سمعوا باقتراب الفرنسيين ، فامتلاً الجو بصياحهم وعويلهم وتضرعاتهم ، والعقلاء منهم ينصحون لهم بالتزام السكنية ، ويدكرونها بان ذلك لا يجدى نفعا ، وان النبى واصحابه كانوا يقاتلون بالسيوف والرماح ، لا بالعويل والصياح

استعداد
المماليك

واقعة انبابة
أو الاهرام

اما مراد بك فانه استعد للقاء الفرنسيين ببلدة « أنبابة » من اعمال الجيزة وخندق بها ، ونصب المدافع امام عسكره مخافة ان يحصل له ما حصل بشبراخيت يوم هاجم الاعداء بفرسانه من غير المدافع

وقد كانت تجرئة المماليك اقوامهم على الوجه المتقدم من اكبر غلطاتهم ، اذ كان خير طريقة لهم أن يجمعوا كل قواهم على الشاطئ الشرقى وينتظرون قدوم العدو ، فيضطرونه الى عبور نهر النيل العظيم ، فيهاجمونه مجتمعين أثناء عبوره . ولكنهم غفلوا

عن ذلك كما غفلوا عن غيره من الحيل الحربية ، واعتمدوا على شجاعتهم وانتصاراتهم القديمة ، ونسوا أنهم انما يحاربون دولة في مقدمة دول أوربا : لها من الدراية بالفنون الحربية الحديثة ما تذوب أمامه كل شجاعة ، ويفنى به كل استبسال . وصل نابليون الى « انابابة » في اليوم السابع من شهر صفر (٢١ يولييه) ، فرأى المماليك أمامها في انتظاره ، وقد ملشوا الجو بصياحهم وحماستهم . وبريق دروعهم وملابسهم المطرزة بالقصب يتألأل في الشمس فيزيد منظرهم روعة ومهابة . ورأى وراءهم الأهرام تتجلى في الصحراء وتذكر القادم بأنه في أرض الفراعنة الأقدمين ، فأشار اليها وقال محرضاً جنوده على القتال : « أيها الجند ، إن أربعين قرناً تنظر اليكم من قمة هذه الأهرام » فكانت هذه الكلمة من أشهر كلماته المأثورة

ورأى نابليون أن المماليك يتأهبون لمهاجمته من الأمام كما دأبتهم ، فقسّم جيوشه فرقاً كل منها على شكل مربع مجوّف ، وساقها على المماليك على هيئة هلال : يستعد وسطه للقاء قلب المماليك ، ويحيط طرفاه بجناحيهم

فأدرك مراد بك قصده ، فأمر أبسل قوّاده « أيوب بك الدفتردار » أن يهاجم الفرقة التي أرادت الالتفاف حولهم من الغرب . فانطلق أيوب بك على الفرنسيين برجاله انطلاق السهام ، فأفسح لهم هولاء الطريق حتى صاروا في وسط المربع ثم أصولهم ناراً حامية من ثلاث جهات ، ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً

ثم هجم قلب الجيوش الفرنسية على خنادق المماليك واستولوا عليها برووس الحراب ، وساقوا فرقة أخرى الاحاطة بالمماليك من الشرق . فلما رأى مراد بك أن الفرنسيين كادوا يحيطون به ، وأن طرفي هلال جيوشهم آخذان في الاقتراب ، بادر بالتقهقر ، واضطر الى ترك مشات من رجاله في الميدان ، فحصرهم الفرنسيين بينهم وبين النهر ، وما زالوا بهم حتى أفنؤهم قتلاً وغرقاً

ولم يستطع مراد بك بعد استئفاف القتال ، فأسرع الى منزله وأخذ ما قدر على حمله من المال والنفائس ، وقصد الى الصعيد

هذه هي الواقعة التي تعرف عند المصريين بواقعة « أنبابة » وعند الفرنسيين بواقعة « الأهرام » : استمرت أقل من ساعة من الزمان ، فكانت كما رأيت القاضية على الممالك ، ولم يخسر فيها الفرنسيين غير عشرة قتلى وثلاثين جريحاً ، فكانت أكبر برهان على فضل الأنظمة الحربية الحديثة وفوقها على شجاعة القرون الوسطى وإقدامها

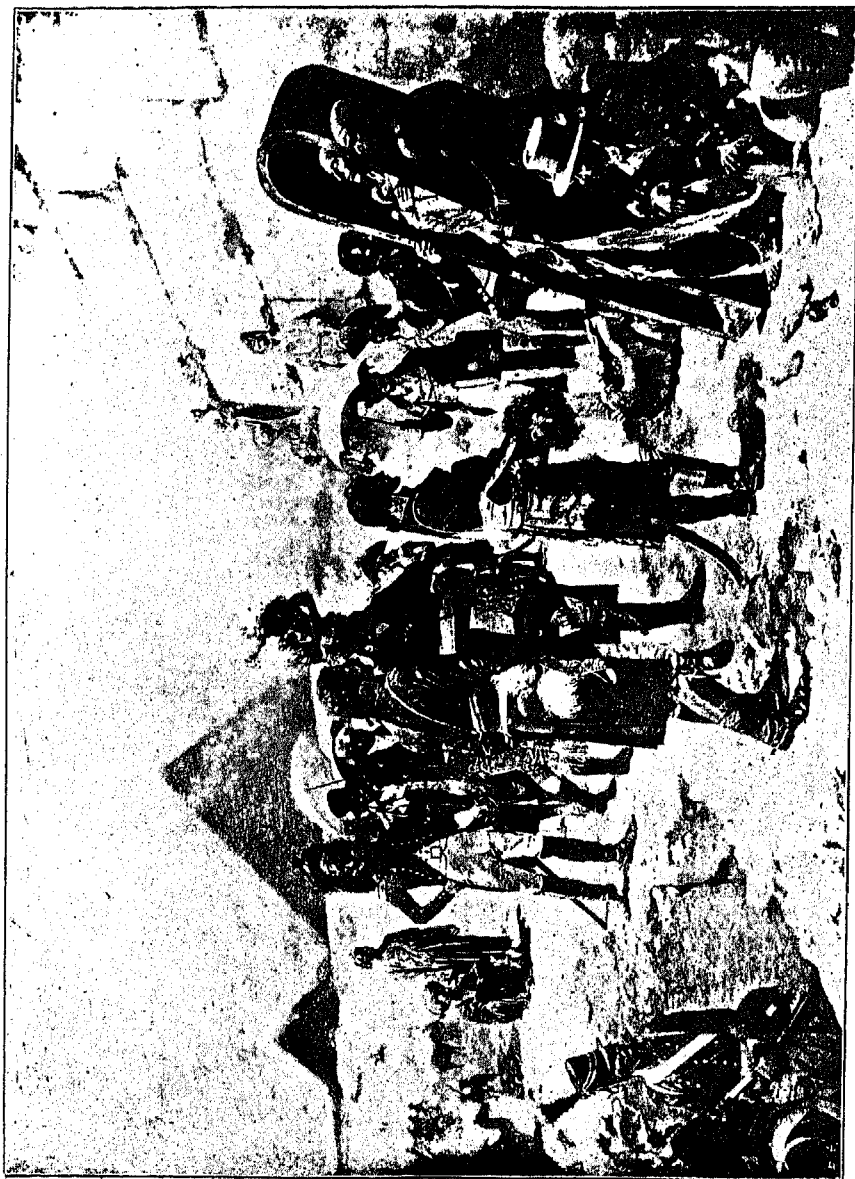
بعد الواقعة ولم يكذب إبراهيم بك يسمع بهذه الكارثة حتى أسرع بالتأهب للفرار من القاهرة ، وحذا حذوه بقية الممالك . ثم ازداد الفزع فتبعهم معظم الأهالي ، وظل الناس طول الليل يخرجون بنسائهم وأطفالهم من المدينة ، بعضهم قاصد إلى الصعيد ، وبعضهم إلى جهة بلبيس والسويس ، وفي هذه الطريق سار إبراهيم بك

وفي الصباح (٨ صفر) اجتمع علماء المدينة بالجامع الأزهر ليتداولوا في الأمر ، فقرّر قرارهم على التسليم ، وذهب وفد منهم ومن الأعيان إلى بونابرت بالجيزة يخبره بالأمر ، فأحسن مقابلتهم ، وأمنهم على حياتهم ومالهم ودينهم بعبارة تشبه عبارات المذخور ، مؤكداً أنه صديق المصريين والسايطان ، وأنه ما أتى إلا لتخليصهم من نير الممالك الظلمة

ولما سمع أهل المدينة بذلك هدأ روعهم ، وأرسلت الزوارق إلى الجيزة ، فجاءت بمعظم الجيش ، فنزل قسم منه بالقلعة . وفي يوم ١٠ صفر (٢٥ يولييه) دخل نابليون نفسه القاهرة بعد أن ترك « ديزيه » لحماية الشاطئ الغربي ، ونزل بقصر محمد بك الأتني على شاطئ بركة الأزبكية (حديقة الأزبكية الآن)

ورأى نابليون أن يبدأ باستئصال شأفة الممالك : فأرسل « ديزيه » في فرقة من الجيش لمطاردة مراد بك بالصعيد ، وأرسل أخرى في طلب إبراهيم بالشرقية ، فلم تقوَ عليه لقلته عددها ، واضطر نابليون أن يذهب إليه في جيش بنفسه . فقابلته إبراهيم بك بالصالحية ، فانهزم واضطر إلى الفرار جهة الشام ، بعد أن كبّد الجيوش الفرنسية خسارة كبيرة ثم عاد نابليون إلى القاهرة ، واستولت رجاله على أملاك البكوات وأموالهم ، وتشددوا

استئصال
شأفة الممالك



يوسف وأخوه أمام الاهرام

(رسم على احدى يوسف — عن صورة بدار الكتب السلطانية)

مع نساءهم حتى اضطروهنَّ الى أن يفدين أنفسهنَّ بالمال : من ذلك أن زوجة مراد بك فدت نفسها بمبلغ ١٢٥,٠٠٠ ريال . وحاول بعض الغوغاء الاشتراك مع الجند في نهب بيوت المالك، فقابلهم نابليون بالشدة ، فساعد ذلك على رجوع السكينة بعض الشيء .

ولما رأى نابليون أن قد هدأت الأمور عمل على تنظيم الحكومة ، وأن يدخل في إصلاحات البلاد كل ما يستطيع من الإصلاحات التي تقتضيها الحضارة الفرنسية ، فنصَّب أحد رجاله حاكماً على القاهرة ، وجعل آخر مديراً للشؤون المالية . وأمر بتشكيل مجلس نيابي (ديوان) من الأهلين ليسترشد بهم في إدارة البلاد . وتكوَّن الديوان بادي الأمر من عشرة من المشايخ منهم الشيخ عبدالله الشرقاوي (مؤلف كتاب « تحفة الناظرين » في تاريخ مصر) والسيد خليل البكري (نقيب الأشراف وشيخ سجادة البكرية في ذلك الوقت) وغيرهما من أفاضل العلماء . ثم وسَّع من نطاق المجلس ، فانضمَّ إليه أعضاء يمثلون جميع الطوائف المقيمة بمصر ، ومن جملتهم أعضاء من الفرنسيين

واندفع نابليون في ادخال كثير من الإصلاحات الأخرى الخاصة بالصحة العامة استياء المصريين أو الأمن وغير ذلك ، غير ناظر لاستياء الناس أو رضاهم ، ومكتفياً باعتقاده أنه إنما يريد الإصلاح على النمط الأوربي . فمن ذلك أنه أمر الأهلين بكنس شوارعهم ورشها في أوقات معينة ، وبوضع مصباح على كل منزل ، مع تهديد كل من يخالف ذلك بالعقوبات الشديدة ، ووضع أنظمة لقيد عقود الزواج والوفيات والمواليد ، مع تأدية مغارم لكل ذلك : مما جعل المصريين يحسّون تدخله في حريتهم الشخصية (وكانوا لم يعهدوا شيئاً من ذلك في عهد أظلم المالك) . فقلَّت ثقتهم بوعود نابليون ومواقفه ، وأخذوا ينظرون شزراً الى كل قانون جديد يسنّه ، خصوصاً عند ما أمر بهدم أبواب الحارات والدروب

وكان نابليون قد أخذ يحصن القاهرة ، فهدم لذلك كثيراً من الآثار والمساجد ، فزاد استياء الأهلين . ولما جمع العلماء وكلفهم تعليق شارات الحكومة الفرنسية ذات

الالوان الثلاثة ، ونهرهم عندما رفضوا ذلك ، امسكوا عن مساعدته في تحسين العلائق
بينه وبين العامة ، وأخذ سخطهم في الاستفحال
وبينا نابليون مشغول باصلاحاته هذه اذ جاءه نبأ تدمير الانجليز لاسطوله في
خليج « بوقير »

واقعة بوقير
البحرية

وذلك ان « نلسن » امير البحر الانجليزى لم يفتر عن البحث عن الاسطول
الفرنسى حتى عثر عليه في خليج « بوقير » في ١٧ ربيع الأول (اول اغسطس) ،
فوقعت بين الأسطولين موقعة بحرية عظيمة انتهت بتدمير الاسطول الفرنسى ،
فكانت من أهم الوقائع التى كوّنت مجد بريطانيا البحرية . والفضل فى ذلك للبطل
العظيم « نلسن » قائد الاسطول الانجليزى ، فانه مع فَوْقَ الفرنسيين عليه فى عدد
مراكبهم ، ونصبتهم القلاع والاستحكامات على الشواطئ لمعاونة الاسطول ، تمكن
من شطر الاسطول الفرنسى شطرين ، أحاط بأحدهما من الجانبين وفكك به ،
وشتتت السفن الانجليزية شمل المراكب الباقية ، فلم ينج منها من الغرق او الحريق
الا القليل

وكان الفرنسيين فى اول الواقعة قد ارسلوا بعض مراكبهم الصغيرة لتغرى
الأسطول الانجليزى على الاقتراب من شواطئهم المحصنة ، حتى يقع بين نارين ،
فلم يعبا بهم نلسن ، وكان من مهارته ما رأيت . وفى هذه الواقعة جرح نلسن فى رأسه
جرحاً خفيفاً ، ومات « برويس » قائد الاسطول الفرنسى بعد ان أظهر من البسالة
والثبات ما يجعله فى مقدمة أعظم الرجال

ثورة القاهرة

بلغ نابليون ذلك فحزن حزناً شديداً لانقطاع كل اتصال بينه وبين فرنسا ،
ولكنه أظهر الجلد واستمر فى تقوية مركزه فى الديار المصرية . وبقيت مشروعاته
تلى بعضها بعضاً من غير أن يعبا باستياء الأهلىين ، حتى بلغ السيلُ الزَّبى ، وخرج
سكان القاهرة على الفرنسيين خروجاً عاماً فى ١٠ جمادى الأولى (٢٢ أكتوبر)
أى بعد نزولهم مصر بشهرين تقريباً

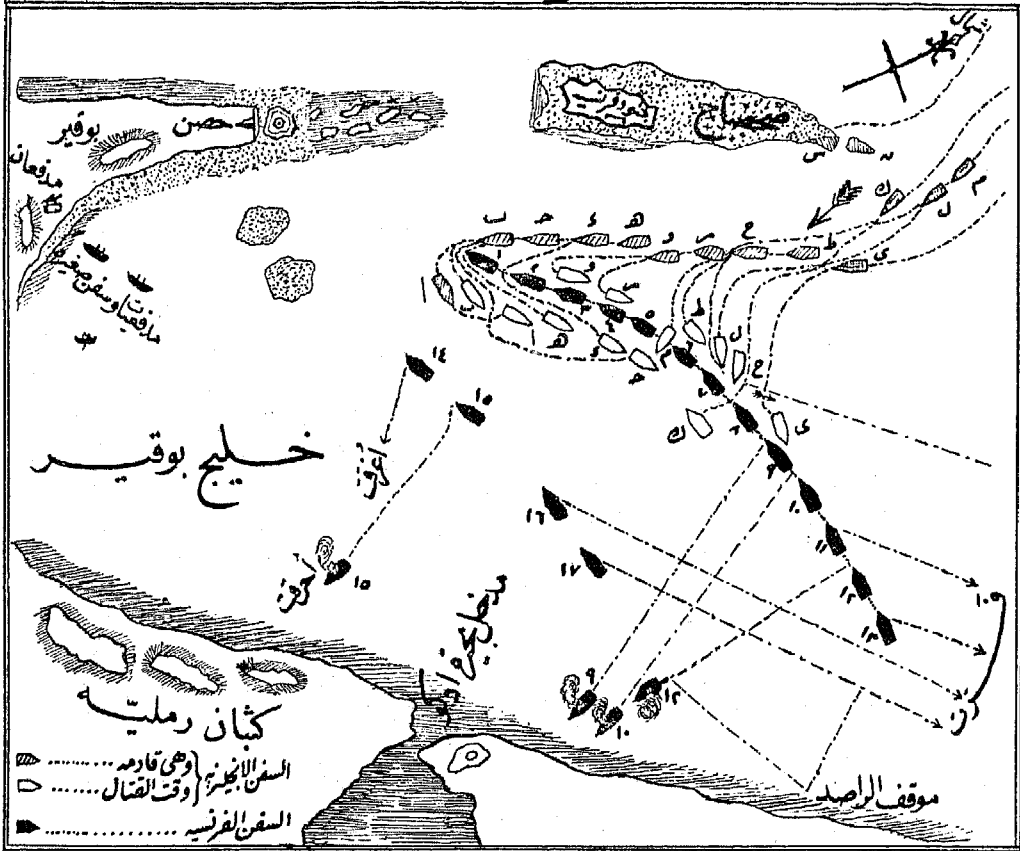


بعضه أعضاء المجلس النيابي

- | | |
|-------------------------|-----------------------------|
| (١) السيد خليل البكري | (٢) الشيخ عبد الله الشرفاوي |
| (٣) الشيخ المهدي الكبير | (٤) الشيخ سليمان الفيومي |

(رسم على افندي يوسف — عن مجموعة بدار الكتب السلطانية)

بيان واقعة بوقير البحرية أغسطس ١٧٨٩



وتلخص أهم أسباب هذه الثورة فيما يأتي :

(١) قتل الفرنسيين للسيد محمد كريم (حاكم الاسكندرية) لاثامه بمخاطبة
الملك

(٢) غزو الفرنسيين في ضرب الضرائب وكثرة الحاحهم ولجأهم في
الاستفسار عن الاملاك الشخصية

(٣) هدم بعض المساجد لتحسين القاهرة

(٤) خوف الأهالي من بعض اصلاحات نابليون وحملها على محمل سيئ ،
مثل هدم ابواب الحارات . وكانت هذه الأبواب تغلق في الليل فتصير كل حارة
كأنها حصن في ذاتها

(٥) انهزام الفرنسيين في موقعة بوقير البحرية ، وسماع المصريين بأن الباب العالي أرسل جيشاً لفتح مصر

استفحال الثورة وقد استفحل أمر الثورة وأظهر فيها عوام القاهرة إقداماً كبيراً لم يُعهد فيهم من قبل ، فذبحوا كثيراً من رجال الفرنسيين ، ثم تحصنوا في الأحياء الوطنية (داخل حدود مدينة الفواطم) ، ونصبوا المتاريس على مداخلها ، ووقفوا يدافعون عنها بما لديهم من الأسلحة والذخيرة . ولكن ماذا تجدى الشجاعة والحماسة امام القوة والعلم ؟ فان نابليون لم يكذب يسمع بالخبر حتى طار برجاله الى مواضع المتاريس ، فصوب عليها المدافع . ثم رأى أن التأثيرين لجهلهم لم يحصنوا التلويح المشرفة على القاهرة من الشرق* فأسرع بارسال المدافع لتُنصب عليها ، وطاول زعماء الثورة : يطلب منهم الصلح خديعة منه ليتم له نقل المدافع الى المواقع المذكورة . فلما أصبح الصباح ورأى الثائرون المدافع مصوبة عليهم استولى عليهم الفزع ، وعلموا أنهم وقعوا في شرك أعمالهم ، ولما انتهت المقدوفات طول المساء على حيّ الأزهر (مقر المشايخ ومنبعث الفتنة) هاج الأهليون وماجوا ، واضطر المشايخ الى الذهاب الى بونابرت واطهار خضوعهم له . فأشبعهم تأنيباً وتعنيفاً على ماسببوه من سفك الدماء ، ثم أمر بالكف عن اطلاق النيران وأمسك الأهليون أيضاً عنه ، إلا سكان حيّ الحسينية (ومعظمهم من طائفة الجزارين) فانهم لما فطروا عليه من الشدة والعنف استمروا في القتال حتى نفذت جميع مقدوفاتهم ، والفرنسيين يصلونهم طول الوقت نارا حامية حتى ألحقوا كثيراً من الضرر بجيهم . وما زالت آثار هذا التخريب باقية الى الآن

اخذ الثورة ثم دخل الفرنسيين المدينة وتجوّلوا في أسواقها لاعادة النظام والسكينة . ثم دخلت طائفة منهم الجامع الأزهر بنحيولهم ، وحطّموا قناديله ، وأزالوا بعض الآيات القرآنية المنقوشة على جدرانها ، ثم غالوا فاتخذوا الجامع اصطبلًا لنحيولهم . فعظم استياء الناس ،

(*) أى من جهة باب الوزير وباب البرقية (جبانة المجاورين)

وأرسل المشايخ وفدّاً الى نابليون يلتمسون اصدار الأمر باخلاء الأزهر من الجنود .
فأجاب ملتمسهم بعد التحذير والتهديد

فهدأت المدينة ، ورجعت المياه الى مجاريها ، وإن كان نابليون قلل بعد ذلك من
اعتبار المشايخ في الديوان وغيره ، وأصبح عملهم قاصراً على نشر المنشورات التي يحثون
العامّة فيها على التزام السكنينة والخضوع للفرنسيين والاعتراف بما أبداه اليهم نابليون
من الجميل

وبعد ان اخذ نابليون الثورة تفرغ لتحسين مصر لصدد غارات العثمانيين . وكان
هؤلاء قد أخذوا يسعون في استرجاعها ، وعقدوا لذلك معاهدة مع إنجلترا وروسيا . فتح مصر
وعولوا في فتحها على تسيير جيشين اليها : الأول يزحف على « العريش » من جهة
الشام ، والثاني يجتمع في جزيرة « رودس » ومنها ينقله الاسطول الانجليزي الى
سواحل مصر . الا انهم أساءوا التدبير في انفاذ هذه الخطة ، اذ وصل الجيش الأول
الى العريش قبل أن يستعد الثاني للقيام . فتسنى لنابليون مقابلة كل منهما على حدة
بمجموع جيوشه ، مع انه كان يضطر الى تجزئتها لو وصل الجيشان في وقت واحد

فلما علم نابليون بذلك أسرع بمعظم جيشه للقاء جيش الشام ، فبلغ العريش بعد
احد عشر يوماً واستولى عليها عنوة ، وسقطت « غزة » في يده بعد ذلك بقليل .
وفي اليوم الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٢١٤ (٣ مارس سنة ١٧٩٩) بلغ « يافا »
وحاصرها ، ولما رأت حاميتها أن لا قبل لهم به استأمنوا اليه فآمنهم ، ولكنه غدر
بهم واستعرضهم جميعاً رميّاً بالرصاص . وتلك وصمة كبرى في تاريخ حياته لا يغفرها
له التاريخ مهما انتحل له من الأعذار ، وانه انما قتلهم جميعاً ليخلص من عبء ثقل
هو إطعامهم وحراستهم

وبعد ان حصّن يافا أسرع الى حصار « عكا » ، فلم يقدر عليها لحسن دفاع حاكمها
« احمد باشا الجزّار » ومساعدته بجرّاً بأسطول انجليزي بقيادة « السير سدي سميت » ،
فرجع عنها بعد ان حاصرها ٥٠ يوماً

واقعة
بوقير البرية
ولم يكد يصل الى مصر حتى جاءه خبر وصول البوارج العثمانية الى الاسكندرية
وانزال ١٠٠٠٠ من الاتراك بجهة « بوقير » يوم ٩ المحرم سنة ١٢١٤ (١٣ يونيه
سنة ١٧٩٩) . فسار اليهم وهزمهم شرّ هزيمة

عودة نابليون
الى فرنسا
على أن ذلك لم يطّيب من خاطر نابليون ، فإنّ انقطاع المواصلات عنه بمصر
بعد تدمير أسطولها بموقعة « بوقير البحرية » ، وعجزه عن الاستيلاء على عكاه التي
هى فى نظره مفتاح الشرق ، وضياح أمله فى فتح الهند ، كل ذلك ملأه يأساً ، وذهب
أدراج الرياح ما كان له من الآمال فى تكوين دولة عظيمة بالشرق . ثم ان « السير
سدنى سميث » كان قد أرسل اليه طائفة من الصحف الأوربية ، فقرأ فيها ان الحرب
تجددت بين فرنسا والنمسا ، وان الأخيرة استردت شمالى ايطاليا الذى كان قد
استولى عليه هو قبل مجيئه الى مصر . فعولّ فى الحال على أن يعود الى فرنسا سرّاً .
فغادر مصر يوم ١٩ ربيع الأول سنة ١٢١٤ (٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩) بعد أن
عهد بقيادة الجيش للقائد « كليبر »

الحالة بعد
خروج نابليون
خرج نابليون من مصر وترك الجيش الفرنسى تهدده الأخطار من كل جانب .
اذ كان عدده قد نقص كثيراً فى معارك الشام وغيرها ، ودبّ السخط فى نفوس الجند
وقلّت أموال الخزينة ، وأصبح الجيش فى حاجة الى الذخيرة والملابس . وأرسلت
الدولة العثمانية جيشاً آخر الى العريش يقوده الصدر الأعظم ، وأسطولاً الى دمياط :
تريد إعادة الكرة على مصر ، هذا الى ان المماليك عادوا الى مكافحة الفرنسيين . نعم
انهم فى جمادى سنة ١٢١٤ هادنوا المماليك الذين كانوا قد تغلبوا على معظم الصعيد
بزعامه رئيسهم مراد بك ، بأن ولوا مراداً حكم بلاد الصعيد ، بشرط أن يكون خاضعاً
لسلطتهم مستعداً لمعاونتهم ، ولكنه كان متربصاً بهم النوازل حتى يستبد فى قومه
بملك مصر

كليبر وسياسته
وكان « كليبر » من أكبر قوّاد الفرنسيين وأعظمهم مهارة ، الا أنه أدرك صعوبة
التغلب على هذه الأمور ، ورأى من المصلحة أن لا يبقى بمصر ، وعرض الصلح على



القائد كليبر

(رسم على افندى يوسف — عن صورة بدار الكتب السلطانية)

الصدر الأعظم والسير سدى سمث ، واتفق معهما على أن يخرج من مصر بجنوده معاهدة العريش وجميع مهماته ، ويسافر الى فرنسا على نفقة الدولة العثمانية . ويُعرف ذلك « بمعاهدة العريش » (شعبان سنة ١٢١٤ : يناير ١٨٠٠) . فلما علمت بذلك الحكومة الانجليزية استنكرت تصرف السير سدى سمث ، وأرسلت اليه الأوامر بأن لا يعقد صلحاً مع الفرنسيين الا اذا سلموا جميع جيشهم بمصر . فكان ذلك من الغلطات التي دوتها التاريخ للحكومة الانجليزية ، اذ ان غرضهم الأصلي لم يكن الا إخراج الفرنسيين من مصر ، وها هو ذا قد عُرض عليهم بلا ضرب ولا طعن . فأبلغ السير سدى سمث أوامر حكومته الى كليبر ، فاقطعت بذلك المفاوضات بين الطرفين

الترك في مصر وكان كليبر بعد معاهدة العريش قد سمح لجيش الصدر الأعظم بدخول مصر ، فسار وعسكر بحجة « بليس » . ثم انتشر عسكره في ضواحي القاهرة والأقاليم المحيطة بها يجمعون المعونات والضرائب ، ودخل كثير منهم المدينة ، وغفلوا عن احتلال القلاع والحصون التي أخلاها الفرنسيون . فلما تحقق الفرنسيون تغيير نية الإنجليز انتهزوا فرصة تشتت الجيش العثماني وأوقعوا بكل قسم منه على انفراده بغتة ، وكانت الواقعة الفاصلة بعين شمس ، فانهزم الترك وتبعهم الفرنسيين إلى « الصالحية » ، فقهقروا إلى الشام

ثوران القاهرة ولما عاد كليبر إلى مصر وجد أن رؤساء العثمانيين الذين بقوا بالقاهرة هم وبعض المشايخ والتجار أثاروا أهلها وعامتها على الفرنسيين ، فهاجوا وملكوا البلد وحصنوا مداخل الدروب ومنعوا الفرنسيين من دخول المدينة . فحصلت بين الطرفين مناوشات عظيمة انتهت بعد نحو ثلاثين يوماً بإبرام الصلح بينهما على أن يخرج العثمانيون إلى بلادهم ، وأن يغرم العلماء والأهلون نحو عشرة آلاف ألف فرنك أما شأن مراد بك ومن معه من المماليك في هذه الثورة فانهم جاءوا إلى « دير الطين » (الساحل القبلي) ينتظرون لمن يكون الغلب فيكونون معه ، فلما حدث ما حدث رجعوا إلى الصعيد

عودة النفوذ إلى الفرنسيين وبذلك رجع للفرنسيين نفوذهم في مصر ، إلا أنه لم يمضِ قليل حتى قُتل « القائد كليبر » غيلة : قتله « سليمان الحلبي » أحد طلبة العلم من نزلاء السوريين ، بإيعاز من أحد زعماء المماليك (على ما قيل) ، وذلك في ٢٠ المحرم سنة ١٢١٥ هـ (١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ م)

مينو وسياسته فعُهد بقيادة الجيش الفرنسي إلى القائد « مينو » ، وكان أقل كفاءة من كليبر غير محبوب من الجيش مثله ، وكان شديد الميل إلى البقاء بمصر . فتظاهر باعتناق الاسلام وتسمى « عبد الله مينو » ، وتزوج بنت أحد كبار المصريين من أهل رشيد ولم يفتر الإنجليز عن العمل على اخراج الفرنسيين من مصر . ففي شهر شوال

سنة ١٢١٥ هـ (فبراير سنة ١٨٠١ م) أرسلوا جيشاً بقيادة «السير رالف أيركرومبي» حملة ابركرومبي فوصلت السفن الانجليزية الى الاسكندرية ، وأنزلت الجنود بجهة «بوقير» ، ثم وصل جيش عثماني وانضم اليهم . فعهد مينو بقيادة مدينة القاهرة الى القائد «بليار» وجاء بمعظم الجيش الفرنسي الى الاسكندرية . فالتحم الفريقان في موقعة فاصلة عند «كانوب» قرب بوقير انهزم فيها الفرنسيين وتراجعوا الى الاسكندرية ، فحوصروا بها ومات «ابركرومبي» في هذه الواقعة فعهد بالقيادة الى «هتشينسن» . وفي أثناء ذلك تقدم الجيش التركي الذي كان بالعريش . فسار هتشينسن للانضمام اليه بعد أن عاهد بفتح الاسكندرية الى أحد قواده

فالتقى الجيشان بجهة «الرحمانية» وسارا نحو القاهرة . فلم يأنس بليار من نفسه مقدرة على صدم وعرض عليهم الصلح على أن تخرج الجيوش الفرنسية من مصر وتساfer مخفورة الى فرنسا على نفقة الحكومة الانجليزية . وقبل الانجليز ذلك ، وأنزلت الجنود الفرنسية بقوارب في النيل الى رشيد وبوقير ونزلوا هنالك في السفن التي أعدت لهم

فدخلت الجنود العثمانية وبعض رجال الجيش الانجليزي الى مصر ومعهم من امراء جلاء الفرنسيين مصر ابراهيم بك الكبير والبرديسي والألفي والسيد عمر مكرم وغيرهم ، فامتلات قلوب الأمة المصرية فرحاً لتخلصهم من أذى الفرنسيين وجورهم أما عبد الله «مينو» فكان قد أصر على الدفاع عن الاسكندرية ، فشدد الانجليز والعثمانيون عليه الحصار . وانتهى الأمر بقبوله التسليم والخروج من مصر بنفس الشروط التي سلم بها «بليار» ، فسافر بمجنوده الى فرنسا في اليوم العاشر من جمادى الأولى سنة ١٢١٦ هـ (١٨ سبتمبر سنة ١٨٠١ م) ، وبذلك تم جلاء الفرنسيين عن مصر بعد أن قضوا فيها نحو ثلاثة أعوام

ذكرنا فيما تقدم ان نابليون أحضر معه الى مصر نحو مائة رجل من أكبر علماء اعمال البعث العلمي الفرنسي فرنسا الملتين بكل فن وعلم . وكان أهم غرض من احضارهم الانتفاع بأراهم في



القائد مينو

كل ما يلزم للجيش والجلالية التي
كان يرمى نابليون الى توطيئها بالبلاد
فلم يكدر رجال البعث يبلغون الديار
المصرية حتى انكبوا على دراسة جميع
ما فيها من آثار ونبات وحيوان
ومعادن، ودرسموا كل شئ ووصفوه
وصفاً مسهباً. وقد نجحوا في أعمالهم
نجاحاً تاماً حتى أنه قيل في وصف
الرحلة الفرنسية: « انها كانت علمية
أكثر منها حربية »

اقسامه وبعد خروج نابليون من مصر
عنى « كليبر » بتنظيم أعمال هذه
الهيئة العلمية ، فقسم أعضائها الى
تسعة أقسام : قسم لدرس الشؤون
الزراعية ، وآخر للصناعة والتجارة ،
وقسم للجغرافيا ، وآخر للآثار ، وآخر
للادارة ، وآخر لدرس الأخلاق
والعادات ، وهكذا

مشروع قناة السويس ومن أهم أعمالهم بمصر أنهم فحسوا
أمر برزخ السويس وامكان شق (رسم على افندى يوسف عن صورة بدار الكتب السلطانية)
ترعة فيه بين البحرين الأبيض والأحمر . فدرسوا المشروع درساً دقيقاً برئاسة مهندسهم
العظيم « لاير » ، وكتبوا فيه تقريراً وافياً كانت له أكبر فائدة للمسيو « ديلبس » الذي

حفر هذه التربة فيما بعد في عهد الخديوى اسماعيل . ولم ينتجز الفرنسيين هذا المشروع
اذ ذاك لوقوعهم فى خطأ حسابى توهموا به أن سطح البحر الأحمر أعلى من سطح
البحر الأبيض بتسعة أمتار

ومن أعمالهم انهم درسوا الأمراض الخاصة بالبلاد وطرق علاجها ، ولا سيما الرمد ،
ونخصوا نظام الري وطرق اصلاحه ، ومسحوا أرض القطر ، ورسوموا له خريطة عظيمة
نُشرت عند عودتهم الى فرنسا

أما بحوثهم فى الآثار المصرية القديمة فكفاهم فخراً أنهم أول من لفت نظر أوروبا الآثار المصرية
الى درس هذه الآثار وأن ما دوتوه فيها كان الأساس الأول لبحوث العلماء الاوربيين
بعد . وقد كشفوا كثيراً من المدن والآثار المصرية القديمة ، ورسوموا لها صوراً جميلةً ،
وأشكالاً تبين دواخل أهم المعابد وما على جدرانها من النقوش . وكان كل ذلك طبعاً
بالقلم والقرطاس ، اذ لم يكن التصوير الشمسى وقتئذٍ معروفاً . ولا يفوتنا ان رجال هذه
الحملة هم الذين عثروا على حجر رشيد الذى كان له الفضل الأكبر فى انجلاء تاريخ
مصر القديم

وفى سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) أمرت الحكومة الفرنسية بجمع أعمال علماء الحملة
ونشرها فى مؤلف واحد ، فظهرت فى ذلك الكتاب العظيم المسمى « وصف مصر »
(Description de l'Egypte) ، فكان أكبر وأوفى مؤلف ظهر الى الآن فى
وصف الديار المصرية

* هذه الصور بعضها مطابق تماماً لحالة الآثار وقت رسمها وبعضها يمثل شكلها فى أيام رونقها
واستعانوا فى رسمها بالنظر الى الاجزاء التى لم تهدم فى الأثر واستنتاج شكل التى تهدمت بطريق
المحافظة على التماثل فى البناء

الفصل الثاني

محمد علي باشا

١ — نشأته ونهوضه *

نشأته

وُلد محمد علي باشا ابن ابراهيم أغا من سلالة البانية ببلدة « قَوْلَة » أحد الموانئ الصغيرة التي على الحدود بين تراقية ومقدونية عام ١١٨٣ هـ (١٧٦٩ م)، وهو العام الذي وُلد فيه « ولنجتون » القائد الانجليزي العظيم « و نابليون » الفاتح الكبير، ولكل منهما أثر عظيم في تاريخ حياة المترجم . وانه لمن العبث أن نسرد هنا الأفاصيل التي تعزى اليه في حداثة سنه ، اذ لم نعتز عليها في أصل يُعتمد عليه .

توفي والده ابراهيم أغا وهو في سن الطفولة ، فتولى أمره عمه « طوسون » غير ان هذا وافته منيته بعد مدة وجيزة ، فقام بأمر تربيته أحد أصدقاء والده ، وقد تبناه ونحني به حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره ، فتعلم طرقات الفروسية واللعب بالسيف . ثم زوجه احدى قريباته ، وكانت من ذوات اليسار . وخدم حاكم قولة واكتسب رضاه بما كان يأتيه من ضروب المهارة والخذق في جباية الأموال من القرى المجاورة التي كانت لا تؤدى ما عليها إلا بالشدة واستعمال القوة الجبرية . واعانته ثروة زوجته على الاتجار في الدخان ، فاصطحب المسيو « ليون » أحد صغار التجار (ويغلب أنه كان وكيلاً لأحد المحال التجارية بمرسيليا مسقط رأسه) ، وشاركه في الاتجار في هذا الصنف فلم تعد عليه هذه التجارة بالأرباح الطائلة ، إلا أنه استفاد فائدة جمة من مراقبته للمسيو « ليون » : فاكتسب منه كثيراً من العادات والآداب الفرنسية التي تركت في نفسه أثراً عظيماً ، وساعدته مساعدة كبيرة في بقية أطوار حياته .

هذا كل ما رواه لنا التاريخ من سيرته الأولى ، وهو يحملنا على أن نترك الثلاثين

سنة الاولى من تاريخ حياته صحيفة بيضاء . وذلك أمر لا بد منه لمن نشأ في بلدة صغيرة لم تكن ذات شأن كبير من قبل
وقبل أن نشرح طريقة استيلاء محمد على على الديار المصرية وابادته للماليك يجب علينا أن نصف حالة الدولة العثمانية في إبان شبابه ، حتى يتمكن القارئ من الوقوف على سر نجاحه :

كانت الدولة العثمانية اذ ذاك مكوّنة من عدة شعوب مختلفة ، ذوى أديان متباينة ونحل متضادة : مما طرّق اليها الضعف ؛ وأدخل عليها الوهن والاختلال الذى كاد يبلغ أقصاه في عصر محمد على ، إذ قد بدأ في عهد صغره أمر « على باشا والى يانينه » ، وهو أيضاً من الألبانيين : أولئك القوم الذين فتحوا الشرق بقيادة الاسكندر ، واستوطنوا مصر في عهد البطالسة ، وهدّدوا رومية في زمن بيروس . خرج ذلك الرجل على دولته ، فنكث قتلها ، وأقلق بالها ، واستقل بأمر البانيا مدة خمسين عاماً انتهت بقتله غيلة سنة ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م)

وكانت كذلك جميع أجزاء الدولة مفككة العرا ناثرة على الباب العالى : فمصر والأناضول وسورية كلها كانت في فتن وقلاقل ، وبلاد العرب مع الدولة في حرب عوان . وكانت الولاة في يانينة وبغداد كأمرأء مستقلين ، واستقل بالفعل في عكا ، أحمد باشا الجزّار ، وشرع يحدو حذوه معظم ولاة الدولة . ووقف دولاب أعمال الحكومة الداخلية جملةً ، وكان الجيش مؤلفاً من رعاى الناس وسيفلتهم ، وكان السلطان أشبه بسجين أو العوبة في يد وزرائه وعساكره الانكشارية ، وكان الباب العالى مكوّناً من فئة الوزراء الذين يهددهم الخطر في كل لحظة ، فقد كان كل منهم يتحين الفرص لاغتيال زميله ، أو للسعى في عزل السلطان وتولية غيره : ليكون هو الصدر الأعظم الجديد

تلك كانت حال الدولة بالاختصار في شببية محمد على ، ومنها يسهل تفهّم أطوار حياته وعلاقته مع الدولة . وبالرغم من كل هذا كان عامة مساهمى الدولة مُطيعين

حالة الدولة
العثمانية في اول
عهد محمد على

خاضعين للسلطان من آل عثمان : لأنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والإمام الواجب تنصيبه ديناً ، ولو لم يكن له من الأمر شيء . بخلاف الوزير أو الوالى اللذين لم يكن كل منهما فى نظرهم إلا فرداً من رجال الحاشية توصّل الى مركزه السامى بالخطوة أو الرشوة . لذلك نرى أن كل الفتن والفتن والفتن فى ذلك العهد كانت نتيجة المنافسة القائمة بين حكام الأقاليم ورجال الباب العالى ، وإن فوز أحدهم بأمنيته كان متوقفاً على حسن الحظ والإقدام والحداع ، لا على الكفاءة الشخصية والمواهب الطبيعية

بلغ محمد على الثلاثين من عمره عام ١٢١٢ هـ (١٧٩٨ م) ، وكان لا يزال فى مسقط رأسه بين أولاده الثلاثة : ابراهيم وطوسون واسماعيل . وقد ذكرنا أن تجارة الدخان لم تعد عليه بربح طائل ، لذلك كان ميّالاً للاحتراف بمهنة أخرى . فلم يلبث إلا قليلاً حتى دخل فى طور جديد من أطوار حياته . والسبب فى ذلك يرجع الى الحملة الفرنسية على مصر

اول قدومه
الى مصر

وذلك أنه فى سنة ١٢١٣ هـ (عام ١٧٩٩ م) أعلن الخليفة الحرب على الفرنسيين لغزوهم مصر ، فأصدر الأوامر بجمع الجيوش من أنحاء الدولة ، فجمع حاكم قولة (الشربجى) فرقة عددها ٣٠٠ من الجنود المتطوعين (الباش 'بزق') بقيادة ابنه « على أغا » ، ورافق محمد على هذه الفرقة وكيلاً له عليها . فتوجهت بطريق البحر الى الدردنيل ، ومن ثمة انضمت الى عامة الجيش فى جزيرة رودس

اولاً
فى واقعة بوقير

ولما وصل الجيش الى ميناء بوقير من الديار المصرية التحم بالجيش الفرنسى ، فكانت الدائرة على الترك ، واضطروهم الفرنسيون الى الالتجاء لسفنهم وسفن الانجليز المرافقة لها بعد مذبحه شنيعة . وكان محمد على قد أشرف على الفرق ، لولا أن قبض الله له « السير سيدنى سميث » ، فأنقذه من الماء بيده وأنزله فى سفينته

وبعد ذلك رجع محمد على الى بلده ، ثم عاد سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠١ م) مع جيش « القبطان حسين باشا » الذى جاء ليساعد القائد الانجليزى « ابركرومى » على اجلاء الفرنسيين . ومن هذا الوقت بقى فى مصر حتى صار والياً عليها

ثانياً فى حملة
ابركرومى

وقد نال إعجاب قائده والقواد الانجليز بما كان يأتيه من ضروب الشجاعة وشدة
البأس عند هجومه على حصن الرحمانية ، إذ دخله عنوة بعد أن اضطر القائد الفرنسى
الى إخلائه . وكان هذا سبباً فى رقيه الى رتبة قائد فى الجيش

﴿ نهوض محمد على ﴾

بعد اخلاء الحملة الفرنسية البلاد ورجوعها الى فرنسا ابتدأت جماعة المماليك تشرب
أعناقها لأن تقبض على زمام الأمور فى البلاد كما كانت من قبل . فى حين أن الباب
العالى كان يطمح الى طرد المماليك من الديار المصرية ، واسترجاعها بعد ان اغتصبت
منه مدة من الزمان . لكن المقادير جاءت بعكس ما أمل الفريقان : إذ أراد الله أن
تكون نصيباً لمحمد على

بدأ النزاع بين الباب العالى والمماليك عند ما أراد الأول أن يستقل بالسيادة فى
مصر ، فاستخدم للتغلب عليهم طريقة غير مقبولة : وذلك ان القبطان حسين باشا
دعا البكوات العظام من حزب مراد بك الى معسكر بوقير ، بعلة التفاوض معهم فى
صيرورة حكومة مصر ، فكان معظمهم غير مرتاح البال الى هذه الدعوة ، الا أن
خوفهم من نزع السلطة كلها من أيديهم حملهم على تأييدها ، وطمأن خاطرهم قرب
معسكر القائد « هتشنسون » الانجليزى

قابلهم الباشا القبطان بتهلل واستبشار وأكرم مشواهم ، ثم دعاهم الى ركوب زورق
له لزيارة القائد الانجليزى ، بحجة أنه يريد أن يتفاوض معه أيضاً . ولما بعدوا عن
الشاطئ قليلاً لحقه زورق يحمل بعض الأوراق ، فاستأذنهم ليقراها على انفراد وترك
الزورق بمن فيه من البكوات . فظهر لهم عند ذلك أنه يريد بهم سوءاً ، فأمروا النواتى بالرجوع
فامتنعوا واطلقوا عليهم النار ، فقتلوا ثلاثة وجرح عثمان بك البرديسى واثنتان آخران .
فلما علم القائد الانجليزى بذلك استشاط غضباً ، فاعتذر له الباشا القبطان بأسباب
واهية . وفى الوقت الذى حدثت فيه تلك الحادثة عند ساحل البحر كانت تمثل

النزاع بين
الباب العالى
والمماليك

محاولة الترك
الفنك بالمماليك

حماية الانجليز
للمماليك

الرواية نفسها في القاهرة ، وقد احتفى معظم من بها من البكوات بالمعسكر الانجليزى فيها ، فأسمعهم القائد « رمزى » رغم إلحاح الصدر الأعظم في تسليمهم اليه ، فكانت هذه الحادثة مدعاة الى اشتغال نيران الحقد في صدور المماليك . وقد زادها لهيباً جعل « محمد خسرو » مملوك الباشا القبطان والياً على مصر في ربيع الاول سنة ١٢١٦ هـ (يولييه سنة ١٨٠١ م) : حصل له القبطان ذلك المنصب بتوسط الصدر الأعظم يوسف باشا لدى الباب العالى

ويعتبر خسرو باشا الوالى الجديد على الديار المصرية من أشهر رجال الترك في القرن الثالث عشر . وكان ذا حظوة عظيمة لدى السلطان . وقد خاض محمد على مدة نصف قرن كان في أثناءها عدوه المبين لأسباب سنذكرها في موضعها . وكان من الذين يعتد برأيهم في جسام الأمور ومعضلات السياسة كما سيجى . ولا يغزى فشله في مصر الى قلة الذكاء والشجاعة ، بل لأنه ابتدأ حروباً داخلية في وقت كانت فيه خزائنه خلواً وجيشه غير مدرب ، على قوة عظيمة من فرسان المماليك الذين كان في قبضتهم خيرات البلاد وفيضها

ومن العتب أن تتجاهل ما كان للمماليك من المزايا العظيمة التى يمتازون بها على الأتراك في حربهم لهم ، وذلك لأنهم التحموا بالجيش الفرنسى أكثر من الأتراك ، فاقبضوا من طرقهم الحربية ما زادهم فوقاً على الأتراك ، ذلك الى أنهم يعرفون البلاد أكثر من جنود الترك الذين وصلوا اليها حديثاً ، وأنهم كانوا لا يزالون أصحاب النفوذ والسلطان في البلاد

فلما أراد « خسرو » مطاردتهم ونزع البلاد من أيديهم ، ظهرت كل هذه العقبات أمامه ، فضلاً عن أنهم القابضون على أزمة الأحكام في المديرية ، فأصبح المقصد اذاً من حربه لهم انتزاع البلاد من قبضتهم . فأرسل لذلك « طاهر باشا » قائد الألبانيين بجيش كان نصيبه الخلية والنشل ، وطارده عثمان بك البرديسى قائد المماليك من الوجه القبلى الى الوجه البحرى حتى ساحل البحر . ولما وصلت أخبار هذه

الهزيمة الى خسرو أعدّ مدداً أرسله بقيادة محمد علي ، وكان ممن نال ثقة خسرو في هذا الحين ، إلا أن عثمان بك بادر الى مناجزة الجيش التركي قبل أن يصل اليه المدد الذي كان يقوده محمد علي ، وبدد شمله

فلما علم خسرو بالهزيمة الثانية وجهّ لومه الى الألبانيين وخاصة الى محمد علي ، خسرو ومحمد علي وأراد أن يحاكمه على تقصيره أمام مجلس عسكري ، وكان غرضه بذلك اغتياله ، فامتنع محمد علي عن الحضور ، ومن هذا العهد ابتدأت بذور العداوة تنبت بين هذين الرجلين : تلك العداوة التي فتت في عضد الدولة ومزقت أحشائها كل ممزق

وبعد هذه الهزيمة الأخيرة أثبت عساكر الترك الحرب كل الإباء لتأخر رواتبهم ،
خسرو وجنود الحامية العثمانية
وثاروا وحاصروا الخزانة ونهبوا وسلبوا القاهرة ، فاعتصم خسرو بالقلعة ، وأصلى العصاة منها ناراً حامية . فأراد إذ ذاك طاهر باشا قائد فرقة الألبانيين (وعددهم ٥٠٠) أن يتوسط بين خسرو والعصاة ، فأبى خسرو وساطته ، فانضم الى العصاة عليه . ولما لم يجد خسرو لديه حينئذٍ جنداً تحميه ولى هارباً الى دمياط ، وبقي بها ينتظر فرصة يسترد بها ما فقدته

ولما علم طاهر بذلك جمع رؤوس العلماء وأشرف العاصمة وشاورهم في الأمر ، فرضوا أن يكون نائباً عن الوالي عليهم ، فأعلن أنه هو الحاكم على مصر حتى يولى الباب العالي خلفاً لخسرو باشا ، وذلك في صفر ١٢١٨ (مايو ١٨٠٣) . وكان من سوء طالع طاهر باشا أنه وقع في نفس الحيرة التي وقع فيها خسرو ، إذ لم يمكنه دفع مؤخر رواتب الجنود : وبعد ٢٢ يوماً من قبضه على زمام الأحكام تألب عليه الجنود ، واغتاله ضابطان (موسى اغا واسماعيل اغا) بعد أن تظالما له من تأخير رواتب الجنود

فأصبح محمد علي ، بعد هرب خسرو وقتل طاهر ، رئيس الأجناد غير الماليك
ابتداء ظهور محمد علي
من الارزاء وغيهرهم ، لأن رتبته في الجيش كانت تلي رتبة طاهر باشا ، ولأنه كان محبوباً لدى العلماء والأهالي لما كان يديه من العطف والحنان عليهم ، فحاز رضاهم بدفاعه ، وكاد يعلن نيابته عن الوالي لولا أن رأى مركزه لا يقل خطراً عن مركز طاهر :

لعدم قدرته على دفع مؤخر رواتب الجند ، وعلى مقاومة خسرو باشا والماليك معاً بمن كان تحت إمرته من الألبانيين . فرأى أنه من الحكمة والكياسة أن ينضم إلى عثمان بك البرديسى هو ومن معه ، فتحالفا ونصبا إبراهيم بك الكبير نائباً عن الوالى العثمانى ، لكبر سنّه ومكان احترامه عند الماليك ، وطرّدوا الانكشارية من مصر

اتحاده مع
البرديسى
على خسرو

وكان بمصر وقتئذٍ « أحمد باشا » والى المدينة وينبع ، ماراً بها : يستمدّ واليها ويتأهب للخروج إلى منصبه ، ويؤلف حملة يكافح بها الوهايين . فاشتراك في هذه الحوادث وفي مقتل طاهر باشا ، وجعل نفسه والياً على مصر ، أو على الأقل نائباً عن خسرو ريثما يحضر من دمياط . وكاد يتم له مراده ، لولا مناصبة محمد على وإبراهيم بك له وعدم اعترافهما له بأى حق في التدخل في شؤون البلاد . ولم يشعر بسلطته أحد لأنها لم تدم أكثر من يوم وليلة . ثم جاء التقليد من الاستانة بنبأته عن الوالى حتى يحضر ، ولكن بعد فوات الفرصة : فانهم طردوه وباقي الانكشارية من مصر ، فخرج إلى الحجاز

ثم ان البرديسى ومحمد على تعاونا على اخضاع الماليك الثائرين الذين كانوا يهددون العاصمة . وبعد أن تمّ لهما ذلك عملاً على بت الأمر في قضية خسرو ، فأعدت لذلك عثمان بك البرديسى جيشاً برياً ، أما محمد على فإنه جهز أسطولاً صغيراً ونزل به إلى دمياط . وكان قد أخذ لذلك عدته ، وبعد مناوشات خفيفة أخذ خسرو سجيناً إلى القاهرة

أخذ خسرو
سجيناً

ولما علم الباب العالى بسير الأحوال في مصر استولى عليه الخوف والقلق ، واتضح له جلياً أن خسرو أصبح غير لائق لولاية مصر ، فأصدر عهداً بتولية « على باشا الجزائرى » . ونزل هذا الوالى الجديد بالاسكندرية في ربيع الأول سنة ١٢١٨ هـ (٨ يولييه سنة ١٨٠٣) ، فرأى أنه لا يمكنه مقاومة البرديسى ومحمد على بجحد السيف ، فاتفق معهما ظاهراً ، على حين أنه كان يعمل في الخفاء على هدم قوتهما وتكوين حزب وطنى مصرى يناهض الماليك . ولكن من سوء حظّه ان بعض مراسلاته مع السيد

على باشا
الجزائرى

« السادات » وقعت في يد البرديسي (وكان هذا ضيقاً عنده) ، فاحتال البرديسي

في قتله ، وتم له ذلك في شوال سنة ١٢١٨ هـ (يناير سنة ١٨٠٤ م)

وفي الشهر التالي لمقتل علي باشا الجزائرى ظهر رجل ذو سطوة وبأس وأعوان
كثيرين وهو « محمد بك الألفى » الذى يُعدُّ من اكبر المماليك فى الديار المصرية .
وذلك انه رجع من انجلترا بعد أن مكث بها سنتين ، وكان قد سافر اليها عام (١٨٠٢م)
مع الحملة الانجليزية . وسبب سفره أن الانجليز كانوا عاهدوا المماليك فى واقعة
سنة (١٨٠١م) أن يأخذوا بناصرهم ، ليتخذوهم صنائع وأعواناً لهم بمصر اذا اقتضى
الحال تدخلهم فى شئونها مرة أخرى . فلما رجعت الحملة صار يتغنى قوادها بفروسية
المماليك وشجاعتهم وخدماتهم ، فسهل على الأمة الانجليزية تعزيز هذا الاتفاق ،
وعزموا على مساعدة الألفى وحماية المماليك . فلما وصل الى السواحل المصرية علم أنه
لا يمكنه الوصول الى ضلته إلا بتوحيد قوى المماليك وجعلهم تحت حماية الانجليز ،
وكان ذلك لا يتم له إلا بالاتحاد مع البرديسي عدوه العنيد ، وابراهيم بك الكبير .
فلما نزل عند بوقير قابله أعوانه بكل حفاوة وأكرام . واذ كان فى ريبة من أمر
البرديسي اتخذ مسكنه فى دمياط ، وأصدر الأوامر الى أتباعه بالاجتماع فى ضيعته
بالجيزة ، ومعهم كل ما يمكن جمعه من العدة والعدد ، على أن يلحق بهم بعد

إلا أن وصوله الى الديار المصرية لم يرق فى نظر كل من البرديسي ومحمد على :
لأن الأول رأى ان من الخطل أن تكون نتيجة خلعه واليين وقله ثالثاً أن يشاركه
فى السلطة مناظر كان بعيداً عن الديار أثناء حربه معهم ، وفاته أنه لو اتحد مع الألفى
كما اتحد مع ابراهيم بك لاستعادوا سلطة المماليك فى مصر ، لأن محمد على غريب عن
البلاد وهو وحده لا يقوى على مقاومتهم . ولكن تدبير محمد على ودهاءه وسعوده كلها
حالت دون اتفاقهم ، خصوصاً أنه رأى أن البرديسي فى قبضته ولا داعى قط
لإشراك مملوك آخر فى حكم البلاد . فاتفق الاثنان على أن يتخلصا من محمد الألفى ،
وفعلآ حاصر محمد على ومن كان معه من الألبانيين قصره فى الجيزة وأخذ أتباعه

اتحاد محمد على
والبرديسي
على الألفى

فرار الألفى الى سورية
على غرة ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وفر الباقيون . أما البرديسي فسار بجيشه ليفتك بالألفى في طريقه الى القاهرة ، فقابلته بالمنوفية هو وحاشيته ، فأفلت الألفى من يده وهرب الى سورية ، أما من كان معه فقتل معظمهم وسلب كل ما معهم من المتاع والمال

تظاهر محمد بالحضوع للدولة
اتبع محمد على أثناء كل هذه المكلفات التي ناصب بها السلطان ومحمد الألفى خطة أظهرت ما كان عليه من الدهاء والحكمة ، إذ أنه اختفى وراء الستار ، وأظهر البرديسي بمظهر العاصي في وجه السلطان والمهاجم للألفى بك ، مع أن محمد على كان يساعده في جباية الأموال اللازمة للجيش الذي كانا يستظهران به على من ينازعهما السلطة

تأليه الأهل على البرديسي
ولما هرب الألفى من الديار المصرية طلب محمد على من البرديسي رواتب الجند ، وأنذره أنه إذا تأخر اضطر الى تركه وحيداً ، وساعد الترك عليه وانضم اليهم . فلم يسع البرديسي إلا تلبية طلبه ، وبذل كل جهده في جباية ما يلزم من المال بالقوة من التجار ، فأثار غضب الأهالي وهيجهم ، ولا سيما أن ذلك أعقب ضرائب فادحة جمعتها الحكومة واستعمل الجباة في استخراجها العنف والشدة معهم ، اذ كانوا يضربون من يمتنع منهم ، وقد يقتلونه

استمالة قلوبهم
فانتهاز هذه الفرصة محمد على وانسلخ من البرديسي ، وأظهر استيائه لجمع هذه الضرائب الفادحة ، ووعد الأهالي بالأخذ بناصر الذين يعارضون في جمعها ، فقال اليه الناس ، وأصبح محبوباً عند عامة أهل القاهرة وأشرافها . ولما وثق من أن الرأي العام يؤيده ، وأن هذه أحسن فرصة للقضاء على سلطة البرديسي والتخلص منه ومن أتباعه قام في فجر يوم ٣٠ ذى القعدة سنة ١٢١٨ هـ (١٢ مارس سنة ١٨٠٤ م) هو وجميع مهاجمة البرديسي من التف حوله من الجند وحاصروا قصر البرديسي ، (الذي كان محصناً بالمدافع) . فتمكن محمد على من رشو رجال مدفعية البرديسي فحوّلوا مدافعهم على سيدهم . إلا أن البرديسي وإبراهيم بك الكبير اقتحما الطريق وفرّا هاربين الى بلاد سورية وإبراهيم بك

فصفا الجو عندئذ لمحمد على، وأصبح صاحب الكلمة النافذة في القاهرة . إلا أنه رأى الفرصة لم تكن بعد للقبض على زمام الأمور في الديار المصرية للأسباب الآتية :
(١) أنه رأى لا بد من أن عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى سيتفقان العقبات الباقية على مناوئته ، وهو لا يقوى على مكافئتهما متحدين

(٢) ان اتباعه من الجند لم تكن الا عصابة صغيرة من الألبانيين لا تقوى على منازعة جميع المماليك

(٣) انه كان يُعتبر في هذه الفترة خارجاً على الدولة لا شترأكه في خلع خسرو ، وأن الدولة ربما أرسلت جيشاً لقمه والضرب على يده

فأراد أن يتخلص من هذا المأزق الحرج باذاعته أنه يريد تحرير القطر المصري من جور المماليك وعسفهم ، حتى يكون قد خدم الدولة خدمة جليلة تمحو ما مضى من سيئاته وعصيانه ، ومهد السبيل لذلك أنه لما علم أن الباب العالي عين والياً جديداً بدلاً من الجزائرى قام في الحال وأطلق خسرو باشا (وكان سجيناً) ليتولى الأمور حتى يصل والى الجديد . ولكن الجند لم يرضوا بأى حال إعادة تنصيبه والياً ، فاضطر محمد على بعد اطلاقه بثلاثة أيام أن يسفره الى رشيد ، ومن ثم أبحر الى القسطنطينية بعد أن أظهر له عجزه عن حمايته

وبعد هذا الحادث بزمن وجيز وصل « أحمد خورشيد باشا » والى الجديد ، واعترف بتوليته كل الجيش : من ترك وألبان ، وأذعنوا له بالطاعة . ولكنه أظهر بعد فترة من الزمن أنه وال ضعيف الارادة غير كفء لهذا المنصب ، وعجز كسابقيه عن دفع مرتب الجند الأتراك ، فرجعوا الى السلب والنهب . أما محمد على فاتبع الطريق الأقصد ، ومنع اتباعه من الألبانيين من مصادرة الأهالى ، بل كان بالعكس يجتهد في حمايتهم من ظلم الأتراك وعسفهم . ولما رأى الأهالى ما ارتكبه الجنود ثاروا على والى والتجئوا الى محمد على ليوقف هذه المظالم ، فأمنهم على حياتهم وأموالهم

* ويسمى على باشا الطرابلسى ايضاً نسبة الى طرابلس الغرب

التجاء الالهالى بشرط أن يدفعوا له من المال ما يقوم بحاجة اتباعه من الألبانيين . وفى هذه الاثناء الى محمد على جاء الى خورشيد باشا الوالى أمر سلطانى باستدعاء الألبانيين وقائدهم محمد على ، فتأهب هو وجنده للرحيل من الديار المصرية ، فرجاه كبار الأمة وعلماءها فى البقاء بمصر خوفاً من تسلط الاتراك وبطشهم ، فقبل ذلك منهم وأبى الرجوع . وفى هذه الاثناء جمعت المماليك جموعها على مقربة من المنية ، للإغارة على القاهرة ، فولى خورشيد محمد على قائداً على الجيش الذى أعده لمحاربة المماليك ، فخار بهم فى عدة وقائع لم تكن فاصلة . وفى خلال هذه الحروب وصل جيش من الدلاة من قبل الباب العالى أكثر همجية وأبشع حالاً من الجيش الذى فى داخل البلاد ليحل محل الألبانيين . فلما علم محمد على بذلك ظن أنه وقع بين نارين ، فقبل راجعاً الى القاهرة وواجه الجيش الجديد جهة « البساتين » و « دير الطين » ، وأخبرهم أنه لم يحضر لخلاف ولا عصيان ، ولكن لطلب النفقة والمؤونة ، وأنه يرمى معهم الى غرض واحد اتفاه مع الدلاة وهو تأييد الوالى والسultan وابادة المماليك . فأنخدعوا بقوله ، وأفسحوا له الطريق ، فدخل القاهرة دخول المنتصر بعد ان اتفق مع الدلاة وأجزل لهم العطاء والهدايا ، فأصبحوا معه على الوالى . وسمح لهم بالذهاب فى طول البلاد وعرضها ، يجمعون الضرائب ويأكلونها

ولما عانت جنود الاكراد (الدلاة) فى الأرض فساداً قام الأهالى فى وجه خورشيد ، وطلبوا من محمد على أن يحميهم ويكون الوالى عليهم ، فقبل ذلك وشن الغارة على الوالى . فاعتصم هذا بالقلعة ، ولما لم يجد له وسيلة يتخلص بها من محمد على اجتهد فى الحصول على عهد من الباب العالى بتنصيب محمد على والياً على جده . فلم يلتفت محمد على لهذا التنصيب ، وحاصر خورشيد باشا فى القلعة ، وأطلق عليها المدافع محاصرتها خورشيد باشا اطلاقاً ذريعاً ، وذلك فى صفر سنة ١٢٢٠ هـ (مايو سنة ١٨٠٥ م)

الامالى يختارون وحينئذ اجتمع علماء البلد ووجهاءها وأقاموا محمد على والياً على مصر ، فقام اليه محمد على والياً الشيخ الشرقاوى و « السيد عمر مكرم » نقيب الأشراف وألبساه « الكرك » ايذاناً

بالولاية . وكان في يد السيد عمر أمر العامة في جميع أنحاء مصر : لا يعصون له أمراً .
فأيد أمر محمد علي بنفوذه وجأه أكثر من ٤ سنين تأييداً لم يقم به أحد مثله . وأرسل
العلماء رسولاً الى الباب العالي ليلتمس العفو عما فرط منهم في حق الوالى ويرجو
اعتماد تنصيب محمد على خلفاً له ، فعلم السلطان من ذلك مقدار ميل الأهلين لمحمد على ،
وأيقن أنه أصبح صاحب الكلمة العليا في مصر ، فوافق على تنصيبه والياً عليها في
ربيع الثانى سنة ١٢٢٠ هـ (يولييه سنة ١٨٠٥ م) . ولما علم خورشيد باشا بهذا النبأ الباب العالي ذلك
سلم له القلعة وتخلّى عنها

﴿ توطيد سلطة محمد على في مصر ﴾

كانت لا تزال سلطة محمد على بعد يولييه سنة ١٨٠٥ مزعزعة الأركان : لأن الصعوبات الباقية
اختياره والياً كان بالرغم من الباب العالي ، فكان أولياء الأمور في القسطنطينية يتحينون
أول فرصة للتخلص منه ، فإنه وإن كان أدار الشؤون المصرية بالضبط والمهارة ،
وقام بها خير قيام ، لا يبعد أن يجاهر يوماً ما بالعصيان في وجه الباب العالي كما فعل
من قبل . هذا الى ان ما حاق بالماليك من المصائب والنكبات المتتابة جعلهم يتحدثون
معاً على محمد على عدوهم العنيد . ثم دهمه أمر لم يكن في الحسبان وهو ورود حملة
انجليزية لغزو مصر . والسبب فيها يرجع الى تحالف فرنسا مع الترك بعد توليته بعام
ونصف ، وكانت فرنسا إذ ذاك في حرب عوان مع انجلترا ، فأرسلت الأخيرة حملة
لتغزو البلاد المصرية باتفاق مع حليقتها روسيا مؤمنة أن ترجع البلاد المصرية الى
حكم المالك على الأقل وتقضى على آمال الترك فيها (وأرسلت أيضاً أسطولها
ليقتحم الدردنيل) . فساعد الحظ محمد على باشا وتخلص من كل هذه الأخطار التي
كانت تهدق به ، الواحد بعد الآخر : فأرضى الباب العالي ، وقضى على المالك
وسلطتهم ، وتغلب بمعونة الأهالى وحامية رشيد على الحملة الانجليزية

ابتداء التغلب
على المالك

ذكرنا سابقاً أن المالك كانوا يهددون القاهرة في أول ولاية محمد على ، وكان هذا

أول خطر يحدق به ، لأن جميع ما لديه من الجند كانوا مشاة لا يقوون على مكافحة فرسان المماليك ، خصوصاً في الخلوات حيث يمكنهم الكرّ والفرّ بكل نظام وبدون أدنى خطر . فدبر لهم مكيمة أنفذها بعض الموالين له : وذلك أنهم اتفقوا سرّاً مع رؤساء المماليك على أن يفتحوا لهم أبواب القاهرة في يوم الاحتفال بفتح الخليج ، أى في الوقت الذى يكون فيه محمد على وجميع ضباطه مشغولين لاهين في الاحتفال خارج المدينة ، على شرط أن يدفعوا لهم مالاً في مقابل هذه الخدمة . فاعتزّ المماليك ووقعوا في هذه الأُحْبُولَة . فلما حلّ اليوم المعهود دخلوا المدينة من باب الفتوح ، فلم يجدوا في حراسته إلا ثلاثة ضئيلة من الفلاحين تغلبوا عليها بدون عناء . ثم ساروا قاصدين باب زويلة ، فلما صاروا في قلب المدينة انصبت عليهم النيران من جانبي الشارع من النوافذ . وكان قد استعد لذلك محمد على ، فلما تنبهوا لغلطتهم التجأ أكثرهم الى جامع برقوق ، وسلّم معظمهم عند ما أمّنهم الوالى على حياتهم . إلا أنه رغم ذلك ذُبح معظمهم في جمادى الثانية سنة ١٢٢٠ هـ (أغسطس سنة ١٨٠٥ م)

الصعوبة المالية

ثم أراد محمد على أن يجمع مالاً لإعطاء الجند مرتبهم مخافة أن يعزل كسابقه ، وأراد أيضاً أن يجزل العطايا الى أمير البحر التركى (وكان راسياً بأسطوله في مياه الاسكندرية ، يحمل الأوامر بمساعدة المماليك على محمد على) . ولما رأى أنه من المحال أن يضرب الضرائب على الفلاحين ، ولا سيما ان جميع الأراضي كانت لا تزال في قبضة المماليك ، جمع بعض المال من أقباط مدينة القاهرة ، ووجد بفحص دفاتر الحساب أن العجبة منهم اختلسوا ما لا يقل عن ٨٠٠ كيساً ، فأجبرهم على دفعها ، وبذلك أجزل العطايا الى أمير البحر التركى وأرجعه من حيث أتى . وكان ذلك في أكتوبر سنة ١٨٠٥ . ولم يمر على هذا الحادث إلا زمن يسير حتى عاد أمير البحر التركى نفسه يصحبه « موسى باشا » والى سلونيك ليكون والياً على مصر ، ولينتقل محمد على معه ليتولى منصب موسى باشا . فظاهر محمد على بإظهار الطاعة لأوامر الباب العالى ، ثم ادّعى أنه يتعذر عليه أن يغادر مصر نوّاً ، لأن الجنود أبوا عليه النقلة ،

صدور عهد بنقله

الى سلونيك

ولا حيلة له في دفعهم ، فإن فئة كبيرة من الضباط عاهدوا أنفسهم وأغلظوا الأيمان والمواثيق ألا يخضعوا لأحد غيره ، وأن يعاضدوه ويأخذوا بناصره ولو على السلطان . وقد تظلم العلماء والأشراف لدى الباب العالي والتمسوا إبقاء محمد علي . ومن حسن حظه ان نشبت في هذه الفترة نار حرب بين الروس والترك ، فاضطر الترك بطبيعة الحال الى استدعاء أسطولهم الى المياه التركية ، فأبحر الأسطول بعد أن أجزل محمد علي العطاء لأمير البحر وموسى باشا معاً . وأخيراً وصل الى مصر في ٢٤ شعبان سنة ١٢٢١ هـ تأييده في الولاية (نوفمبر سنة ١٨٠٦ م) عهد بتأييد محمد علي في منصب والى مصر

وفي أثناء هذه الحوادث جمع الأتقي بك والبرديسى شعث جيشهما ، وأوثقا عرى التحالف بينهما وبين البدو ، وشنا الغارة على محمد علي في بلاد الوجه البحرى . والأتقي عليه وشجعهم على ذلك الأسطول التركى الذى كان راسياً فى المياه المصرية . فاشتبك الأتقي مع فرقة أرسلها عليه محمد علي ، فانهزمت عند «النجيلة» ، ثم انضم الأتقي بعد انتصاره الى البرديسى وحاصرا دمنهور ، فدافع الأهالى عنها دفاعاً صادقاً ، وأظهروا شدة وبسالة لم تكن فى الحسبان ، على حين أن الأتقي والبرديسى كانا يتنازعا على السيادة والأفضلية . وكان محمد علي يستعد للواقعة الفاصلة بينه وبين المماليك بعد ما تخلص من الأسطول التركى كما تقدم ، فساعدته السعادة وحسن الجدموت عدويه العظمين : فمات البرديسى بالحمل فى سنة ١٢٢١ هـ (اكتوبر سنة ١٨٠٦) ، ومات الأتقي فى الحملة الانجليزية ذى القعدة سنة ١٢٢١ هـ (يناير سنة ١٨٠٧ م) . وبموتهما تفرق اتباعهما ايدى سبباً ، وفر معظمهم الى الوجه القبلى

ثم وصلت الحملة الانجليزية التى أسلفنا الذكر عن سبب مجيئها الى الديار المصرية باختصار . وكان الغرض من هذه الحملة تأييد سلطة المماليك ونزع البلاد من يد الباب العالي ، ولكن كانت نتيجة الحملة الفشل التام . والسبب فى ذلك يرجع الى غلو الانجليز فى تقدير ما كان لدى المماليك من الجند وصلت هذه الحملة فى أول المحرم سنة ١٢٢٢ هـ (مارس سنة ١٨٠٧ م) واستولت

على الاسكندرية . ثم سَيرَ قائدها « فريزر » قوة لتحتل رشيد ، فتغلّبت عليها أولاً
لضعف حاميتها ، إلا أن الحامية عادت واخذتهم على غِرَّةٍ وبددت شملهم . ولما علم
محمد على بما جرى في الاسكندرية رجع من مطاردة المماليك في الصعيد الى القاهرة
وجّه جيشاً سيّره الى رشيد ، فالتقى هو وأهالى البلاد من رشيد ودمهور وبعض أهل
البحيرة مع الانجليز عند قرية « الحمّاد » (جنوبى رشيد) ، وهزموهم شَرَّ هزيمة . ثم
ذهب محمد على الى جهة الاسكندرية وأراد أن يحاصرها ، ولكن ولاية الأمور
الانجليز كانوا أرسلوا الى قائد الحملة بالرجوع ، فأخلى الاسكندرية بعد أن عقد شروط
الصلح مع الوالى فى دمهور ، وتركت الحملة البلاد المصرية فى رجب سنة ١٢٢٢ هـ
(سبتمبر سنة ١٨٠٧) . أما العمارة البحرية التى أرسلتها الأمة الانجليزية لاختراق
الدردنيل فانها حُطِّمت ولم ينبج منها إلا بضعة سفن

انهزامها
عند الحمّاد

وكان من نتائج هذه الحملة رضاء الباب العالى عن محمد على ، فنهض السلطان خلعة
وسيف شرف ، وأمر بإرجاع ابنه ابراهيم اليه (وكان معتقلاً فى القسطنطينية) . وقد
صار لهذه الإنعامات السلطانية أثر عظيم فى توطيد سلطته إذ كان فى هذا الوقت فى
وجل شديد من جنده ، حتى أنه استعد للاعتصام بالقلعة اذا تألبوا عليه

رضاء
الباب العالى
عن محمد على

✽ القضاء على المماليك ✽

لما وثق الباب العالى من محمد على أراد أن يستخذه فى اصلاح شؤون الدولة ،
فأول أمر كلفه إياه اخضاع طائفة الوهابيين الذين كانوا يتدخلون فى أمر الحج واحتلوا
الحرمين الشريفين وسلبوها . ولهذا الطائفة مذهب خاص سنتناول الكلام عليه فيما
بعد . فجاءت الأوامر الى محمد على باخضاع هؤلاء القوم ، فاضطرّ أن يُعِدَّ جيشاً أعظم
عدداً وأكثر تدريباً من الجيش الذى عنده وأن يكون له أسطول لنقل الجنود فى
البحر الأحمر ، فوجد أن لا مندوحة من زيادة الضرائب الى درجة أقصت عنه كل
من كان ملتقاً حوله . ولقد كان مركزه اذ ذاك غاية فى الخطر ، فرأى أن لا يتحرك

الخوف
من المماليك

بجيشه الى محاربة الوهابيين قبل أن يقضى على البقية الباقية من الممالك ، وخاصة بعد أن ظهر له أنهم جميعاً مزمعون على قتله . وكان قد رأى أولاً أن يتفق معهم ، وأرسل لهذا الغرض حسن باشا الأرنؤوطى يبلغهم أنه يعطيهم كل ضياعهم ، فأبوا ذلك ، ففكر في قهرهم بحدة السيف ، فخار بهم في موقعة عند أسبوط انهزم فيها جيشه . إلا أن الممالك انتكت قتلهم وتفرقوا ثانية في طول البلاد وعرضها ، في أواخر رجب سنة ١٢٢٥ هـ (أغسطس سنة ١٨١٠ م) ، ولم تمض مدة يسيرة حتى خدع شاهين بك (رئيس الممالك بعد موت الألفى) واحتال لذلك محمد على بمنحه كل الأراضي التي على ضفة النيل اليسرى من الجزيرة الى بنى سويف وفيها الفيوم . فخضع كل الممالك اقتداءً به ، ووقعوا على شروط الصلح في سلخ عام ١٨١٠ م ، ورجعوا الى القاهرة واتخذوا مساكنهم في قصورهم كما كانوا من قبل

استرضاء
الممالك
في الظاهر

وكان شغل محمد على الشاغل في هذه الأثناء تخلص الحرمين الشريفين من سبب الفتك به . أيدى الوهابيين . إلا أنه لم يجرؤ على تسيير جندي واحد الى بلاد العرب ما دامت الممالك تهدد ولايته وتناصبه العدا . وكان على يقين من وتوهم به في أول فرصة تتغيب فيها الأتراك عن البلاد ، وقد تمثل له جلياً مبلغ تحفزهم لقتله غيلة عند ما وافته الأخبار وهو في مدينة السويس مهتماً بشؤون الحملة الى بلاد العرب من « محمد بك لاط الكخية » يحذره من الممالك ، وكانوا يريدون اغتياله وهو راجع الى القاهرة . فأخذ الحيلة ، وبدلاً من مكثه في السويس الى اليوم الذي ضربه لرجوعه تركها في غلَس الظلام على ظهر نجيب سريع العدو غير معان أحداً وجهته ، ووصل القاهرة في فجر اليوم الثاني يصحبه أربعة من الخدم . فهذه المؤامرة وغيرها جعلته يفكر في القضاء عليهم بأية وسيلة قبل أن يسبقوه الى ذلك

وفي شهر صفر سنة ١٢٢٦ هـ (فبراير سنة ١٨١١ م) جمع محمد على جيشاً مؤلفاً من ٤٠٠٠ جندي في القاهرة تحت قيادة « طوسون باشا » ثلثي أولاده ، لغزو بلاد العرب وإخضاع الوهابيين . ورأى أنه لا بد قبل مسير الحملة من الديار من الاحتفال

مذبحة الممالك
بالقلم

بها وتسليم وسام الشرف السلطاني له . فدعا في اليوم المضروب جميع ضباط الجيش والأعيان وعدداً عظيماً من الجند . ثم دعا جميع المماليك ورؤسائهم ، وأعدّ لهم وليمة فاخرة تذكّاراً لهذا اليوم المشهود ، فاجتمع الجميع في القلعة في يوم الجمعة خامس صفر (أول مارس) ، وكان عدد من حضر من المماليك يقرب من الخمسمائة

وكان الغرض الحقيقي من دعوة المماليك التخلص من شرهم ودسائسهم ، فأمر محمد على بذلك الى « حسن باشا » و « صالح قوج » الأرنؤاوطيين فقط ، وفي صبيحة هذا اليوم أسرّ به الى « ابراهيم أغا » (حارس الباب) . فنظّم الموكب في القلعة على الترتيب الآتي :

ابتدأ الموكب بعساكر الدلاة ، ثم تبعهم العساكر الانكشارية ، ثم الجنود الألبانية بقيادة صالح قوج ، وتلاههم المماليك ، ففرقة من الجنود النظامية . فلما سار الموكب وانفصل الدلاة ومن خلفهم من الانكشارية عند باب العزب ، أمر صالح قوج باغلاق الباب وأشار الى طائفته بالمقصود ، فأعملوا السيف في رقاب المماليك ، وقد انحصروا جميعهم في المضيق المنحدر ، وهو الحجر المقطوع في أعلى باب العزب (بين الباب الأسفل والباب الأعلى) الذي يتوصل منه الى رحبة سوق القلعة . وكان قد جهز محمد على عدداً من الجند على الحجر والأسوار ، فلما بدى بالضرب من أسفل أراد المماليك التقهقر ، فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً ، وذلك لوجود خيلهم في مضيق صغير جداً لا يسع جوادين جنباً الى جنب ، وقد أعمل جنود محمد على فيهم السيف قتلاً وفتكاً حتى فنى كل من كان منهم في القلعة

ولما قُتل شاهين بك كبير المماليك ، وعلم الناس بهذا الخبر ، أغلقوا الحوانيت ، وصارت العساكر بعد ذلك تنهب وتسلب في جميع أنحاء العاصمة ، بدعوة البحث عن هرب من المماليك للفتك بهم . ولما علم محمد على بما ارتكبه الجنود من السلب والنهب ركب جواده ونزل بشخصه يمنع العسكر من ارتكاب هذه الجرائم . وقد وجل محمد على هذا جذوه ابنه طوسون باشا في إيقاف الجنود عند حدها . ويقال ان محمد على كان

اضطراب
القاهرة



محمد علي في القلعة
وقت مذبحه المالك
(رسم على احدى يوسف — عن صورة بدار الكتب السلطانية)

فى شدة الوجل خوفاً من خيبة تدبيره ، وكان قد أعد الخيل للهرب اذا لم يفلح
وفى أثناء حدوث هذه الحوادث فى القاهرة أصدر فى الوقت نفسه أوامره لكل
حكام المديرىات بقتل من يعثرون عليه من الممالك ، فكان مجموع من قُتل منهم
بالقاهرة والمديرىات يزيد على الألف . وهكذا انقرضت هذه الطائفة التى عاثت فى
الأرض فساداً أكثر من ستة قرون أذاقت فى خلالها المصريين كل صنوف
الذل والعذاب

٢ — الحروب الوهابية فى بلاد العرب

من أعظم الثورات المشهورة ، واكبر المقتن الدينية التى شاهدها بلاد العرب من منشأ الوهابيين
عهد اقراءطة ، الثورة التى أضرم نارهها الوهابيون . وذلك أنهم أثبتوا فى حماسهم
العسكرية وشجاعتهم البدوية صفات العرب القديمة وتمسكهم بالدين . ومؤسس هذه
النهضة رجل اسمه « عبد الوهاب » من بنى تميم بنجد ، وقد أطلق على ما كان متمسكاً
به من العقيدة « المذهب الوهابى »

وُلد عبد الوهاب صاحب هذا المذهب عام ١١٠٨ هـ (١٦٩٦ م) فى قرية تسمى عبد الوهاب
« العيينة » من اقليم « العارض » . وقد جاور فى أثناء شبابه بمكة والمدينة ومعظم
مدن الشرق المشهورة ، وخاصة البصرة . ولما رأى فى أثناء سياحاته العديدة أن الدين
الحقيقى داخله الفساد ، وتسلمت عليه البدع والمنكرات ، عزم على إصلاح ما أفسده
المفسدون . وكانت قواعد مذهبه وسياسته على غاية من الایجاز فى لاصلاح الاسلامى ،
وهى أشبه بالاصلاح البروتستنتى عند المسيحيين

وكان الوهابيون فى عقيدتهم ومذهبهم على طريق أهل السنة والجماعة . والاساس للمذهب الوهابى
الاصلى لمذهبهم هو توحيد الله ، واعتقاد أن النبى صلى الله عليه وسلم انسان أدّى
ما يجب عليه من إبلاغ الرسالة ، ورفض جميع تفاسير القرآن التى لم تأت من طريق
السنة . ومن معتقداتهم أن الناس عند الله سواء ، وكلهم عباده ، اكرمهم عنده أنقام

وأصلحهم في أعماله ، وبنوا على هذا الاعتقاد أن الاستغاثة بالذين توفوا من الاولياء الصالحاء والانباء ائمتهم عند الله ، وبدعة حدثت في الدين يجب استئصالها وازالة كل أثر يقويها ، كالتناصب التي على القبور والقباب وما أشبهها ، فأزالوها وحرّموا زيارتها والتوجه اليها والاستغاثة عندها . ويرون أن الحلف بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جريمة كبرى ، ويلعنون من يُكثر من الخضوع للموتى لعناً مؤبداً ، ولا يلفظون بلفظ « سيد » للنبي صلى الله عليه وسلم في صلاتهم

أما آدابهم فهي على نقاء وصفاء : إذ يحرمون جميع الموائع المسكرة وكل المواد المخدرة ، ويحرمون جميع أنواع الفجور والفسق والعدول عن الحق والانصاف ، والعمل بالحيل والخداع ، والاعتصاب والمقامرة . أما في شهامة التعصب الحقيقي للدين فإنهم يغارون على كل صغيرة مخلة بالدين الحق . ووجهوا أيضاً جل قوتهم الى تحريم الملابس الحريرية ، والترف في العيش ، وحلق الرأس ، والبكاء والنحيب على الميت

محمد بن سعود ولما أراد عبد الوهاب نشر مذهبه قام في وجهه اناس كثيرون واضطهدوه . ففرّ هارباً الى « الدرعية » ، وهي احدى مدن نجد وعلى بُعد ٤٠٠ ميل من شرق المدينة . فجاه « محمد بن سعود » حاكمها ، ومال الى مذهبه فاعتنقه وعمل على نشره . وكان غرضه من ذلك أن يمدّ سلطانه على البلاد العربية ، فاتخذ ذلك وسيلة الى مطامعه الشخصية ، فامتد سلطانه وسلطان ابنه « عبد العزيز » على جميع بلاد نجد من وفاة عبد الوهاب سنة ١١٥٩ الى ١٢٠٦ هـ (١٧٤٦ — ١٧٩١ م) . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن عبد الوهاب عاش حتى رأى مذهبه منتشرًا في طول البلاد وعرضها ، وتوفي سنة ١٢٠١ هـ (١٧٨٧ م) بعد أن بلغ من العمر الخامسة والتسعين تقريباً ، تاركاً ثمانية عشر ولداً من عشرين زوجة

ولقد أقلق بال شريف مكة انتشار مذهب عبد الوهاب وازدياد نفوذ عبد العزيز ابن سعود في البلاد العربية ، فخرّج في عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) حملة على عبد العزيز كان نصيبها الفشل

ولما أمن عبد العزيز جانب شريف مكة (لأنه كان لا يقوى على مقاومته) وجه
جُل عنايته الى نشر مذهب الوهابية وتوسيع نطاق ملكه في وادي الفرات ودجلة .
فلم يوفق الى ذلك لأن والى بغداد هزمه هزيمة منكرة ، وان كان لم يقتف أثره في
أواسط بلاد العرب خوفاً من هلاك جيشه في وسط الصحراء . ومن ذلك الحين لم
يجرؤ عبد العزيز على محاربة والى بغداد . الا أنه قام في عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م)
وهاجم « كربلاء » وقتل رجالها واستحيا نساءها وانتهك حرمة ضريح الحسين وسلب
أشياء كثيرة . وفي العام التالي دخل مكة بدون معارضة من شريفها « غالب » ،
وكان تركها وانحاز الى جدة

وفي نفس العام قام أحد المتعصبين من الأعجام واغتال عبد العزيز وهو يصلى ،
انتقاماً لما ارتكبه من الفظائع في كربلاء . فقام باعباء الملك بعده ابنه « سعود الثاني » ،
وهو أعظم رجال هذه الأسرة ، اذ وصلت في عصره مملكة الوهابيين الى أوج عزها
ومجدها . وقد دخل في السنة التي تولى فيها الضريح النبوى ، ونهب كل ما فيه من
الكنوز ومن هذا العهد أصبحت بلاد العرب كلها تحت سلطانه . ثم ابتدأ من عام ١٢٢١ هـ
(١٨٠٦ م) يتشدد في جميع الضرائب ، حتى كره الناس حج بيت الله الحرام .
ومن غلوه في مذهبه أنه أغلق أبواب جميع القهوات وحرّم شرب الدخان ولبس
الحريز وغيره مما يُتزين به

ومما سبق يُعلم ان ما كُلفه محمد على من قبل الباب العالي كان في الحقيقة فتح مهمة محمد على
بلاد العرب للدولة من جديد . وكان بقاؤه على ولاية مصر متوقفاً على نجاحه في
اخضاع الوهابيين

حملة محمد على على الوهابيين

قبل أن يعدّ محمد على حملته على بلاد العرب كاتّب شريف مكة ، ولما وثق من
موالاته له ، وعلم أنه لم ينقد للوهابيين الا كرهاً ، جهّز جيشاً عظيماً يبلغ ٨٠٠٠ من
الألبانيين وأرسله بطريق البحر الأحمر في أسطول أعدّه لهذا الغرض ، كان يصنع

سفينه قطعاً مفككة بالقاهرة ، ثم يرسلها الى السويس على ظهور الإبل لتركب هناك .
وقد أفاد هذا الاسطول فائدة عظيمة إذ به يمكنه أن يُسيطر على جميع ثغور العرب
ويصبح في قبضته كل التجارة وطرق الحج الى بيت الله الحرام

وصول طوسون الى ينبع
نزات هذه الحملة في ثغر « ينبع » بقيادة ابنه طوسون ، فلم يلقَ بها أدنى مقاومة لأن
شريف مكة « غالباً » سلمها طوع ارادته ، ومن ثم سار نحو المدينة . وكان العدو قد
كن له ، فتغلب في طريقه بعد مناوشات خفيفة على قريتي « بدر » و « الصفراء » .
الآن أن العدو يته عند « الجديدة » في درب ضيق جداً وكاد يقضى على كل الجيش ،
فلم يبقَ منه إلا ٣٠٠٠ جندي التجئوا الى ينبع بعد ان أنكمهم التعب ، وهرب بعد
هذه النكبة كل الألبانيين . فلما علم محمد على بذلك استشاط غضباً وأتب « صالح قوج »
رئيسهم على تخاذلهم وما أظهره من الجبن . وكان يريد الفتك بصالح قوج ، لولاماله
عليه من المآثر خصوصاً بلاءه في حادثة القلعة ، فاكتمى بنفيه من مصر مع من هرب
معه من الألبانيين بعد أن أجزل لهم العطاء . وكان يعتقد أنه لا يهدأ له بال ما دامت
هذه الفئة الثائرة المتمردة في داخل البلاد

فتح المدينة
وفي عام ١٢٢٧هـ (١٨١٢ م) أرسل محمد على مدداً الى طوسون بطريق القصير
فسار به نحو المدينة ودخلها عنوة بعد أن دوخ الوهابيين . وكانت هذه ضربة قاضية
على صعود الثاني ، وابتدأ المذهب الوهابي يتدهور بعض الشيء . ثم ذهب طوسون
توّاً الى مكة بطريق جدة ، فلم يلقَ إلا الاكرام من شريف مكة وسلمه مفاتيح
الكعبة ، فأرسلها طوسون هي ومفاتيح الحجرة الشريفة الى والده ، فأرسلها الى الباب العالي
يشره برجوع الحرمين الى حوزته . وأراد بعد ذلك طوسون أن يقتنى أثر الأعداء
انهزام طوسون في داخل البلاد ، فهزمه الوهابيون شرّ هزيمة عند « طربة » ، وهي بلدة صغيرة في
عند طربة
شرقي مكة وعلى مقربة منها . وكانت خسائر هذه الهزيمة عظيمة جداً ، حتى ان
سعوداً زحف بجيشه على المدينة ثانية وهددها بالأخذ عنوة
ولما وصل خبر هذه النكبة الى محمد على عزم على أن يتولى قيادة الجيش بنفسه .

فأخذ العُدَّة لذلك ، وتوجَّه إلى الأقطار الحجازية . ولما وصل هناك أدى فريضة خروج محمد على الحج ، ثم علم من بعض الأفراد أن الشريف غالباً مذهب في ولائه ، فاحتال في القبض عليه بواسطة طوسون ابنه ، وأرسله إلى القسطنطينية حيث قُتل هناك بعد مدة وجيزة

ثم ابتدأ محمد على بعض مناشات مع الوهابيين لم تكن فاصلة ، وكان كلا الفريقين يخاف منازلة خصمه

وفي أوائل سنة ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م) مات سعود الثاني ، وبوته فقد الوهابيون أعظم ساعد واكبر بطل . بلغت في مدته دولتهم شأواً بعيداً لم تبلغه من قبل ولا من بعد ، فإن عبد الله ابنه الذي خلفه كان أقل منه ذكاءً وفروسية وقدرة . وكان آخر ألفاظ فاه بها سعود يوصي بها ابنه الأكبر : « يا عبد الله لا تدخل في حرب مع الترك في ميدان مكشوف أبداً ، والزم أنت وعساكرك في حربهم المواقع الصعبة حتى لا يتيسر لهم النصر ، وخذ لنفسك الحذر ، ولا رادّ لقضاء الله وقدره » . ولو اتبع عبد الله هذه النصيحة لما تغلب عليه المصريون قط ، إلا أنه خالف والده والتحم مع محمد على في أول واقعة عند « تبّصل » حيث دارت الدائرة فيها عليه ، وذلك في سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م)

ثم حصلت حوادث في هذه الفترة اضطرت محمد على أن يرجع إلى مصر ، منها عودة محمد على أنه لما علم بهرب نابليون من منفاه في « إلبا » ، وتوقع احتمال غزو الترك للبلاد المصرية ، رجع مسرعاً بطريق القصير فقنا ، ووصل القاهرة في اليوم الذي جرت فيه موقعة « ووترلو » . ومنها أنه علم أيضاً بتدبير مؤامرات على عزله وقتله ، وظن أن ذلك بايعاز من رجال الباب العالي . أما رئيس المؤامرة فهو « لطيف باشا » أحد المماليك ، وكشف سر هذه المؤامرة « الكخيا لاط اوغلي باشا » ، فقتل لطيفاً ومن معه بعد أن حاول الهرب والاختفاء . وكان غرضه أن يكون والياً على مصر إذا نجح في قتل محمد على

عند عودة محمد على همّ بتنظيم جيشه على الطراز الغربى ، فأبى عليه ذلك الجند ،
مقلّدين الأتراك فى ذلك ، ولما علم طوسون بتلك الفتن والقلاقل من جهة وتآلب
الجيش عليه من جهة أخرى عاد مسرعاً الى مصر ، وتوفى بالاسكندرية عقب مرض
لم يممه أكثر من عشر ساعات

وكان قبل سفره قد عقد شروط صالح مع الوهابيين ، إلا أنهم نبذوها ظهرياً ،
ولذلك جهز محمد على حملة أخرى الى بلاد العرب بقيادة ابنه ابراهيم باشا فى شوال
سنة ١٢٣١ هـ (سبتمبر ١٨١٦ م) . ولم يسلك ابراهيم طريق السويس ، بل نزل
فى النيل بجنده (فى سفن أعدت لذلك الغرض) الى قنا ، ومن ثم على ظهور الابل الى
القصر ، ثم الى ينبع ، ومنها الى المدينة المنورة

قد أعمل الفكرة ذلك البطل العظيم فى استنباط الخطط الحربية التى وقّعتها بين
صميم عظماء الرجال ومشاهير القواد ، واعانه على تنفيذ تلك الخطط مهرة الضباط
والمهندسين الفرنسيين . على أن والده قد أوصاه أن يحارب كل قبيلة معاضدة للعدو
على انفراد ، ليكون بذلك أقدر على الفتك بجنودها ، وتفريق كلمتها وتمزيقها شرمزق .
كما نصح له ألا يتوغل داخل البلاد ، وحذّره من الاغارة على الدرعية من طريق
غير طريق المدينة المنورة ، ليحفظ لنفسه خط الرجعة ، وليكون وصول المدد اليه من
السهولة بمكان . وأول موقعة التحم فيها جيشه مع الوهابيين كانت عند « الرئيس »
سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٧ م) ، وفى هذه الملاحمة انهزم جيشه هزيمة لم تكن من عزمه ،
ولم تفت فى ساعده ، بل استمر سنة كاملة فى كفاح وجلاء ، حتى ذل كل صعوبة
اعترضته فى هذا المضمار . ولذلك أخضع قرى كثيرة ، وصار قاب قوسين أو أدنى
من الدرعية خاضرة الوهابيين ، وهى على بعد ٤٠٠ ميل من المدينة المنورة التى
اتخذها قاعدة لأعماله الحربية

حصار الدرعية وابتدأ ابراهيم باشا فى حصار الدرعية فى جمادى الثانى سنة ١٢٣٣ هـ (أول شهر
ابريل سنة ١٨١٨ م) ، فكث مدة يعالج فتحها وهو مستعص عليه . وفى غضون

ذلك انفجر مخزن ذخيرته ، فلم تفتر همته ، ولم يساوره اليأس ، لأنه كان على يقين من استيلاء العالم الاسلامي أجمع من فظاعة الوهابيين . هذا الى أن تلك الحرب في الحقيقة كانت حرباً بين العنصرين التركي والعربي ، وكلاهما يود لو يضعف الآخر أمامه ، فيميل عليه ميلاً واحدة يكون فيها القضاء المبرم عليه

بعد ذلك أخذ ابراهيم باشا يد التخریب والتدمير في ضواحي مدينة الدرعية ، تخريب ضواحي الدرعية



عبد الله سعود في سراق ابراهيم باشا

تسليم عبد الله ليحول بينها وبين المؤنة والمدد . وبذلك اضطر عبد الله الى الخضوع والاستسلام لسيطرته وسلطانه ، فسلم نفسه في ذى العقدة سنة ١٢٣٣ هـ (سنة ١٨١٨ م) . ولم يعامله ابراهيم باشا الا بكل كرامة واحسان ، ثم أرسله الى والده بالقاهرة فبالغ في اكرامه أيضاً ، ثم أرسله الى الباب العالي بعد ان استرد منه كل ما سلبه من الحرم الشريف . وبعد وصوله بزمن يسير أمر به فقتل . فلما بلغ أهل الدرعية مقتله هاجوا وماجوا ، وانتثر عقد نظامهم ، ولذلك أرسل محمد علي في طلب قرابة عبد الله الى القاهرة وأجرى عليهم وظائف تقوم بعاشهم

تخريب الدرعية أما مدينة الدرعية فأصبحت أثراً بعد عين ، لأن ابراهيم باشا رأى بقاءها عامرة حجر عثرة في طريقه ، ولو تركها من غير تخريب لكانت ركناً مكيناً ومعتلاً حصيناً لأعدائه ، فلم يبق عليها لذلك . وساعده على تخريبها الأهالي أنفسهم ، تقريباً اليه واسترضاء له

هكذا انتهت الحروب في بلاد العرب بعد القضاء على سلطة الوهابيين ، الذين كانوا يدعون انهم يسعون في سبيل استرداد مجد الاسلام الضائع

٣ - * فتح السودان *

بعد ان تم النصر المبين لمحمد علي وقضى على الوهابيين القضاء المبرم ، واستأصل شأفتهم من بلاد العرب ، عنت له حاجة شديدة الى فتح السودان وضمه الى سلطانه ونفوذه . وذلك لأسباب سياسية ومادية

الاسباب السياسية أما الأسباب السياسية فتلخص فيما يأتي :

لما قضى محمد علي على دولة المماليك في مذبح القلعة هرب أناس كثير من منهم واعتصموا بالوجه القبلى ، فطاردهم ابراهيم باشا حتى اجتازوا الحدود المصرية ، وتحصنوا في دنقلة وأقاموا بها القلاع والحصون ، وقد احتال محمد علي في القبض عليهم والإيقاع بهم فلم يفلح

هذا الى ان جنده الألبانيين كانوا خطراً عليه في كل وقت ، لأنهم كانوا لا يُنزلونه من أنفسهم الا منزلة فرد منهم ، وكان الضباط يشقون عصا طاعته ويأتمرون فيما بينهم به ليسقطوه ، ولم يدعوا للإصلاح الذى أدخله فى الجيش . ولذلك كان يصدرهم فى مقدمة الجيش عند الالتحام ليبيدهم ويقضى عليهم ، فيربأ بنفسه عنهم ، ويستبدل بهم أبناء السودان (الذين شبوا على الشجاعة والصبر ومقاومة أعباء الحروب) بعد تدريبهم على الفنون الحديثة الحربية ، لأنه اعتقد ان أبناء مصر لا يصلحون للتجنيد لما ينقصهم من الصفات التى تؤهلهم لذلك
أما الأسباب المادية فتلخص أيضاً فيما يأتى :

أراد محمد على فتح السودان ليتسنى له بذلك تجديد طرق القوافل التى كانت بين الاسباب المادية مصر والسودان ، فيتسع نطاق التجارة بين القطرين ، ويناله من هذه التجارة ما يفرضه عليها من ضرائب ومكوس جمّة ، حتى يسترد ما أنفقته فى محاربة الوهابيين ، ويكون ذلك مورداً دائماً من موارد خزائنه فضلاً عما كان يسمع عن السودان وما فيه من مناجم الذهب الغنية التى يمكن استخراجها والانتفاع بها
وان من البواعث التى حركته لفتح السودان ما رآه من أن سعادة مصر متوقفة على استحواذه عليه وضمه الى ملكه ، لأن ريف مصر متوقف ربه على روافد النيل العليا ، ولذلك أصبح من المحتم أن يكون النهر وروافده تحت سلطة واحدة ، ليتمكنها بذلك توزيع المياه على حسب الحاجة مع مراعاة المصلحة العامة

ولما عزم محمد على على انفاذ رأيه ، ورأى أن فتح السودان أمر من العظم بمكان ، تجهيز الحملة
سير جيشاً بادئ بدء الى واحة سيوة لإخضاعها قبل الزحف على السودان ، حتى وفتح سيوة
لا تكون مصدر شرّ بجواره . فسار هذا الجيش الصغير فى جمادى الأولى سنة ١٢٣٥ هـ
(فبراير سنة ١٨٢٠ م) ، فأخضع سكان الواحة ، وصارت جزءاً متمماً لمصر من ذلك الوقت

أما حملة السودان فإنها ابتدأت السير من القاهرة فى شوال سنة ١٢٣٥ هـ

خروج الحملة (يولييه سنة ١٨٢٠ م) ، وكانت مؤلفة من ثلاثة آلاف راجل ، والف وخمسمائة فارس ، بقيادة اسماعيل وأثنى عشر مدفعاً ، وخمسمائة من عرب العبادلة تحت إمرة شيخهم «عابدين كاشف» (وكان قد وعده محمد على بولاية دنقلة بعد فتحها) . فتمعج الجيش في اسوان ، حيث رُتبت هناك الميرة والذخيرة

ولما خرج اسماعيل باشا (وهو أصغر أولاد محمد على) لتولى قيادة الجيش اجتاز هو ومن معه الحدود المصرية ، ودخلوا أرض دنقلة ، حيث تقيم البقية الباقية من الممالك الذين طاردهم ابراهيم باشا كما تقدم والتجئوا الى هذا الاقليم فلما علموا بذلك انقسموا قسمين : قسماً سلم صاغراً بدون معارضة ، وآخر ركب رأسه فاراً الى كردفان ، بعد أن تشتت شمله وناله من العناد والذلة ما ناله ومما هو خليق بالذكر هنا أن ابراهيم بك الكبير مات بدنقلة قبل الحملة بزمان يسير ، وبموته انقرضت رؤساء هذا العنصر الذى حكم مصر ستة قرون تقريباً

واقعة كرتى سار اسماعيل ويده زمام القيادة العامة ولم يعترضه فى طريقه عقبات تذكر حتى وصل مدينة « كرتى » ، حيث سحق عرب الشيخية وشتت شملهم فى موقعتين فاصلتين ومن ثم يم جيشه « بربر » ، ودخلها بدون مقاومة فى جمادى الثانية سنة ١٢٣٦ هـ (مارس سنة ١٨٢١ م) . وفى ٤ شعبان من تلك السنة دخل أيضاً مدينة « شندى » التى سلمها الملك « نير » ، وتم له اخضاع قبيلة الشيخية . وما زال اسماعيل متوغلاً فى البلاد حتى وصل رأس الخرطوم ، ثم حوّل وجهه شطر النيل الأزرق . ولحسن حظه دخل « سنار » ، وهى حاضرة اكبر اقليم فى السودان ، بدون معارضة تذكر . وذلك أن سلطانها « بادى » وأخاه كانا إذ ذاك يتنازعا على الملك ، فنجح اسماعيل فى تثبيت عرش « بادى » ، الذى قابله بكل تجلة وحفاوة ، ثم قيل أن يكون نائباً عن محمد على فى هذه الأرجاء الشاسعة مع الاعتراف بسلطانه . ومن هناك أرسل اسماعيل آلافاً من العبيد الى اسوان ، حيث أعدّ لهم معسكر لتدريبهم على الفنون الحربية الحديثة وتفشى المرض فى جيش اسماعيل أثناء اقامته بسنار ، حتى اضطر الى أن يطلب مرض الجيش

مدداً وموؤنة من أبيه ، لانهطاط قوة الجيش ، لقلة عدده وفقر عزمته . ذلك الى فاق اسماعيل ان جنده كانوا بين قبائل شتى معادية لهم ، ولا يمكنهم أن يصدوا هجماتهم اذا تار تارهم وخرجوا عليهم

لذلك كان اسماعيل قلقاً مضطرباً ، ولكن هدأ روعه وسكن اضطرابه إذ علم بمدد ابراهيم بوصول المدد اليه ، فرجع قافلاً منحدراً الى ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض حيث وصل المدد الذي أرسله أبوه تحت إمرة أخيه « ابراهيم باشا » . فلما وصل اسماعيل بجيشه والتقى بأخيه اتفقا على تقسيم العمل والجيش معاً : فكانت مهمة اسماعيل الزحف بجيشه الى أعلى النيل الأزرق بقدر استطاعته ؛ وأما مهمة ابراهيم فهي الاستكشاف عن النيل الأبيض من الجهة الغربية ؛ وكان الباعث له على ذلك رغبته فى الوصول بجيشه الى المحيط الاثنتى اذا كان النيل الأبيض متصلاً بنهر النيجر ، واذا لم يتحقق له ذلك عاد الى كردفان وعيناً جيشاً يسير به نحو الشمال مخترقاً الصحراء ، حتى يصل الى طرابلس ، ومن هناك الى البحر الأبيض المتوسط . وان هذه الخطة لتدل صراحة على مقدار ما كان يطمح اليه محمد على وأولاده ، كما تدل على مقدار همهم العالية وثقتهم بأنفسهم

وصل اسماعيل فى زحفه على النيل الأزرق الى « تومات » ، أما ابراهيم باشا فقد اعترضه مرض شديد ، حال بينه وبين تنفيذ خطته ، واضطره الى العودة لمصر بعد ان وصل جيشه الى جبل « دِنْكا » جنوباً

وفى منتصف عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م) أرسل محمد على جيشاً ثالثاً تحت قيادة صهره « محمد بك الدفتردار » اغزو كردفان ، فهزم بعض القبائل عند مدينة « بارا » ، واستولى على الأبيض ، وضم اقليم الأبيض الى مصر

ومما قام به هذا الجيش أيضاً الانتقام من « نمر » ملك شندى على نكايته باسماعيل ومن معه

وذلك ان اسماعيل وهو عائد الى مصر ظافراً منصوراً أهان نمرًا إهانة شنيعة ، احراق اسماعيل

جبل دِنْكا

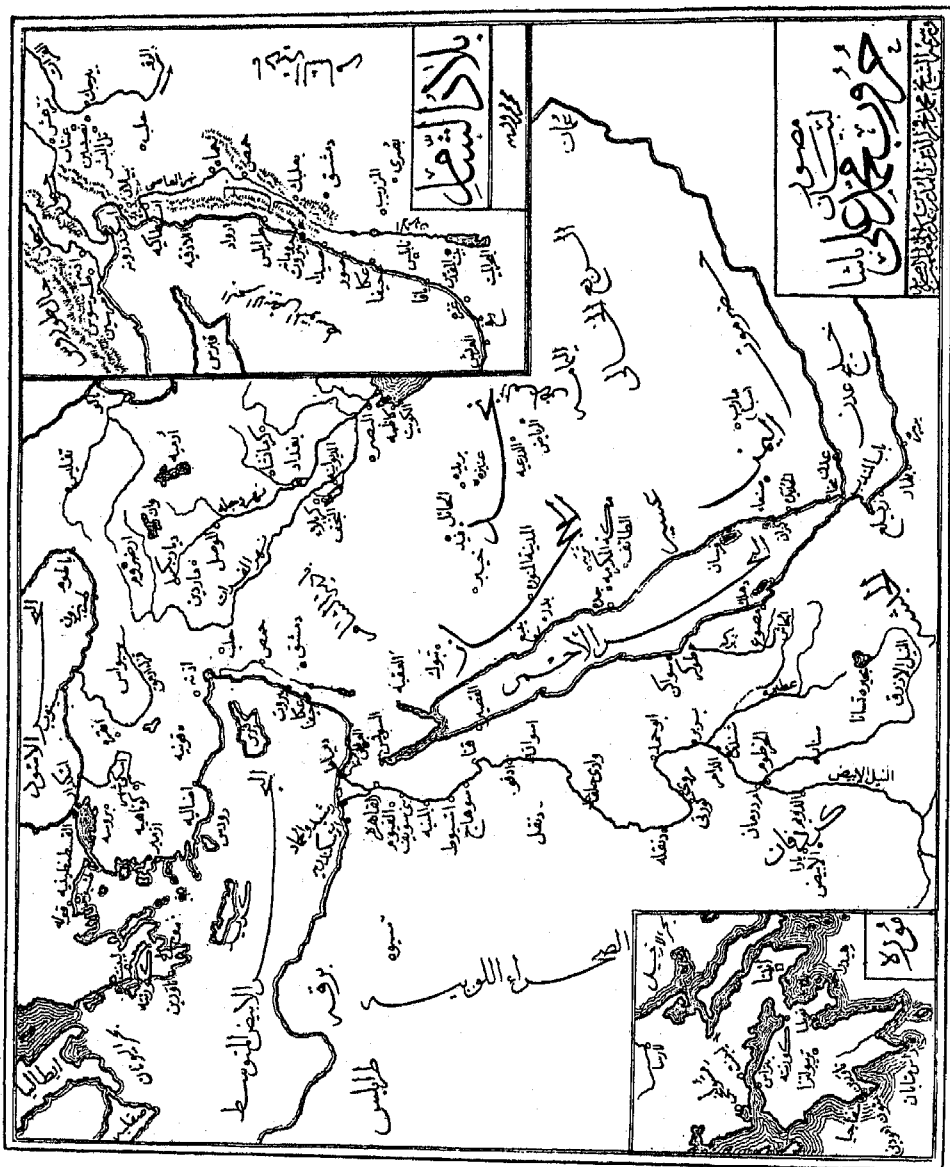
محمد بك
الدفتردار
يفتح الابيض

فأسرها نمر في نفسه ، وأخذ يفكر في طريقة الانتقام من اسماعيل ، حتى بيّث رأيه على أن يأدب مادبة فاخرة يدعو فيها اسماعيل ومن معه ، فلما تم له ذلك ، ولّبي دعوته اسماعيل ومن معه ، أمر أتباعه وأشياعه بأن يجمعوا حول نُزله حطباً ومواد ملتهبة ثم يضرّموها فيها النار . ففعلوا ، فشَبَّتْ النار في النُزُل ، فدمرته وحرقت جميع من فيه . وكان بين المحروقين اسماعيل ، الذي لبي دعوته جاهلاً ببنيته الخبيثة

احراق شندى
وبناء الخرطوم
على ان الجيش لم يظفر بقتل نمر ، ولكنه أحرق شندى بعد ان أخضع كل الاقليم . وبعد ذلك بنى مدينة الخرطوم سنة ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣ م) ، وجعلها حاضرة البلاد

مقدار
نجاح الحملة
ومما تقدم نعلم ان الحملة على السودان لم تقم بتحقيق جميع الأغراض التي كان يرمي اليها محمد علي : لأنه لم يجد في السودان ذهباً بقى بنفقات استخراجه من مناجمه، ولأن طرق القوافل لم تثمر لكثرة الضرائب الفادحة التي كانت تجبى على البضائع عند الحدود المصرية . أما التجنيد من أبناء السودان فلم يتحقق تماماً ، لأنه جند منهم جيشاً عظيماً ، ولكن جو مصر لم يكن ملائماً لهم ، فمات عدد عظيم من هذا الجيش ، ولذلك أضرب محمد علي عن التجنيد منهم وعاد الى التجنيد من المصريين وقد ازداد الاتجار بالرقيق بعد فتح السودان زيادة عظيمة ، حتى اضطرت أنجلترا وفرنسا للتدخل في الأمر . فوعد محمد علي أن يقضى على هذه الحرفة الشنيعة التي تنافى الانسانية ، ولذلك خرج لزيارة السودان عام ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) ، وأمر بمنع بيع الرقيق جملة . ولكن رغم ذلك كله بقي الاتجار به منتشرأ الى زمن قريب ، ولم يضمحل تماماً الا بعد الاحتلال البريطانى كما سيأتى

الرقيق



٤ — * أعمال محمد علي باشا في الديار المصرية *

مقدمة

علمنا ما كانت عليه البلاد من الفوضى في عهد العثمانيين ، وكيف كانت تنن تحت ظلم المماليك وعسفهم ، وجور الجنود الأتراك الذين ساموا العباد نهباً وسلباً ، حتى عمّ الفقر ، وكثرت الاضطرابات ، وأصبحت البلاد كأنها بلا حكومة . فلم يكن اصلاح هذه الحالة بالأمر الهين على كل من أراد النهوض بالبلاد ، وجعلها في صف الأمم الراقية

فلما قبض محمد عليّ على زمام الأمور بمصر ، وهمّ باصلاح شأنها ، ظهرت أمامه كل هذه الصعوبات ، وعرف مقدار الاعباء الملقاة على عاتقه ، فلم يدع وسيلة في سبيل تحقيق هذه الأمنية الاّ اتخذها . وقد كان يشعر بصعوبة المهمة التي أقدم عليها ، حتى قال في حديث له عن اصلاحاته : « ان ثمرة غرسى سيجنيها أحفادى من بعدى ، لأن بلاداً عمّ فيها الارتباك وساد ، ودُرست فيها معالم الحكومة وآثارها ، وأصبح أهلها في الدور الأول من النشء وبلغوا من الجهل درجة لا يتسنى لهم معها أن تقوم بعمل نافع : لا يدخلها التمدن الاّ ببطء »

ولو نظرنا الى الأعمال الخطيرة التي قام بها في سبيل إصلاح البلاد لدهشنا من أن فرداً واحداً وُفق لكل هذه الأعمال التي لا زالت خالدة بيننا الى الآن : فهو الذى وضع أساساً متيناً لحكومة عادلة منتظمة ، وأنقذ البلاد من ذلك النظام الممقوت الذى وضعه السلطان سليم ، وهو تقسيم البلاد بين الوالى المولى من قبل الباب العالى وبين المماليك ، وأغاثها من جور الجنود العثمانيين الذين كانوا يغيرون على البلاد اذا تأخر ما هو مفروض لهم ، وانشأ الطرق وحفر الترع وأصلح الزراعة ، وشيّد المعامل ودور الصناعة ، وأسس المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، واستحضر اليها كبار الأساتذة الغربيين لنشر العلوم الحديثة بين أبناء رعيته ، وأوفد البعثات العلمية الى

صعوبة مهمة
محمد علي

ملخص اعماله

أوربا لتعود مزودة بعلومها ومعارفها وأسرار تقدمها ، وكان في ذلك يحارب جهل الأمة حتى قضى على ما عندها من خرافة أو عادة ممقوتة ، وكان يسوق التلاميذ الى تلقى العلوم والمعارف رغم معارضة آباءهم وعوئلهم كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون

تقدير اعماله

قام محمد على بتلك الأعمال الجليلة التي لا ينكرها انسان ، مع أنه لم ينل في صغره نصيباً من التعلم ، كما أنه لم يكن ملماً تمام الإلمام بالحضارة الأوربية ، ولذلك لا يدهش المؤرخ خطؤه أحياناً في بعض الاصلاحات والمشروعات الصناعية ، ولا يأخذ عليه ذلك ، بل يغتفر له غلطاته بملء صدره بشفاعه أعماله النافعة

محبته لمصر

واذا قلنا بأن غرضه الأول في مصر لم يكن إلا أن ينشئ له مملكتاً : ينصره بجميع الوسائل الممكنة لجمع الأموال وحشد الجنود لحروبه العديدة التي لم تحن منها مصر ثمرة تذكر ، فلا يغرب عنا أنه ما لبث حتى أدرك أن لا قيام للملك إلا باصلاح مصر ، فأخلص في محبتها ، وعمل على أن ينهض بها الى مستوى الرقي والفلاح قدر استطاعته ، مقتدياً في ذلك بالدول الأوربية العظيمة . وكفاه فخراً أنه أول حاكم شرقي أدخل المدنية الحديثة في بلاده . وكثيراً ما كان يصرح في خلال أحاديثه بمحبته لمصر وميله لرقبها . من ذلك أنه قال لأحد الغربيين أثناء حديث له :

« لا شك أنك تعلم أن مصر كانت في قديم الزمان سيدة ممالك العالم ، وعلمها الذي يهتدى به . أما الآن فقد أخذت أوربا هذه المكانة ؛ واني لآمل أن يأتي يوم تنهض فيه الى مكائنها الأولى في التمدن والعمران . وما هذه الدنيا إلا صعود وانخفاض »

الحكومة في عهد محمد على

صعوبة مهمته

ان من يفكر في الصعوبة التي تعترض الحاكم عند انشائه نظام حكومة جديدة في بلاد كمصر كانت مجالاً فسيحاً للسلب والاضطهاد والفسوضي ، لا يسهه إلا أن يعترف بأن ما قام به محمد على في تلافى هذا الخلل يستحق عليه أعظم ثناء ، ويعمله في عداد كبار المصلحين : على قلة عددهم وبخل الزمان بأمثالهم . لذلك يُقَابَل بالقبول ما بالغ

به في مدحه «السير مَرِي» (في مذكراته عن حياة محمد علي) اذ يقول: « ان العالم الاسلامي منذ فناء دولة العرب الزاهرة من بلاد الأندلس لم يظهر فيه حاكم يضارعه في أعماله وصفاته ، فمثله مثل صلاح الدين في عدله وتسامحه الديني »

ويجب على من يريد أن يحكم على محمد علي وما أدخله على حكومة مصر من التغييرات ، وأن يقارنه بنابع من سياسة عصره الغربيين ، أن يلاحظ الزمان والمكان لكل منهما ، حتى تكون مقارنته قوية الأساس ، لا يتطرق اليها الخطأ

تولى محمد علي الحكم فلم يغير ما كان عليه نظام الحكومة في عصر المماليك حتى نظام الحكومة عام ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م) ، وهو العام الذي ادخل فيه التعديل العظيم في نظام الحكومة ، متخذاً الأنظمة التي وضعها نابليون للبلاد رائداً له

فأنشأ «ديواناً خديوياً»^(١) جعل مقره القلعة ، وكان يرأسه الوالي ، وينوب عنه في غيابه « الكتخدأ » . وكان عمله الفصل في الأمور التي ليست خاصة بالقاضي الشرعي أو التي لا يحتاج الأمر فيها الى عرضها على القاضي أو على أى مجلس آخر وذلك لظهورها وجلالتها . وكان هذا الديوان يفصل في القضايا التي يعرضها ضابط القاهرة^(٢) بعد تحقيقها ابتداء في المحارس (القرهقولات)

ثم أنشأ مجلسين : أحدهما كان يسمى « مجلس المشاورة الملكي » وينتخب هو مجلس المشاورة أعضاءه بنفسه ، وكان عددهم يتراوح ما بين ٣٠ و ٤٠ عضواً . وكانوا ينظرون في شؤون البلاد العامة ، وعليهم تعرض القوانين قبل سنّها . ومع ان رأى هذا المجلس كان استشارياً محضاً ، تمكن به محمد علي من تخفيف عبء المسؤولية الملقاة على عاتقه أمام شعبه وأمام الدول الأجنبية

وأما المجلس الآخر فكان بمثابة مجلس الوزراء الآن وقد أنشأ محمد علي فوق ذلك عدة دواوين أخرى تم اسماؤها عن اختصاصاتها . الدواوين الاخر

(١) هكذا كان يسمى ، وان كان لم يمنح لقب « خديوى » رسمياً للوالى الا في عهد اسماعيل

(٢) هذا الضابط بمثابة الحكمدار في وقتنا هذا

وأهمها « مجلس المشاورة العسكرية » ، و « ديوان دار الصناعة (الترسخانة) أو البحرية » ، و « ديوان التجارة » ، وكان هذا الديوان مكوناً من تجار مختلفي الجنس والديانة يرأسهم تقيب (شاهبندر) التجار أو رئيس تجار القاهرة

تقسيم مصر

وقد اقتضت ادارته الداخلية للبلاذ تقسيم القطر الى سبع مديريات ، والغاء الأقسام التي كانت في عهد الماليك . ثم قسم كل مديرية الى عدة مراكز بلغت ٦٤ مركزاً . ثم قسم المراكز الى أخطاط أى نواح يدير شؤونها موظف يلقب بالناظر ، وإلى قرى يتولى أمورها العمدة ومشايخ البلاذ . وكان غرضه من هذا التقسيم تسهيل جمع الضرائب

بيد أنه رغم هذه الأنظمة والتقسيمات كان يتولى شؤون البلاذ بنفسه منفرداً بالسلطة وحده : فكان يفاوض سفراء الدول الأجنبية بنفسه ، ويسمع شكاوى رعاياه ومطالبهم بلا واسطة ، ويتصرف في مالية البلاذ ، ويقوم بالمشروعات العامة

التقدم المادى

أراد محمد على أن ينهض بالبلاذ بادخال الاصلاحات الغربية فيها ابتداءً ، وفاته أن البلاذ كانت تسبح في ظلمات الجهل ، وانها في حاجة الى زمن كبير تنفقه في التعليم حتى تصل الى درجة تمكنها من استثمار الأرض بالطرق الفنية وإدارة المعامل والسير في التجارة حسب ما يقتضيه النظام الأوربى الذى عمل على ادخاله في البلاذ . ولا شك انه كان يشعر بشيء من ذلك ، الا ان الأحوال التي وُجدَ فيها كانت تحتم عليه السير في هذه الطريق بسرعة ؛ اذ كان في شدة الحاجة الى المال للانفاق على الجيش ، ودفع الجزية للباب العالى ، وإرضاء أولى الشأن في القسطنطينية . ورأى أنه لا يتم له هذا الغرض الا اذا جعل جميع موارد البلاذ تحت سيطرته مباشرة : من زراعة وصناعة وتجارة

مقدمة

الزراعة

كانت الزراعة أول عمل وجه إليه محمد على عناية خاصة ، اذ رأى انها ينبوع ثروة البلاد ، وعليها يتوقف أهم دخلها السنوى . فجعل زراعة جميع الأراضى تحت إشرافه ، كى لا يفر أحد من دفع الضرائب . وتشدد لذلك فى المحافظة على الأمن العام ، فقبض بيد من حديد على عصابات اللصوص التى كانت منتشرة فى جميع أنحاء البلاد

ولم يكف بضرب الضرائب الفادحة ، بل عزم على نزع ملكية جميع الأراضى لزراعة ملكية الاراضى ليستغلها على نفقته الخاصة . فلما همّ بإبراز هذه الفكرة الى حيز الفعل قامت فى وجهه صعوبات عظيمة كان لا بد من تذليلها . وذلك أن الأراضى الزراعية فى مصر كان بعضها أوقافاً خيرية يدير شؤونها جماعة العلماء ، وكان جزء آخر كبير جداً ملكاً للمماليك أصحاب الشأن والنفوذ فى البلاد ، وما بقى كان فى قبضة عامة أفراد الأمة . فاستعمل محمد على مع كل طائفة من هؤلاء التهديد والوعيد ، حتى أصبح المالك الوحيد لأكثرها . فأنه استولى على أملاك المماليك فى الوجه البحرى بعد حربه مع الانجليز عام ١٨٠٧ م وطرده المماليك من ريف مصر الى صعيدها

واستولى بعد ذلك على معظم الأراضى الموقوفة التى كانت تحت رعاية العلماء ، فجعل الوقف تحت رقابته من غير أن يحله ، فاحتج عليه العلماء وتجمهروا وعارضوه معارضة شديدة ، فأقنعهم بالدليل القاطع أنه الوالى من قبل الخليفة الذى يتولى أمور المسلمين جميعاً ، فهو أحق فرد فى مصر برعاية الوقف . ومن هذا الوقت بقى الوقف تحت إشراف الاسرة المحمدية العلوية

ونزع بعد ذلك ملكية الأراضى التى كانت لبقية الأفراد ، مدعياً حقّ النسل على كل الاراضى لانه الحاكم النائب عن الخليفة المالك للأرض بحكم الفتح الاسلامى القديم . فاستحضر كل الملاك ، وطلب منهم إبراز حقوق ملكيتهم ، فقدموا اليه حججهم رغم أنوفهم ، فكان يضرب ببعضها عرض الحائط ، ويُظهر بطلان بعضها ، ويُبنى

بعض الملاك أحياناً بعوض يُعطاه من الخزانة . ولما أصبحت جميع الاملاك في قبضة يده جمع كل ما لديه من الحجج وأعدمها . وبتعاقب الأيام أصبح من المستحيل معرفة ما كان للمالكين أو للوقف أو لأفراد الأمة من الارض ، اذ لم تقو المحاكم على معارضة محمد على ، وكانت الاهالى تحت رحمته ، وبذلك أصبح معظم أراضى القطر في قبضة يده الا جزءاً يسيراً كان في قبضة بعض العلماء والأمرأ

استخدام
الفلاحين
اهتم بعد ذلك بتدبير الوسائل التى تسهل عليه زراعة هذه الأراضى ، فاستخدم الفلاحين طبعاً فى زراعتها ، فأصبحوا بمثابة الموالى ، وكانت القاعدة انه ما دام الفلاح قادراً على دفع ما فرض عليه اداؤه من ثمرتها يبقى فى الأرض يتعيش منها وتحلفه من بعده ذريته

وظل الفلاحون هكذا محرومين من التمتع بحق امتلاك الأراضى الى زمن غير بعيد ، وذلك عند ما سنّ سعيد باشا قانونه المختص بأرض مصر ، وتلاه من بعده قانون المكافحة الذى وضعه اسماعيل باشا ، ثم القانون الذى سنّته المحاكم الحديثة خاصاً بحق امتلاك الفلاح الأرض

مسح الاراضى
نظام
جمع الضرائب
ثم أمر محمد على مديرى البلاد بمسح الأقطان وتقدير عدد الفدادين التى تخص كل قرية ، ما عدا الضياع التى كانت توهب للمقربين وذوى الخطوة : فهذه كانوا لا يتدخلون فى أمرها ، وكانت بالطبع شيئاً قليلاً . أما العدد الأوفر من القرى المصرية فكانت تحت سيطرة محمد على ، اذ كان يدير شؤون كل قرية فئة من مشايخ البلد يرأسهم عمدة مُنصَّب من قبيل المدير ، مسئول أمامه عن مقدار ما يُطلب من قريته من الضرائب . ولذلك كان العمدة يوزع الأراضى على الفلاحين حسب اختياره ، ثم يجمع منهم الضرائب على قدر ما يفلح كل من الأرض . وما أشبه الفلاح فى هذه الحالة بالحيوان تحت رحمة العمدة . أما العمدة فكان مثله كمثل السوط فى يد المدير الذى كان صاحب البأس والسطوة الذى لا يسيطر عليه أحد الا والى مالك مصر الوحيد

هذه هي الطريقة التي اتبعها محمد على منذ عام ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨ م) وسار على مقتضاها ٢٠ عاماً ، وبها أمكنه أن يجند الجيوش ويعد الأساطيل ويحارب الأمم ويخضعها

وكان من عادته أن يعين أنواع المحصولات التي تزرع في كل بقعة من بقاع المملكة ، ثم تؤخذ المحصولات جميعها وتوضع في أيدي الحكومة ، ويقدر أثمانها في المحصولات طائفة من رجال الحكومة . فكان جزء منها يؤخذ في مقابل الضرائب التي على الأرض ، وما بقي تشتره الحكومة فتصنع بعضه في مصانعها والجزء الأعظم يباع الى التجار الأوربيين ، وبهذا احتكر محمد على كل التجارة في مصر

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نذكر شيئاً عن المحصولات التي جلبها هذا المصالح الكبير الى البلاد ولا نزال ننتفع بها ، وكانت نتيجة زرعها ازدياد ثروة البلاد : مما أعانه على شن الغارة على أعدائه . وأهم هذه النباتات وأعظمها ربحاً للبلاد القطن الذي أشار بغرسه المسيو « جوميل » في عام ١٢٣٥ هـ (١٨٢٠ م) ، وهو أحد النساجين الفرنسيين المستخدمين بالحكومة المصرية وقتئذ . وقد أتت تجارب زرع محصولاً حسناً ، لجودة التربة وملاءمة الجو ، وبذلك ابتدأ طور جديد في تاريخ مصر المادى . وجلب بذوره من الهند أولاً ثم من أمريكا فيما بعد من صنف يُعرف بقطن « الجزائر » ، وهو أجود نوع في العالم . وقد كان يزرع القطن في مصر قبل عصر محمد على بقرون عديدة ، غير أنه كان من صنف ردىء ، ولا يُعرف تاريخ جلبه الى البلاد

وقد عُنى فرنسى آخر بزراعة القنب في مصر ، لصنع الحبال اللازمة للأسطول . القنب والنيلة واهتم محمد على أيضاً بزراعة النيل (النيلة) ، فجلب لذلك الفلاحين الملمين بزراعتها من جزائر الهند الشرقية . وأحضر من آسيا الصغرى زُرْعاً مهرة في زراعة الخشخاش ، وزرع الغابات والحراج ، ليستغنى بها عن الأخشاب التي تُجَب من البلاد الأجنبية ولم يفته تحسين زراعة الجنائن ، إذ أنشأ ابنه إبراهيم باشا في جزيرة الروضة حديقة زراعة الحدائق

غناء ، فيها من الفاكهة والرياحين ما لذ وطاب ، وذلك بهمة رجل يقوسى من مهرة العالمين بفن الجنائن

ومما سبق يظهر جلياً ان جلب هذه المحصولات وزراعتها ، وتحسين حالة الري ، (مما سيأتى ذكره عند الكلام على الأعمال العامة) : كان من أكبر النعم على مصر ، لو كان الفلاح يضمن بيع محصوله بأثمان مناسبة . ولكن لسوء حظه كانت معاملاته كلها وبيع محصوله يتوقف على عمال الحكومة الذين يلاحظون الزراعة ، وعلى أمانة الذين يقدرون أثمان المحصولات التى كانت تشتري جميعها الحكومة . والظاهر ان الفلاحين كانوا يتحملون فى ذلك مغارم كبيرة ، اذ كانت تشتري منهم بأثمان بخسة وموازن مغشوشة ، فضلاً عن انهم كانوا لا يأخذون أثمان سلعتهم نقداً ، بل فى معظم الأحيان يُجبرون أن يبادلوا بها مصنوعات معامل الحكومة ترويحاً لها

الصناعة

رأى محمد على أن الممالك الصناعية بأوروبا على جانب عظيم من الثروة وسعة الرزق ، فحاول إدخال صناعاتها فى مصر ، وان يشجع الصناعات الوطنية أيضاً ، حتى يتسنى له صنع كل ما يحتاج اليه من لوازم الجيش ومعدات الاسطول ، وينافس الغرب فى صناعة المنسوجات

ولا يخفى ما فى ذلك من المصاعب ، لضرورة جلب الفحم والحديد والأخشاب والآلات من الخارج ، ولأنه أيضاً يلزم المصريين زمن طويل وخبرة كبيرة حتى يصلوا الى درجة بها يمكنهم أن ينافسوا أعمال أوروبا . الا أنه قاوم كل هذه الصعوبات وأنشأ عدة معامل فى أنحاء القطر ، وفت بغرضه مدة من الزمان

فن أهم ما أنشأه معامل الغزل ونسيج القطن والحريير والكتان والصوف . فكان للغزل والنسيج للقطن خاصة ثمانية عشر معملأ فى أمهات مدن القطر ، كالمنصورة ودمياط ورشيد (التى كان ينسج فيها كُرْباسُ أشعة السفن) ، وفى الحملة الكبرى وزفتى ومُنية غمر

وبنى سويف . وأهم هذه المعامل معمل بولاق ، وكان يسمى « معمل المِلْطَة »
لكثرة الماططين فيه ، وكان رئيسه المسيو « جوميل » الفرنسى

وأنشأ مَبْيَضَة المنسوجات بين بولاق وشبرا

وأنشأ فى بولاق معملاً للجوخ ، أحضر له فى مبدأ الأمر رجالاً من الفرنسيين
لإدارته ، ثم أرسل الشبان الى معامل « سيدان » و « ليون » بفرنسا ليتعلموا صناعته .

فلما رجعوا حسنوا صناعة هذا الصنف ، وصار يستعمل فى ملبوس الجيش

وأسس مصانع للمنسوجات استعمل فيها النيل (النيلَة) الذى كان يستخرج

من البلاد

وأنشأ كذلك معملاً عظيماً للطرايش بمدينة فُوّه بادارة رجل مغربى ، وجلب له معمل الطرايش

مهرة العمال من تونس ، فنجح نجاحاً باهراً ، اذ كان ما يصنعه فى اليوم يربو على

٧٢٠ طربوشاً

وأنشأ أيضاً معامل للسكر فى الصعيد : أهمها معمل الروضة ومعمل ساقية موسى . السكر والزيت

وأوجد معاصر للزيت ، فكان فى الوجه البحرى منها عشرون وفى القاهرة أربعون

وقد وجّه عنايته الخاصة الى ايجاد جميع المواد الأصلية اللازمة لهذه الصناعات

فى البلاد المصرية ، فأكثر من زراعة القطن والقنب والكتان ، كما أسلفنا . وربى

الأغنام وعنى بأمرها عناية عظيمة ، وجلب كل صنف منها لتحسين نوع الصوف تربية الاغنام

الذى فى البلاد ، غير ان ذلك لم يُجد نفعاً لعدم ملائمة الجو لهذه الأغنام ، فاضطر

أخيراً للعدل عن ذلك ، بعد أن بذل فيه كل مجهود

واجتهد أيضاً فى إنماء دودة القز فى البلاد ، ليستغنى بتاجها عما يأتى اليه من ودودة القز

الخارج ، فزرع لأجلها أشجار التوت بوفرة فى رأس الوادى ، وحفر السواقي لريها ،

وجلب أناساً كثيرين ممن لهم دراية بتربية دود القز ، فبلغ ما جمعه من الحرير

سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) عشرة آلاف اقة تقريباً

هذه بعض المصانع التى شيدها محمد على فى أنحاء البلاد ، وناهيك بمصانعه

مصانع الجيش الأخرى : من المسابك وغيرها من لوازم الجيش والأسطول . ولكنها لم تدم طويلاً للصعوبات التي يَنبَئُهَا آنفاً ، وتلاشى بعضها في مدة حياته ، واضمححل الباقي عقب تلاشى الصناعات موته ، وأصبحت كأن لم تكن : يشهد بذلك ما قاله أحد مهندسى الانجائز من أنه « زار دار الصناعة بيولاى عقب وفاة محمد على ، فوجد فيها من الآلات المهمة ما لا تقبل قيمته عن ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه »

والسبب في عدم اضمحلال هذه المعامل جملة في أيام محمد على يرجع الى أمرين : أولهما أنه كان القابض على زمام مالية البلاد ، فكان ينفق على هذه المعامل كل ما تحتاج اليه ، ثانيهما أن المحصولات التي كان يشتريها من الأهالى كان لا يدفع ثمنها نقداً ، بل كان يبادل بها منهم مصنوعات المعامل . على ان معظم المعامل كما سبق أغلق في أواخر أيامه ، وبادت البقية الباقية منها في أيام عباس الأول

الأشغال العامة

أهم الأشغال العامة قام محمد على بعدة أشغال عامة عظيمة عادت على البلاد بالمنفعة الجليلة والفوائد التي لا تزال مصر تجني ثمارها الى الآن . ومن أعظم هذه المشروعات ثلاثة : حفر ترعة الحمودية ، واصلاح مرفأ الاسكندرية ، وانشاء القناطر الخيرية

ترعة الحمودية أولاً — ترعة الحمودية . لا يخفى أن تجارة مصر في ذلك الوقت كانت تتوقف على نهر النيل وفروعه المنتشرة في أنحاء البلاد . وكان أهم الثغور التجارية حينئذٍ دِميَاط ورشيد ، غير انهما لوقوعهما عند مصبى النيل تَسُدُّ فُرْضَهُمَا رمالُ البحر وغيرُينُ النهر : مما يجعلهما غير صالحين للسفن الكبيرة التي تنقل التجارة الخارجية . ولاحظ ذلك محمد على ، فعزم على تحويل مجرى تلك التجارة الى الاسكندرية ، رغم ما بها من العيوب : لأنها معرضة للرياح الشمالية الغربية ، وماء البحر عندها ضَحَفُضاح . فرأى ان من أعظم المشروعات المفيدة لذلك حفرَ ترعة تربط الاسكندرية بالنيل ، فحفرها وسَمَّاها « الحمودية » نسبةً الى السلطان محمود الثانى . فأفادت هذه الترعة البلاد فائدة

كبرى ، اذ أصبحت تجرى فيها السفن ذاهبة الى الاسكندرية حاملة حاصلات البلاد فى زمن قصير بدون مشقة كبيرة . وقد جمع الألوف من العمال وسخرهم لحفرها من جميع مديريات القطر ، حتى تمت فى أقرب وقت مع الأبنية اللازمة لها . وقد بلغت نفقاتها ٣٠٠ ألف جنيه ، كما أورده « كلوت بك » فى كتابه على مصر ومن فوائد هذه التربة أيضاً انها كانت سبباً فى عمران البلاد التى مرت بها واحياء أراضيها من العطف الى الاسكندرية ، بعد ان كان أكثرها غير صالح للزراعة أما مدينة الاسكندرية فانها تغيرت بسببها تغيراً عظيماً وجرت شوطاً بعيداً فى الثروة والعمارة . وبقيت هذه التربة أعظم طريق للتجارة بين مصر والاسكندرية حتى أنشئت السكة الحديدية

ثانياً — ميناء الاسكندرية . بعد ان حفر محمد على باشا تربة المحمودية كلف « موجيل بك » ان يصلح مرفأ الاسكندرية ، حتى يتسنى له بناء عمارة بحرية يحقق بها ما تطمح اليه نفسه ، ويجذب بها التجار الأجانب الى الثغر : تسهيلاً لبيع حاصلات البلاد التى كانت جميعها فى قبضة يده . فأصلحه وبني فيه دار صناعة بحرية وأحواضاً لبناء السفن ، فأتسع بذلك نطاق المدينة ، وانتابها التجار من كل حدب وصوب ، وأصبحوا يتنافسون فى شراء حاصلات مصر ، حتى ان احدى الشركات التجارية الانكليزية اشترت فى عام من الأعوام محصول القطن كله

ثالثاً — القناطر الخيرية . هذه من أجل مشروعات محمد على باشا وأعظمها فائدة للقناطر الخيرية للزراعة ، وقد كان لها الفضل الأكبر فى تنظيم الري فى الوجه البحرى

وقد قيل ان نابليون لما قدم الى مصر فى غارته المشهورة أدرك المائدة التى تنجم عن انشاء قناطر على النيل عند تفرده لتنظيم المياه فى الفرعين وقت انخفاضه ، لأنه اذا حُجزت المياه عن أحد الفرعين أتجه ماء النيل كله الى الفرع الآخر ، فيرتفع سطحه عن سطح النيل الأصلى ، وتفيض المياه منه الى الترع فتروى الأراضي . وقال نابليون عندئذ : « ان هذه الفكرة لا بد أن تخرج يوماً ما الى حيز الوجود »

ميناء
الاسكندرية

القناطر الخيرية

رأى نابليون
فى انشائها

فلم يمضِ طويل عهد حتى تحقق ذلك القول وظهر المشروع الى حيز الوجود على يد البطل العظيم محمد على باشا . ومن أهم الأمور التي حدثت به الى انفاذه انتشار زراعة القطن في الوجه البحري ، اذ كان ينمو في فصل الصيف ويُروى فيه

تعميق الترعة وأول فكرة خطرت لمحمد على لتدارك ذلك أن يزداد في عمق الترعة حتى تنصب فيها مياه النيل وقت انخفاضه ، فترفع منها بالسواقي والشواذيف وغيرها من آلات الرفع الى الأرض التي يراد رديها . غير أنه اتضح ان انفاذ هذا المشروع يتطلب أموالاً جمة وجهداً عظيماً من الحكومة والأهلين لا يكاد يكون في الامكان

ثم لاحظ محمد على ان اكثر ترع الوجه البحري واقع بطبيعة الحال شرقي دال النيل وفي وسطها ، لارتفاع سطح الفرع الشرقي عن الغربي ، فعمد الى زيادة المياه في تلك الترعة باقامة سد أصم على الأخير يكوّن من أحجار يُرمَى بعضها فوق بعض ، ليمتنع الماء عن فرع رشيد ويرتفع في فرع دمياط فيملأ الترعة الكثيرة المتفرعة من هذا الفرع . وفعلاً شرع في العمل سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م)

ولكن « لينان بك » (لينان باشا فيما بعد) أحد المهندسين الفرنسيين النبغاء الذين كانوا في خدمة الحكومة المصرية أشار عليه بعدم اقامة هذا السد الأصم ، لما ينشأ عنه من حرمان أراضي فرع رشيد ، ولرفعه مياه النيل وقت الفيضان في فرع دمياط الى درجة يخشى منها . وعرض عليه مشروعاً آخر ، وهو اقامة قنطرتين عظيمتين في عرض فرعي دمياط ورشيد بعد نقطة افتراقهما عند رأس الدال ، في كل قنطرة عيون تُحكم عليها أبواب تُرتج في كلا الفرعين بالتناوب أثناء الصيف ، فاذا حُجزت المياه وراءها عن فرع ارتفع الماء في الفرع الآخر وملأ الترعة العظيمة التي تستمد منه والتي يتوقف عليها الري الصبفي في الوجه البحري . وفي أيام الفيضان تُفتح الأبواب ، فتسير المياه في مجراها الطبيعي بلا مقاومة

فأعجب محمد على باشا بالمشروع الجديد ، وأمر بتشكيل لجنة لدرسه والبدء بانفاذه

في الحال^٥. وبعد فحص طويل قرّر رأى اللجنة على مشروع لينان باشا كما هو، واختير لموضع القنطرتين موضعان على بُعد ٩ كيلومترات في فرع رشيد و٥ كيلومترات في فرع دميّاط. وعُمل التصميم على أن تستقي من النيل ثلاثة (رياحات) عظيمة: أحدها من فرع رشيد، والآخريان من فرع دميّاط

ثم ابتداء العمل في أواخر ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م)، واستعان محمد علي على إنجازهِ ابتداء العمل بسرعة بتسخير الألوف من العمال. ولكن لسوء الحظ انتشر بالبلاد وباء عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م)، ففتك بكثير من العمال، وكاد العمل يقف جملةً بالرغم من مقاومة لينان باشا ومثابرته. وما زال كذلك في الاحتضار حتى نُصّب لينان باشا على وزارة الأشغال، فلم يعد له ذلك الإشراف المباشر على إنشاء القناطر. وسُمّ محمد علي ببطء العمل، وانقلب شغفه مللاً، إلى أن أمر بتشكيل لجنة للنظر في الاستغناء عن المشروع. فأقرت اللجنة فائدة المشروع، وأوصت بمواصلة العمل فيه، ولكن مال الباشا كان قد بلغ أشده، فأمر بإيقاف العمل واستعمال ما بقي من المواد المعدة له في غيره من الأعمال

وبقي المشروع كأن لم يكن، إلى أن قدم إلى مصر مهندس فرنسي آخر يدعى مشروع موجيهل بك «المسيو موجيهل» (موجيهل بك فيما بعد) عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م)، فعرض على محمد علي مشروعاً آخر ضمّنه إنشاء قلاع على القناطر لجعلها مركزاً حربياً للدفاع عن مصر، لعلّه باهتمام الباشا بالشؤون الحربية. فأعجب الباشا بالمشروع أيما إعجاب، وأمر لينان باشا أن يمد موجيهل بك بما لديه من المعلومات في هذا الشأن

ويختلف مشروع موجيهل بك عن مشروع لينان باشا بأن موضع القنطرتين في الأخير كان على بُعد ٩ كيلومترات من رأس الدال في فرع رشيد و٥ كيلومترات في فرع دميّاط، بيد أن موجيهل بك رأى إقامة القنطرتين في موضعين قريبين جداً من

* ومن شدة رغبته في إنجازهِ على وجه السرعة انه أراد هدم أهرام الجيزة لاستخدام أحجارها فيه، لولا أن أقنعه لينان باشا أن قطع الأحجار من المحاجر أسهل من ذلك وأشد اقتصاداً

رأس الدال فصارنا قريبتين احدهما من الأخرى كأنهما عمل واحد ، وفي ذلك تسهيل لادارة حركة القناطر وصياتها بعد انشائها . على ان مشروع لينان باشا كان يمتاز باختيار موضعين صالحين جداً لانشاء القناطر ، لصلابة الأرض عندهما وموافقة الشواطئ لذلك

السرعة الزائدة في العمل
فشرع موجيل بك في العمل عام ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) مبتدئاً بفرع دمياط ، فلم تعترضه صعوبة تذكر ، الى ان ابتداء العمل في فرع رشيد في سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧ م) . فأخذ الملل يستولى على محمد علي ، وأمر أن تضاعف السرعة في انجاز العمل ، فأضر ذلك بالأساس حتى صار من الضروري اصلاحه في العام التالي . ورأى موجيل بك أن يرجئ العمل سنة حتى يصلح وتعظم متانته ، فلم يرضَ الباشا . وبينما وفاة محمد علي الأمر كذلك اذ مات محمد علي عام ١٢٦٤ هـ (١٨٤٨ م) قبل أن يرى نتيجة المشروع الذي طالما تأقت نفسه الى اتمامه

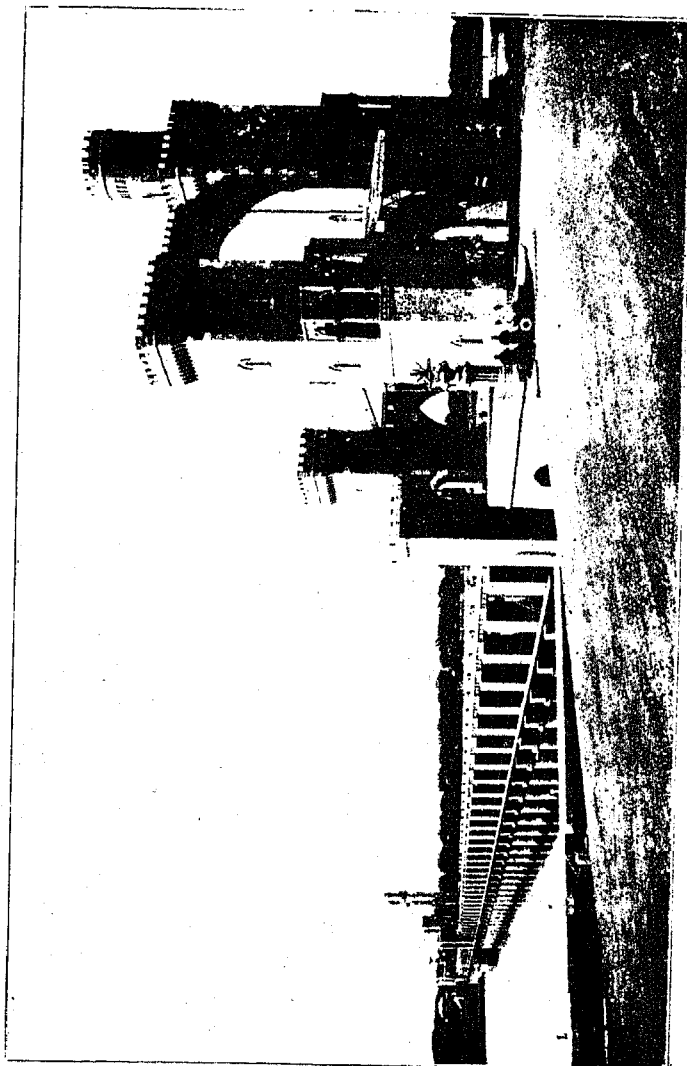
مظهر بك يتولى العمل
ثم تولى عباس باشا الأول ولم تكن له ثقة في نجاح هذا العمل ، فأراد توقيفه ، لكنه خشى الرأي العام وسمح بمواصلته . وفي سنة ١٢٦٩ هـ (١٨٥٣ م) أغضبه ببطء موجيل بك فعزله وسلم القناطر الى مظهر بك . ثم استؤنف العمل في انجاز القناطر دون الشروع في اصلاح أساسها وتقويم ما تصدع منها ، فتمت بكل لواحقها من طرق وشرقات وقلاع عام ١٢٧٧ هـ (١٨٦١ م)

النفقات
وقد قُدِّرَت نفقاتها لذلك الوقت بنحو ١,٨٠٠,٠٠٠ جنيه عدا أعمال السخرة التي لا يُستهان بها . وقد قُدِّرَ « السير وَلِكُكْس » ما تكلفته القناطر على البلاد بنحو ٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه

وعند ما جُرِبَت القناطر لأول مرة اتضح انها لا تفي بكل الغرض المراد منها الا بعد الاصلاح . وسنأتى على ذكر ذلك عند الكلام على الأعمال العامة التي تمت بعد عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م)

مشروعات اشغال اخرى
هذه هي أهم الأشغال العامة التي قام بها محمد علي ، وقد كاد يهمل بانفاذ مشروعات

الضاحك الخيري



أخرى خطيرة ، مثل مدسكة حديدية بين السويس والقاهرة ، ومثل حفر قناة رأى محمد على السويس : مما سنتكلم عليه في موضعه . ونقول بمناسبة هذا المشروع الأخير انه بعد أن في قناة السويس خرجت الحملة الفرنسية من مصر ظلّ بعض العلماء الفرنسيين يفكرون في إبراز هذا المشروع الخطير الى الوجود ، وقصد جماعة منهم مصر ليحببوا الى محمد على حفر هذه الترعّة . فقابل مشروعه في أول الأمر بصدر رحب ، وكلف المسيو لينان (لينان باشا) أن يرسم له خطة لذلك . لكنه عاد فتراخى في الأمر ، ويقال انه لم ينظر الى المشروع بعين الرضى ، اذ قال مرة في حديث له : « انى لا أريد ان أجعل وادى النيل طريقاً دولياً » . وقال في حديث آخر : « انى أخشى أن تكون هذه الترعّة بسفوراً آخر » .

نهضة التعليم

نولى محمد على شؤون مصر في عصر ساد فيه الجهل بين أهلها ، وانحطت فيه مداركهم ، ودُرست دور العلم عندهم . وهذه نتيجة طبيعية لحكم المماليك البيكوات الذين قبضوا على البلاد بيد من حديد مدة وضعوا فيها بين المصرى وبين نور العلم الحديث حجاباً كثيفاً لم يزد طول حكمهم الا جدّة . والسبب في ذلك يرجع الى ما فُطروا عليه من الجهالة وعدم ميلهم الى التعلم ، واعتزالهم العالم بأسره فلما رأى محمد على ما عليه البلاد من التدهور أراد أن يصلح حال رعيته بالتعليم ، فوجه اليه شطراً عظيماً من عنايته . فاعترضه في طريقه عدة عقبات ، اذ كان الآباء يمتنعون عن ارسال أبنائهم الى دور العلم ، مع تكفله بنفقات تعليمهم وإطعامهم وإلباسهم ، وكان يحبب اليهم العلم والتعليم باعطائهم الرواتب الشهرية . ومن العجيب انه كان مع هذا يضطر غالباً الى أن يقود التلاميذ الى دور العلم بالسلاسل والأغلال . ومن هؤلاء أفراد نبغوا وساروا فيما بعد بالتعليم شوطاً بعيداً

أما المدارس التي أسسها محمد على فكانت على ثلاثة أنواع: ابتدائية وتجهيزية وخاصة

المدارس
الابتدائية

فأنشأ خمسين مدرسة ابتدائية في أمهات البلاد ، وكان عدد من فيها من الطلبة

✽ يعنى أنها تصبح موضع نزاع بين الدول العظام ربما أفضى الى استيلاء أقوام على مصر

أحد عشر ألفاً تقريباً . وأسس مدرسة لتعليم نخبة أبناء الأمة سمّاها كلية الأمراء ،
كان يتعلم فيها أبناؤه وأبناء الأمراء ، بلغ عدد تلاميذها نحو ٥٠٠ تلميذ
المدارس الخاصة أما مدارسه الخاصة فكانت عديدة . وأهمها وأعظمها فائدة للبلاد مدرسة الطب ،
التي قضت على عهد الخائيم والسحر والرقي وغيرها من أنواع الشعوذة التي كان يتطبّب
بها المصريون . والفضل في إنشاء هذه المدرسة راجع الى الدكتور « كلوت بك »
أحد نجباء الفرنسيين الذين كانوا في خدمة الحكومة المصرية
مدرسة الطب أسست هذه المدرسة بأبي زعبل كطّلب الدكتور المذكور سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٧م)



كلوت بك

وكان غرضه من انشائها ترقية هذا
الفن في البلاد ، حتى يوجد بها
أطباء تسد حاجة الجيوش البرية
والبحرية . وقد قدم له في هذا
الشأن تقريراً جاء في آخره :
« يجب أن يكون بمصر مدرسة
للطب تكون تلاميذها من المصريين
المخلصين ، الذين يفارون على
بلادهم وبحبون تقدم وطنهم .
ويُتوصل الى ذلك بإنشاء مستشفى
عمومي يتعلم فيه مائة وخمسون

شاباً ممن لهم إلمام تام بمعرفة اللغة العربية قراءة وكتابة ومبادئ الحساب ، ويجب
أن تدرس لهم اللغة الفرنسية وأنواع الطب بفروعه ولا سيما الجراحة ، وتكون مدة
الدراسة بها أربع سنوات يُختبر التلميذ في آخر كل سنة منها »

فسر محمد علي من المشروع وأمر بتأسيس المدرسة وجعلها تحت رئاسة كلوت بك
وأسس محمد علي بجوار هذه المدرسة مدرسة للطب البيطري ، وولى رياستها

الطب البيطري

المسيو « هامون » الفرنسى ، ومدرسة للهندسة بالخانقاه جعل رئيسها « لامبير بك » الهندسة والفنون وأخرى للموسيقى بالقلعة ، وبنى مدرسة لتعليم الفنون والصنائع ، وأخرى لتعليم الألسن وقد قال عنها « على باشا مبارك » فى كتاب « الخطط » فى ترجمة رفاهه بك ناظرها مدرسة الألسن ما يأتى : — « عرض رفاهة بك على محمد على تأسيس مدرسة لتعليم اللغات الأوربية ينفع بها الوطن ، ويستغنى بمن يتخرج فيها عن الدخيل . فأجابه الى ذلك ، ووجه به الى مكاتب القطر لينتخب التلاميذ لهذا الغرض ، فأسس المدرسة ، وعند الامتحان امتحن التلاميذ فى اللغة الفرنسية وغيرها من العلوم المدرسية فظهرت نجاحتهم . ثم أنشأ بها قلماً للترجمة تُرجم فيه كثير من الكتب الأوربية فى كل فرع من العلوم . وكان بهذه المدرسة أيضاً قسم تجهيزى خاص ، فنفع فيها رجال بارعون فى انشاء اللغة العربية والعلوم . غير أن هذه المدرسة قد الغيت فى عهد عباس باشا الأول »

ولم يفت محمد على أمر تحسين الزراعة العملية ، فأنشأ لها مدرسة ببلدة « نبروه » التعليم الزراعى من أعمال مديرية الغربية ، وأحضر اليها المعلمين وآلات الفلاحة من أوروبا لتدريس هذا الفن علماً وعملاً . إلا أن جهل الأهالى وقف عقبة كؤوداً أمام سيرها ، فاضطر محمد على الى نقلها الى شبرا الخيمة لتكون تحت رياسة « المسيو هامون » ، ولكن ذلك لم يجد نفعاً أيضاً ، وأخذت فى الاضمحلال حتى أغلق بابها

ولم تقف هممة محمد على باشا عند إنشاء المدارس فى جميع انحاء القطر ، بل أرسل البعث العلمية عدداً كبيراً من الشبان المصريين الى أعظم ممالك أوروبا وخصوصاً فرنسا لتلقى العلوم بها ، حتى اذا ما عادوا الى مصر استغنى بهم عن استزادة عدد الأوربيين . فأرسل البعث من المصريين ليتعلموا العلوم الغربية ، وليستعينوا بأراء الفرنسيين وأفكارهم وطرق حياتهم على اصلاح شأن مصر . ومن الغريب أن آباء التلاميذ كانوا يندبون حظ أبنائهم الذين ساعدتهم الحظ الأوفر باختيارهم للرحيل الى أوروبا ، واستعملوا كل الوسائط لحرمان أولادهم من ثمرة العلم . فلم يثن كل ذلك عزم محمد على ، وأرسل فى عام ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) أربعين طالباً فتحت لهم مدرسة خاصة فى باريس عهد

أمر إدارتها إلى الأستاذ الشهير « المسيو جومار » ، فقام بها خير قيام ، واختار لها مدرسين أكفاء ، وخصص كل واحد من التلاميذ بدراسة فرع من العلوم خاص ليقدره . وكان ممن تعلم بهذه المدرسة اسماعيل باشا الخديوى والأمير أحمد والأمير مصطفى فاضل والأمير حلیم باشا وشريف باشا ومراد باشا وعلى مبارك باشا (١)

ثم أرسل عام ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) اثني عشر طالباً آخرين إلى باريس ليطعموا علوم الطب ، ثم أرسل غيرهم حتى صار ما أرسله إلى أوروبا إلى عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) يربو على ١٢٠ طالباً ، أكثرهم إلى فرنسا ، وقليل منهم إلى إنجلترا وألمانيا (٢)

ديوان المعارف وكان ديوان المعارف في ذلك العصر يديره رجل كبير الهمة خطابه خطوات واسعة ، وقد أشار إلى ذلك « بيتون » المؤرخ الانجليزي في كتابه على مصر اذ قال : « ان ديوان المعارف في عصر محمد على كان في يد « أدهم بك » الذي قام بإدارة شؤونه خير قيام ، حتى كان أحسن دواوين الحكومة نظاماً »

ومع ما بذله محمد على في نشر العلوم كان كثيرون ممن زاروا البلاد المصرية من نقص التعليم

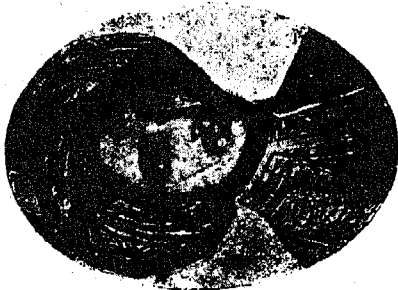
(١) وقد جاء في كتاب المسيو « هامون » في تاريخ مصر في عهد محمد على نقلاً عن تقرير المسيو « جومار » إلى محمد على سنة ١٢٤٤ هـ (١٨٢٨ م) ما يأتي : —

« انه خصص تلميذين بدرس العلوم السياسية ، وكان يدرس لهما قانون حقوق الدول والاقتصاد السياسي واكثر لغات أوروبا المستعملة في السياسية ، وتنقلا في بلاد أوروبا لوقوف على عادات أهلها . واختار أربعة للإدارة العسكرية ، وثلاثة للبحرية ، وثلاثة للعلوم الآلية (الميكانيكية) : يتعلمون الهندسة العلمية ، ويتدربون في المعامل ، ويترنون على الاشغال اليدوية . وخص فرقة بفن المدفعية والاستحكامات . وتفرغ منهم أيضاً عدد لدرس الكيمياء الصناعية ، وخاصة ما يتعلق بالصباغة وعمل الزجاج وصناعة السكر ليكونوا مديري المعامل التي شيدت في مصر . وخص بعضهم بالزراعة العلمية والتاريخ الطبيعي والتعدين ، وذلك للبحث عما عساه أن يوجد في مصر من المعادن »

(٢) وقد أوردنا في الصفحة التالية صور بعض طلبة البعث العلمية التي أرسلها محمد على باشا إلى أوروبا ، وهم :

- | | | | |
|-------|-------------------------------------|-------|------------------------------------|
| (١) | رفاعة بك (ناظر مدرسة اللسان) | (٢) | مختار بك (أحد وزراء المعارف) |
| (٣) | حسن بك (وزير بحرية) | (٤) | مظهر بك (مهندس القناطر الخيرية) |
| (٥) | مصطفى محرمجي (مهندس) | (٦) | محمد شافعي (أحد نظار مدرسة الطب) |
| (٧) | محمد على باشا الحكيم (طبيب وجراح) | (٨) | محمد السكروى (مدرس بمدرسة الطب) |

بعضه طلبة البعوث العلميه



الغريبين في أيامه متفقين على أن اكبر غلطة له أنه أراد أن يطفر بمصر طفرة في سبيل الرقي ، فكانت النتيجة ان ما تعلمه الأهالي لم يُبينَ على أساس متين . ونحن اثره في البلاد لا يسعنا إلا أن نقول ان مساعي محمد على في تحسين حال التعليم في البلاد كانت من أنجح أعماله في مصر ، اذ كان هو نفسه ممن يعتقد نفع التعليم الأوربي ، فأثر هذا الاعتقاد في كثير من الأهالي أصحاب النفوذ في البلاد ، وكان ادخاله العلوم الحديثة في البلاد ونبوغ الذين تعلموها في مدارس أوربا من المصريين من الدواعي التي أدت الى محو كثير من الاعتقادات القديمة في التعليم . ولا شك ان بعض الذين تعلموا في فرنسا نبغوا وبنوا ركناً عظيماً في تاريخ مصر الحديث ، فضلاً عن ان ما ترجمه هم وتلاميذهم من الكتب الى اللغة العربية وطُبِعَ في مطبعة بولاق التي أسسها محمد على أفاد العالم المصري فائدةً خالدة الأثر

ومن أياديه على العلم أنه شجّع العلماء الغربيين وخاصة الفرنسيين الذين أتوا الى مصر ليدرسوا تاريخ الآثار المصرية . ونخص بالذكر من هؤلاء الأفاضل العالم « شمبليون » الذي خص كل حياته بحل رموز هذه اللغة حتى اتيح له ذلك في عام ١٢٣٦ هـ (١٨٢١ م) بعد أن جاهد في سبيل ذلك جهاد الأبطال . ثم العالم « لبيسوس » ، وقد وضع قاموساً لهذه اللغة ، ثم العالم « امبير » . وقد حل هؤلاء العلماء مشكلات عويصة في هذه اللغة ، ومهدوا الطريق لمن جاءوا بعدهم واشتهروا في هذا الفن الى وقتنا هذا

الجيش

نال محمد على ولاية مصر بفطنته وذكائه ، وباغتنام الفرص والتغلب على من نازعه . وقد حصل ذلك على كره من الباب العالي ، وإن استطاع أن يرضيه ويحافظ على مركزه سنين قلائل بما ناله من الفخار بعد قهره الحملة الانجليزية عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) وتغلبه على المماليك في جميع أنحاء القطر وقهر الوهابيين . ولكن بتعاقب

الأيام ظهر له جليلاً أن رضى الباب العالى غير ثابت ، وان لا مندوحة له من تنظيم جيش قوى يعتمد عليه فى دفع كل عدو . لذلك وجه جل عنايته لإعداد جيش يحميه من تدخل الباب العالى فى الشؤون المصرية ، ويقهر به كل من ناواه . وقد عظم شأنه بهذا الجيش ، حتى قيل انه كان فى نهاية عظمته يريد أن يرث الدولة العثمانية

محمد على والجنود
الألبانية
ولا يخفى ان قوته كانت فى أول أمره مستمدة من أبناء جلدته من العساكر الألبانية ، وهو لم يكن فى نظرهم ممتازاً عنهم إلا برتبته العسكرية . لذلك كان وجودهم حوله خطراً يهدده فى كل لحظة ، كما كانت الجنود العثمانية أيام المماليك خطراً على من يرسله الباب العالى من الولاة . فعمل على ابادتهم والاستعاضة عنهم بغيرهم : ممن هم أقل تمرداً وعصياناً

ولما رأى أنه لا يستطيع ابادتهم مرة واحدة اضطر الى محاملتهم فى مبدأ الأمر . ورأى ان أهم أسباب ثورتهم وسلبهم ونهبهم فى البلاد راجع الى تأخير رواتبهم ، فكبح جماحهم وجعلهم طوع ارادته مدة بدفعه رواتبهم بحالة منتظمة ، وبذله العطايا لهم وفى شهر شعبان سنة ١٢٣٠ هـ (اغسطس سنة ١٨١٥ م) أراد أن ينظم جيشه على الطريقة الأوروبية ، وكان الجنود لا يألفون النظام ولا سبيل الأوربي ، فعارضوا فى ذلك أشد المعارضة ، وكانت النتيجة ان شبت نار الثورة فى القاهرة ، وتأمر الجند على الفتك به ، ونهبوا الأسواق واضطروه الى الاعتصام منهم بالقلعة ، وقتل فى تلك الفتنة كل منظمى الجيش . إلا أنه بحذقه ودهائه تمكن من اخضاع الضباط بالعطايا ، وأظهر لهم عدوله عن هذا المشروع ، فمال الجند الى الخضوع

اقصاؤهم
عن القاهرة
على ان كل هذا لم يُشْ عزم محمد على عن تنظيم الجيش كما أراد ، غير انه اتبع الحيلة والسياسة فى ابراز فكرته وتنفيذ غرضه ، فأقصى الألبانيين عن القاهرة تدريجاً : فأرسل بعضهم الى بلاد العرب ، وبعضهم الى بلاد النوبة ، ومن بقي فرقة فى معسكرات الأقاليم

بعد ذلك أسس مدرسة لتعليم النظام الحربى فى بلدة أسوان ، لتكون قرية من إنشاء مدرسة بلاد النوبة وبعيدة عن القاهرة ، وعهد بأمرها الى رجل من ضباط نابليون بونابرت حربية بأسوان اسمه المسيو « سيف »

وُلد هذا الجندى العظيم فى مدينة «ليون» من أعمال فرنسا عام ١٧٨٨م ، وابتدأ أول طور فى حياته بالخدمة البحرية ، وحارب الانجليز فى موقعة « الطرف الأغر » ، ثم انضم الى جيش نابليون البرى وحارب فى عدة مواقع بقيادة نابليون . ولم يساعده الحظ فى الالتحاق بموقعة « ووترلو » ، فترك فرنسا قاصداً مصر حيث نال الخطوة التامة عند محمد على بما قام به من الخدم التى سذكها فى موضعها . وقد اعتنق الدين الاسلامى ، وترقى فى الجيش المصرى حتى وصل الى أعلى رتبة فيه ، وكان يُعرف بعد إسلامه باسم سليمان باشا الفرنساوى (الفرنساوى)

قام ذلك الرجل العالى الهمة بتنظيم هذا الجيش بأسوان مدة ثلاثة أعوام ، أعدت فى أثناءها ضباطاً كثيرين ليقوموا بأمر الجيش الجديد . وكان معظمهم من شبان الممالك وصغار ضباط الألبانيين والأتراك ، أما العساكر الذين تألف منهم الجيش الجديد فكانوا فى أول الأمر من أسرى حروب السودان ، غير أن كثرة الوفيات بينهم لعدم ملائمة الجو اضطرت محمد على الى العدول عن التجنيد منهم ، وابتدأ يجنّد الجيش من فلاحى مصر . وقد كان هؤلاء يابون الانتظام فى سلك الجندية كل الالباء ، وبذلوا فى ذلك كل طاقتهم ، فكان الآباء يشوّهون خَلْق أبنائهم : إمّا بقطع الأصابع ، أو بفقء العين ، أو بنزع الثنايا ، وكثير منهم هربوا الى بلاد سورية . فلم يثن كل ذلك عزم محمد على ، ونجح أخيراً فى تجنيد عدد عظيم منهم ، صار فيما بعد على جانب عظيم من النظام وكمال العُدّة ، حتى أنه فى عام ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣ م) عند ما ثار الألبانيون لما علموا بحرق اسماعيل باشا ابن محمد على فى قرية شندى دخل « سيف » القاهرة يقود ٢٥,٠٠٠ من الجنود المدربين على النظام الجديد ، ليحموا الباشا من شر هذه الطائفة الطاغية ، ويثبتوا قدمه ويوطدوا سلطانه . فأنعم على هذا

سليمان باشا
الفرنساوى

تنظيم الجيش
بأسوان

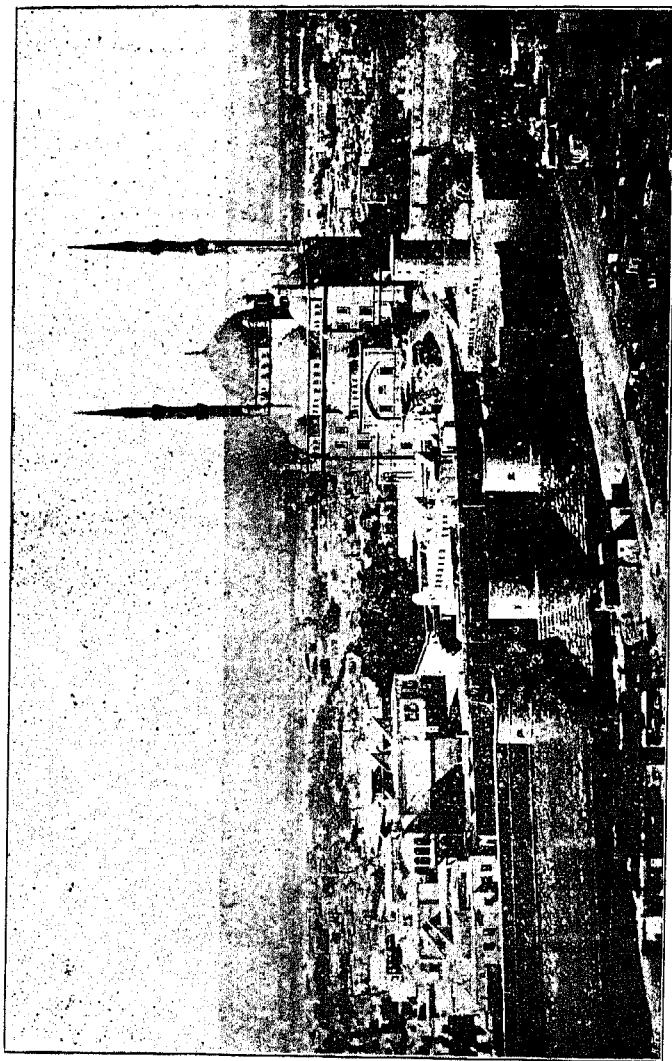
تجنيد الفلاحين
والسودان

البطل الفرنسي برتبة الكولونيل (بك) مكافأة له على ما قام به ، ثم رفع راتبه الى ١٠٦٠٠ جنيه في السنة . ومن هذا الوقت أصبح لمحمد على جيش يركن اليه ، وكان معظمه من السودان والفلاحين

المشاة والفرسان والمدفعية ثم أسس مدرسة للعساكر المشاة في « الخانقاة » . أما الفرسان فأتخذ لهم قصر مراد بك على الضفة اليسرى من النيل ، وعهد بأمر تعليمهم الى أحد رجال نابليون ، وهو المسيو « فران » . ولم يَفُتْهُ أمر تعليم فرقة خاصة للمدفعية لما يعلمه من الأعمال الجلية التي تقوم بها هذه الفرقة في حومة الوعى ، اذ كانت ذكرى حروب الفرنسيين في موقعة أنابابة لا تزال جديدة في ذهنه ، وقد أثبت فيها المدفعية الفرنسية بلاءً حسناً ، فناط بالكولونيل « سييجيرو » الاسباني تأسيس مدرسة للمدفعية ، فنظمها وقام بأمرها خير قيام ، فرفع مقامه محمد على ، ومنحه رتبة بك

دار الصناعة والقلعة ولم يترك محمد على باباً إلا طرقة رغبة في تقوية جيشه الذي تتوقف عليه قوته وعظمته ، فحوّل جزءاً عظيماً من قلعة الجبل الى دار صناعة ، حيث كان يشتغل فيها مئآت من المصريين في صب المدافع وصنع معدات الجنود والذخيرة ، وكل ما يلزمهم . وكان يشرف على هؤلاء عمال مهرة أحضرهم محمد على من أوروبا لهذا الغرض . وقد تمكن بكل هذه المعدات من اعداد جيش من أعظم جيوش العالم في ذلك العصر

ولم يتبع في تأليف الجيش الطريقة التي كان يتبعها في أعماله الأخرى : أى السرعة ، بل كانت زياداته تدريجية . ففي عام ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣ م) كان عدد الجيش الجديد ٢٥,٠٠٠ جندي ، وفي عام ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م) عند ما أشعل اليونان نيران حرب استقلالهم بلغ ٩٠,٠٠٠ ، وفي عام ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) بلغ ١٥٠,٠٠٠ من الجنود النظامية يستعملون ١٠٠ مدفع من مدافع الميدان . وقال كلوت بك في كتابه على مصر عند كلامه على الجيش ان عدد الجنود المصرية عظم في عصر محمد على حتى بلغ ٢٧٦,٠٠٠ : منهم ١٣٠,٠٠٠ من الجنود المنتظمة ، و ١٤٦,٠٠٠ من المرتزقة (الباشبزيق) ، و ١٩,٠٠٠ بحرى ، والباقي من المهندسين وغيرهم



القلمنة

(منظر عام)

البحرية

أول أسطول أول أسطول أنشأه محمد على كان أيام حربه مع الوهابيين ، وكان الغرض منه نقل العساكر من السواحل المصرية الى بلاد العرب . وقد أفاده فيما بعد ، إذ كان يحافظ به على السفن التجارية الذاهبة الى الشرق من لصوص البحر ، وعلى مر الأيام رأى ضرورة بقاء أسطول في البحر الأبيض لحماية السفن التجارية من لصوص اليونان وقبل نشوب حرب اليونان اشترى بعض السفن من البندقية ومرسيليا ، وصنع بعضها الآخر هناك على حسابه . إلا أن معظم أسطوله حُطم في هذه الحرب في واقعة « نوارين » كما سيأتى بعد في موضعه

دار ولما علم محمد على ما للأسطول من الفائدة بعد هذه الواقعة أسس في عام ١٢٤٥ هـ الصناعة البحرية (١٨٢٩ م) دار صناعة بحرية بالاسكندرية ، وبني فيها مصانع خاصة لقتل الحبال وصناعة الحديد وعمل الصواري والقلوع وكل ما يلزم للسفن ، وأنشأ فيها أيضاً مدرسة بحرية أعدها لتمرين عدد من الشبان المصريين على العلوم والمعارف اللازمة لضباط البحرية . وكان المنوط به انشاء هذه السفن المهندس البحري « دى سرىزى » أما ادارة المدرسة فكانت في يد المسيو « بيسون » ، وقد ترقى بعد الى رتبة أمير البحر للأسطول المصرى . ورقى هذان الرجلان العبارة البحرية الى درجة جعلتهما في صف سايان باشا منظم الجيش البرى

مقدار الاسطول وقد بلغ عدد المراكب الحربية في عام ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) ثلاثين قطعة تحمل ١٧٣٠٠ مدفعاً ، وفيها من العساكر البحرية من لا يقل عن ١٢٠٠٠ جندى

البعث البحرى وأرسل جملة من التلاميذ لتلقى الفنون البحرية العملية على سطح المراكب الانجليزية ولم يفته أمر تحصين الشواطئ ، فأنشأ الحصون (الاستحكامات) اللازمة لحفظ

السواحل ، مخافة الإغارة على البلاد كما حصل في عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) ، فأحضر

لذلك مهندسين حربيين من الأجانب ، وكلفهم اختيار المواقع المهمة من جميع تحصين السواحل

السواحل المصرية ، وأنشأ بها المعاقل ، ونصب بها المدافع اللازمة والعساكر الكافية .
فتضاعفت بذلك قوة مصر ، وعظم شأنها ، كما يدل على ذلك حروبه التي سنذكرها

ميزانية الحكومة

قد رأينا المشروعات العظيمة التي قام بها محمد علي : من اصلاح الزراعة ، وتنمية كثرة المشروعات
الصناعة ، ونشر التعليم وترقيته ، وتنظيم الجيش وانشاء البحرية . ويجدر بنا الآن أن
ننظر كيف كان يتسنى له جمع المال اللازم لكل هذه المشروعات وتوزيعه عليها . على
ان الوقوف على ذلك باليقين ليس بالأمر الهين ، لأن دفاتر المالية في ذلك العهد لم
يكن يُعتمد عليها ، ولأن الحكومة المصرية لم تُنشر لها ميزانية سنوية إلا بعد عهد
محمد علي . إلا أن بعض الأوربيين الذين كانوا بمصر في ذلك العهد وعُنوا بهذه
الشؤون قدّروا ذلك بوجه تقريبي يساعدنا على تفهّم الوارد والمنصرف . وقد كانت
الميزانية في أول أمرها صغيرة بالطبع ، لصغر الجيش وعدم اتساع نطاق المشروعات ،
وقد قُدّر الدخل لعام ١٢٣٦ هـ (١٨٢١ م) بمبلغ ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه ، والمصروف
بأقل من ذلك بيسير . أما في عام ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) فكان تقدير الميزانية كما يأتي :

الميزانية في
١٨٢١

و ١٨٣٣ م

الايراد	المنصرف
٢,٥٠٠,٠٠٠	٢,٠٠٠,٠٠٠
منه : ١,١٢٥,٠٠٠ ضريبة الأراضى	منه : ١,٢٠٠,٠٠٠ للجيش
٤٥٠,٠٠٠ « الميزانية الصغيرة »	٤٠٠,٠٠٠ للبحرية
(من تجارة الحاصلات)	
١٨٠,٠٠٠ المكوس على الحبوب	
١١٢,٠٠٠ الرسوم الجركية	
٣٥٠,٠٠٠ ضريبة الرسوم (الفرضة)	

ثم نمت بعد ذلك الميزانية ، حتى قُدّر الدخل في سنة ١٢٥٣ — ٥٤ هـ

و ١٨٣٨ م

(١٨٣٨ م) بنحو ٤,١٥٠,٠٠٠ ، والمصروف بنحو ٣,٥٠٠,٠٠٠ جنيه

٥ — * حرب اليونان *

تأثير الثورة
الفرنسية
في أوروبا

بعد سقوط نابليون بونابرت أبرم تحالف متين بين روسيا وبروسيا والنمسا (الحلف المقدس) كان الغرض منه المحافظة على عروش الملوك في أوروبا ومقاومة كل ثورة عليهم بحمد السيف . غير أن هذه المحالفة لم تسكن تيار مبادئ الثورة الفرنسية : ذلك التيار الذى لم يكدهم فرنسا حتى فاض على جميع بقاع أوروبا . ففي سنة ١٢٣٥ و ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ و ١٨٢١ م) شبت ثورات في جنوبي إيطاليا واسبانيا وبلاد اليونان على أن الثورة في بلاد اليونان كان الغرض منها اعلان الحرب على الترك لنيل استقلال داخلي ، فكان قيصر الروس بمقتضى ذلك التحالف المتين مضطراً الى محاربة اليونان ، مع أن السياسة الروسية كانت من زمن بعيد ترمى الى مساعدة اليونان وكل المسيحيين في شبه جزيرة البلقان على الدولة العثمانية . أما فرنسا وإنجلترا فلم تر حكومتاهما مؤازرة اليونان بالرغم من ميل الأهالى فيهما اليها ، وذلك لعدم اضعاف الترك امام الروس . فكانت النتيجة ان اليونان لم تساعدها إحدى هذه الدول رسمياً ، إلا بأفراد تطوعوا من تلقاء أنفسهم

خروج اليونان
على الترك

موقف الدول
الأوربية

وكانت الدولة العلية في هذا الوقت في متهى الضعف والانحلال ، اذ كان على باشا والى يانينة قد أنهك قواها كما سبق ذكره . هذا الى ان السلطان محموداً انثنى لما رأى ما عليه جيشه من سوء النظام والاختلال اجتهد في اصلاحه وتنظيمه على الطرق الحديثة الغربية ، فثار الجنود به وتألبوا ، وأبوا ادخال النظام الجديد (كما حصل في عام ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م) لمحمد على حينما أراد اصلاح جيشه) ؛ فاحتال على قتل العساكر الانكشارية ، رأس كل فتنه وسبب كل نكبة نُكبت بها الدولة ، فتم له ذلك عام ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م) . فكان قضاؤه عليهم وقت ان كانت الدولة في حاجة الى جندي واحد ، وبذلك أصبح بلا جيش تقريباً

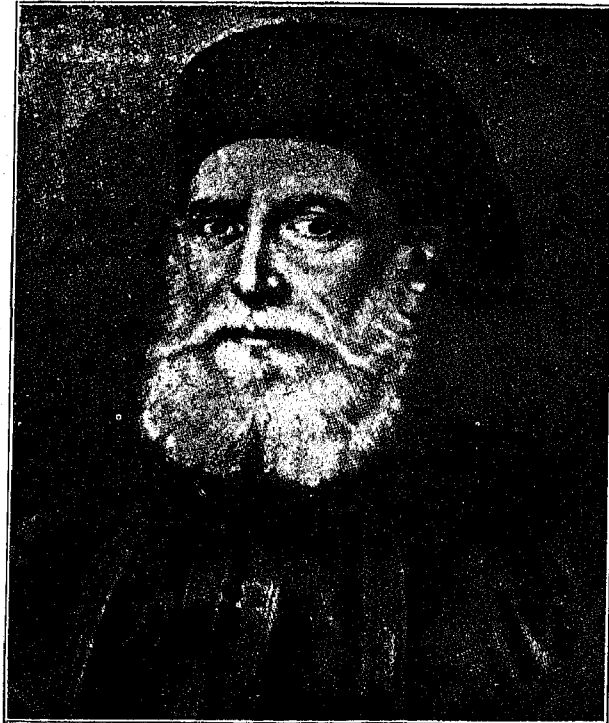
حالة
الدولة العثمانية

ولما شبت نار الثورة اليونانية ، وتفاقم خطبها ، وكادت تنتهى باستقلال اليونان

بدون مساعدة الدول الأخرى لها ، رأى السلطان محمود الثاني أن يستنجد بمحمد علي
على قمع الفتنة في البلاد اليونانية

ففي عام ١٢٣٩ هـ (١٨٢٣ م) عين الباب العالي محمد علي والياً على جزيرة اقريطش ،
فوق ولايته لمصر ، وأصدر إليه الأوامر باخماد الثورة هناك ، فأرسل ابنه ابراهيم باشا ،
فهزم الثوار في صيف ذلك العام

وفي سلخ هذا العام (١٨٢٤ م) جعله السلطان والياً على بلاد المورة لإخضاعها . توليته على المورة
فجهز لذلك جيشاً مؤلفاً من ١٧,٠٠٠ مقاتل بامرة ابراهيم باشا ، وأقلع الجيش من
ميناء الاسكندرية في ذي القعدة سنة ١٢٣٩ هـ (يولييه ١٨٢٤ م) . فالتقى الاسطول
التركي الذي كان بقيادة خسرو باشا بالعمارة البحرية المصرية في جزيرة رودس ، الآ



ابراهيم باشا

خروج ابراهيم اليها أن فوز القائد « بياوليس » اليوناني أجبر العمارتين على الانزواء في جزيرة إقريطش عدة شهور . ثم تحيّن ابراهيم باشا الفرص وأفلت من المدمرات اليونانية ، ونزل في « مُودِن » بالقرب من « نَوَارِين » ،* في شعبان سنة ١٢٤٠ هـ (فبراير ١٨٢٥ م) .

اخضاع المورة وبعد أشهر قلائل أخضع كل بلاد المورة ، واستولى على أمهات المدن فيها إلا « نوبليا » . وكان أهم وقائع هذه الحرب الاستيلاء على « تريبولتزا » ، اذ فتحها ابراهيم باشا عنوة بعد جهاد عظيم

غزو شمال اليونان ولما أمدّه والده بمدد جديد انتقل الى شمالى بلاد اليونان ليساعد رشيد باشا في حصار « مسُولُونجى » ، وكان هذا يحاصرها من عدة شهور بدون فائدة . فعبر ابراهيم خليج « كورِنثة » ومعه ١٠,٠٠٠ جندي ، واستولى على الجزائر الواقعة عند مدخل ميناء المدينة ، وبنى فيها قلاعاً حصينة ، فأغلق بذلك الميناء . وأتمّ الحصار براً وبحراً حتى لم يعد من الممكن وصول المدد اليها بأية طريقة ، فسلمت في رمضان ١٢٤١ هـ

حصار مسولونجى (ابريل سنة ١٨٢٦ م) ، بعد أن خسر الجيش المصرى عليها ٦٠٠٠ جندي ، وخسر الترك ٢٠,٠٠٠

اسرى اليونان وفي أثناء ذلك قامت نار الثورة في بلاد المورة ثانية ، فرجع ابراهيم باشا لاطفائها . إلا أنه عامل الأسرى اليونان بالقسوة ، وأرسل ما يقرب من ٥٠٠٠ أسير الى مصر بيعوا بها (على ما قيل) بيع الرقيق

فتح أثينا وكان رشيد باشا أثناء تلك الفترة يحاصر « أثينا » ، وفتحها عنوة بعد المقاومة الشديدة . ثم وجّه السلطان محمود الثانى ومحمد على جل جهدهما الى تدمير الاسطول اليونانى الراسى عند « هيدرا » ، وكان لا يزال قوياً

استياء انجلترا وفرنسا ولما علمت الأمة الانجليزية والأمة الفرنسية بما فعله ابراهيم باشا في بلاد المورة : من تخريب البلاد واستعباد نساءها وأطفالها ، حققتا عليه . واتهمزت روسيا هذه الفرصة فبدأت تفاوضهما في أمر التدخل ، فعقد لذلك مؤتمر في لندن في ٢٩ ذى القعدة

* على الشاطئ الغربى من شبه جزيرة مورة

سنة ١٢٤١ هـ (يوليه سنة ١٨٢٦ م) قرّر ارسال عمارة بحرية من قبل الدول الثلاث ، مؤتمر لندن
تكون القيادة العامة فيها للقائد الانجليزى (كدرنجتون)
يقرر التدخل

وكانت انجلترا وفرنسا لا تزالان تحذران ازدياد النفوذ الروسى فى شبه جزيرة
البلقان ، فأمرت الحكومة الانجليزية القائد « كدرنجتون » بأن يتجنب محاربة الترك
ما أمكنه ذلك ، وان يعمل طاقته لإبرام اتفاق أساسه أن يمنح الخليفة اليونان
استقلالاً داخلياً مع بقائها جزءاً من أملاك الدولة العثمانية

وفى أثناء هذه المفاوضات أرسل محمد على عمارة بحرية لتساعد العمارة التى كانت
فى المياه التركية على تحطيم الأسطول اليونانى الذى كان يتوقف عليه مصير الحرب .
وعند ما وصلت هذه العمارة الى المياه التركية كان القائد « كدرنجتون » قد تمكن من
إبرام هدنة مع ابراهيم باشا فى مصلحة اليونان ، وفى أثناءها كانت المفاوضات دائرة
بين السلطان وبينه للنظر فى منح اليونان استقلالاً داخلياً كما قدمنا ، فلم يتعرض
كدرنجتون لدخول العمارة التركية المصرية فى خليج « نوارين »

وفى اليوم التالى أخبر ابراهيم باشا القائد « كدرنجتون » ان أحد زعماء اليونان
(كوكرين) ومن تبعه من مواطنيه يهاجمون « بتراس » ، وانه مضطر الى الذهاب
الى تخليصها من أيديهم ، فلم يقبل « كدرنجتون » مبارحته خليج نوارين . الا أنه
تمكن من الافلات ببعض سفنه ، وحاولت بقية العمارة اتباعه ، فلم يمكنها ، واضطرت
الى الانزواء فى الخليج

عند ذلك أصدر كدرنجتون أوامره الى أسطول المتحالفين بالدخول فى خليج
نوارين ، وأن ترسو سفنه على مقربة من العمارة التركية المصرية ، فأراد الترك أن
يمنعوه من الدخول فلم يفلحوا . فلما دخلت أساطيل المتحالفين وجدت الأسطول
التركى المصرى مصفوحاً داخل الميناء على شكل نصف دائرة يرتكز أحد طرفيها
على قلعة البلد والآخر على قلعة جزيرة « سفاكتيرى » عند مدخل الميناء ، وكان
يحمل ما لا يقل عن ١٩,٠٠٠ جندي و ٢٠٨٢ مدفعاً تقريباً

مدد جديد
الاسطول
المصرى

عمل
اساطيل الحلفاء

ابتداء المناوشات
البحرية

واقعة نوارين ولما رست الأساطيل المحالفة في الميناء اقتربت إحدى الحراقات التركية من إحدى البوارج الانجليزية ، فأرسلت هذه لها زورقاً يأمرها بالابتعاد ، فكان الجواب ان صوّبت على الزورق ناراً حامية أنت على كل من فيه . فاندشب حينئذ القتال ، وتكاثف الدخان حتى أصبح من الصعب الوقوف على ما حصل . إلا أن « محرم بك » قائد الأسطول المصرى أخبر كدرنجتون أنه لا يريد القتال ، فأخلى له السبيل . لكنه عدل عن فكره الأول وصوّب مدافعه على السفينة الانجليزية « آسيا » ، فاستؤنف تدمير الاسطول القتال ، ولم يمكث طويلاً حتى دمرت سفينته . وظلت الحرب مشتعلة مدة ثلاث ساعات ، فأسفرت النتيجة عن تدمير معظم العمارات المصرية التركية

وتقول الحكومة الانجليزية انها لم تكن تقصد الحرب ، وانها عادت باللائمة على كدرنجتون ، اذ كان غرضها الوحيد من هذه المظاهرة البحرية اجبار الدولة العلية على منح اليونان استقلالاً داخلياً وايقاف القتال بأى حال

أما ابراهيم باشا فلم يكن حاضراً تلك النكبة بل كان في بلاد المورة يهدى الأحوال بها ، وقد أصبحت كلها في قبضته . فلما سمع بهذا الخبر أ برق وأرعد ، فلم يُجذّه ذلك نفعا . ولما تاب الى رشده اختار خطة الدفاع ، فكان حاله في بلاد المورة كحال نابليون بونابرت في مصر بعد موقعة بوقير البحرية ، اذ انقطعت بينه وبين أبيه طرق المواصلات ولم تكن موقعة « نوارين » هذه كافية لاستقلال اليونان ، ولذلك أصبح من المحتم على الحلفاء التدخل في أمرها . إلا أنه ظهر لانبجلترا وفرنسا ان كل تدخل من قبلهما سيخفض من شأن الدولة العلية ويزيد النفوذ الروسى ، فاقترح « بالمرستون » وزير خارجية انجلترا في ذلك الوقت أن يحتل بلاد المورة ستة آلاف من الجنود الانجليزية ومثلها من الفرنسيين ، حتى يمنح الباب العالى تلك البلاد استقلالها الداخلى . فأبى البرلمان الانجليزى ذلك ، فقامت فرنسا بالأمر وحدها وأرسلت ١٥٠٠٠ جندي

فرنسا
تحتل المورة

لتحتل المورة (صفر سنة ١٢٤٤ هـ : اغسطس سنة ١٨٢٨ م)
وعند ذلك ظهر « كدرنجتون » فى المياه المصرية عند الاسكندرية ، وأرجع

بعض السفن التي كانت ذاهبة لمساعدة ابراهيم ، ثم ارسل الى محمد علي باشا انذاراً الانجليز نهائياً بتخريب الاسكندرية اذا لم يسرع باستدعاء ابراهيم واخلاء المورة . وبمساعي يهددون محمد علي المستر « برزكر » السفير الانجليزى فى مصر تم الاتفاق مع محمد علي على اخلاء بلاد المورة بشروط أهمها : —

« أن يطلق محمد علي سراح الأسرى اليونانيين الذين بيعوا فى مصر ، وأن تتخلى شروط جلاء الجيوش المصرية عن « المورة » فى أقرب وقت بحيث ينقلهم محمد علي على سفنه ، الجيوش المصرية وأن يخفر الأسطول الانجليزى السفن المصرية فى ذهابها وإيابها ، وأن يتعهد « كدرنجتون » بارجاع أسرى المصريين وسفنتهم التي أخذت منهم أثناء الحرب » ويقال ان محمد علي وافق على هذه الشروط بدون معارضة كبيرة ، خصوصاً لما اذرياب محمد علي وصله من الأخبار أن الباب العالي أراد أن يقبض على جنوده ، اذ أصدر الأوامر من الدولة الى قائد الأسطول التركى أن يدعو الجنود المصرية الى النزول فى سفنه بدعى أنه يريد نقلهم الى الاسكندرية (وهو مأمور سرّاً أن يرسلهم الى الدردنيل) . والسبب فى نصب هذه الأجبولة التى فطن لها ابراهيم باشا وتجنبها أن الباب العالي هاله نجاح محمد علي فى « المورة » برّاً ، فخشى بأسه وخاف على ملكه

فأخلى ابراهيم باشا بلاد « المورة » فى ربيع الأول سنة ١٢٤٤ هـ (أكتوبر اخلاء المورة سنة ١٨٢٨ م) . ولما كان السلطان محمود الثانى لا يزال مصمماً على رفض تحرير بلاد اليونان أعلنت عليه الروسية الحرب سنة ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩ م) وهزمت جيوشه فى عدة مواقع فاصلة . فلما رأى السلطان ذلك اضطر الى إبرام معاهدة « أدِرنة » فى السنة نفسها ، وكان من أهم شروطها تحرير بلاد اليونان واستقلالها استقلالاً تاماً معاهدة ادرنة

٦ — * حرب الشام *

بعد أن وضعت حرب اليونان أوزارها ، ورجعت الجنود المصرية الى بلادها ، طلب اسباب الحرب محمد علي من الباب العالي أن يوليّه على عكاء علاوة على ولاية مصر مكافأة له على

١ . عدم مكافأة مساعدته في هذه الحرب ، كما وعده بذلك من قبل ، فرفض طلبه . فلما أعلنت محمد على
الروسيا الحرب على الدولة في عام ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩ م) لم يهتم محمد على بإجابة طلب
السلطان أن يمد الدولة بجيش مؤلف من ٢٠,٠٠٠ مقاتل وبعمارته البحرية ، اذ رأى
أن لا فائدة تعود عليه وعلى بلاده من افناء ثروتها ورجلها في مساعدة دولة تضن
بمكافأته على جليل خدماته

٢ . ضعف الدولة
ولاحظ محمد على حينئذ ان الأحوال ملائمة لأن ينال بحدّ السيف ما منّاه به
الباب العالي ، وانّ هذه أحسن فرصة لديه : اذ كانت الدولة في هذه الفترة في متتهى
الضعف والانحلال ، لتشتيت السلطان محمود شمل العساكر الانكشارية وقتكه بهم
جملةً في عام ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م) على يد حسين باشا كما قدّمنا ، ولتضعضع الجيوش
التركية لما حل بها من الانهزام الأخير على يد الروس في حرب عام ١٨٢٩ م
ولم يكن أمام محمد على اذ ذاك معارض من دول أوربا العظام ، اذ كان كل منها
مشتغلاً بما في بلاده من الاضطراب والفتن : فكانت فرنسا منهمكة في إطفاء نار
« ثورة يوليه سنة ١٨٣٠ » وانجلترا مغلوطة اليدين من جرّاء الاضطرابات التي قامت
من أجل قانون الاصلاح ، وكانت الثورة مشتعلة في بلجيكا واسبانيا والبرتغال . أما
الروسيا فكانت مشغولة أيضاً باخضاع ثورة « بولنده »

٣ . خسرو باشا
ومما ساعد في فساد العلائق بين محمد على والدولة ان خسرو باشا كان حينئذ
أكبر رجال الدولة نفوذاً، اذ كان هو المدبّر للخليفة وقطب السياسة في القصر السلطاني،
ولا يخفى ما في صدره من الحقد والبغضاء لمحمد على من يوم خلعه عن ولاية الديار
المصرية عام ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) كما سبق أنفاً . فصار همه الوحيد طول حياته
ايفار صدر الخليفة على محمد على والعمل على ثل عرشه . وكان له في ذلك غرضان :
الأول أن ينتقم لنفسه منه ، والثاني أن يحظى هو بولاية مصر . ولذلك لما نُصّب
خسرو أمير البحر للعمارة التركية في حرب اليونان لم يساعد ابراهيم باشا تمام المساعدة ،
بل عمل جهده على إفناء الجيش المصري بعد الحرب بالمكيدة التي لم تفاج، كما ذكرنا

وكانت حالة الفلاح المصرى فى هذه الفترة غاية فى الشقاء والبؤس، إذ أثقل ٤ . النزاع عاتقه محمد على بالضرائب وبتسخيره فى حفر الترع وتجنيدده تجنيداً اجبارياً . وقد مع والى عكاء أثرت هذه العوامل فيه تأثيراً سيئاً، فكان يهلك من المصريين الآلاف فى حفر الترع وتحت تعذيب محصلى الضرائب . ولما ضاقت الحال واشتد الكرب بالناس هاجر خلق كثير من سكان الوجه البحرى الى بلاد الشام هرباً من مظالم الحكم . ورجا محمد على من « عبد الله الجزار » والى عكاء ارجاع كل من هاجر الى مصر ثانية، فخرضه خسرو باشا على ألا يجيب طلبه . ولما لم تجد مساعى محمد على عند والى عكاء هددته باعلان الحرب عليه . وزيادة على ما سبق كان عبد الله الجزار قد شجع المصريين على نقل حاصلات الوجه القبلى بطريق صحراء سورية بدلاً من تصديرها عن طريق الاسكندرية، فكان ذلك مضراً بمصالح محمد على

عند ذلك لجأ عبد الله الجزار الى الباب العالى ليوقف محمد على عند حدوده، وأن لا يتدخل فى شؤونه ولاية عكاء . فأرسل الباب العالى الى محمد على بأن المصريين ليسوا عبيده، بل هم أحرار يسكنون أنى شاءوا، وفى أى جزء من أجزاء الدولة أرادوا

وفى هذه الآونة جرت مفاوضات بين رئيس الوزارة الفرنسية ومحمد على بشأن غزو بلاد الجزائر بأسطول فرنسى مصرى، فاقترح محمد على على فرنسا أن تسلمه أسطولها ليكون بقيادته ويتعهد هو باخضاع «دائى» الجزائر، فلم تقبل فرنسا ذلك . وخاف أيضاً محمد على من أن تفتح فرنسا الجزائر، فتتمتد الفتوح الفرنسية شرقاً وتكون خطراً على مصر . هذا الى أن ولنجتون الانجليزى أعلنه أن أى تدخل منه فى أمر بلاد الجزائر يكون مدعاة الى خلعه . ولما علم الباب العالى بذلك حض محمد على أيضاً على عدم التدخل فى هذا الأمر، وهدده بالخلع، ثم علم محمد على بعد ذلك أن السلطان على وشك أن يخلعه لما سبق، فأعلن الحرب عليه خوفاً على ضياع ملكه ابتداء محمد على فى اعداد الحملة لذلك فى أواخر سنة ١٢٤٦ هـ، إلا أنها تأخرت

٥ . تدخل محمد على فى الجزائر

اعداد الحملة

الى جمادى الأولى سنة ١٢٤٧ هـ (نوفمبر ١٨٣١ م) لتفشى الميضة (الكلرا) في مصر وفتكها بالناس فتكاً ذريعاً

خروجها فسار الجيش البرى من الطريق القديم مجتازاً الصحراء الى العريش ، وكان عدده يتراوح بين الثلاثين والأربعين ألف مقاتل . وكان مؤلفاً من ست فرق من المشاة وأربع من الخيالة وقوة كافية من المدفعية . أما الأسطول فإنه كان يحمل المدافع الضخمة والذخيرة ويقل ابراهيم باشا وأركان حربه ، وبينهم البطل العظيم « سليمان باشا الفرنسى »

فتح غزة ويافا زحف الجيش البرى فى أوائل شهر نوفمبر ، فلستولى على غزة ويافا بدون أدنى مقاومة . وفى هذا الميناء اجتمع الجيش بالأسطول ، ثم تولى ابراهيم باشا قيادة الجيش وزحف على عكاء ، حيث اجتمعت جموع عبد الله الجزار . وكان غرض هذا أن يقهر ابراهيم ويرده على عقبه كما فعل ذلك من قبل « احمد باشا الجزار » مع نابليون ، ولكن فاته ان احمد باشا الجزار كان يساعده أسطول السير سدنى سمث من جهة البحر . ومع عظم جيش ابراهيم وحسن استعدادده قد دافع عبد الله الجزار عن المدينة دفاعاً شديداً مدة ستة أشهر حاول فى خلالها عثمان باشا والى حلب أن يُخلص حامية عكاء ، إلا أن ابراهيم باشا داهمه فى الطريق وهزمه هزيمة منكرة . وبعد ذلك سقطت عكاء فى يده فى ذى الحجة سنة ١٢٤٧ هـ (مايو ١٨٣٢ م) ، وأسّر عبد الله الجزار ومن معه وأرسلوا الى الاسكندرية

عزل محمد على وفى أثناء حصار عكاء أصدر الباب العالى أمراً فى أول ذى الحجة سنة ١٢٤٧ هـ (٢ مايو سنة ١٨٣٢ م) يقضى بعزل محمد على عن الديار المصرية وجزيرة اقريطش (كريد) ، وتولية حسين باشا (مبيد الانكشارية) عليها ، وتسليمه قيادة الجيش الذى سيّره على محمد على . إلا ان ذلك كان على غير رغبة خسرو باشا اذ كان غرضه من عزل محمد على أن يكون هو خلفه . على أنه قد نظم الجيش على الطريقة الغربية خيانة خسرو عدة سنوات ليكون هو القائد له فى ساحة القتال ، وبذل جل طاقته ليحصل على

قصده ، فلم يصغ له الباب العالى . فلما خابت كل أمانيه عزم على أن يعرقل مساعى حسين باشا ويفسد عليه كل خططه ، وساعده على ذلك أنه كان وزيراً للحربية فى هذه الآونة . فلما اجتمعت الجيوش فى « أذنة » (أطنّة) ، وكان عددهم ٤٥,٠٠٠ أبوا الاذعان لأوامر حسين باشا (بتحريض من خسرو) ونبذوا كل نظام أراداه وبعد سقوط عكاء سار ابراهيم باشا بجيشه الى « دمشق » ، فسأمت اليه بدون فتح دمشق مقاومة ، وكان ذلك فى ١٦ المحرم سنة ١٢٤٨ هـ (١٥ يونيه سنة ١٨٣٢ م) ثم زحف على « حمص » حيث التقى بمحمد باشا والى طرابلس يقود نحواً من ٣٠,٠٠٠ مقاتل (وكانوا مقدمة الجيش التركى) ، وذلك فى ٩ صفر سنة ١٢٤٨ هـ (٨ يوليه سنة ١٨٣٢ م) فلم ينتظر محمد باشا لسوء تدبيره تلاحق الجيش التركى الذى يقوده حسين باشا شمالى هذه النقطة بنحو ٥٠ ميلاً ، بل هاجم جيش ابراهيم ، فهزموه ابراهيم شراً هزيمة وأخذ منه كل ما لديه من الذخيرة والميرة وألفى أسير وستة وثلاثين مدفعاً . وبذلك أصبحت جل بلاد الشام فى يد ابراهيم . ولما علمت القبائل مساعدة القبائل المجاورة بانتصارات ابراهيم باشا أرسلت اليه وفود المهنيين ، ووعدته بالمساعدة أما حسين باشا فإنه كان قاصداً حلب ، فلما علم أهل البلدة بهزيمة الجيش العثمانى أغلقوا أبوابها فى وجهه ، فاضطر الى التقهقر الى اسكندرونة حيث يرسو الأسطول العثمانى . أما ابراهيم باشا فإنه دخل حلب بدون عناء ولا مقاومة فى ١٨ صفر (١٧ يوليه) ثم اقتفى أثر الجيش التركى ، فوجده محتماً فى مضيق « بيلان » (بين حلب والاسكندرونة) ، فهاجمه وشتت شمله . وذلك فى أول ربيع الأول (٢٩ يوليه) . وكانت نتيجة هذه الهزيمة أن غادر الأسطول العثمانى الاسكندرونة وفى الحال أرسل ابراهيم باشا ابن أخيه عباساً ليحتل بلدة أذنة خلف « جبال طوروس » ، وبذلك استولى ابراهيم باشا فى مدة لا تتجاوز سبعة أشهر على كل بلاد سورية

وقد عُدَّ ابراهيم باشا فى الطبقة الأولى من قواد ذلك العصر بما أظهره من الحذى قدر ابراهيم باشا وسليمان باشا

والدراية بالفنون الحربية . ولا يَفُوتنا أن نُعطى سليمان باشا الفرنسى (رئيس أركان
حربه) نصيبه من الفخر فى هذه الحروب . اذ كان فى هذه الوقائع سيفه القاطع
وعضده المتين



سليمان باشا الفرنساوى فى حضرة محمد على باشا وإبراهيم باشا

أما حسين باشا فانه نُفى إلى نهر الطونة بعد أن ألقى خسرو باشا كل اللوم على
عاقبه . وطلب خسرو ثانية من الباب العالى أن يوليه قيادة الجيش ويمنحه ولاية مصر،

فأبى السلطان عليه ذلك وعهد بقيادة الجيش الى «رشيد محمد باشا»، وهو أحد رجال الدولة العظام : اشترك مع ابراهيم باشا في حرب « المورة » وخاصة في حصار «مسولونجي» واشتهر بعدها بمحاربة مصطفى باشا والى أشقودرة عند خروجه على الدولة . فعزم خسرو على احباط مساعي مُناظره الجديد كما قضى على حسين باشا وجيشه من قبل

ويظهر أن خسرو كان يعتقد ان من مصالح دول أوربا المحافظة على كيان الدولة العلية ، فكان لا يهيمه هزيمة جيش حسين باشا أو القضاء على جنود رشيد باشا أمام جيش محمد على ، اذ كان على يقين أن الدول العظام لا تسمح لمحمد على أن ينجي ثمار انتصاراته . ولا غرابة ، فقد أحس محمد على بخطور تدخل الدول ، ورحب بالصالح عند ما كان جيش ابراهيم في أطنة ، غير انه طلب من السلطان ولاية سورية فلم يقبل وفي هذه الأثناء طلب ابراهيم باشا من والده المدد ، فسيّر له جيشاً مؤلفاً من ٥٥٠٠٠ مقاتل ، وأمره بمواصلة القتال والزحف ، فتقدم في زحفه حتى وصل الى « قونية » . وفي خلال ذلك جمع رشيد باشا جموعه عند « اخشير » (شمالى قونية)

مدد جديد
لإبراهيم

قوة استعداد
رشيد باشا

وكانت الدولة وعدته أن تمده بعساكر البشناقيين هناك ، فخندق عند اخشير وعزم على انتظار هجوم المصريين في هذا المكان ، غير أن خسرو باشا لم يرسل له المدد واستبقاه في القسطنطينية ، محتجاً بأن ما لديه من الجند كاف للتكامل بجيش محمد على ، ثم سعى في ارسال الأوامر الى رشيد بالإسراع في مهاجمة المصريين خوفاً من تدخل روسيا . فأمر السلطان رشيد باشا بالهجوم على المصريين فحاول رشيد باشا اقناع السلطان أنه ليس لديه مئونة في اخشير ، وأن الجيش في حالة يرثى لها

وفي أثناء هذه الأزمة وصل « الكونت مورافيفيف » الروسى الى القسطنطينية في خدمة خاصة ، فساعد خسرو في آرائه ، فكانت النتيجة ان رشيد باشا لم يُجِب الى طلبه وترك للقضاء والقدر

تعبيل رشيد
بالقتال

على أن الجيش المصرى كان في حالة صعبة جداً لما كان يقاسيه من البرد ، ولو انتظر رشيد باشا قليلاً لاضطر ابراهيم الى التقهقر ، ولكنه عجل بمنجزته حسب

وأمر السلطان . وكان جيش ابراهيم حينئذ لا يتجاوز الثلاثين ألف مقاتل وبعد أن تأهب الجيشان تقدم الجيش العثماني الى الأمام ، أما الجيش المصري فمكث في مكانه لا يبدى حراكاً ، وكان الضباب الكثيف الكثير الانتشار في بلاد الأناضول وفي مثل هذا الشهر خاصة ، سادلاً أستاره على الجيشين ومخفياً كلاهما عن عين الآخر ، ولذلك لم يبدأ ابراهيم باشا بالضرب كي لا يعرف العدو مكانه . أما رشيد باشا فبمجرد وصوله على مسافة ٤٠٠ متر ابتداء باطلاق النار ، فعلم ابراهيم باشا وسليمان باشا ترتيب الجيش العثماني ، وتفريق مدفعيتهم . ثم شاهد أيضاً سليمان باشا أن المشاة العثمانية انفصلت بسبب الضباب عن الفرسان ، فأمر المشاة المصرية بالدخول بين الفريقين ليستحيل اجتماعهما ورجوعهما الى ما كانا عليه من الالتئام . ولقد أوقعت هذه الحركة الرعب والفرع في قلوب الترك ، وأخذتهم الدهشة ، الى أن فاجأتهم الفرسان المصرية ، واعلمت في فرسانهم السيف فبددت شملهم ، ووجهت المدفعية المصرية نارها على مشاة الترك فحصدتها حصداً . ولما رأى رشيد باشا أن لا مناص من الهزيمة اجتهد ان يستجمع جناح جيشه الأيسر فلم يفلح ، ووقع اسيراً في يد المصريين ، فجاءوا به الى ابراهيم باشا . ولما علم الجيش بأسر قائدهم ولوا الادبار ، وبذلك انتهت واقعة « قونية » الفاصلة (٢٧ جمادى الثانية سنة ١٢٤٨هـ : ٢١ نوفمبر ١٨٣٢ م)

واقعة
قونية

وقد فرح سكان آسيا الصغرى فرحاً عظيماً بانتصارات ابراهيم . أما هو فتقدم بجيشه الى « كوتاهية » غربى « اخشير » وهدد « بروسة » ، في الوقت الذى كان فيه بعض جنوده وعماله قد أخضعوا أكثر بلاد الأناضول . وأصبح اسمه ذا تأثير عظيم في قلوب القوم ، حتى ان اربعة من جنده وضابطاً واحداً استولوا على مدينة « أزمير » العظيمة *

فتح أكثر
الأناضول

* ثم عادت الجنود العثمانية فاحتلتها لعدم ارسال ابراهيم باشا ما يكفى من الجند للاحتفاظ بها . وقد ذكرنا الحادثة ايضاً لمقدار تأخير صيت ابراهيم باشا

ولما وصلت أخبار هذه الهزيمة الى الاستانة حنق الباب العالي وخاف من ضياع
فرع الباب العالي ملكه ، لأن بلاد آسيا الصغرى تُعتبر قلب الدولة وحصنها المسكين

عند ذلك مدّت روسيا يد المساعدة للدولة العثمانية ، فطلبت من الباب العالي
روسيا تمد يد المساعدة أن يسمح لها أن ترسل له قوة بحرية وأخرى برية لمساعدته ، إلا أن السلطان
محموداً الثاني تواني في قبول ذلك ، وفأرض محمد علي في شروط الصلح ، فلم يرض
الآن بكل بلاد سورية وولاية « أذنة » (أطنة) . وفي هذا الحين أرسلت روسيا
القائد « مورافيف » يلتمس من محمد علي بكل وداد واحترام إيقاف ابراهيم عن
الزحف على الاستانة

وأما بقية الدول العظام فقد أزعجها تدخل روسيا ، فاستفسر « الكونت بروكش
خوف الدول من روسيا أوستين » سفير النمسا في مصر من محمد علي عن أغراضه ، واجتهدت إنجلترا وفرنسا في
إيقاف زحف ابراهيم ، ونصحتا للباب العالي أن يتنازل عن صيدا وعكا ، ونابلس
وبيت المقدس الى محمد علي . إلا أن هذا أبى الكل بلاد سورية وأذنة ، وأمر
ابراهيم بالزحف على الاستانة . وذلك بتحريض من فرنسا ، لأنها رغم اتفاق سفيرها
مع السفير الانجليزي في الاستانة كانت تعمل في الخفاء مع محمد علي ، وتشجعه
بتوسط سفيرها في القاهرة ؛ رغبة في ازدياد نفوذها في البلاد المصرية

فلما احتل ابراهيم باشا « كوتاهية » (فبراير سنة ١٨٣٣ م) اضطر الباب العالي المدد الروسى
الى طلب المساعدة من روسيا رسمياً ، فأرسلت له جيشاً مؤلفاً من ١٢,٠٠٠ مقاتل
تساعده عمارة بحرية ، وعسكر الجيش على الشاطئ الأسوى عند « أنكيار سكليسى »
« هُنْكَارِ اسْكِلَه سى » على البسفور . فأقلق تدخل روسيا بال فرنسا وإنجلترا ،
فشدّت على الباب العالي في الاتفاق مع محمد علي ، فأبرم معه اتفاق « كوتاهية » في
ذي الحجة سنة ١٢٤٨ هـ (مايو سنة ١٨٣٣ م) . وبه ولى الباب العالي محمد علي
بلاد سورية ، وجعل ابراهيم باشا مُحَصِّلاً لولاية أذنة وعلى ذلك تمّ الصلح واطمان
خاطر إنجلترا وفرنسا من جهة روسيا

معاودة
هتكار اسكله سى
أما قيصر روسيا فانه لم يقف عند ذلك الحد ، بل اجتهد فى اقناع السلطان ان
كيان دولته يتوقف على مساعدة روسيا لها ومحالقتها اياها . فاقنع بذلك لما رآه من
خذل الدول الغربية له ، وأبرم معاهدة هجومية دفاعية مع روسيا تُعرف بمعاهدة
« أنكيار سكلسى » (هتكار اسكله سى) فى صفر سنة ١٢٤٩ هـ (يونيه ١٨٣٣ م) .
وأهم شروطها أن تتعهد روسيا بحماية البلاد العثمانية من إغارة أى دولة ، وفى مقابل
ذلك تتعهد الترك باغلاق الدردنيل فى وجه أساطيل جميع الدول . وكان إبرام هذه
المعاهدة سراً بدون علم الدول الأخرى

حكومة محمد على فى بلاد الشام وغزوته الثانية لها

اتفاق كوتاهية
غير دائم
لم يكن اتفاق كوتاهية حلاً نهائياً للنزاع بين الدولة العثمانية ومحمد على ، اذ كان
هذا من جهة يعتقد ان حكمه فى كل الولايات التى تحت سلطته لم يكن إلا لأجل
محدود ، وكان على يقين أن الباب العالى لا بد أن ينزعها من يده متى سمحت له قوته
وساعدته الأحوال ، وان ما امتلكه بجحد السيف لا بد له أن يعمل جهده ليحافظ
على كيانه بجحد السيف أيضاً . فأفلح فى إثارة نار الفتنة فى بلاد البانيا ، وكان يدس
الدسائس فى الاستانة لخلع محمود الثانى وتولية ابنه عبد المجيد مكانه . ومن جهة اخرى
كانت الاشاعات تتواتر ان السلطان يريد الاستفادة من معاهدة « أنكيار سكلسى »
بإعلان الحرب على محمد على . وكانت الفرص مساعدة للسلطان ، اذ تألب معظم
أهل الشام على ابراهيم باشا ، وثاروا فى وجهه ،

وابتداً تدمرهم منه فى ربيع عام ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م)

تدمر السوريين
من ابراهيم
والسبب فى ذلك يرجع الى عسف حكومته وظلمها ، اذ اتضح جلياً لأهل الشام
أن حكومة الباب العالى كانت أقل ظلماً واحسن حالاً من حكومة محمد على . وقد
ذكرنا آنفاً أنه لما دخل ابراهيم باشا بلاد الشام قابله الأهالى بالتهلل والاستبشار والتفوا
حوله ، وانما كان ذلك يرجع الى أمرين :

الأول عدم ميل الأهالى الى السلطان محمود الثانى من جراء المصائب التى انصبت على الدولة العثمانية فى مدته ولا سيما ابرامه لمعاهدة « أدرنة » التى اعتبرتها الأمة من أعظم النكبات التى انتابت الدولة

والثانى قسوة الأحكام التركية منذ فارقها الفرنسيون سنة ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م)، لأنها قبل حملة نابليون عليها كانت تتمتع بشبه استقلال ، ولكن بعد الحملة قررت الدولة عليها الضرائب الفادحة ، وأبقت الجنود التى أرسلتها لطرد الفرنسيين فى البلاد يعيشون فيها فساداً

فلا غرابة بعدئذ أن يستقبل أهل الشام ابراهيم باشا بكل فرح وابتهاج ، لأنه أدخل بعض اصلاحات فى بادئ الأمر كانت مفيدة له وللبلاد . اذ صرف معظم السنتين الأوليين فى درس أحوال الشام ، وفى توطيد عرى التحالف بينه وبين القبائل القوية التى يُنتظر أن يركن اليها عند الحاجة فى تنظيم قوة حربية يعتمد عليها فى اخماد نار الفتنة الداخلية ، أو صد هجمات الدولة حال اعلانها الحرب عليه . وقد جعل الحاكم العام على البلاد الشامية « شريف باشا » أحد أقربائه ، وكان ذا أخلاق فاضلة وخبرة فى الأمور السياسية : وجعل « حنا بحرى » أحد السوريين مساعداً له فى ادارة الشؤون المالية ، وكان ذا حذق ومهارة فى ذلك . ثم ساوى بين كل الديانات أمام القانون : لا فرق بين المسلم والمسيحى ، وعقد فى كل بلدة من أمهات البلاد مجلساً كانت تُنتخب أعضاؤه من المسلمين والمسيحيين على السواء . وكل هذه المجالس كانت تحت سيطرة « مجلس المشاورة » فى عكا ، اذ كان بمثابة محكمة عليا : تتسلم دخل البلاد ، وتولّى الحكم ، وتخابر الحكومة الرئيسية فى مصر

وبعد أن وضع ابراهيم هذه الأنظمة رأى أن لا بد لضمان سير الأحوال على ما يروم من جيش عظيم يعول عليه ، وأن يكون له موارد للثروة يستقى منها . فأول عمل قام به للحصول على المال أن احتكر جميع أصناف الحرير وبعض المواد الأخرى ، وسخر الأهالى وكرهم على زرع الحاصلات التى لا غنى للبلاد عنها كالحبوب ، وعلى

سرورهم منه
فى أول الأمر

اصلاحات
ابراهيم باشا
فى الشام

اسباب تدمير
السوريين

غرس النباتات التي تلائم طبيعتها . فكان من نتائج ذلك مهاجرة الأهالي الى بلاد الجزيرة وآسيا الصغرى ، كما هاجر أهل مصر عام ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩ م) وكان سبباً من أسباب حربه الأولى مع الدولة

وفي أثناء سير الأحوال في البلاد الشامية أصدر محمد علي باشا ثلاثة أوامر لابنه ابراهيم وهي : (١) أن يضرب الجزية (الفضة) على كل فرد بدون تمييز بين الجنسية والديانة (٢) أن يجند جيشاً من البلاد بالإجبار ، وأن يأخذ كل ما يحتاج اليه هذا الجيش من الحيوان (٣) أن ينزع السلاح من كل السكان

ومن الغريب أن هذه الأوامر كلها صدرت دفعة واحدة ، فكانت النتيجة أن تدمر الأهالي وثاروا في عام ١٢٥٢ هـ (١٨٣٥ م) وأحدثوا فتنة تفاقم خطبها وامتد لحيها

في طول البلاد وعرضها . وكان أهم ما دعاهم الى العصيان نزع السلاح منهم ، غير أن ابراهيم باشا استطاع أن يخضع العصاة في دمشق وحلب وما جاورهما من البلاد بدون عناء

أما في طرابلس وعكا وجبال لبنان ونابلُس (التابعة لولاية دمشق) فقد قاومه الثائرون فيها مقاومة عنيفة ، حتى أن محمد علي لما علم بحرج مركز ابراهيم باشا أعدَّ

كل ما يمكن جمعه من الجند والذخيرة وسار بنفسه الى مساعدته . فنزل في يافا ، وبحذقه ومهارته تمكن من ضم سبعة من رؤوس الثوار اليه في مدة وجيزة ، ثم حارب

اهالي نابلس ، ودخل بلادهم دخول المنتصر وفي هذه الأثناء ثارت طائفة النصيرية^(١) فأخضعها المصريون سريعاً ، إلا أن الدروز ، والمارونية^(٢) استمروا في مقاومة الجنود

المصرية حتى رجب سنة ١٢٥٢ هـ (اكتوبر سنة ١٨٣٦ م) ، اذ تمكن فيه ابراهيم باشا ومحالفه الأمير بشير الشهابي^(٣) والى لبنان من اخضاعهم ونزع السلاح منهم ،

في أقل من ستة عشر شهراً

ثلاثة أوامر
شديدة

سفر محمد علي
الى الشام

اطفاء الفتنة

(١) طائفة قريية من الاسماعيلية في المذهب تقطن الجبل بين لبنان ونهر العاصي

(٢) طائفة مسيحية تقطن لبنان تابعة لكنيسة رومية ظاهراً لكنها محافظة على تقاليد القومية

(٣) هو رأس بيت عرني بزعم انتماءه الى قريش ، وقد تنصر بشير هذا وتبعه بعض أهل

بيته ليتولى زعامة نصارى لبنان (وهم اكثر قطانه)

ومن ذلك الحين ابتداء الأهالي في الشام ينفرون من محمد علي ، وينظرون إليه بعين العداء والبغضاء ، ولا سيما بعد ان بدّل بالحكام المملوكين غيرهم من الجيش ، ونشر عساكره في جميع أنحاء البلاد

ولا يفوتنا أن نذكر ان إخضاع الثورات الداخلية في الشام (التي تبلغ مساحتها أربعة أمثال مساحة مصر الزراعية) ، وجلب الجنود اليها وما يلزمهم من البلاد المصرية ، كل ذلك أثقل عاتق الحكومة المصرية وسبّب أزمة مالية سنة ١٢٦٠ هـ (١٨٤٤ م)

الدول ضد
المتعدى

وفي أثناء هذه الفتن الداخلية في بلاد الشام كان السلطان محمود الثاني يريد منازلة محمد علي ، آملاً استرجاع ما فقد ، ففي سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٤ م) احتج على دول أوروبا العظام التي كانت تمنعه عن الدخول في الحرب مع خصمه محمد علي لتخليص رعاياه من ظلمه . فلما علم محمد علي بنية الباب العالي أعلن للدول انه اذا ظهر الاسطول العثماني في جنوب جزيرة رودس فانه لا يرى مندوحة من مهاجمته واعلان عدم الطاعة والاذعان للخليفة . فصرحت الدول العظام بأنها ستكون ضد المتعدى ، ولذلك خاف كل من الفريقين ، وأجل اعلان الحرب مدة ست سنوات . ولكن بالرغم من كل ذلك بقي كلا الجانبين يستعد للحرب

خوف روسيا
من الدول

أما روسيا التي كان الباب العالي يعتمد على مساعدتها فإنها أحجمت عن الخوض في هذا المشروع الذي لم تتحقق من حسن عواقبه ، لأن قيصر الروس ابتداء يدرك انه اذا شرع في انفاذ شروط معاهدة هنكار اسكلهسي قامت في وجهه دول أوروبا وأخضعته بحمد السيف . فان دول أوروبا الكبرى وخاصة إنجلترا وفرنسا والنمسا كانت تحذر تدخل روسيا ، وأخذت على عاتقها أن تمنع استنجاد الدولة العلية بها ، سواء أكان الاعتداء من السلطان على محمد علي أم من محمد علي عليه

الدولة تريد
الحرب

ومما شجع الباب العالي الأخبار التي كانت تأتيه عن تمرد أهل الشام وعدم رضاهم بحكم إبراهيم باشا ، وعن انهزام المصريين شرهزيمة أمام عرب « حوران » في سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) ، ولذلك ابتداء في استعداد البرى والبحرى بهمة جديدة

وكان محمد علي في هذه الأثناء في رحلته الى بلاد السودان (١٢٥٤ هـ : ١٨٣٨ م) ليقف على حقيقة كنوز الذهب التي كان يمتنى نفسه أن يستعين بها على شن الغارة على السلطان اذا اضطره الحال الى ذلك

وفي ذى القعدة سنة ١٢٥٤ هـ (يناير سنة ١٨٣٩ م) عقد الباب العالي مجلساً حربياً قرر فيه تجهيز ٨٠,٠٠٠ جندي بقيادة حافظ باشا . فلما علم سفراء الدول بذلك اضطربوا وخافوا من ضياع الدولة ، لأن فرنسا وإنجلترا والنمسا كانت لا تزال تخاف من تدخل روسيا تنفيذاً لمعاهدة هنكار اسكاه سي

وفي ٢٢ يناير عقد الباب العالي مجلساً آخر لتقرير الحرب أو السلم انتهى بتقرير محمود الثاني أخيراً اعلان الحرب ، وذلك لأن حافظ باشا كان يمتنيه بالنصر ، ورشيد باشا (الذي كان في هذه الآونة قائماً بتأدية مأمورية خاصة في باريس ولندن) صرح للباب العالي خطأً أن كلاً من إنجلترا وفرنسا لا تتعرضان للسلطان اذا هو هاجم محمد علي

قفل محمد علي راجعاً من سنار عند ما علم من عباس بن طوسون (وكان نائباً عنه في مصر) بالاستعدادات الحربية التي كانت قائمة على قدم وساق في القسطنطينية ، ولما وصل الى القاهرة كتب منشوراً وأرسله الى جميع سفراء الدول معلناً فيه انه برىء من كل هذه المشاكل ، وان لا بد له من مقابلة القوة بالقوة . ولما وصل هذا المنشور الى يد السلطان احتدم غيظاً وشدد في الإسراع بتجديد الحملة ، ومن فرط حنقه قال : « انى أفضل الموت على التراخي في اخضاع هذا العاصي »

أما محمد علي فانه أراد أن يداهم الدولة قبل ان تتم اعداد جيشها الذي كان يقوم بأمر تنظيمه القائد « فون مِلْتِك » وضباط آخرون من الالمان . وحدث ان الحكومة الانجليزية أبرمت مع الدولة في ذلك الحين معاهدة تجارية تتعلق بجميع ممالك الدولة ، فكانت ضربة قاضية على آمال محمد علي التجارية لأنه كان محتكراً كل التجارة المصرية كما سبق . فلما علم بذلك محمد علي هدد الدولة باعلان استقلاله . ولو تم له

ذلك لكان الضربة القاضية على الباب العالي ، اذ كان في ذلك نزعُ سيادته الاسمية والفعلية حتى من بلاد الحجاز مصدر زعامته الدينية . الا ان الحكومة الانجليزية أذرت محمد علي بواسطة سفيرها في مصر المستر « كَـبِل » انه إذا شرع في ذلك كانت إنجلترا خصمه

وحذرت إنجلترا الباب العالي ايضاً ، وأظهرت له انها لا تساعد اذا كان هو وتحذر الدولة المعتدى ، ولا تتحمل شيئاً من نتائج هذه الحرب . أما اذا اعتدى محمد علي فإنها تأخذ بناصر الدولة . ولذلك خاف كل منهما أن يبتدىء بالعداء . الا أن شدة بغض محمود الثاني لمحمد علي جعلته يهاجمه أولاً ، ولذلك عند ما طلب محمد علي أن يكون خليفه حق الوراثه لجميع الولايات التي تحت سلطته من بعده أعلن السلطان ان محمد علي خائن للخليفة ، وأرسل الجيش لاختضاعه

تجمع الجيش التركي عند « سيواس » بقيادة حافظ باشا ، ثم زحف الى جهة الجنوب حتى وصل نهر الفرات عند بلدة صغيرة تسمى « بيرجك » على الضفة اليسرى منه ، ثم وصلت الأوامر الى حافظ باشا بأن يجتاز النهر وينتقل الى الشاطئ الأيمن فلما وصل هذا الخبر الى ابراهيم باشا أرسل الى والده يخبره بذلك ، فأمدّه بالذخيرة وجيش بقيادة احمد باشا « المنكلي » ناظر الحربية المصرية . وكان ابراهيم باشا في هذا الحين بمدينة حلب لقربها من الحدود الشمالية ، ووفرة المؤونة فيها ، ثم سار من هذه البلدة قاصداً « نصيبين » (بلدة على نهر الفرات) ، وكان قد علم ان الجيش التركي عسكر فيها ، وانه حصلت بعض مناوشات بين الباش بزرع السلطانية وبين فرسان العرب عند « تل باشر » جعلت سليمان باشا الفرنسى يهتدى أثناءها الى التحصينات المهمة التي أقيمت أمام نصيبين ، وتبين له انه يتعذر مهاجمتها من هذه الجهة ، ففكر ابراهيم باشا وسليمان باشا في الدوران حول نصيبين ليهاجوها من الجهة التي لم يحصنها الترك

عند ذلك أشار القائد « ملتك » ومن معه من الضباط الالمان على حافظ باشا

انهزام الترك أن يهاجم المصريين أثناء سيرهم غير متأهبين للحرب ، فلم يقبل حافظ باشا ذلك ، فدار ابراهيم باشا بجيشه وهاجم الجيش التركي . وبالرغم من محاولة بعض الفرق الشامية من جيش ابراهيم الانضمام الى جيش الترك شنت الجيش المصرى شمله فى ١١ ربيع الثانى سنة ١٢٥٥ هـ (٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ م) . وكانت خسائر الترك فادحة جداً حتى أصبح السلطان فى الحقيقة بلا جيش ، ومن حسن حظ الخليفة محمود أنه مات قبل أن يصل خبر هذه الهزيمة الى القسطنطينية بعدة أيام . وهكذا أصبحت الدولة العلية للمرة الثانية تحت رحمة محمد على

ولما تولى الخلافة السلطان «عبد المجيد» كان سنه اذ ذاك لا يتجاوز السابعة عشرة ، فتسلم خسرو باشا منصب الصدارة العظمى ، وكان قبل ذلك مغضوباً عليه . ولما علم بذلك احمد باشا فوزى أمير البحر التركي (وكان خسرو باشا من أشد أعدائه) حزن حزناً شديداً وصمم على تسليم العمارة البحرية الى محمد على ، بدعوى أنه خائف على حياته من خسرو ، وأنه ربما اغتاله كما اغتال السلطان محموداً الثانى (حسب اعتقاده) ، وأظهر أن لا بد من عزله لسلامة الدولة ، وقد صرح برأيه هذا الى القبودان « ووكر » الانجليزى مساعده

فأقنع بأسطوله من الدردنيل ، وكانت مأموريته فى هذا الحين أن يساعد حافظ باشا من جهة البحر ، فالتقى فى أثناء سيره بالأسطول الفرنسى ، وأخبر قائده « لاند » بما أخبر به الأميرال « ووكر » : من ان الحزب الرومى (أى حزب خسرو) سمّ السلطان ، وأنه متوجه بالأسطول الى اقريطش ، فأخبره « لاند » ان اقريطش فى يد محمد على ، وان معنى الذهاب اليها تسليم العمارة البحرية له . وبعد ذلك بأيام قلائل وصل الأسطول التركى الى المياه المصرية ، وانضم الى الأسطول المصرى . فلما علم الضباط بنية أميرهم همّوا بانتألب عليه ، فاستألم محمد على

نهبه الى جانب رما الأسطول التركى فى الميناء الغربى بالاسكندرية على بُعد ستة أميال من محمد على الشاطئ ، وكان مؤلفاً من ٢٠ بارجة تحمل ٢١ ألف جندى بحرى ، ثم نزل الضباط

وقابلوا محمد علي . الا ان القائد « ووكر » لم يرجع ثانية الى الأسطول ، محتجاً بأن الحكومة الانجليزية لم تخوّل له الخدمة تحت إمرة محمد علي

ولما علم سفراء الدول بهذا الحادث استولى عليهم الهلع ، وأظهروا لمحمد علي استياءهم من خيانة أمير البحر ، وانهم لا يريدون أن يكون شريكاً له في هذه الجريمة ، ونصحوا له أن يرجع الأسطول التركي الى الاستانة . فغضب لذلك محمد علي ، وقال ان الحرب تبيح لأحد الفريقين أن يقبل الفارين من الفريق الآخر . وكانت حالة الدولة في هذا الحين في منتهى التعس والاضمحلال ، حتى ان خسرو باشا طالب من أمير البحر ان يرجع مع العفو التام من الخليفة ، فأجابهُ هذا انه ليس خارجاً على الباب العالي ، وإنما يخشى غدره وخيائته ، وأنه ان يبرح المياه المصرية ما دام هو المحرك لسكّان سياسة الدولة ، والقابض على زمامها

تدخل دول أوروبا

كان أول همّ لدى الدول الكبرى منع روسيا من انفاذ شروط معاهدة «هنكار اسكله سي » والاتفاق بها ، ولذلك كان من المحتم عليها ان تعمل جميعها للوصول الى ذلك . الا ان الباب العالي ، لمنع زحف ابراهيم باشا على القسطنطينية ، قرر إعطاء مصر لمحمد علي وذريته من بعده واعطاء الشام لابراهيم الى ان يخلف والده على مصر . وكان هذا الاتفاق على رغبة من روسيا لأنه يخلصها من اتفاق هنكار اسكله سي ولا يحيط من سلطتها في القسطنطينية . فرأت الدول الكبرى ان الأمر أشد خطورة من ان يفصل فيه الباب العالي وحده ، ولذلك كتبت اليه تعمله ألا يفاوض محمد علي في شيء ، ولا يتفق معه الا بواسطة الدول . فلما فطنت روسيا لغرضهم لم تعارض في الأمر ، وبذلك ظهرت الدول الكبرى بمظهر المشجع للباب العالي على معارضته لمحمد علي ورفضه لمطالبه

الى هذا الحد كانت فرنسا وانجلترا متفقتين ، لأنهما اجتمعتا معاً في ايقاف النفوذ فرنسا وانجلترا

بقاؤه بالمياه
المصرية

خوف الدول
من روسيا

الدول تالفي
قرارات تركية

وقوع الخلاف الروسي في البلاد العثمانية ، وراثاً أن أحسن حل للمشكل القائم بين محمد علي والدولة بينهما
وضع الدولة تحت حماية الدول الكبرى جميعاً . ثم ابتداء الخلاف ، لأن « بالمرستون »
وزير خارجية إنجلترا كان يعتقد أن الدولة العلية لا تصير في أمان إلا إذا كانت
صحراء سيناء الحد الفاصل بينها وبين محمد علي . والرأي العام في فرنسا من جهة
أخرى كان ميالاً لمحمد علي ، إذ كان يرى فيه حليفاً يعتمد عليه في منازعة الدولة
البرطانية في البحر الأبيض المتوسط

لذلك عرضت فرنسا على إنجلترا أن يُمنح محمد علي وذريته من بعده كل الولايات -
مؤازرة فرنسا التي تحت يده . فلم يوافق على ذلك بالمرستون مع شدة ميله الى استعجاب مودة
فرنسا . غير أنه عرض عليها في شعبان سنة ١٢٥٥ هـ (أكتوبر سنة ١٨٣٩ م) أن تكون
مصر وراثية لأسرة محمد علي ، وأن يتولى محمد علي أيضاً ولاية عكاء الى طرابلس
ودمشق . وبعد مفاوضات طويلة أعلن « تييرنس » رئيس الوزارة الفرنسية في مايو
سنة ١٨٤٠ أن فرنسا لا تقبل ذلك ، بدعوى ان هذه الشروط لا توافق محمد علي
وأنه إذا أعلن بها اندفع في زحفه على آسيا الصغرى ، وإن أساطيل الدول لا يمكنها
أن تقوم بعمل ما ضده (اللهم إلا امتلاك بعض البلاد على الساحل) ، وليس في
قدرتها طرده من بلاد الشام . وكان تييرنس في هذه الأثناء يخبر محمد علي والباب
العالي سرّاً في ابرام اتفاق لمنح محمد علي كل بلاد سورية ، فلما علم بالمرستون بذلك
قطع كل رجاء في مؤازرة فرنسا له

روسيا تتفق مع إنجلترا
وفي أثناء ذلك أرادت روسيا أن تتفق مع إنجلترا في حل المسألة التركية
المصرية ، فأرسلت سفيراً عرض على الحكومة الانجليزية أن الزوسيا مستعدة أن
لا تتدخل في المسألة التركية وحدها ، وإنما تبادر الى النزول عن شروط معاهدة
هنكار اسكله سي ، وفي مقابل ذلك يُقفلُ الدردنيل والبسفور في وجه كل السفن
ويُسمح للروسيا وحدها أن تمر منهما لحماية الدولة العلية وقت الخطر
فابتدأت الدول الأربع (الروسية وبروسيا والنمسا وإنجلترا) تفاوض محمد علي

بواسطة « الكولونيل هُدجس » السفير الانجليزى بمصر (وكان قد عُين بدلاً من الدول تعمل من الكولونيل « كَمْبِل » للقيام بهذه المهمة خاصة) . فلم يصغِر محمد على لىكل تهديدات غير فرنسا « هُدجس » ووعيده ، مرتكناً على ما كانت تعدّه به فرنسا من المساعدة ، ولذلك رفض كل مفاوضات الدول الأخرى . فلما يُست الدول الأربع منه أبرمت مع الدولة العثمانية « معاهدة لندن » فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٥٦ هـ (١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ م) بدون علم فرنسا . وقررت فى هذا المجتمع أيضاً الطرق التى يجب اتخاذها لاختضاع محمد على . وأهم شروط هذه المعاهدة ما يأتى : —

(١) الزام محمد على بارجاع ما فتحه من بلاد الدولة العلية وان يحفظ لنفسه الجزء الجنوبي من الشام الشامل مدينة عكا .

(٢) أن يكون لانبجطرة الحق بالاتفاق مع النمسا فى محاصرة فرض الشام ، ومساعدة كل من أراد الهجرة من أملاك محمد على والرجوع الى الدولة (٣) أن يكون لسفن روسيا والنمسا وانبجطرة معاً حق الدخول فى البسفور والدردينل لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها ، وأن لا تدخلها سفن ما دامت الدولة غير مهددة بخطر

وفى مادة خاصة اشترطت الدول انه اذا خضع محمد على لرأى الدول فى مدة عشرة أيام أعطته ولاية مصر وراثية وجنوبى بلاد الشام الشامل لولاية عكا مدة حياته ، واذا أصر على عصيانه الى ما بعد هذه المدة أعطته ولاية مصر فقط ، واذا لم يخضع فى مدة عشرة أيام أخرى عادت الدول الى النظر فى الأمر من جديد

ولما وصل خبر هذه المعاهدة الى فرنسا هاج رأى العام ، وقامت الاستعدادات حتى فرنسا الحربية على قدم وساق . فنصحت الحكومة الانجليزية لملك فرنسا « لويس فليب » بواسطة ملك البلجيك أن يتبصر فى عواقب هذه الاستعدادات الحربية . ففطن لذلك الملك وعزل « تيرس » رئيس الوزارة وعين بدله « جيزوت » . الا أنه لم يتمكن من إيقاف الاستعدادات الحربية لهياج رأى العام

أما محمد علي فقد مضت عليه المدة المعينة ، ولم يقبل شيئاً من هذه الشروط ، فأعلن الباب العالي خلعه وحصر الشواطيء المصرية والشامية . وكان محمد علي من جهة لا يزال مؤملاً مساعدة فرنسا له ومرتكناً على قوة جيش ابنه ابراهيم . ومن جهة أخرى كانت فرنسا تعتقد في عظم جيوش محمد علي وأنه يمكنه أن يقاوم الدول حتى تجهز هي جيشها . ولكن الحوادث أظهرت غير ذلك ، فأحجمت فرنسا عن مساعدة محمد علي بعد سقوط وزارة « تيرس » وتلاشى جيش ابراهيم امام قوى الدول المتحدة كما سيأتي . وسهل عليها الأمر نزول إنجلترا عن الاصرار على حرمان محمد علي من مصر ذاتها

عدم خضوع
محمد علي

خلعه

الحملة الأخيرة

لما جاء الى سليمان باشا الفرنسي والى بيروت نبأ ما قرره الباب العالي بدأ في الاستعداد الحربي ، وأبلغ سفراء الدول ان بلاد الشام في حالة حرب . وكان ابراهيم في ذلك الوقت في دمشق بجيشه المؤلف من اربعين ألف كالملى العدة : وهو الجيش الذي كسر الترك في واقعة نصيبين وقونية من قبلها . وكان محمد علي في أعظم سطوته وبأسه ، إذ قد بلغ عدد جيشه في هذا الوقت ربع مليون جندي منها ١٣٠,٠٠٠ من الجنود النظامية و ٤٠,٠٠٠ من رجال البحرية فأول عمل قام به مناصباً الدولة أن اعلن :

- ١ — ان الفرنسيين آتون لمساعدته
- ٢ — انه حامى الاسلام ضد الكفار
- ٣ — تحذيره المارونية من الانجليز وقال انهم يقصدون بتدخلهم في الأمر نصرة الدروز على كاثوليك لبنان

الا ان ذلك لم يُجْدِ نفعاً ، لأن اهالي الشام كانوا قد سئموا حكمه ، فثاروا على ابراهيم باشا بمساعي « ريتشرزود » احد رجال السفارة الانجليزية ، فانه جمع رؤساء

خروج الشام
على ابراهيم

اتقبال ووضح لهم عاقبة الحالة حتى افلح في اثارة خواطرهم على ابراهيم . وربما كان
هذا اكبر سبب في هزيمة الجيش المصرى ، اذ بمجرد ظهور اسطول المتحالفين في
المياه الشامية قامت الثورة في لبنان ، فكان تأثيرها في القضاء على ملك محمد على في
الشام اكثر من اساطيل الحلفاء وجيوشهم

ابتدأت المناوشات عندما وصلت اساطيل الحلفاء أمام بيروت بقيادة «سبتمور» اساطيل الحلفاء
و «نبيير» الانجليزين ، ومعها جيش عثماني مؤلف من ٤٠٠٠ جندي . فشرعت
الاساطيل في اطلاق قنابلها على بيروت (رجب سنة ١٢٥٦ هـ : سبتمبر ١٨٤٠ م) ،
ونزل الجيش العثماني بالقرب من المدينة . الا انها لم تفلح في الاستيلاء عليها لحسن
دفاع سليمان باشا عنها ، ولما وصل الخبر الى ابراهيم في دمشق سيّر مدداً الى بيروت ،
هزم في الطريق عند قرية «برؤمانة» في رجب سنة ١٢٥٦ هـ (سبتمبر
سنة ١٨٤٠ م) . ثم انزل الحلفاء قوة أخرى عند صيدا فاستولت عليها عنوة قبل
أن يصل اليها ابراهيم باشا الزاحف لتخليصها ، فاشتبك مع الحلفاء في ٨ أكتوبر
في موقعة فاصلة عند « قلعة ميدان » كانت الدائرة فيها عليه ، وقد قال شاهد عيان
ان ابراهيم باشا نجح مع ثلاثة صغيرة من الفرسان بكل مشقة راجعاً الى دمشق . ولما سمع
سليمان باشا بذلك أحلى بيروت ، وانضم الى ابراهيم . ثم استولت اساطيل الحلفاء على
« عكا » ، وكانت فيها حامية مصرية عظيمة ، فلم تقو على المقاومة أكثر من
ثلاثة أيام

فلما علم محمد على بسقوط هذه المدينة حزن حزناً شديداً ، ثم أرسل بعدها بزمان
يسير الى ابراهيم يأمره بإخلاء كل بلاد الشام ، لأن مركزه أصبح حرجاً جداً .
ولم يتمكن من ارسال النجدة براً ، لأن ما لديه من الجند كان يحرس بحارة
الأسطول التركي الذين تألبوا على احمد باشا فوزى قائدهم ، وأنكروا عليه ما أتى به
من العصيان ، فاضطر محمد على الى انزالهم الى الشاطئ وحراستهم . ولم يمكنه ارسال
المدد أيضاً من جهة البحر خوفاً من أسطول الحلفاء الذي كان يتجول في تلك المياه

اخلاء الشام

سقوط عكا

صعوبة الاختلاء ولما وصل الخبر الى ابراهيم باخلاء بلاد الشام أخذ في اخلائها . وقد أظهر من المهارة والخلق هو سليمان باشا في تقهر جيشه في وسط صحراء سورية ما شهدت به الأعداء ، وقام كل ضابط من رجاله بواجبه وحافظ على النظام الى آخر لحظة من حياته

التقهر ابتداء ذلك التقهر من مدينة دمشق في ٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٦ هـ (٢٩ ديسمبر سنة ١٨٤٠م) وكان عدد الجيش ٦٢,٠٠٠ جندي ، يتبعهم عشرون ألفاً من الاطفال والنساء . وقد لاقى الجيش في سيره عناء شديداً ، اذ كانت الأعراب تتخطفه من أطرافه وأهل البلاد يناوشونه ، حتى كان يضطر الى محاربتهم من آن لآخر . وبعد اسبوع وصل الى بلدة « المزاريب » ، ومن ثم سار ابراهيم باشا سليمان باشا بالمدافع والحيل من طريق الصحراء الى العقبة وسار هو ومن معه الى ان وصل الى « غزة » . وكان قد هلك أثناء هذا التقهر ثلثا من معه من الجند وكثير من المستخدمين والملكيين . فكتب الى والده يخبره بقدومه ، ويطلب منه ارسال ما يلزم من السفن لنقل الجند الى الاسكندرية وما يلزمهم من المؤونة . فأرسل له أسطولاً مكوناً من ثمانى سفن

نبيير يحمل محمد على على الخضوع وبعد سقوط « عكاء » أبحر « نبيير » بأسطول الحلفاء الى الاسكندرية وقابل محمد على وأخبره انه اذا خضع للخليفة أخذت دول التحالف على عاتقها أن تتوسط لدى الباب العالى ليعطيه مصر وراثته . اما اذا استمر على عدم الاذعان فانه يضطر الى ضرب الاسكندرية وتخريب قصر رأس التين نفسه . فقبل ذلك محمد على بعد أن يؤس من مساعدة فرنسا له ، وردّ الأسطول العثمانى الى القسطنطينية

توسط الدول اما الباب العالى فلم يقبل هذا الاتفاق . الا أن « بالمرستون » أشار على دول التحالف أن تنصح له بالقبول ، فطالبت الدول أولاً من محمد على ان يخضع للباب العالى خضوعاً تاماً بلا قيد ولا شرط . فامثل لذلك وأرسل في ذى القعدة ١٢٥٦ هـ (يناير ١٨٤١م) رقعة يظهر فيها خضوعه ويعترف بسيادة الباب العالى



بالمرستون

(زعيم ساسة اوروبا في المسألة التركية المصرية)

ولما وصلت هذه الرسالة الى الباب العالي عاد « بالمرستون » فأوعز الى الدول تقليد الولاية المتحالفة أن يطلبوا الى الباب العالي أن يمنح محمد علي ولاية مصر وراثية ، فتم ذلك بتقليد فبراير سنة ١٨٤١ (فرمان) في ٢١ ذى الحجة سنة ١٢٥٦ هـ (١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م) هذا . ووداه : أولاً — ان الولاية تكون لمن يختاره الباب العالي من أولاد محمد علي باشا الذكور ، ثم لأولاد أولاده الذكور ، وهلم جرأً ، بحيث لا يكون لأولاد البنات الحق في الحكم مطلقاً

ثانياً — يجب على من يختاره السلطان والياً على مصر أن يسافر بنفسه الى القسطنطينية لتسلم تقليد التولية بيده

ثالثاً — ان الذى يُنتخب والياً لمصر يُعتبر كأحد وزراء الدولة فى مخاطباته مع الباب العالى وفى المقابلات السلطانية ، بحيث لا يكون له أدنى امتياز عنهم من هذه الوجهة مطلقاً

رابعاً — ان والى مصر يكون ملزماً باتباع أمر التنظيمات العالى الذى أصدره السلطان عبد المجيد عند توليته ، وكل ما أصدره او يصدره الباب العالى من القوانين واللائح . ويكون والى ملزماً ايضاً بالسير فى ولايته طبق المعاهدات المبرمة او التى تبرم بين الباب العالى والدول الأجنبية اياً كانت بلا تغيير ولا تبديل ، اذ الحكومة المصرية لم تخرج عن كونها ولاية عثمانية كباقي الولايات

خامساً — ان سائر الضرائب على اختلاف انواعها يكون تحصيلها باسم الجناح السلطانى ، ويكون تحصيلها وتوزيعها بحسب القواعد المتبعة فى باقى ولايات الدولة العلية سادساً — ان ربع المتحصل يدفع للخزانة الشاهانية ، والثلاثة الأرباع الباقية يُصرف منها ما يلزم لنفقات الادارة وجباية الأموال ، وما يلزم ايضاً للوالى واسرته ، وممن البر الذى يرسل سنوياً الى مدينتى مكة والمدينة المنورة

سابعاً — ان هذه الضرائب تُدفع بقيمة واحدة مدة خمس سنين تبتدىء من سنة ١٢٥٧ هجرية ، وبعد انقضاء هذه المدة يمكن تعديلها اما بزيادة أو نقصان حسب ما تستدعيه ثروة الحكومة والأهالى

ثامناً — انه لضبط المتحصل من الضرائب ومعرفة ما يخص الدولة بالتحقيق يلزم أن تعين لجنة من الدولة تقيم فى مصر لهذه الغاية ، ويُنظر فى تعيينها بعد كما تقتضيه الارادة الشاهانية

تاسعاً — يكون لمصر الحق فى ضرب العملة . من فضية وذهبية ونحاسية ، بشرط أن يكون ذلك باسم السلطان المعظم ، وأن لا تختلف العملة المصرية عن العملة العثمانية لا فى الشكل ولا فى الهيئة ولا فى العيار

عاشرأ — عدد الجيش المصرى يجب أن لا يتجاوز ثمانية عشر ألفاً فى مدة السلم ،

وأما في أيام الحرب فيزاد هذا المقدار الى الحد الذى تقرره الدولة ، اذ أن العساكر المصرية تكون ملزمة حينئذٍ بالاشتراك والمساعدة فى القتال مع باقى الجنود الشاهانية حادى عشر — ان مدة الخدمة العسكرية يجب أن لا تتجاوز خمس سنين ويكون جمع العسكر بطريق القرعة كما هو المتبع فى الدولة ، ومن حيث أن الجيش المصرى يبلغ (فى ذاك الوقت) زهاء ثمانين ألفاً ، يؤخذ منهم عشرون ألفاً ويرجع الباقى الى بلادهم ، ويرسل أيضاً من هذا المقدار ألفان الى دار السعادة كى لا يبقى فى مصر الا الثمانية عشر ألفاً المقررة

ثانى عشر — من حيث ان مدة الخدمة العسكرية خمس سنين يؤخذ سنوياً من أفراد القرعة أربعة آلاف شاب ، يرسل منهم الى دار الخلافة أربعائة ويبقى الباقون فى مصر

ثالث عشر — ان من أدى مدة الخدمة المطلوبة من الجند يعود الى بلده ، ولا يجوز ادخاله فى الجيش مرة أخرى

رابع عشر — ان ملابس العساكر المصرية وعلامات رتبهم تكون مشابهة لجنس ولون ملابس العساكر الشاهانية

خامس عشر — كذلك ملابس البحّارة وضباط البحرية وبيارق المراكب تكون مماثلة لما هو متبع فى بحرية الدولة العلية

سادس عشر — لا يكون لوالى مصر الحق فى منح الرتب العسكرية للضباط البحرية والبرية الاّ لغاية « صاغ قول أغامسى » (بدخول الغاية)

سابع عشر — لا يكون لوالى مصر الحق فى انشاء سفن حربية الاّ بعد الحصول على اذن صريح من الدولة العلية

ثامن عشر — من حيث ان حق الوراثة على ولاية مصر لم يُمنح لمحمد على باشا وأسرته الاّ بهذه الشروط ، فلو أخلّوا بأحدها سقط حقهم ، وصار لجلالة السلطان الحق فى تولية مَنْ يشاء

ومنح الباب العالى محمد على أيضاً ولايات النوبة ودارفور وكردفان وستار مدة حياته ، بدون أن تنتقل الى ورثته كمصر ، بمقتضى تقليد شاهانى أصدر فى اليوم الذى أصدر فيه التقليد الأول ، أعنى فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م . وكلفه أن يقدم حساباً عن هذه الولايات سنوياً الى دار الخلافة العظمى ، وأن يمنع ما كان متبعاً فى السودان من إغارة الجند على قرى الأهالى ، وخطف بناتهم وصبيانهم . وأن يمنع جملة عادة خصى بعض هؤلاء التماس الحظ لاستخدامهم فى القصور حرساً على الحريم (أغاوت) ، وأن يحفظ للضباط الموجودين رتبهم ، ويرسل الى الباب العالى قائمة بأسمائهم : من الرتبة التالية لصاغ قول أغاسى فما فوق ، ليصدر أمراً بتثبيتهم فى وظائفهم فقبل محمد على باشا كل هذه الشروط وان لم يكن ذلك عن رضى ، ثم طلب من الدول تخفيف الشروط السالفة أن تساعده فى تخفيف بعضها وتغيير بعضها الآخر . فقبلت الدول ملتمة وأرسلت الى الباب العالى لأئحة بتاريخ ١٨ المحرم سنة ١٢٥٧ هـ (١٣ مارس سنة ١٨٤١ م) تطلب منه ذلك . فتنازلت الحضرة السلطانية بمقتضى تقليد آخر تاريخه صفر ١٢٥٧ هـ (ابريل سنة ١٨٤١ م) بتعديل تقليدها الصادر فى ٢١ ذى الحجة سنة ١٢٥٦ هـ (١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م) ، وهاك أهم ما فيه من الشروط المعدلة :

أولاً — ان حق الوراثة يكون للأكبر سنًا بين أولاده الذكور ، مع بقاء الشرط المألزم لمن يستحق الولاية بهذه الكيفية بالسفر الى مقر دار الخلافة العظمى لتسلمه التقليد بيده

ثانياً — أن ماتدفع الحكومة المصرية للدولة العلية (صاحبة السيادة) من الخراج لا يكون ربع دخل الحكومة قبل أخذ نفقات الجباية والإدارة ، بل يصير تقديره فيما بعد مع مراعاة محالة الحكومة المصرية

ثالثاً — أن يكون للوالى حق فى منح الرتب لغاية « أميرألاى » (بدخول الغاية) أما ما فوق ذلك فلا يكون إلا بأذن من الباب العالى

ولما أقرت الدول هذا التعديل أصدرت الحضرة الشاهانية تقليداً آخر فى ١١ تأييده

ربيع الآخر سنة ١٢٥٧ هـ (أول يونيه سنة ١٨٤١ م) مؤيداً لما في التقليد السابق
وفي غرة جمادى الأولى سنة ١٢٥٧ هـ (٢٠ يونيه سنة ١٨٤١ م) صدر آخر تقليد
تقليد آخر يجعل مقدار ما تدفعه الحكومة المصرية الى الدولة العلية سنوياً ثمانية
آلاف كيساً
يونه سنة ١٨٤١

٧ - شيخوخة محمد على وحكم ابراهيم

بعد أن انكمش محمد على في ولاية مصر، وحرمته الدول من فتوحاته التي اكتسبها تضعف مصر
بجد السيف وأريق من أجلها دماء المصريين ، لم يكن في قدرته النهوض بها الى
الدرجة التي كانت تصبو اليها نفسه . والسبب في ذلك يرجع الى أمرين : الأول
تقدمه في السن واضمحلال قواه العقلية والجثمانية ، والثاني أن حالة البلاد الداخلية
كانت قد انحطت دفعة واحدة ، لما حلّ بأهلها من المصائب من جراء كل هذه
الحروب التي قاموا باعبائها وأنفقوا عليها من دمائهم وأموالهم ، حتى أصبحت البلاد في
حالة يرثى لها

ومع ذلك ابتداء محمد على يحصن مدينة الاسكندرية على يد مهندسين فرنسيين ،
وذلك حينما أجبرته الدولة على تنقيص جيشه الى ثمانية عشر ألف جندي . وأرسل
حفيدة عباس باشا الى الباب العالي يلتبس منه أن يمنحه تقليداً أوسع نطاقاً من
الأخير ، فأرضاه الباب العالي بأن منحه لقب الصدارة العظمى من غير أن يجيبه
الى طلبه

ولكن شاءت المقادير ألا معاكسة محمد على ، ففي سنة ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) كوارث أخرى
انتشر طاعون الماشية في البلاد ، وتبعه هبوط النيل ، فأصبحت البلاد على حافة
الخراب . وفي العام نفسه اجتاح الجراد زراعة البلاد فتركها قاعاً صفصفاً ، وبذلك
وقف دولاب الحكومة ، واستولى الرعب والوجل على قلوب حكام البلاد ، فاجتمع
مجلس في القاهرة وكتب تقريراً عن سير الأحوال في البلاد ، وما آلت اليه من

الانحطاط . إلا أنهم لاقوا صعوبة عظيمة في تبليغ هذا التقرير الى الباشا ، ولما وصل اليه استشاط غضباً . وكان يخاف أن يخلمه ابنه ابراهيم ، ففكر في التخلي عن الملك والذهاب الى مكة ليقضى باقى أيامه فيها ، فتوسط سفراء الدول وأزالوا ما فى نفسه نحو ابنه البار

وابتدأت بعد ذلك الأحوال تتحسن شيئاً فشيئاً فى السنتين التاليتين . إلا أن صحة ابراهيم فى هذه الأثناء اضمحلت دفعة واحدة ، فأشار عليه الأطباء بالسفر الى أوربا . فعمل بذلك ، وبعد ان طاف فى كثير من البلدان ، خصوصاً إيطاليا وفرنسا وانجلترا ، رجع الى الديار المصرية وعلامات الصحة بادية عليه . فلم يجد والده هناك ، بل علم أنه سافر الى مقر الخلافة (رجب سنة ١٢٦٢ هـ : يونيه سنة ١٨٤٦ م) ليحظى بالثول بين يدى الخليفة ويقدم له ولاءه وطاعته

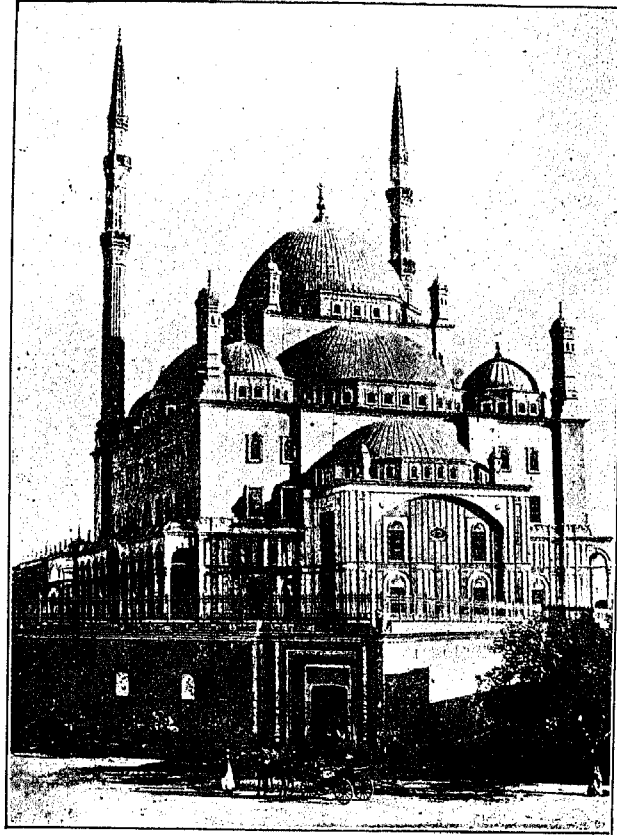
اضمحلال
صحة ابراهيم

وقد قوبل محمد على من الخليفة بكل حفاوة واکرام ، وهنا تقابل مع أشد أعدائه خسرو فتعانقا طويلاً واتفقا على تناسى الماضى . ولما طالت مدة إقامة محمد على فى دار الخلافة ابتدأ رجال القصر يعاملونه معاملة قاسية ، فأثر ذلك فى صحته تأثيراً سيئاً ، فلما رجع الى مصر فى أواخر ذلك العام كان أشبه بالشبح منه بالإنسان

محمد على
فى الاستانة

وفى أثناء عودته زار مسقط رأسه « قوالة » التى تركها منذ عام ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م) ، وبعد ذلك ترك مقاليد الأمور لحفيده عباس باشا الأول ، لأن حالة ابراهيم الصحية لم تمكنه من القيام بعباء الأمور فى البلاد . وكانت خاتمة أعمال محمد على وضع أول حجر أساسى للقناطر الخيرية فى ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٢٦٣ هـ (ابريل سنة ١٨٤٧ م) بين جم غفير من المشاهدين

سفره الى اوربا ثم أشار الأطباء ثانياً على ابراهيم بالسفر الى اوربا . وفى مدة غيابه ذهب والده الى نابلى فى إيطاليا ، حيث سمع بخلع « لويس فليب » ملك فرنسا ، فتذكر خدماته له فى الأزمة الأخيرة ، وعزم على تجريد حملة لارجاعه الى عرشه . فلما علم بذلك ابراهيم قفل راجعاً الى مصر



جامع محمد علي
(بالقلمة)

وفي شعبان سنة ١٢٦٤ هـ (يولييه سنة ١٨٤٨ م) أصدر الباب العالي تقليداً بتولية ابراهيم باشا على الديار المصرية ، فذهب لتقديم ولائه الى الباب العالي في القسطنطينية . وبعد عودته بزمن يسير جداً ، عاوده المرض الذي أضنى صحته منذ سنين عديدة ، ففضى على ذلك الرجل العظيم في ١٣ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ (نوفمبر سنة ١٨٤٨ م) ودفن بالقرافة ، وبموته رجع عباس باشا من مكة ، فتقلد الأمور في البلاد . ثم سافرتوا الى القسطنطينية لينسلم تقليد التولية أما محمد علي فلم يمكث بعد تولية عباس الا أشهراً قليلاً ، كان في أثناءها منخط

تولية

ابراهيم باشا

وفاته

وفاته
محمد علي
القوى العقلية والجثمانية جملة لكبر سنّه ، الى ان فاضت روحه بالاسكندرية في
١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ هـ (٢ اغسطس سنة ١٨٤٩ م) ، وبذا انتهت حياة عظيم
من اكبر رجال الشرق

جامع
محمد علي
ونقلت جثته الى القاهرة حيث دفنت بمسجده الذي شيّده بالقلعة (سنة ١٢٤٦ هـ :
١٨٣١ م) ، وهو من أجمل المباني التي شيدت بمصر على الطراز التركي الحديث

الفصل الثالث

الطريق البرى بين الهند وأوربا

الطريق القديمة
وهجرها
كان من أهم موارد الثروة في مصر في عهد المماليك الضرائب التي كانت تجبى
على البضائع والسلع المتبادلة بين أوربا والهند على طريق مصر . وقد ظلت هذه
الطريق مسلوكة حتى كشف البرتقال طريق الرجاء الصالح كما سبق ، فتخولت
التجارة اليها منذ ذلك العهد ، وهُجرت طريق مصر لسهولة الأولى وقلة نفقاتها
وصون البضائع وقلة الخطر فيها ، خصوصاً أن البحر الأبيض المتوسط كان يهدّد تجارته
في ذلك العهد لصوص البحر من الترك وغيرهم . وكانت القوافل التي تحمل التجارة
من السويس الى الاسكندرية تسطو عليها قبائل الاعراب وقطاع الطريق

الاسباب
الجديدة لاحتياها
بقيت طريق الرجاء الصالح متبعة حتى أواخر القرن الثامن عشر عند ما فكر
بعض رجال انجلترا في احياء طريق مصر . ولا غرابة ، فان نفوذ الدولة البريطانية
كان قد اتسع في بلاد الهند ، واصبح من الضروري لها اتخاذ طريق اقصر
للمواصله بينها وبين هذه المستعمرة العظيمة من طريق الرأس ، التي كانت تستغرق
زمنًا طويلاً

واول من عُنى باحياء هذا المشروع « جورج بُلْدوين » سفير انجلترا في مصر في

عهد الثورة الفرنسية ، واول عمل قام به للوصول الى غرضه انه حصل على اذن من
الباب العالى يخول له الملاحة فى البحر الأحمر . ثم أحضر سفينة من لندن الى
الاسكندرية ، وأخرى من « كلكتة » الى ميناء السويس ، ثم صعد الهرم الاكبر
يرافقه ثلثة من اصدقائه ، ومعه ثلاث زجاجات مُلئت بالماء : احدهما من النيل ، والثانية
من نهر التاميس ، والأخيرة من ماء الكنج . ثم شربوا من مزيج الثلاث على ذكر
اتحاد الثلاثة الأنهار واتساع نطاق التجارة البريطانية على طريق الديار المصرية . غير
ان الباب العالى لم يلبث ان ألغى الإذن

وبعدئذٍ أظهر أحد التجار الانجائز بمدينة الاسكندرية وهو « المستر برجز »
لمحمد على الفوائد المادية التى تعود على البلاد من اتصال التجارة بين مصر والهند ،
وذلك أثناء حربه مع الوهابيين . فصادف هوئى فى نفس الوالى ، وأرسل بعض
السفن الى مياه بمباى ، ولكن المشروع لم يفلح طويلاً

ولما ابتدأ احتكار محمد على للتجارة فى الديار المصرية تلهى الفرنسيون النازلون
بمصر بالوظائف الأميرية عن سواها من الأعمال . وكان نظير ذلك لرجال الانجائز
الحظ الأوفر فى التجارة المصرية ، فكانوا يَتَعَنَّنُون بمدح محمد على فى بلادهم ،
ويذكرون له الأيادى البيضاء فى تشجيع التجارة . فلما سمع بذلك «توماس وجهورن»
أحد رجال الأسطول الانجائزى الموظفين فى « شركة الهند الشرقية » أخذ يعمل
بكل قواه العقلية والجثمانية لإحياء هذه الطريق ، خصوصاً بعد ان توطدت دعائم
الأمن العام فى مصر بفضل اصلاحات محمد على ، وصار استعمال البخار فى تسيير
السفن من اكبر المشجعات أيضاً على الدأب وراء انفاذ فكرته . فقدّم اقتراحه فى
أول مرة الى شركته فى سنة ١٢٣٨ هـ — ٣٩ هـ (١٨٢٣ م) ، فلم توافق عليه بالرغم
من مساعدة « برّكر » سفير انجلترا فى مصر ، ظناً منها انه من الامور الصعبة التنفيذ
ولكن المشروع لم يندثر نهائياً ، ففي سنة ١٢٤٤ هـ — ٤٥ هـ (١٨٢٩ م) أرسل
السير « جون مَنكَم » حاكم بمباى باخرة الى السويس لنقل التجارة ، فلم تواصل

رحلاتها الآ زمناً يسيراً لكثرة نفقات الفحم . الآ ان « بكر » ما زال بفكرة
« وجهورن » يحمدها ويعضدها حتى طلبت منه الحكومة الانجليزية تقريراً رسمياً في
هذا الصدد . فاقنعت انجلترا بالتقرير ، وما جاء شهر رمضان سنة ١٢٤٦ هـ (فبراير
١٨٣٠ م) حتى أصبح نجاح مشروع « وجهورن » من الحق

معاوضة
الحكومة
الانجليزية له

وفي أثناء هذا الجهاد الطويل كان محمد على من أكبر المشجعين لوجهورن ،
حتى انه من شدة ميله لمحمد على قدّم رسالة الى البرلمان الانجليزي يرجوه فيها ان
ينظر الى مصر بعين الرعاية والشفقة ، وأن لا يجعلها في حوزة تركيا . ولا شك أن
محمد على خدم الأمة الانجليزية من هذه الوجهة ، ولذلك يعترف بعض الانجاي
بأن بريطانيا العظمى مدينة له في إحياء هذه الطريق

معاوضة
محمد على له

اما وجهورن فقد جنى ثمرة جهاده بعد ان لاقى أهوالاً وقاسى شدائد جمة مدة
عشرين عاماً . ففي ٢٧ رمضان سنة ١٢٦١ هـ (اول اكتوبر سنة ١٨٤٥ م) انجرت
باخرة من بمباى تحمل بريداً ، فوصلت السويس بعد ١٩ يوماً . ثم نُقل البريد براً
الى الاسكندرية ، فبلغها في اليوم التالى ومنها نقل على طريق تريست ونهر الرين
والبلجيكا ، فوصل لندن في صبيحة يوم الواحد والثلاثين من شهر اكتوبر ، أى
انه لم يستغرق في طريقه اكثر من شهر* . ولقد بذات الحكومة الفرنسية جهدها
لإثبات ان الطريق من فرنسا آمن وأقصر ، فالتخذت أخيراً شركة البواخر الشرقية
التي أسست سنة ١٢٥٥ — ٥٦ هـ (١٨٤٠ م) ميناء مرسيليا مركزاً عاماً للبريد
الأوربي

بين
الهند وانجلترا
في شهر

شركة البواخر
الشرقية

وقد زاد في سهولة هذه الطريق انه قبل ممات محمد على أسست شركة سفن
تجارية تجرى في ترعة الحمودية والنيل بين مصر والاسكندرية ، فكان متوسط

تأثير
ترعة الحمودية

* كان البريد ينقل بين السويس والقاهرة على الجمال بطريق الصحراء . وكان بعض رجال
الانجليز قد عرض على محمد على انشاء خط حديدى على هذا الطريق ، فوافق على هذا رأى ،
وأحضرت بعض المواد اللازمة لانشاء الخط بالفعل . الا ان محمد على ارتاب فيما بعد في عاقبة
الامر وأحجم عن المشروع

المسافرين على طريق مصر بين عامى ١٢٥٨ - ١٢٦٥ هـ (١٨٤٢ - ١٨٤٩ م) يبلغ ١٥٠,٠٠٠ فى العام الواحد

وتوفى « وجهورن » عام ١٢٦٦ - ٦٧ هـ (١٨٥٠ م) ، وكان لا يزال يعترف فضل وجهورن الى آخر لحظة من حياته ان السبب فى نجاحه يُعزى الى كرم وتشجيع محمد على ، صاحب الأيادى البيضاء عليه . ولا يزال اسم « وجهورن » مقروناً بالتبجيل ، وله تمثال منصوب فى ميناء السويس . ويمتاز وجهورن على « ديلسبس » بأنه لم يستغند أموال الخزينة المصرية ، ولم يحوّل المشروع الذى قام به ضد مصلحة من أحسن اليه ، كما فعل الآخر . وقد اعترف بعض رجال الأمة الانجليزية بفضل محمد على بمساعدة محمد على فأهدوه فى عام ١٢٥٥ - ٥٦ هـ (١٨٤٠ م) وساماً ، زُين أحد وجهيه برسم محمد على ، ونُقشت على الثانى العبارة الآتية :

« الى مشجع العلم والتجارة والنظام ، الحامى لرعايا وأموال الممالك المتضادة ، والفاتح للطريق البرى الى الهند »

ملخص لأهم الحوادث التاريخية في الباب الثاني

٢	٥	أولاً — الحملة الفرنسية *
١٧٩٨ — ١٨٠١	١٢١٢ — ١٢١٦	تحرير يد نابليون حملة على مصر
١٧٩٨	١٢١٢	اقلاعه بجيشه الى البلاد المصرية
١٧٩٨ مايو ١٩	٢ ذى الحجة ١٢١٢	وصول نلسن أمير البحر الانجليزي بأسطوله الى الاسكندرية مقتنياً أثر الاسطول الفرنسى فلم يعثر عليه
١٧٩٨ يونيو ٢١	٨ المحرم ١٢١٣	وصول العمارة الفرنسية أمام الاسكندرية
» يوليو ١	١٨ المحرم »	زحف نابليون على القاهرة من طريق الصحراء
» » ٧	٢٢ » »	بعد اخضاع الاسكندرية
» » »	» » »	الاستيلاء على رشيد
» » »	» » »	انهزام مراد بك أمام نابليون عند شبراخيت وتقهقره الى القاهرة
» » ١٤	٢٩ » »	انهزام المماليك في واقعة انبابة (الاهرام)
» » ٢١	٧ صفر »	اجتماع العلماء بعد الموقعة وتقريرهم التسليم لنابليون
» » ٢٢	٨ » »	دخول نابليون القاهرة
» » ٢٥	١١ » »	اصلاحات نابليون في القاهرة
» » »	» » »	تدمير العمارة الفرنسية في موقعة بوقير البحرية على يد نلسن
» أغسطس	١٧ ربيع ١	خروج سكان القاهرة على الفرنسيين خروجاً عاماً
» ٢٢ اكتوبر	١٠ جمادى الاولى »	واخمد الثورة على يد نابليون
١٧٩٩	» » »	تحرير يد نابليون حملة على بلاد الشام لصد غارة الترك على مصر
» مارس ٣	٢٥ رمضان »	وصول الحملة الى يافا
» » »	» » »	حصار نابليون لمكاء ورجوعه عنها لمناعتها
» ١٣ يونيه	٩ المحرم ١٢١٤	انتصار نابليون على الترك في واقعة بوقير البرية

٢	٥	
١٧٩٩ أغسطس ٢٢	١٢١٤ ١٩ ربيع ١	مغادرة نابليون مصر قاصداً فرنسا وعهده بالقيادة لكبير
»	»	مهادنة الفرنسيين للماليك بعد تغلب الآخرين على معظم الصعيد
١٨٠٠ يناير	» شعبان	ادراك كبير صعوبة مركزه وابطامه معاهدة العريش مع سدني سميث
»	»	عدم موافقة الحكومة الانجليزية على هذه المعاهدة
»	»	دخول الترك مصر بعد المعاهدة ووقوع الثورة فيها
١٨٠٠ يونيو ١٤	٢٠ المحرم ١٢١٥	واخادها على يد الفرنسيين وعودة النفوذ لهم فيها مقتل القائد كبير
١٨٠١ فبراير	» شوال	وصول الحملة الانجليزية بقيادة السير رلف ابركرومبي لطرده الفرنسيين
»	»	انهزام الفرنسيين عند كانوب وموت ابركرومبي وتولى هتشمن مكانه
»	١٠ جمادى ١٢١٦	جلاء الفرنسيين عن مصر بعد تسليم بليار بالقاهرة ومينو بالاسكندرية
١٨٠٢	١٢١٧	طبع الحكومة الفرنسية أعمال البعث العلمي في مؤلف يدعى وصف مصر
١٨٤٩ — ١٧٦٩	١١٨٣ — ١٢٦٥	ثانياً — محمد علي باشا
١٨٠٥ — ١٧٦٩	١١٨٣ — ١٢٢٠	١ — نشأته ونهوضه
١٧٦٩	١١٨٣	مولد محمد علي في قولة
١٧٩٩	١٢١٣	قدومه الى مصر في واقعة بوقير البرية
١٨٠١	١٢١٥	قدومه الى مصر وقت حملة ابركرومبي
١٨٠١	١٢١٦	تولية خسرو علي مصر من قبل الباب العالي
		نزاع بين خسرو والماليك وبينه وبين الجنود

		العثمانية يظهر فيه محمد على تدريجاً وينتهي بهروب خسرو الى دمياط
١٨٠٣	١٢١٨	الاهالى يختارون طاهر باشا خلفاً لخسرو مقله بعد ٢٢ يوماً
		محمد على يصبح رئيس الجنود الالبانية في مصر اتحاده مع البرديسى على خسرو — مداخلة والى ينبع — أخذ خسرو سجيناً الى القاهرة
»	يوليه	تولية على باشا الجزائرى
١٨٠٤	يناير	البرديسى يحتال حتى يقتله
	ربيع الاول	وصول الالفى بعد ان مكث بانجلترا سنتين
	شوال	اتحاد محمد على والبرديسى على الالفى — فرار الالفى الى سورية
		تظاهر محمد على بالخضوع للدولة وتأليه الالهالى على البرديسى ومهاجمته اياه وطرده هو وابراهيم بك الى الشام
		تولية خورشيد باشا — ضعفه وتمرد الجند عليه والتعجاء الالهالى الى محمد على
		بقاء محمد على بمصر رغم ارادة الدولة — اتفاه مع الدلاة
١٨٠٥	مايو	محاصرته خورشيد باشا بالقلعة (برغبة الالهالى)
	صفر	اختيار الالهالى محمد على والياً على مصر
١٨٠٥	يوليه	موافقة الباب العالى على ذلك
١٨١١ — ١٨٠٥	١٢٢٦ — ١٢٢٠	٢ — توطيد سلطته في مصر
١٨٠٥	أغسطس	أول فتك بالمماليك
	جمادى الثانية	الباب العالى يحاول ابعاد محمد على عن مصر —
١٨٠٦	نوفبر	تظلم الالهالى ووصول عهد بتأييده في الولاية
	شعبان	

٢	٥	
		اتحاد البرديسي والالفي عليه
١٨٠٦	١٢٢١	موت البرديسي
١٨٠٧	١٢٢١	موت الالفي
١٨٠٧	أول الحرم ١٢٢٢	وصول الحملة الانجليزية الى مصر لتأييد سلطة الممالك
		استيلاء الحملة على الاسكندرية - رجوع محمد علي من مطاردة الممالك بالصعيد وهزمه الانجليز عند الحماد - عقد شروط الصلح مع محمد علي وترك الانجليز البلاد
١٨٠٧	سبتمبر ١٢٢٢	رجب
		رضاء الباب العالي عن محمد علي والاعانم عليه وفك عقاب ابراهيم ابنه
		خوف محمد علي من الممالك والعمل على الفتك بهم - هزمه لهم عند أسيوط - انتشارهم في طول البلاد وعرضها
١٨١٠	١٢٢٥	استرضاء محمد علي للممالك وعقد مهادنة معهم
		تدبير الممالك الكيد لمحمد علي وهو راجع من السويس ووقوف محمد علي على ذلك - فتك محمد علي بالممالك في مذبح القلعة
١٨١١	فبراير ١٢٢٦	صفر
١٨١٩ - ١٨١١	١٢٣٥ - ١٢٢٦	٣ - الحروب الوهابية
		مولد ابن عبد الوهاب صاحب المذهب الوهابي بالمدينة من اقليم العارض (مذهب الوهابيين يوافق مذهب اهل السنة الصحيحة)
		حماية محمد بن سعود لابن عبد الوهاب وتشجيعه على نشر مذهبه
١٧٨٧	١٢٠١	وفاة ابن عبد الوهاب
١٧٩١ - ١٧٤٦	١٢٠٦ - ١١٥٩	امتداد سلطان أولاد سعود على جميع بلاد نجد

٢	٥	
١٧٩٨	١٢١٣	قلق شريف مكة من انتشار المذهب الوهابي وتجريده حملة على عبد العزيز فشل الحملة والعمل على نشر المذهب في وادي القرات — هزم والى بغداد لعبد العزيز بن سعود مهاجمة ابن سعود كربلاء وتجريبها دخول عبدالعزيز مكة في العام التالي بدون معارضة الشريف قتل عبدالعزيز وتولية سعود الثاني وهو أعظم رجال هذه الاسرة تشديد سعود الثاني في جمع الضرائب حتى أضربت الناس عن الحج ١٨٠٦ ١٢٢١ ١٨١١ ١٢٢٦ تجريد محمد على حملة على الوهابيين بأمر الباب العالي وصول طوسون الى ينبع وانهمزاه عند الجديدة وهرب جنده ١٨١٢ ١٢٢٧ وصول المدد الى طوسون وفتح المدينة وارسال مفاتيح الكعبة والحجرة النبوية الى والده مطاردة طوسون الوهابيين وانهمزاه عند طربة سفر محمد على الى الاقطار الحجازية عند سماعه بهذه النكبة لتولية القيادة بنفسه ١٨١٤ ١٢٢٩ وفاة سعود الثاني وتضعف الوهابيين انهمزام خلفه عبد الله سعود عند بيصل ١٨١٥ ١٢٣٠ عودة محمد على لوقوع قلاقل داخلية في مصر — عودة طوسون عند سماعه بتلك القلاقل — موته فجأة نقض الوهابيين شروط الصلح التي عقدها معهم طوسون قبل عودته

			تجريد حملة الى بلاد العرب بقيادة ابراهيم باشا للقضاء على الوهابيين
١٨١٦	١٢٣١	شوال	هزيمة ابراهيم عند الرئيس
١٨١٧	١٢٣٢		حصاره الدرعية وتسليم عبدالله وأمره بتخريب البلد
١٨١٨	١٢٣٣	ذى القعدة	مقتل عبد الله بالاستانة
١٨٢٣ — ١٨٢٠	١٢٣٩ — ١٢٣٥		٤ — فتح السودان
			عزم محمد على على فتح السودان لاسباب مادية وسياسية
١٨٢٠	١٢٣٥	جمادى ١	تجريده حملة للاستيلاء على سيوة
١٨٢٠	١٢٣٥	شوال	مسير حملة السودان من القاهرة بقيادة اسماعيل
			فرار المماليك من دنقلة وتشتتهم عند ما سمعوا بمجيء اسماعيل
			سحق اسماعيل عرب الشيخية في كرتى
١٨٢١	١٢٣٦	جمادى ٢	فتحه بربر
			فتح شندى وسنار ومرض الجيش أثناء اقامته
			اسماعيل بسنار
			وصول المدد الى اسماعيل بقيادة اخيه ابراهيم —
			تقسيم القيادة بينهما .
			وصول اسماعيل فى زحفه الى تومات وعودة ابراهيم الى مصر لمرضه بعد أن وصل الى حبل دنكا
١٨٢٢	١٢٣٧		وصول مدد بقيادة محمد بك الدفتردار لغزو كردفان
			هزيمه بعض القبائل عند بارا واستيلائه على الابيض
			انتقام الدفتردار من غرقه اسماعيل بحرق شندى
١٨٢٣	١٢٣٨		بناء الخرطوم وجعلها حاضرة للبلاد السودانية
١٨٢٩ — ١٨٢٣	١٢٤٥ — ١٢٣٩		٥ — حرب اليونان
			شباب نار الثورة فى جنوبي ايطاليا واسبانيا
١٨٢١ — ١٨٢٠	١٢٣٦ — ١٢٣٥		وبلاذ اليونان

٢	٥	
		اعلان اليونان الحرب على الترك لنيل استقلالها وعدم مساعدة الدول لها انتصار اليونان في بادىء الامر واستنجد السلطان بمحمد على على قمع الفتنة
١٨٢٣	١٢٣٩	تولية محمد على على جزيرة اقر يطش
١٨٢٤	١٢٣٩	تولية محمد على على بلاد المورة
١٨٢٤	١٢٣٩	اقلاع الجيش المصرى من الاسكندرية الى بلاد اليونان
١٨٢٥	١٢٤٠	نزل الجيش المصرى في مودن
		اخضاع بلاد المورة واستيلاء ابراهيم على أمهات المدن فيها
١٨٢٦	١٢٤١	حصار مسولونجى وتسليمها
		قيام الثورة في بلاد المورة ثانيا واخضاعها
		فتح رشيد باشا مدينة أثينا
١٨٢٦	١٢٤١	استيلاء دول أور بالعظمى من فطائع ابراهيم وعقد مؤتمراً لذلك في لندن
		اقرار المؤتمر على ارسال عمارة بحرية تعهد القيادة العامة فيها لكندر بختون
١٨٢٧	١٢٤٣	اشتباك العمارة المصرية التركية مع أساطيل الحلفاء في خليج نوارين وتدمير العمارة المصرية التركية
١٨٢٨	١٢٤٤	احتلال فرنسا لبلاد المورة بعد رفض البرلمان الانجلىزى الاشتراك معها
		ظهور الاسطول الانجلىزى في المياه المصرية وتهديده محمد على
١٨٢٨	١٢٤٤	اتفاق محمد على مع الانجلىز على اخلاء بلاد المورة اخلاء ابراهيم بلاد المورة

٢	٥	
١٨٢٩	١٢٤٥	تصميم السلطان محمود على رفض تحرير اليونان واعلان روسيا الحرب عليه لذلك
١٨٢٩	١٢٤٥	انهزام الترك أمام الروس واضطرارهم لعقد معاهدة أدرنة وقرارهم فيها على تحرير اليونان
١٨٤١ — ١٨٣٢	١٢٤٦ — ١٢٤٧	٦ — حرب الشام
١٨٢٩	١٢٤٥	استيلاء محمد على من الباب العالي لعدم مكافأته على مساعدته في حرب المورة ولاسباب أخرى
١٨٣٢	١٢٤٧	ابتداء استعداد محمد على للحملة على الشام خروج الحملة بعد تأخرها بسبب الهبيضة
١٨٣٢	١٢٤٧	زحف الجيش البري واستيلاؤه على غزه ويافا حصار عكا وسقوطها في يد ابراهيم
»	»	اصدار الباب العالي امرا بخلع محمد على أثناء حصار عكا
١٨٢٢	١٢٤٨	فتح دمشق
١٨٣٢	١٢٤٨	انهزام محمد باشا والى طرابلس عند حمص
»	١٢٤٨	استيلاء ابراهيم على حلب
»	١٢٤٩	هزيمة حسين باشا في مضيق بيلان
»	١٢٤٩	هزيمة رشيد باشا في واقعة قونية
١٨٣٣	١٢٤٩	احتلال كوتاهية
»	١٢٤٩	معاهدة »
»	١٢٤٩	معاهدة هنكار اسكله سي
١٨٣٤	١٢٥٠	ابتداء خروج أهل الشام على ابراهيم باشا
١٨٣٥	١٢٥٢	استفحال الثورة في الشام — سفر محمد على باشا الى الشام لاطفائها
١٨٣٨	١٢٥٤	انهزام المصريين في الشام أمام عرب حوران تقرير الباب العالي اعلان الحرب على محمد على

١٨٣٩	يناير	١٢٥٤	ذى القعدة	انتهازاً لفرصة خروج الشام
»	»	»	»	رجوع محمد على من السودان لما علم بذلك
»	٢٤ يونيه	١٢٥٥	١١ ربيع ٢	هزيمة الجيش التركي بقيادة حافظ باشا عند نصيبين
»	»	»	»	مجيء الاسطول العثماني الى مصر وانضمامه الى محمد على
»	»	»	»	ابتداء تدخل دول أوروبا في المسألة المصرية التركية
»	»	»	»	انفراد فرنسا بمؤازرة محمد على
١٨٤٠	١٥ يوليه	١٢٥٦	١٥ جمادى ١	معاهدة لندن لاختضاع محمد على
»	٢ سبتمبر	»	٥ رجب	اعلان الباب العالي خلع محمد على عن الشام
»	»	»	»	عدم خضوع محمد على وشروع الدول في اخضاعه بالقوة
»	٢ سبتمبر	»	رجب	ضرب أساطيل الحلفاء ميناء بيروت
»	»	»	»	هزيمة ابراهيم باشا في برومانه ثم في قلعة ميدان
»	»	»	»	واخلاء بيروت واستيلاء الحلفاء على عكا
»	٢٩ ديسمبر	»	٥ ذى القعدة	ابتداء اخلاء الشام
١٨٤١	يناير	»	ذى القعدة	خضوع محمد على للسلطان
١٨٤١	١٣ فبراير	»	٢١ ذى الحجة	صدور تقليد من السلطان بمنح محمد على ولاية مصر وراثية
١٨٤١	ابريل	١٢٥٧	صفر	تخفيف شروط هذا التقليد بتقليد آخر
١٨٤١	١ يونيه	»	١١ ربيع ٢	تأييد هذا التقليد بآخر
				٧ — شيخوخة محمد على وحكم ابراهيم
				انتشار طاعون الماشية بمصر وهبوط النيل واجتياح الجراد الزراعة
١٨٤٣	١٢٥٩	»	»	سفر محمد على باشا الى الاستانة
١٨٤٦	يوليه	١٦٦٢	رجب	وضع محمد على باشا اول حجر من اساس الفناطر الخيرية
١٨٤٧	ابريل	١٢٦٣	٢٢ ربيع ٢	تقليد ابراهيم باشا ولاية مصر
١٨٤٨	يوليه	١٢٦٤	شعبان	اشتداد المرض على ابراهيم ووفاته
»	نوفمبر	»	١٣ ذى الحجة	وفاة محمد على باشا
»	٢ أغسطس	١٢٦٥	١٣ رمضان	»

الباب الثالث

تاريخ مصر

بعد عهد محمد علي باشا

الفصل الأول

عباس باشا الأول وسعيد باشا

﴿ ١ — عباس باشا الأول ﴾

(١٢٦٥ — ١٢٧٠ هـ : ١٨٤٩ — ١٨٥٤ م)

بعد موت محمد علي كادت مصر تكون نسياً منسياً ، لا أهمية لها في نظر أوربا ،
لولا مرور تجارة الهند عن طريق مصر . وذلك لأن من خلفه من ذريته لم ينالوا تلك
الصفات التي ميزته وجعلته في مصاف عظماء الرجال في عصره
تولى الملك عباس باشا الأول (ابن طوسون بن محمد علي) في ٢٧ ذى الحجة سنة
١٢٦٤ هـ : (٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م) ، وكان اذ ذاك يناهز السادسة والثلاثين من عمره ،
فكان أول عمل قام به أن هدم كل ما أُنفي فيه جذه العظيم زهرة حياته ، غير مفرق
بين النافع والضار . فكلما قضى على احتكار التجارة المجحف بحق الفلاح ، أنقص الجيش
إلى تسعة آلاف ، وأغلق المعامل والمدارس ، واستغنى عن كثير من الموظفين الغربيين
وأظهر ميله إلى العادات والأنظمة التركية والبلدية

عباس يهدم
أعمال سلفه



عباس باشا الأول

مضى عباس باشا معظم حكمه بمعزل عن الناس ، متهاوناً في شؤون الملك ، غير
مكثر بما في ذلك من الضرر . ولعل له عذراً في ذلك ، إذ أنه لمّا شاهد فشل حروب
الشام بقيادة ابراهيم باشا ، ورأى سقوط جده الكبير والقضاء على كل آماله ، رأى أنه
من العبث مقاومة أوروبا ، وأدرك أن البلاد في حاجة الى السكينة والراحة ، وأن لاداعي
الى المظاهر الأوربية الكاذبة التي كان يعتقد أنها تسربت الى مصر قبل مياعدها
تلك كانت خطته . ولما رأى أنه يحيط به قطع من الذئاب الغريسة وطائفة من
عزلة عباس

الموظفين المتملقين ، الذين لا همّ لهم إلا جمع الثروة من حوله ، اعتزل جميعهم إلا عيوبه ومحاسنه
نفرّاً قليلاً من سفراء الدول وخدمه الخاصة ، فكانت حياته سرّاً غامضاً . وقد ذمه
كثيرون من أجل ذلك ، ولكن كفاه فخراً أنه خلص الأمة من نهب الأجانب في
مدة حكمه : ولم يُنقل كاهلها بشيء من الديون كما فعل غيره من بعده

وفي أيامه أنشئ أول خط حديدي في مصر بل في ممالك الشرق بأجمعها ، وذلك الخط الحديدي
هو الخط الممتد بين الاسكندرية والقاهرة . وقد قام بهذا المشروع « رُبرت استيفنسُن »
مخترع القطر البخارية ، اذ أخذ على عاتقه جلب كل المهمات اللازمة لمدة ، وابتدأ
العمل سنة ١٢٦٨ هـ (١٨٥٢ م) وتممه في عام ١٢٧٢ هـ (١٨٥٦ م) . وكان الموعد
لمدة هذه السكة الحكومية الانجليزية ، لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين الهند وأوربا
عن طريق مصر . وقد عارضت في الأمر الحكومة الفرنسية ، فسبب ذلك بعض التأخير
في إنجاز المشروع

وكان عباس باشا يريد حرمان عمه « سعيد » من الملك بعده ليكون لابنه
« الهامى » . فأتت المقادير على عكس ما أراد ، اذ قُتل فجأة في قصره في بنها ، وكان
ابنه الهامى غائباً عن الديار المصرية ، فورث الملك سعيد باشا بدون أدنى معارضة وذلك
في ذى الحجة سنة ١٢٧٠ هـ (١٢ يولييه سنة ١٨٥٤ م)

ولقد كثرت الاشاعات عن سبب مقتل عباس باشا الأول . فالتداول على الألسن
ان خصيين قتلاه ختقاً وهو نائم في فراشه . وقال آخرون انه قُتل بايعاز بعض اقربائه
الذين كانوا يريدون نزعته من ولاية الملك . وهناك فريق آخر يعزى سبب قتله الى
أسباب سياسية . وكنتم نخب موتة عدة أيام ، ثم نُقلت جثته من بنها الى قصره
بالعباسية * ، ومنها نقلت الى مقرها الأخير بقراة الامام الشافعى بالقاهرة

* سميت صحراء الريدانية « العباسية » منذ عهد عباس باشا الأول لاتخاذ قصره بها

﴿ ٢ — سعيد باشا ﴾

١٢٧٠ - ١٢٧٩ هـ : (١٨٥٤ - ١٨٦٣ م)

تربية سعيد
كان سعيد باشا في حداثته محبوباً من والده محمد علي ، فرّباه تربية عالية في مدارس
فرنسا أهلته لتولى زمام الملك . وقليل من الأمراء من نال نصيباً وافراً من العناية



سعيد باشا

حالة مصر
عند توليته
كسعيد . قبض على زمام الأمور والبلاد في حالة حسنة : اذ كانت خالية من الديون
الأجنبية ، وكان دخلها السنوي البالغ ثلاثة آلاف الف من الجنيهاً كافياً لسد كل
حاجاتها ، وكانت التجارة متقدمة والأراضي الزراعية آخذة في الازدياد . فلم يك ينقص
البلاد الا شيء من الحزم في حاكمها يستطيع به السير في سبيل المحافظة على مصالح

الأمة حسب ما تقتضيه الأحوال ، ألا أنه من سوء حظ البلاد لم تتوافر هذه الصفة عيوبه في سعيد . تولى الملك وهو نشيط بطبعه محب للعمل ، فكان مبدأ حكمه يدير بحسن مستقبل مصر . ولكنه ما لبث ان أخذ مقاليد الأمور كلها في يده ولم يثق بأحد من الوطنيين ليشاركه معه في ادارة شؤون الملك . ففضى على المجلس الخصوصى (مجلس النظار) ، ولم يدرّب أحداً من أبناء الأمة على شؤون الادارة حتى يكون له عوناً . ولم يتبع طريقة عباس باشا في عزله ، بل كان يقابل الأجانب ويحادثهم ويكرم مشواهم ، وبالغ في ذلك حتى ضاعت هيئته فلم يفلح في حكم البلاد . ذلك الى أنه أصبح بديناً منغمساً في اللذات ، لا يقوى على مزاولة العمل بالجد والنشاط اللذين عهدا فيه من قبل ، فاعتل نظام الحكومة ودب فيه روح الفساد وسوء الادارة

وكان شغله الشاغل مدة حكمه تنظيم الجيش ، لاعتقاده انه ماهر في الفنون الحربية . غرامه بالجيش فكان يغيّر في نظامه ويبدّل من حين لآخر ، فتراها طوراً يجنّد جيشاً يربو على ٥٥,٠٠٠ ، وطوراً ينقصه الى نصف ذلك العدد ، متبعاً في ذلك ما تمليه عليه أهواؤه وميوله . وقد اختار نقطة القناطر الخيرية فجعلها معسكراً لجيشه ، لاعتقاده أنها مركز حربي هام لصد غارات المغيرين ، كما كان يقيم بجيشه كثيراً في صحراء مريوط

ومع ضعفه الأخلاقي كان مخلصاً في اهتمامه بتحسين حالة البلاد التي كان يعتبرها محبة لمصر كضعفاته الخاصة ، فعمل جهده في مد السكك الحديدية وحفر الترعة وغرس الأشجار وتحسين حالة الفلاح . فأصدر قانون الأراضي الشهير في عام ١٢٧٤هـ (١٨٥٨م) الذي قانون الأراضي به أصبح الفلاح لأول مرة المالك الحقيقي لما يفاحه من الأرض . ثم محا بعض الشيء من الاحتكارات المجحفة بحق الفلاح . وهو أول من وضع نظام الضرائب المتبع الآن بدلاً من الاحتكار والعشرية وغيرها من المكوس التي كانت في عصر محمد علي غير أنه لم يشجع العلم وأهله ، لأنه كان يعتقد ان فتح المدارس ينه عقول عامة الناس ، فيجعل قيادتهم أمراً عسيراً وأهم الحوادث التي حدثت في أيامه ، بل أهم الأغلاط التي ارتكبها في مدة حكمه

من الوجهة المصرية ، اثنتان : الأولى فتح باب استدانة الحكومة ، والثانية اذنه أول دين أجنبي لفرديناند « ديلسبس » بحفر ترعة السويس لتوصيل البحر الأبيض بالبحر الأحمر . ففي عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦٢ م) أمضى عقد قرض في لندن مع « فريهلنج غوشين » بمبلغ ٣,٢٩٢,٨٠٠ جنيه ، فلما توفي في عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٣ م) كان على البلاد ديون أجنبية قدرها ثلاثة آلاف ألف ، وعليه هو ما يربو على ضعف ذلك ، فكان ما تركه من الدين خلفه يبلغ عشرة آلاف ألف من الجنيهات تقريباً .

وأما اذنه بحفر ترعة السويس فإنه عاد على البلاد وأهلها بالولايات ، ونُصّب من أجّلها مَعيّنُ ثروتها ورجالها . وقد حصل على هذا الاذن المسمى « ديلسبس » بما كان له من المكانة العالية عند سعيد قبل توليته وبما كان يعده به من الفوائد التي تنجم من ذلك المشروع الخطير مع قلة النفقات ، بدعوى ان كل ما يحتاج اليه من المال لحفر الترعة ، سيكون من فرنسا . وسيتضح لنا في الفصل التالي ان كل وعود ديلسبس كانت أضغاث أحلام وأوهاماً كاذبة ، وان معظم نفقات القناة كان من دماء الفلاح المصري

الفصل الثاني

قناة السويس

تدل الآثار القديمة على ان فكرة توصيل البحر الأبيض بالبحر الأحمر سنحت في عالم الوجود منذ أزمان غابرة ، وأنه كان يوجد في عهد « سبتى الأول » (١٣٨٠ ق.م) ترعة واصله بين البحرين بطريق النيل : تخرج منه عند « بوسطة » وتصب في البحر الأحمر مخترقةً وادي الطميلات . وهي المسماة عند قدماء المؤرخين بترعة « سينسترريس »

ترعة سينسترريس ثم اُهملت هذه الترعة وبقيت كذلك الى أيام « نِخاو » (٦٠٩ ق.م) ، فهمّ

بإعادة حفرها ، وبعد أن هلك في ذلك ما يقرب من ١٢٠,٠٠٠ من فلاحى مصر عمل نحاو أوقف العمل فجأة توهماً منه أن الآلهة أنذرتُه عاقبة العمل لمصلحة الأجانب . فكأنَّ الاعتقاد بأن حفر الترعَة ليس إلا عملاً قاصراً على نفع الأجانب كان يجول في خلد الأقدمين كما جال في خلد محمد على باشا حين تردد في انفاذ مشروع قناة السويس عندما عُرض عليه كما ذكرنا آنفاً

ولما استولى الفرس على مصر شرع «داراء» (٥٢٠ ق . م) في كَرَى هذه الترعَة دارا القديمة ، فلم يَسنَّ له إتمام العمل ، وبقيت الترعَة مهملة حتى جاء « بطليموس الثانى » بطليموس الثانى فأتم حفرها وكَرَيها عام ٢٧٧ ق . م . غير أنها أُهملت بعدُ ، ولم يَتم الرومان فيها باصلاح يُذكر

فلما فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) واستأمره الخليفة عمرو بن العاص عمر بن الخطاب عام قحط الحجاز المسمى عام الرمادة استأذنه في توصيل البحرين ، فأذن له بكرى الترعَة القديمة ، فأعادها وسَمَّاها « خليج أمير المؤمنين » . وجرت بها سفن الميرة الى الحجاز ، ولبثت مسلوكة حتى عهد « أبى جعفر المنصور » العباسى ، فأمر بدمها عام ١٤٥ هـ (٧٧٠ م) حتى لا تُثقل فيها الميرة الى محمد بن عبد الله ابن الحسن الخارج عليه بالحجاز

هذه هى المشروعات القديمة ، وكلها ترمى الى توصيل البحرين بطريق النيل . المشروعات الحديثة فلما قدم نابليون الى مصر فى غارته المشهورة فكَّر فى إعادة توصيل البحرين بحفر ترعة بينهما من مائهما كما أشرنا قبل ، ثم امتنع عن انفاذ مشروعه لتوهم « لا بىر » مشروع نابليون مهندس الحملة ان سطح البحر الأحمر يعلو على سطح البحر الأبيض بتسعة أمتار . وبقيت هذه الغلطة شائعة الى ان أصلحت نهائياً فى عهد محمد على باشا ، اذ حضر الى مصر فى سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧ م) بعث من اوربا ليفحصوا المشروع ، فاشترك معهم لينان باشا مهندس الحكومة المصرية العظيم ، فأقرَّ الجميع بفساد رأى لا بىر وأثبتوا ان البحرين فى مستوى واحد . على ان محمد على كان يشك فى نجاح المشروع ويخشى

عاقبته ، إلا أنه لم يألُ جهداً في مساعدة رجال البعث في بحثهم أثلاً يظهر بمظهر المعرقل لمسعاهم

مشروع ديلسبس وظل بعد ذلك المشروع موقوفاً حتى تولى سعيد ، فنال منه المسيو « فردناند

ديلسبس » سنة ١٢٧١ هـ (١٨٥٤ م) اذناً ابتدائياً بحفر القناة . وقد كان

ديلسبس سفيراً لفرنسا في مصر في عهد محمد علي ، وكانت تتوق نفسه الى تأليف

شركة لحفر القناة ، فوعده سعيد باشا حينئذ بأن يساعده عندما يتولى أريكة مصر .

فلما تولاهما طلب اليه ديلسبس الوفاء بوعده ، فنال منه الاذن المذكور وتلاه اذن

آخر في ربيع الثاني سنة ١٢٧٢ هـ (يناير ١٨٥٦ م) يلخص أهم شروطه فيما يأتي :

« حق تمتع الشركة بفوائد القناة مدة تسع وتسعين سنة من سنة فتحها ، وان

شروط شركة
القناة

يحفر المسيو ديلسبس ترعة تستمد ماءها من النيل من مصر الى الاسماعيلية ، ويُمنح

في مقابل ذلك كل الأراضي اللازمة للأبنية والأعمال بدون مقابل خالية من كل

الضرائب ، وان يكون له الحق في أخذ أجر من الملاك الذين ينتفعون بالماء العذب

الذي يؤخذ من هذه التربة ، وان يكون للشركة الحق أيضاً في تعدين كل مناجم

الحكومة ومحاجرها بدون ثمن أو ضرائب ، وأن تُعفى من كل المكوس على الواردات

التي تُجلب لها ، وان يتم القيام بهذا المشروع في مدة لا تتجاوز ست سنوات إلا اذا

حصلت عوائق لا يمكن تلافيها ، وان يكون أربعة أخماس الفعلة العاملين في حفر

التربة من الفلاحين . وقد وُضعت شروط خاصة بعدد الفعلة الذين يتناوبون العمل

في كل ثلاثة أشهر . ثم حُددت رسوم المرور في القناة باعتبار عشرة فرنكات على كل

مسافر ومثلها على كل طن من حمولة السفن ، وان تكون الشركة مصرية بحيث

يسرى عليها قانون البلاد ، وان تقسم الأرباح (بعد أن يخصم منها فائدة لأموال

المساهمين بنسبة ٥ ٪ ومثلها للمال الاحتياطي) على الترتيب الآتي : ١٥ ٪ للحكومة

المصرية ، ١٠ ٪ لمؤسسى الشركة ، ٧٥ ٪ للمساهمين والمديرين والعمال . وبعد

انتهاء المدة المقررة تصير القناة وكل مشتملاتها ملكاً للحكومة المصرية »

وقبل ان يأذن سعيد باشا لديلسبس استشار سفير إنجلترا هل يصادف رفضه إنجلترا والقناة لهذا المشروع ارتياحاً من إنجلترا . فلم يكن في قدرة السفير ان يعطيه تصريحاً رسمياً عن هذا السؤال ، لأن إنجلترا وفرنسا كانتا حليفتين في حرب القرم . إلا ان ديلسبس ألح في طلبه ، واقتفى أثر سعيد أينما حلّ وحيثما ذهب ، حتى أمضى عقد الاتفاق في ربيع الثاني سنة ١٢٧٢ هـ (يناير سنة ١٨٥٦ م)

ولما كان من الواجب قبل الشروع في العمل الحصول على اذن من الباب العالي العالى ذهب ديلسبس الى القسطنطينية للسعى في ذلك ، فوجد من أولى الشأن بها معارضة عظيمة يرجع السبب الاكبر فيها الى تأثير ساسة الانجليز . والسبب في معارضة إنجلترا في المشروع هو انها كانت ترى بلادها من الوجهة التجارية والحربية أقرب الى الهند من أى مملكة أخرى في اوربا ، عدا أسبانيا والبرتغال وكلاهما ليس بشيء في نظرها . فاذا فُتح طريق قناة السويس أصبحت كل شواطئ البحرين الأبيض والأسود أقرب من إنجلترا الى الهند ، ولذلك كان غرض نابليون عندما فكر في حفر هذه التربة الاضرار بإنجلترا في الهند نفسها ، اذ ان مهاجمتها فيها قبل حفر القناة صعبة جداً لعظم بعدها .

أما اذا فتحت القناة أصبحت المسافة بين مرسيليا ومبای لا تزيد على ٤٦٠٠ ميل

فلما علم ديلسبس بتأثير الساسة الانجليز في القسطنطينية ذهب الى لندن وقابل اللورد بالمستون ، فوجد منه معارضة أيضاً اذ قال له ان حفر القناة يضر بمصالح إنجلترا ويذهب بسيادتها البحرية ، وانه وسيلة تريد



فردناند ديلسبس

ديلسبس في لندن

معارضة إنجلترا

الباب العالي
والقناة

فرنسا التوصل بها الى التدخل في الشرق

مسماعى ديلسبس فلم يثن كل ذلك من عزم ديلسبس ، وما زال يواصل سعيه في اوربا مستعيناً
بقربائه من الامبراطورة « يوجين » (زوجة نابليون الثالث امبراطور فرنسا) حتى
افتح الاشتراك وافق الباب العالي على المشروع عام ١٢٧٥ هـ (١٨٥٨ م) . وفي هذا العام فتحت
ديلسبس باب الاشتراك في شراء أسهم شركة القناة مقدراً رأس مال الشركة
بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، وهو مكوّن من ٤٠٠,٠٠٠ سهم ثمّن السهم
٥٠٠ فرنك . فأقبل الناس على شراء الأسهم حتى جُمع معظم رأس المال في أقل
من شهر واحد . وكان معظم المساهمين من فرنسا ، وجزء منهم من ممالك الدولة
العثمانية ، واشترت مصر من الأسهم ٨٥,٥٠٦ ^٥ . أما انجلترا فأحجمت حينئذٍ عن
شراء شئ منها

ابتداء العمل وابتدأ العمل في حفر القناة قريباً من موقع مدينة بور سعيد الحالية في رمضان
سنة ١٢٧٥ هـ (ابريل سنة ١٨٥٩ م) فكان سيره في أول الأمر غاية في البطء لما
صعوباته يحيط به من الصعوبات . وأهم ذلك قلة تدرب عمّال السخرة على العمل ، وصعوبة
الحصول على الماء الذي يستقون منه قبل أن يتم حفر التربة العذبة . ولما كانت
الشركة فقيرة (بالنسبة لعظم المشروع) استعان ديلسبس على هذه الصعوبات بالسعى
في حمل سعيد باشا على الاكثار من العمال المسخرين بدون مراعاة للاتفاق الأصلي .
فصارت تساق الآلاف من الفلاحين يحرسهم الجنود الى التربة ، حيث يشتغلون
طول اليوم تحت مراقبة حرّاس مسلّحين بالسياط . وكان عدد الذين يشتغلون في حفر
التربة لا يقل عن ٢٥,٠٠٠ عامل بدون أجر ، وينوب عنهم مثلهم في كل ثلاثة
أشهر ، وكانوا يعيشون على الشظف . وقد أودى بحياة الكثيرين منهم ما كانوا
سوء حالة عمال السخرة يقاسونه من الجوع والظما والعري وحرّ الصيف وقرّ الشتاء واجهاد الجسم والبؤس .

* هذه جزء من الاسهم التي اشترتها انجلترا عام ١٨٧٥ م من اسماعيل باشا بمشورة
« اللورد بيكونسفيلد » . وكان عددها ١٧٦٦٠٢ يبعث بمبلغ ٣,٩٧٦,٥٨٢ جنيه

وكان كلما هلك منهم أحد أتى بغيره من الفلاحين ، ولو تم مشروع حفر الترععة على حسب الاتفاق الأصلي لسبب نقصاً عظيماً في تعداد سكان البلاد

شاع هذا الأمر وأصبح من الفضائح حتى في مصر ، وتناولته السنة المعارضين لحفر الترععة وخاصة إنجلترا . وكان اللورد بالمرستون رئيس الوزارة الانجليزية في ذلك الحين يعارض في أمر تسخير الفلاحين ، لأنه من جهة يعتبره ضرباً من الاسترقاق ، ولأنه من جهة أخرى كان لا يريد أن يرى النفوذ الفرنسي يسود في مصر . لذلك أوعز الى السفير الانجليزي في القسطنطينية أن يحتاج على تسخير الأهالي في الأراضي العثمانية لفائدة شركة أجنبية

وبقى الحال كذلك الى أن تولى الخديوى اسماعيل باشا في رجب سنة ١٢٧٩ هـ اسماعيل يسمى في انقاص الامتيازات (يناير ١٨٦٣ م) ، ولم يكن للشركة لديه تلك الحظوة التي كانت لها عند سعيد ، فرأى أن ما نالته من الامتيازات مجحف بحجة حق مصر ، وشرع يعمل على الغاء شيء منها ، ولكي لا يكون سبباً في افلاس الشركة واغضاب الشعب الفرنسي وأمباطورهم نابليون الثالث أمدد الشركة بمعونة مالية ، بأن دفع لها مبلغ ٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه كان مستحقاً على سعيد باشا ثمناً لأسهم اشتراها عددها ١٧٧,٦٤٢ . الا أنه بقي مصمماً على حرمان الشركة من بعض مزاياها حتى طلب من الباب العالي في صفر سنة ١٢٨٠ هـ (يونيو ١٨٦٣ م) الموافقة على انقاص عدد العمال الذين يسخرون في حفر القناة وعلى أن ترد الشركة للحكومة المصرية ما منحه إياها سعيد باشا من الأراضي عام ١٨٥٦ م ، فصادف الاقتراح ارتياحاً من الباب العالي ولا سيما أن إنجلترا كانت تسعى لديه في انفاذه . فوافق عليه وهدد الشركة بتوقيف العمل ان لم ترض به وقد كاد يكون في ذلك القضاء المبرم على المشروع ، لأن الشركة كانت تعلق كل آمالها على جلب العمال من مصر بدون أجر ، وكان العمل لا يزال في مبدئه ، والشركة لم يكن في مقدورها أن تقترض مالا جديداً . ولولا ما بذله المسيو ديلبس مساعي ديلبس من الهمة والحزم لخاب المشروع : فإنه تمكن بمساعدة الامبراطورة يوجين وبميل الشعب

تحكيم نابليون الثالث
الفرنسي الى مشروعه من استجلاب مساعدة الحكومة الفرنسية ، نسباً سعى المجلترة في
ايقاف عمل السخرة في مصر الى حسدھا فرنسا ، فمالت اليه قادة السياسة الفرنسية ،
وانتهى الأمر بتحكيم الطرفين « الأمبراطور نابليون الثالث » في حل هذا المشكل
فناط الامبراطور الفصل في هذه المسألة بجماعة من رجال بلاده طبعاً ، فجاء الاتفاق
فوق ما كانت تأمل الشركة ، اذ ألزمت اللجنة المحكّمة اسماعيل باشا أن يدفع
للشركة غرامة قدرها ٣,٣٦٠,٠٠٠ جنيه نظير اخلاله بشروط الاتفاق الأصلي بشأن
أعمال السخرة وغيرها . فمن هذا المبلغ ١,٥٦٠,٠٠٠ جنيه نظير منعه الفعلة المصريين
المسخرين من حفر التربة ، و ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه لاسترجاعه الأراضى التى على ضفتى
القناة ما عدا ما عَرْضُهُ ٢٠٠ متر على كلا الجانبين ، و ٦٤٠,٠٠٠ جنيه فى مقابل
حفر ترعة الاسماعيلية . وقد تم دفع كل ذلك فى عام ١٨٦٩ م
بهذا الحل وباستبدال عمال مدرّبين بعمال السخرة أصبح مركز الشركة المالى
ثابت الأركان لا يُخشى معه على المشروع من أى عطلة تعترضه كما حصل ذلك من قبل
ومن هذا الحين أقبل الخديوى على المشروع : يعضده بكل نفوذه الأدبى ،
على المشروع ويفتخر بأنه القائم بأكبر مشروع ظهر فى القرن التاسع عشر
وعند ما قرب انتهاء العمل استعد اسماعيل باشا استعداداً عظيماً للاحتفال بفتح
الترعة فى شعبان سنة ١٢٨٦ هـ (نوفمبر سنة ١٨٦٩ م) ، فكان اكبر وأفخم احتفال
حدث فى الأزمنة الحديثة . وسنتكلم عليه فى موضعه عند الكلام على اسماعيل باشا
على أن معونة مصر المالية لم تقف عند هذا الحد . فان الشركة حصلت منها عام
١٨٦٦ م على مبلغ يربو على ٣,٠٠,٠٠٠ جنيه لنزولها لها عن أراضى الطميلات ،
وكانت قد اشترتها قبل ذلك بخمسة أعوام بنحو ٧٤,٠٠٠ جنيه . وفى عام ١٨٦٨ م
أخذت الشركة من الحكومة المصرية مبلغاً آخر يقرب من ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه لنزولها
عن بعض المباني التى أقامتھا فى منطقة القناة
مجموع النفقات أما نفقات حفر القناة فقد بلغت حسب المدون فى دفاتر الشركة ٨٨٢,٨٠٧,٣٣٢ ٤

اقبال الخديوى
على المشروع

بعض
ما انفقته مصر

مجموع النفقات

فرنكاً، أى نحو ١٧,٥٠٠,٠٠٠ جنيه . وقد قُدِّر مجموع ما أنفقته الحكومة المصرية في ذلك بنحو ١٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه

على أن المشروع لم يثمر ربحاً عقيب حفر الترعة . إذ كانت فائدته قاصرة على السفن الشراعية دون البخارية ، لأنه كان يتعذر على السفن البخارية العادية فضلاً عن بواخر البريد الكبرى أن تسافر الى الهند ، لعظم مقدار ما كانت تحتاج اليه من الفحم في ذلك الوقت . ولكن هذه الصعوبة ما لبثت أن تلاشت ، إذ اخترعت في ذلك الحين الآلات المركبة التي جعلت البواخر لا تحرق من الفحم إلا نصف ما كانت تحرقه قبل اختراعها . فنهل على هذه السفن الانتفاع بالقناة ، فأتسع نطاق التجارة المارة بالترعة ، وزادت قيمتها زيادة عظيمة

ومع كل ذلك أيضاً لم يأت المشروع بالربح الكافي ، لقلة قيمة الرسوم التي كانت تجبها الشركة (وكانت فئتها حينئذ ١٠ جنيهات على كل طن) ، وكثرة ما تنفقه على اصلاح القناة . فانحطت قيمة سهام الشركة سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ — ١٨٧٢ م) من ٢٠ جنيهاً الى ٧ جنيهات لكل سهم ، وتوقفت عن دفع أرباح المساهمين . فعقد لتلافي ذلك مؤتمر دولي بالقسطنطينية عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) نظري الأمر وخوّل للشركة زيادة الرسوم التي تجبها من السفن بقدر ٤٠ ٪ الى أن تصالح حالتها المالية . فحسن بذلك حال الشركة وأخذت في النجاح المطرد والتقدم المستمر

ومما يؤسف له ان مصر لم تستفد من نجاح ترعة السويس مطلقاً ، فانه فوق خسارتها القناطير المنقطرة من الأموال وارهاقها الفلاحين المصريين ارهاقاً عظيماً ، وفضلاً عن تحويل التجارة المارة بين اوربا والهند من داخل مصر الى طريق القناة مما أحدث نقصاً كبيراً في دخل سكك حديد الحكومة المصرية ، تنازلات لشركة فرنسية في سنة ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) عما كان يخصها من أرباح الشركة وقدره ١٥ ٪ ، في مقابل مبلغ حقير قدره ٧٠٠,٠٠٠ جنيه كانت الحكومة قد اقترضته من تلك الشركة ولم تقدر على سداذه ، فخرمت بذلك مصر من مصدر

قلة الربح في
اول الأمر

تأثير
الالات المركبة

زيادة الرسوم

عدم
استفادة مصر

دخل عظيم . ولم يتم لولاية مصر من انشاء الترعة شىء مما كان يمنيهم به ديلسبس من توطيد دعامة حكمهم واتساع جاههم وساطانهم . فترى مما تقدم كله انه لم يخسر من وراء انشاء هذه الترعة الا الأسرة المحمدية العلوية ومصر والفلاحون . والى سعيد واسماعيل وكثرة بذلها وسخائهما يرجع نجاح مشروع ديلسبس وايجاد تلك الفوائد الجليلة التى عادت على فرنسا وبرطانيا العظمى وغيرهما من البلاد

وكان تعدد مصالح الدول الاربعية فى الترعة مدعاة لجمعها على الحياد ، ولكن الدول أدخلت على الاتفاق الأصلى عدة تعديلات منذ ابرامه ، وربما عادت الى النظر فى أمر القناة بعد زماننا هذا

حياد القناة

الفصل الثالث

اسماعيل باشا

(١٢٧٩ — ١٢٩٦ هـ (١٨٦٣ — ١٨٧٩ م)

يعتبر اسماعيل باشا (ابن ابراهيم باشا) المتمم الحقيقى لأعمال محمد على والسائر باصلاحاته فى الطريق التى ابلغت مصر الغاية التى هى عليها الآن

تولى اسماعيل عرش مصر ومدارسها مغلقة ومشروعات محمد على مهملة ، فكان عمله فى كل شىء عمل المنشئ من جديد . ولو نظرنا الى مجموع ما تم فى عهده من الاصلاحات والأعمال الهامة لعلمنا مقدار ما كان عليه من الذكاء والنبوغ وما كان يرمى اليه من النهوض بمصر حتى يجعلها فى مستوى أرقى الدول الأوروبية

مكانة اسماعيل

فى تاريخ مصر

ومع أنه لم ينل حظاً وافراً من التعلم فى نشأته كان ما حصله من المعارف ، مضافاً الى ما فطر عليه من الذكاء وقوة الملاحظة ، كافلاً أن يقوم بعبء المشروعات الخطيرة التى أقدم عليها . وكل ما يُعلم عن تعلمه انه أرسل الى باريس فى الخامسة عشرة من

تربيته



اسماعيل باشا

(رسم على افندى يوسف — عن صورة بدار الكتب السلطانية)

عمره ، فتعلم بها اللغة الفرنسية حتى صار يتكلمها بطلاقة . وفي أثناء اقامته ساح كثيراً في أوروبا ، وبقوة ملاحظته وقف على كثير من الأمور الاجتماعية وغيرها من أسباب الحضارة الأوروبية . ولم يُربَّ تربية خاصة توهله لتولى الملك (كما تربى سعيد من قبله) اشتغاله بالزراعة اذ لم يكن يخطر بالبال حينئذ انه سيتولى عرش مصر يوماً ما ، لأن ولاية العهد كانت لأخيه احمد اكبر أمراء الأسرة ، ولذلك بقي اسماعيل مشغولاً بمزارعه بعيداً عن

حاشية سعيد حتى مات أخوه في حادثة كفر الزيات* ولم يغير كثيراً من خطته بعد مماته

كفأته وآماله جلس اسماعيل على أريكة مصر في ٢٨ رجب سنة ١٢٧٦ هـ (١٨ يناير سنة ١٨٦٣ م) وكان عمره اذ ذاك ٣٢ سنة ، فلم يلبث ان ظهرت فيه كفأة عظيمة ورغبة شديدة الى رفع شأن البلاد وترقيتها بادخال كل الاصلاح الذي يراه . وودياً الى ذلك . ومع الاعتراف بأن السرعة التي سار بها في سبيل هذا الاصلاح والانفاق عن سعة في كل شيء أديا الى استدانته من اوربا القناطير المقنطرة من الذهب التي تضاعفت هي وفوائدها حتى وصلت في أواخر أيامه الى عبء ثقیل لا حول ولا قوة للبلاد على احتماله مما أوجب تدخل الدول الأوروبية في شؤون مصر ، قد يُغتفر له ذلك اذا راعينا مقدار ما قام به من الاصلاح ، ولاحظنا ان سعيداً قد فتح له من قبل باب الاستدانة المشؤم ، اذ مات وهو مدين بمبلغ ١٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه

اهم اعماله وتلخص أهم أعمال اسماعيل في مصر فيما يأتي :

(١) الفصل في أمر وراثۃ العرش وحصرها في أكبر أولاد الوالى والحصول على لقب خديوى

- (٢) الاصلاحات الادارية وتأييد الاستقلال الداخلى
- (٣) الاصلاحات القضائية ومساواة جميع الناس أمام القانون المدنى المختلط
- (٤) التعليم العام
- (٥) منع الرقيق
- (٦) القاء المؤاخذه (المسؤولية) على النظر وتشكيل مجالس شورى النواب
- (٧) توسيع منابع الثروة للبلاد بتنمية الزراعة وبالمشروعات العامة
- (٨) توسيع نطاق الأملاك المصرية
- (٩) اتمام مشروع ترعة السويس (أفاد العالم في مجموعه وان أضرب مصر في ذاتها)

* غرق قطر السكة الحديدية عند قنطرة كفر الزيات وكان يقل الامير احمد وغيره من امراء الاسرة من الاسكندرية الى القاهرة

١ - * وراثة العرش *

بعد أن تولى اسماعيل ببضعة أسابيع زار مصر السلطان « عبد العزيز » ، فكان أول من زارها من سلاطين آل عثمان من عهد سليم الأول . فاحتفل به اسماعيل باشا احتفالاً كبيراً ، واجتهد في أن تكون هذه المقابلة فاتحة لعلاقات ودية بينه وبين الباب العالي . وبعد أن عاد السلطان الى الاستانة أخذ اسماعيل باشا يسعى سراً للحصول على أغراض يرمى اليها لتعزيز ملكه ، واستعان على نيلها بالمال كما وجد الى ذلك سبيلاً . فسعى لدى الباب العالي في شأن تغيير القانون الصادر به تقليد سنة ١٨٤١ م بشأن وراثة عرش مصر . وهذا القانون يقضى بأن يوول العرش لأكبر فرد في الأسرة بشرط موافقة الباب العالي

فلما رأى اسماعيل أن ذلك ربما يحدث فتناً بين أفراد الأسرة من أجل العرش ، سعى اسماعيل بالسعى لدى الباب العالي ، أو يقتل بعضهم بعضاً ، طلب الى الباب العالي أن يجعل الوراثة لأكبر أولاد الخديوى بلا شرط ولا قيد ، ليحسم كل نزاع بين أفراد الأسرة في هذا الشأن . فلم يقبل الباب العالي ذلك في أول الأمر ، لعله أنه ينقص من نفوذه في مصر ، فان هذه المزية لم تتمتع بها الأسرة المالكة في تركيا نفسها وزار اسماعيل القسطنطينية وسعى بنفسه في الأمر فلم يفلح ، ولكن عزيمته لم تقتر ، وذهب اليها في زيارة أخرى أجزل فيها العطاء فنال مراده ، وأصدر الباب العالي عهداً يجعل الوراثة في أكبر أنجال الخديوى في ١٢ المحرم سنة ١٢٨٣ هـ (٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ م) ، وذلك في مقابل زيادة الجزية التي تدفعها مصر من ٣٢٠,٠٠٠ الى ٦٠٠,٠٠٠ جنيه

وسعى أيضاً اسماعيل باشا لدى الباب العالي لمنحه لقباً أرقى من « الباشا » المعتاد نيل لقب خديوى وكان غرضه من ذلك تثبيت امتياز مصر عن باقي ولايات الدولة ، وهو ذلك الامتياز الذي حصله محمد علي بتقليد سنة ١٨٤١ م . فمنحه السلطان لقب « خديوى » في

السلطان
عبد العزيز
في مصر

سمى اسماعيل
في تغيير
تقليد الوراثة

فوزه

ربيع الأول سنة ١٢٨٤ هـ (يولييه سنة ١٨٦٧ م) . وهو لفظ فارسي الأصل معناه الأمير العظيم ، وكان يمنحه الفرس لحاكم الهند في عهد حكمهم لها . وبعد فإزال الخديوى يسمى لدى الباب العالى فى اكتساب امتيازات جديدة بفضل ما كان يبذله من المال ، حتى أصدر الباب العالى فى ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) عهداً مثبتاً كل الحقوق التى منحها للخديوى بمقتضى العهود السابقة . وبهذا العهد أيضاً اعترف الباب العالى باستقلال الخديوى استقلالاً تاماً بشؤون مصر الداخلية ، وأذن له بأن يعمل بدون استشارته فى قرض الديون وعقد المحالفات التجارية وغيرها مع الدول الأجنبية ، ما دامت تلك المحالفات لا تناقض مصلحة الدولة ولا مخالفاتها السياسية مع الدول ، وإن يزيد جيشه حسب ما يراه صالحاً ، على شرط أن لا يكون فى أسطوله مدرعات . وقد زادت الجزية المصرية فى مقابل ذلك الى ٦٦٥,٠٠٠ جنيه ولا شك أن مثل هذا العهد كان من الممكن أن يعود على مصر بأعظم الفوائد ، اذ يكون من اكبر الدواعى التى تحمل كل خديوى لمصر على أن يسهر على ما فيه صالح البلاد ، كى يترك وراءه ملكاً منظماً ثابت الأركان

مزايا
التقليد الجديد

٢ — * الاستقلال الداخلى والإدارة *

لم يكن هم اسماعيل باشا قاصراً على الوصول الى جعل الوراثة لا كبر أنجال الخديوى ، بل كان يبذل همه فى أن يُمنح استقلالاً إدارياً يتصرف به فى شؤون البلاد الداخلية ، اذ كان أعظم غرض له فى الحياة أن يوثق عرا الارتباط بين مصر وممالك الغرب المتمدينة . والوصول الى ذلك محال ما دام الباب العالى صاحب النفوذ والسلطان فى البلاد ، اذ كان يخشى ان يعترضه فيما يقدم عليه من المشروعات . وأى فائدة تجنيها البلاد وأى عمل عظيم يمكن لأقدر حاكم أن يقوم به اذا كانت يده مغولة فى شؤون البلاد الداخلية ؟

مزايا الاستقلال
الداخلى

لذلك قضى اسماعيل سنوات عديدة من حياته يبذل فى أنشائها المال الوفير للوصول

سعى اسماعيل

الى ضالته المنشودة ، حتى منحه الباب العالى استقلالاً داخلياً فى عام ١٢٩٠ هـ .
نيل الاستقلال الداخلى

(١٢٧٣ م) بمقتضى العهد السابق الذكر

ولما أصبح اسماعيل صاحب النفوذ والسلطان فى مصر أخذ ينظم ادارتها الداخلية .
فأدخل فى البلاد جملة اصلاحات لم يأت بها وال تولى الشؤون المصرية قبله . فأعاد اصلاح الادارة
نظام الادارة الذى وضعه محمد على وأهمل فى عصر عباس باشا الأول بعد ان أدخل
فيه بعض الاصلاحات ، ثم رتب نظام المكوس ترتيباً متقناً ، واشترى ادارة البريد
المصرى من شركة ووضعها تحت سيطرة أحد مهرة الغربيين (كما سيأتى ذكره بعد) ،
وقسم القطر الى أربع عشرة مديرية ، وحسّن طرق الاتصال والقضاء وغير ذلك مما
سنتكلم عليه فيما بعد

٣ - * الاصلاحات القضائية ومساواة جميع الناس أمام القانون *

كان أهم مشروع داخلى وجه اليه اسماعيل باشا عنايته اصلاح القضاء وجعله مستقلاً
عناية اسماعيل
باصلاح القضاء
عن الادارة ، ونشر العدل وكان من قبل معدوماً ، لأن القانون الذى وُضع فى عهد
محمد على لم يغير من النظام القديم شيئاً وكان حبراً على ورق . فأراد اسماعيل باشا
أن يؤسس المحاكم المختلطة ليتساوى الجميع أمام القانون ويكون الأجنبى والوطنى فى
مستوى واحد . وكان غرضه أن يقضى على المحاكم (القنصلية) والامتيازات الأجنبية ،
بشرط أن يتكفل الأجانب بكل ما يضمن راحتهم

ولم تكن هذه الفكرة بنت يومها ، بل كانت مختصرة عند الخديوى قبل أن يتولى
عرش مصر ، فلما مات أخوه احمد فى حادثة كفر الزيات ، وأصبح هو الوارث للملك
تفرغ لدرس الاصلاحات القضائية . ورأى أثناء ذلك ما كان للأجانب من الامتيازات ،
فعرزم على أن يغير ذلك تغييراً تاماً ، فيكون أول من خطا خطوة فى سبيل المساواة ،
ونشر العدالة بين رعاياه

فلما تولى الملك لم تساعده الأحوال فى أول أيام حكمه على تخليص البلاد من هذا

رغبته فى
المساواة
بين رعاياه

النظام الرديء ، اذ كان منصرفاً بكل قواه الى تحصيل عهد الوراثة والاستقلال
الداخلي من الباب العالي

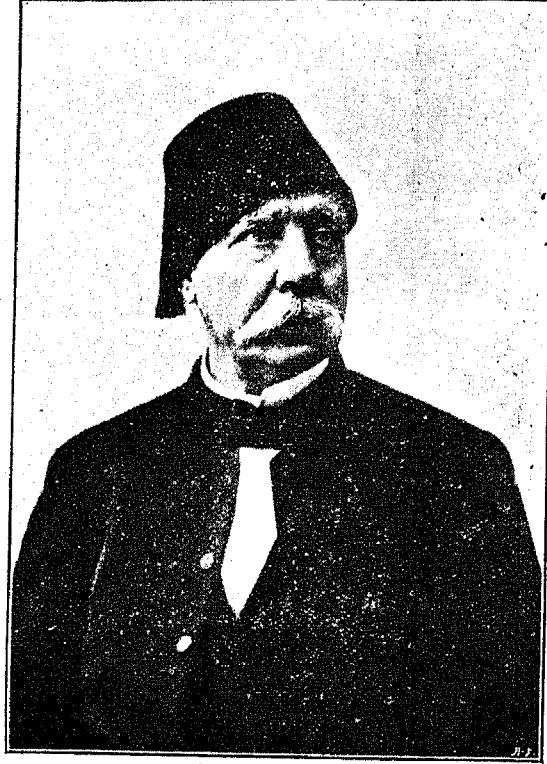
استشارة فرنسا ولما سنحت له الفرص في عام ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) فاتح الوزارة الفرنسية في هذا
الصدد ، ففاوض نوبار باشا « المسيو موسير » وزير خارجية فرنسا في هذا المشروع
حسب ارادة الخديوى . فعقدت لجنة في باريس كان الغرض منها فحص التغيير
الذى يريد نوبار ادخاله في القانون . فكانت هذه أول خطوة في سبيل انشاء
المحاكم المختلطة

معارضة الدول وقد ساعد الخديوى أيضاً في تحقيق أمنيته هذه بعض وزرائه ، وأولاهم بالذكر
شريف باشا ورياض باشا ونوبار باشا ، غير ان معظم نجاح المشروع يرجع الى الأخير*
اذ قضى سبعة أعوام من حياته في كفاح مع دول أوربا حتى أفلح أخيراً في تأسيس
هذه المحاكم التى مع ظهور بعض الفائدة منها لم تأت بكل ما كان مؤملاً فيها

وأتا نشك في ان اسماعيل باشا كان يعرف كل النتائج التى تنجم من هذا التغيير ،
فانه كان يريد بالمحاكم المختلطة القضاء على نفوذ محاكم السفارات التى كان يظهر انها
تتقضى على شئ من سلطته الفردية ، لا عليها كلها كما فعلت هذه المحاكم وبرهنت
عليه الحوادث ، اذ اتضح له أخيراً ان سلطة هذه المحاكم تعلو سلطته ، لأنها أصبحت
تفصل فى كل القضايا حتى التى على الحكومة وعلى شخصه نفسه ، بل كانت من اكبر
العوامل على عزله . ومع ما كان فيها وقت انشائها من النقائص كانت أكثر فائدة
من محاكم الأقسام التى كان يفصل حينئذ في قضاياها المدير أو ناظر القسم : يدلك
على ذلك ان كثيراً من الأهالى كانوا يفضلون الفصل فى قضاياهم أمام المحاكم المختلطة

* كان نوبار باشا من أنجب رجال عصره : رباه قريه بغوص باشا من مستشارى محمد على
تربية سياسية فكان يحسن معظم لغات أوربا قراءة وكتابة ويلم بكل الاحوال الادوية ومع كونه
ارمنياً مسيحياً استطاع أن يتقدم ثلاثة من ولاية مصر مدة عشرين عاماً حائزاً لكل رضاهم الى
ان غضب عليه اسماعيل باشا . وكانت خاتمة اصلاحاته تأسيس المحاكم المختلطة التى نحن بصدها

على محاكم الأقسام التي كان كل من المدير وناظر القسم يستعمل السوط في تحقيق قضاياها ثم لا يفتح في تحقيق قضية واحدة من بين خمسين



نوبار باشا

وقد لاقى نوبار باشا الصعوبات الجمة في ارضاء كل من الأهالي والأجانب ، مساعى نوبار وخصوصاً سفراء الدول الذين رأوا ان تأسيس هذه المحاكم يكون من ورائه محو سلطتهم في البلاد . وكانت فرنسا اكبر معارض لانشاء هذه المحاكم على حسب التغييرات التي اقترحها نوبار باشا . في حين ان انجاعة كانت اكبر عضد له فيها ، اذ رأت ان النظام المتبع حينئذٍ مضرّ بكل من الأهالي والأجانب ، ولذلك كانت رأى الدول تصرح دائماً بأنها مستعدة لمعاضدته . أما الباب العالي فانه رغم معاوضة انجاعة

رأى الباب العالي والعلماء المشروع ورغبة معظم الدول الأوروبية فيه ، وضع العقوبات في سبيل انفاذه بعله انه مخالف للشرع . فأبى السلطان والعلماء في القاهرة ادخال هذا الاصلاح الذى يعد

افتياتاً على حقوقهم ، وأعلن العلماء في القاهرة ان مثل هذا التغيير لا يتفق مع الدين الحنيف . فعزل اسماعيل باشا المفتى الذى أفتى بذلك ، واستبدل به آخر وافق على

انشائها . ومن هذه اللحظة لم تجب أى معارضة من هذه الناحية

وبعد ان انتهى من معظم المعارضات شكّل هذه المحاكم في ذى الحجة

سنة ١٢٩١ هـ (أول يناير سنة ١٨٧٥ م) الاّ انها لم تفتح أبوابها الاّ في شهر المحرم

سنة ١٢٩٣ هـ (فبراير سنة ١٨٧٦ م) ، وذلك للعراقل التى كانت تضعها فرنسا

وقد أسس من هذا النوع ثلاث محاكم من الدرجة الأولى: في القاهرة والاسكندرية

والمقصورة ، ثم محكمة استئناف عليا بالاسكندرية

وهذه المحاكم تفصل في القضايا المدنية وبعض المخالفات التى يكون فيها أحد

الخصمين أو كلاهما من الأوربيين أو الأمريكانين المختافى الجنسية . أما اذا كان

الخصوم من الأجانب المتحدى الجنسية فالمحكمة لا تفصل في النزاع الاّ اذا كان

موضوعه عقاراً . وهى مستقلة تماماً عن الحكومة ، وتُعين القضاة بها اثنتا عشرة دولة

من دول اوربا والولايات المتحدة ، ويجدد هذا النظام في كل خمسة أعوام مرة . وهى في

مصر أشبه في الحقيقة بمملكة صغيرة . ولقضاتها الحق في شرح القانون وتقرير ما لهم

من السلطة . ولا توجد هيئة تشريعية معتبرة يرجع اليها اذا تعدت هذه المحاكم حدود

اختصاصها . وغاية ما تستطيع الحكومة المصرية عمله في هذا الصدد ان تفاوض الدول،

حتى اذا اتفقت جميعاً على رأى عميد الى تعديل القانون

٤ — * التربية والتعالم *

رأى اسماعيل باشا كما رأى جده العظيم محمد على من قبله انه لا يتسنى له القيام

باصلاحاته ومشروعاته الخطيرة في البلاد الا بتعليم أبناء الأمة ، وان اختلفت أغراض

مساعى محمد على واسماعيل

كل من الرجلين . فكان الغرض الأول لمحمد على من التعليم أن يكون عدداً عظيماً الفرق بينهما من الضباط والموظفين ليساعده في ادارة شؤون البلاد ، أما اسماعيل فقد غرست فيه تربيته الأوربية مبادئ حب العلم والتعليم ، فأراد أن ينشر العلم لذاته بين جميع طبقات الأمة . لذلك وجه شطراً عظيماً من عنايته الى هذه الوجهة . وكانت الأحوال مساعدة له ، لخصب مدارك المصري وقوة حافظته التي لا تضارع في أكثر الشعوب ، ولما له من المجد الأثيل والباع الطويل والميل القديم للعلوم والمعارف : يشهد بذلك جامعة الاسكندرية في عصر البطالسة ، والجامع الأزهر الذي يؤمه آلاف الطلاب من جميع بقاع العالم الاسلامي

وقد ساعد الحظ اسماعيل ، اذ وجد في خدمته نخبة من أكابر الغربيين ، نهضوا بالتعليم ورقوه ، ونوثر بالذكر منهم « دور بك » و « كلوت بك » و « روجرز بك » . وكان لبعض نظار الحكومة فضل عظيم في هذه النهضة ، وبخاصة « شريف باشا » و « رياض باشا » و « علي مبارك باشا » الذي سار بالتعليم شوطاً بعيداً ، وكان له القدح المعلى في نهضة البلاد الحديثة

ولا يفوتنا ان الفضل كل الفضل راجع طبعاً الى رئيسهم الاكبر الخديوى اسماعيل . قانون رجب فأول عمل قام به انه أصدر قانوناً في ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) كان سنة ١٢٨٤ هـ الغرض منه وضع أساس منهج قويم للتعليم في جميع أنحاء القطر . وقد ظهرت فائدته ، اذ زاد عدد التلاميذ في مدة وجيزة الى ٥٢,٠٠٠ تلميذ يتعلمون في ١٣٠١ معهد ، ثم ازداد بعدها عدد التلاميذ الى ١٤٠,٩٧٧ وعدد المدارس الى ٤,٨١٧ ، وكان في القاهرة وحدها ما يزيد على ٢٩٥ مدرسة بلغ عدد تلاميذها ١٠,٠٠٠ تلميذ . عدا طلبة الأزهر الشريف والمعاهد الأجنبية والمعاهد التابعة للأوقاف والمدارس الحربية لتعليم الجيش الذي كان يبلغ اذ ذاك ثلاثين ألفاً *

* وقد قارن المستر (ادون دى ليون) في كتابه عن الخديوى عدد المتعلمين في مصر من الشبان الذين في سن التعليم بنظرائهم في اوربا في ذلك الحين فقال : « ان نسبة المتعلمين في مصر تبلغ ٢٣ ٪ ، على حين انها تبلغ في الدولة العثمانية ١٠ ٪ وفي روسيا ٣ ٪ وفي ايطاليا لم تتجاوز ٣١ ٪ »



على مبارك باشا

وأهم مدارسها العالية والخصوصية مدرسة الهندسة ، ومدرسة الطب والولادة ، ومدرسة الحقوق ، ومدرسة الفنون والصنائع ، ومدرسة اللغة المصرية القديمة ، ومدرسة الألسن والمعلمين (قلم الترجمة) ومدرسة دار العلوم (المعلمين الناصرية) . وكان التعليم في كل هذه المدارس بالرغبة ، لا بالاكراه كما كان في عصر محمد علي

اهم المدارس
الخصوصية
والعالية

ولا يتسرب الى ذهن القارئ ان كل هذه المدارس أسسها اسماعيل باشا ، بل وضع الحجز الأساسي للكثير منها محمد علي باشا ، كمدرسة الطب التي شيدها في عام ١٢٤٢ هـ (١٨٢٧ م) كما أسلفنا من قبل . غير ان الفضل يرجع الى الخديوى في تنظيم هذه

المدارس وزيادة ميزانية نظارة المعارف ورفعها أولاً من ستة آلاف جنيه في عهد
سعيد الى أربعين ألف جنيه . ثم وقف عليها أراضى الوادى بعد ان اشتراها ثانية
من شركة قناة السويس

وكان غرض اسماعيل باشا من قانون رجب سنة ١٢٨٤ هـ نشر التعليم وتوحيد
نظامه في جميع أنحاء البلاد مع مراعاة ما يلائم كل طور من أطوار الدراسة . فكان
لا يجهد عقول التلاميذ في الطور الأول بالمواد التى لا فائدة لهم منها ، بأن جعل التعليم
في المدارس الابتدائية قاصراً على مبادئ الكتابة والقراءة ، وخص المدارس التجهيزية
بمن كان يريد التقدم في مضمار التعليم . أما المدارس العالية والخصوصية فكان يتعلم
فيها الطلاب كل العلوم الدراسية وفيها اللغات . وكان يُترك لهم الحرية في اختيار
اللغة التى يتعلمونها بشرط أن يتعلموا اللغتين العربية والتركية . وكان طلاب المدارس
الخاصة على قسمين : قسم يتعلم على نفقته الخاصة ، والآخر على نفقة الحكومة ،
ولذلك كان يتحتم على هؤلاء أن يخدموا في وظائف الحكومة مدة معينة . وكان
ينتخب أحسن الطلاب لمدرسة الهندسة ومدرسة الطب ، وحمالة التلاميذ تذهب الى
المدارس الحربية . وفي ذلك اجحاف عظيم بالمجتهدين من الطلبة ، لأن معظم الترقية
كانت في الجيش

ولا شك ان هذا القانون الذى يشمل أربعين مادة وضع أساساً متيناً للتعليم في
البلاد ، إلا ان الحاجة الى المال والرجال كانتا حجر عثرة في طريق تنفيذه ، اذ
أخذت الحكومة على عاتقها عدة أعباء ثقيلة ، فكانت تعلم التلاميذ مجاناً ، وتكفل
بطعامهم وملبسهم ، وتعطيهم رواتب شهرية ، ولذلك كان الآباء أحياناً يمنعون أبناءهم
من الذهاب الى المدرسة اذا قصر أولو الأمر في شىء من النفقة . وربما كان للفلاح
عذر في ذلك ، فان حالته الأدبية كانت منحلة ، وربما كان غير قادر على دفع
نفقات التعليم لما كان يعانيه من دفع الضرائب الفادحة والسخرة
وقد شجع الخديوى أعيان الأمة على تعليم أولادهم ، فوضع لهم مثلاً ليحذوا حذوه

الحديوى يضع
مثالا للأمة

بأن نعى بترية أنجاله وأمرأ أسرتة . فانه عند توليته نقل مدرسة « المنيل » الى قصر عابدين بعد ان كانت بجيزة الروضة ، وكان يتعلم بها مع الأمراء ستون تلميذاً من أبناء الأهالى ، فلم يفرق فى المعاملة بين الفريقين ، وكان من المحتم على الأمراء تمضية الامتحانات كغيرهم من التلاميذ *

مدرسة للبنات

ولم تقف همته عند تعليم الشبان من أبناء الأمة ، بل وجه عنايته الى تعليم البنات أيضاً . فأسس مدرسة لذلك الغرض تحت رعاية احدى زوجاته على نفقتها الخاصة . وكان الغرض منها تعليم البنات المصريات الواجبات المنزلية ، حتى يستغنين عن الإماء والعبيد ، فكانت هذه أول مدرسة من نوعها فى كل بقاع الدولة العثمانية

اوجه نقص التلميم

غير انه كان فى هذه المدارس بعض العيوب : فمنها قلة الأساتذة الأوربيين الذين يحسنون العربية ، اذ لا يخفى ما فى لقاء المحاضرات بواسطة مترجم من النقص . ومنها ان المعلمين الوطنيين كان ينقصهم أشياء كثيرة أخصها معرفة طرق التعليم ، فكان لا همّ لهم الا إثناء حافظة التلاميذ ، وهذه بلا شك طريقة عقيمة تذهب بكثير من ثمرات التعليم

دار الكتب

عظم مشتملات
دار الكتب

ولا يفوتنا عند الكلام على التعليم أن نذكر ان الفضل فى انشاء دار الكتب الحالية يرجع الى همة الحديوى اسماعيل اذ جمع لها كل ما وصلت اليه يده من الكتب المنسوخة باليد والمصاحف المزخرفة التى كانت مبعثرة فى جميع أنحاء البلاد ، ولا ريب ان هذه المجموعة لا تقل فى بابها عن مجاميع لندن وباريس وتورين . على ان المجموعة الفارسية التى فيها لا يوجد لها نظير فى العالم بأسره

* وبعد فترة ألحقت هذه المدرسة بمدارس العباسية التى تمت فى عهد شريف باشا ناظر المعارف فى ذلك الحين حتى صار بها قسم ابتدائي يبلغ عدد تلاميذه ١٢٠٠ وقسم تجهيزى بلغ عدد تلاميذه ٧٠٠ بينهم أمراء الاسرة الحديوية . عدا ثلاث مدارس أخرى ومدرسة للهندسة ومدرسة للمعلمين . وكان يجمع الجميع بناء واحد ضخم

واشترى اسماعيل باشا مجموعة الكتب التي كانت عند أخيه الأمير مصطفى باشا فاضل بمجموعة الأمير بعد مماته بمبلغ ٤٠,٠٠٠ جنيه وأهداها الى دار الكتب فاسماعيل باشا يُعتبر بما قام به ، وبما تم في عصره من التعليم والنهوض بالأمة ، من أعظم المشجعين للنهضة الحديثة بالديار المصرية

دار الآثار المصرية

لا يكاد يوجد في العالم أرض تضارع مصر في كثرة آثارها القديمة ونفاستها ، إلا أن هذه الآثار كانت الى أواخر أيام محمد علي باشا مهملة : لا يهتم بها ملوك مصر ، ولا يفترقناصل الدول الأجنبية وتجارها عن تبديدها وتهريب ما وصلت اليه أيديهم منها الى بلادهم . فلما قدم شمبليون مصر لدرس النقوش الهيروغليفية عرض على محمد علي باشا عام ١٨٣٠ م انشاء مصلحة لحفظ العاديات المصرية ، ولكن الباشا لم يعمل بنصيحته وقتئذ ، بتحريض قناصل الدول وتصويرهم مشروع شمبليون بأشنع مشروع شمبليون صورة لأغراضهم الشخصية

غير ان نصيحة شمبليون تركت أثراً في نفس محمد علي ، فأصدر أمراً بعد ذلك دار الآثار بخمس سنوات بمنع تصدير الآثار واقامة حراس عليها . وفي ربيع اثنائي سنة ١٢٥١ هـ بالازبكية ١٨٣٥ م (اغسطس سنة ١٨٣٥ م) أنشأ مصلحة للآثار أمام بركة الأزبكية للمحافظة على العاديات والبحث عنها في أنحاء البلاد . ولم تكن أعمال هذه المصلحة منتظمة في أول أمرها ، وبقيت كذلك الى سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) اذ أصدرت نظارة المعارف (التي كانت المصلحة تابعة لها حينئذ) أمراً الى « لينان بك » بعمل فهرست للآثار وجمعها في مكان واحد . إلا أن ذلك لم يضرب على أيدي السرقة والمبشرين ، حتى انه لما نقلت الآثار الى القلعة لم تشغل بها إلا حجرة واحدة

وفي سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٥٠ م) قدم الى مصر رجل من أذكاء الفرنسيين المشتغلين بالآثار يدعى « الميسيو مريت » (مريت باشا فيما بعد) أوفدته حكومته

اول قدوم مريت الى وادى النيل لمشتري مخطوطات قبطية ، فعدل عن ذلك وعكف على درس آثار سقارة حتى كشف بها السرايوم . ولم تكن له علاقة رسمية بمصلحة الآثار وقتئذ ، ولكنه لشغفه بالآثار والمحافظة عليها ساعد الحكومة كثيراً حتى زادت محتويات دار العاديات زيادة عظيمة بين سنتي ١٨٥٣ — ٥٤ . ولكن ما لبثت أعماله ان ذهبت أدراج الرياح ، اذ زار مصر في عام ١٢٧١ هـ (١٨٥٥ م) « الأرشدوق مكسيمليان » النمساوي ، فطلب من عباس باشا الأول أن يهديه شيئاً من العاديات المصرية فسمح له بأن يأخذ كل ما أراد من القلعة ! واذا شاء أحد أن يعرف ما كانت تحويه دار عاديات القلعة فما عليه إلا أن يذهب اليوم الى فينا

أما الميوس « مريت » فإنه بقي مشغولاً بالآثار المصرية ، باذلاً وسعه في أن تكون له صفة رسمية فيها حتى يضمن ثمرة أتعابه ، فتم له ذلك في ذى القعدة سنة ١٢٧٤ هـ (يولييه سنة ١٨٥٨ م) ، اذ جعله سعيد باشا بتوسط الميوس ديلسبس مأموراً لأعمال العاديات بمصر

وقد لاقى في أول الأمر مصاعب حمة في تنظيم الآثار وإدارة حركتها ، قللة المال وأعدم ثبات سعيد باشا على مؤازرته ، اذ كان أحياناً يأمر بتوقيف أعماله . ولكن مريت بقي مثابراً على بحثه ، متنقلاً طول النهار بين المصانع والطلال ، حتى أخذت دار العاديات تمتلئ بسرعة ، وسمح له سعيد باشا بنقلها الى مخازن أعدت لها في بولاق

ثم مات سعيد باشا ومشروع مريت في نشأته ، فحزن كثيراً وخشى أن لا يلقى من اسماعيل باشا ما لاقاه من سعيد من المؤازرة ، ولكنه ما لبث ان وجد من اسماعيل باشا أكبر عضد لمشروعه ، فأمر في الحال باصلاح مخازن بولاق وتوسيعها وافتتحها بمحفلة رسمية في ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٨٠ هـ (١٨ أكتوبر ١٨٦٣ م)

ثم بقيت دار العاديات سائرة في طريق التقدم بفضل معاضدة اسماعيل باشا ومثابرة مريت ، ولما أقيم معرض باريز عام ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) نُقل أجمل ما فيها الى في معرض باريز فرنسا لعرضه بالمعرض فكان موضوع اعجاب الفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين .

معهنته

لسعيد باشا

أعماله وهو

مأمور الآثار

معاضدة اسماعيل

للمشروع

افتتاح محل

بولاق رسمياً

لذلك طلبت « الامبراطورة يوجيني » من اسماعيل باشا أن يبق العاديات بباريز
لاهدائها لفرنسا ، فكاد يجيب طلبها لولا مقاومة مريت باشا

العسر المالى
وفىضان النيل

أفلت العاديات من هذه الأزمة فوقعت بعدها فى ضيق شديد للعسر المالى الذى
أخذ يخناق الحكومة فى ذلك الوقت . وفى سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) فاض النيل
على أماكن بولاق وكاد يغرق الآثار . فعنى مريت بحفظها فى صناديق وبقى محافظاً
عليها حتى أعيد افتتاح الدار بعد هبوط النيل

وبقى مريت مثابراً على تنظيم دار العاديات المصرية واصلاحها حتى مات فى مثابة مريت



مریت باشا

صفر سنة ١٢٩٨ هـ (يناير ١٨٨١ م) وهى تضارع أعظم دور العاديات الأوربية
 وفى عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩١ م) نقلت دار الآثار الى الجزيرة ، فبقيت بها الى عام
 ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢) اذ نُقلت الى مكانها الحالى قرب قصر النيل
 ودفن مريت باشا بناووس فى دار الآثار المصرية لا يزال الى الآن بها يستقبل
 القادم عليها

٥ - منع تجارة الرقيق

بعد ان بذل اسماعيل باشا جهده فى تأمين الأمة على نفسها ومالها ، وسأوى بين
 أفرادها أمام القانون ، وبذل جل طاقته فى رفع شأن الأهالى بالتعليم ، رأى ان من
 الكرامة والرحمة ان لا يتغاضى عن تجارة الرقيق فى داخل بلاده . فلم يكتفِ بمنعها
 على الورق كما فعل من قبله محمد على باشا وسعيد باشا ، بل عزم عزمًا أكيداً على
 اقتلاع أصول هذه المهنة والقضاء عليها ما استطاع الى ذلك سبيلاً . ولما كانت هذه
 المهنة عادة متأصلة فى كل البلاد ، وكان الدين الاسلامى بل كل الشرائع السماوية
 لا تمنع بيع الرقيق بشروط خاصة ، صادف اسماعيل باشا صعوبات جمة فى سبيل
 تحقيق أمنيته وتنفيذ عزمه

صعوبة منع
 بيع الرقيق

وكان أول من لفت نظر الأمم المتمدينة الى الفظائع التى تُرتكب فى أواسط
 افريقية من جراء هذه المهنة كبار المستكشفين من الانجليز ، فخص بالذكر منهم
 « ليفنجستون » و « بيكر » و « اسنانلى » ، اذ كانوا يروون عن ذلك الحكايات التى
 تفتت الاكباد وتدمى القلوب ، لما كان يقاسيه أهل تلك البلاد من الذل والهوان
 وأنواع العذاب . ومهما بالغ الانسان فى وصف هذه الفظائع فانه لا يمكنه أن يفهم
 حالة العبيد والاتجار فيها الا اذا قرأ كتاب « الاسماعيلية » أو كتاب « ألبرت نيازنا »
 اللذين وضعهما « السير صمويل بيكر » فى هذا الصدد . ويكفى أن نقول هنا ان

المستكشفون
 الانجليز

فظائع
 تجار الرقيق

جلّابى العبيد خربوا بلاد السودان ، بصيدهم ما لا يقل عن خمسين ألف زنجى فى تخريب السودان كل عام تحت ستر الاتجار فى العاج

وأول من فكر فى القضاء على هذه الحرفة المشؤومة بالفعل ولى عهد انجلترا فى اسماعيل يعمل ذلك الوقت ، اذ عرض على الخديوى أن ينوط بالسير صمويل بيكر محو الاتجار بمشورة ولى بالرقيق على النيل الأبيض وتوطيد النظام فى السودان . فرحب الخديوى بهذا الاصلاح ، وعزم على ان يضرب بسهم صائب فى احشاء هذه السلعة بالرغم من معارضة رعيته وعدم ميلهم لذلك

ولا شك ان تحريم الاتجار فى الرقيق صادف قبولاً حسناً فى نظر دول اوربا كثرة النفقات العظام ، الا أنه أثقل عاتق الحكومة المصرية بما كلفها من النفقات ، اذ أنفق بيكر وحده فى هذا السبيل نحو ٥٠٠,٠٠٠ جنيه . ولم يجد اسماعيل باشا معضداً له من بين رعيته الا شريف باشا ونوبار باشا والأنجال والأمرء . أما باقى الرعية فكانوا ينظرون الى المشروع شزراً

وأول أعمال السير صمويل بيكر فى هذا السبيل ان الخديوى عهد اليه سنة ١٢٨٦هـ (١٨٦٩ م) بالاستكشاف عن الجهات التى قرب منابع النيل الأبيض وضمها الى استكشافات بيكر الحكومة المصرية ، فخرج بحملة مصرية الى اقليم خط الاستواء ، ثم زحف بها حتى بلغ بلدة « جندوكورو » والبلاد الواقعة على بعد درجتين شمالى خط الاستواء ، وأعلن رسمياً إلحاق المقاطعات الاستوائية بالحكومة المصرية سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١ م) وكان أينما حل يؤسس باسم مصر نقطاً عسكرية لمنع تجارة الرقيق ، أهمها نقطة « التوفيقية » . وكان بالسودان فى ذلك الوقت عدة بيوت تجارية كبيرة لمقل البضائع من أطراف السودان الى مصر ، فجمع أصحابها رجالاً مسلحة من الزوج وشيدوا قوة تجار الرقيق لهم معاقل حصينة ليستعينوا بها على الاتجار فيما يريدون ، وخصوصاً تجارة الرقيق لما فيها لهم من الأرباح الطائلة . واستفحل أمرهم فى هذه التجارة حتى ان « بيكر » لما عاد من سياحته الأولى وصف للخديوى مبلغ نفوذهم العظيم فى القاصية

فأرسل الخديوى الى « حكامدار » السودان أن يتفق مع أصحاب تلك المعاقل
على تسليمها للحكومة بمقابل تعويض يدفع لهم ابتغاء منع تجارة الرقيق . فقبل بعضهم ،
وامتنع بعضهم الآخر بزعماء « الزبير »

مقاومتهم
بزعماء الزبير

ومن ذلك الحين صار للزبير شأن كبير في هذه الحرفة ، وصار رئيس تجار الرقيق .
وبنى لنفسه في « شكا » قصراً يضارع قصور الملوك ، ونظم له جيشاً مسلحاً لاقتناص
الرقيق ، وبعد مكافحة طويلة بينه وبين الحكومة طالب العفو من الخديوى فجعله مديراً
لبحر الغزال دفعاً لتفاقم الشر

تنصيب الزبير
مديراً
لبحر الغزال

أما السير « صمويل بيكر » فانه ذهب في رحلة ثانية الى مديرية بحر الغزال ،
ووصل في سفره الى بحيرة « فيكتوريا نيانزا » فرتب المقاطعات الاستوائية ، وأنشأ
فيها تقطاً عسكرياً . ولما أخلص النصح في خدمة مصر لقه الخديوى حاكماً عاماً على
هذه المقاطعات ، فبقى عليها حتى استقال في سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) بعد أن ترك
خلفه حكومة مبنية على أساس متين وطرده صيادى الرقيق من هذه الجهات

تنصيب بيكر
حاكماً عاماً

وقام باعباء العمل بعده الكولونيل « غردون » . وكل من يعرف ما فطر عليه هذا
الرجل من شدة البأس والمثابرة على العمل يعلم أنه أتى كل ما يمكن لانسان أن يفعله
في سبيل القضاء على طائفة الجلابين . الا أنه بمجرد تركه لهذه الأضواء النائية عادت
هذه المهنة الى ما كانت عليه ، بل زادت في الانتشار حتى انه في أيام قيامه بهذه
الخدمة في السودان كان يُجلب الرقيق الى الحدود المصرية ويتجر فيه . وسنتكلم على
غردون عند الكلام على السودان

أعمال غردون

وكان ثالث رجل قام بهذه الخدمة رئيس جمعية تحريم الاتجار في الرقيق « كمت
دلاً سلاً » ، وكان لا يقل عن سابقه في النشاط والقوة ، فطارده بجميع قواه في الوجه
القبلى الى الجنادل الثانية (الشلال الثانى) ، فنجح نجاحاً باهراً حتى لم تتمكن قافلة
واحدة من قوافل الرقيق من الوصول الى أسبوط

دلا سلا

ومع ما بذل كل هؤلاء الثلاثة في سبيل منع الرقيق لم يتمكن أحد منهم الا

تسكين هذه الرذيلة مدة وسد بعض الطرق في وجهها. وقد صرح الثلاثة ان من المستحيل صعوبة العمل
محو هذه المهنة دفعة واحدة . ولا شك أن الصعوبات أمامهم كانت عظيمة ، ولا سيما
أن شيخ الجامع الأزهر في ذلك العصر أوعز الى الخديوى أن تحريم الرقيق جملةً
مخالف للشرع . الا أن الخديوى رغم ذلك ، ورغم عدم مساعدة الدول له مساعدة
جديدة ، أمضى مع بريطانيا العظمى لمنع بيع الرقيق في ٢٤ رجب سنة ١٢٩٤ هـ
(٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ م) وأخرى في المحرم سنة ١٢٩٥ هـ (يناير سنة ١٨٧٨ م)
وهذا منتهى ما يمكن لانسان أن يأتي به . وفي الحقيقة لم يعلّ « اللورد ابريدن »
الانجليزى حين قال : « انه لا يتسنى لأى حاكم شرقى أو أوربى أن يعمل على محو
الرقيق وتحسين حالة رعيته في زمن قصير كما فعل حاكم مصر الحالى » (يعنى اسماعيل)

معاهدتان
مع التجارة

٦ — * منح السلطة للنظار وانشاء مجلس شورى النواب *

كان أول من سار بالبلاد في سبيل الحكم الدستورى محمد على باشا ، اذ رأى ضرورة
اشراك الرعية معه في تدبير شؤون مصر . فآلف من كبار رجال حكومته مجلساً يسمى
« المجلس المخصوص » ليعاونه في ادارة شؤون البلاد ، ويمكن اعتباره الأساس
لمجلس الوزراء الحالى . وأنشأ أيضاً مجلساً للشورى (مجلس المشاورة الملكى) آلفه من
العلماء والأعيان

وقد نحى هذان المجلسان بعد وفاة محمد على ، وبقياً كذلك الى أن جاء اسماعيل باشا اسماعيل يعيدهما
فأعاد المجلس المخصوص وناط به فخص جميع المشروعات التى يريد ادخالها وكان
يرأس جلساته بنفسه فى الغالب ، وزاد من اختصاصه حتى صار شبيهاً بمجلس الوزراء
الآن . غير أنه بقي هو صاحب النفوذ المطلق لا يعمل نظّارده إلا برأيه . فلما تدخلت
الدول الأوربية فى شؤون مصر طلبت اليه أن يمنح أعضاء المجلس سلطة فعالة بحيث
يكونون هم المسئولين عن قراراته . فشكّل وزارة مؤاخذه برياسة نوبار باشا سنة ١٢٩٥ هـ
(أغسطس سنة ١٨٧٨ م) كان ضمن أعضائها اثنان من الأجانب (كما سيأتى مفصلاً)

مجلس النظار

عند الكلام على المسائل المالية) فكان ذلك أول مجلس نظار أنشئ بالديار المصرية
مجلس الشورى وأعاد اسماعيل باشا أيضاً مجلس الشورى وسماه « مجلس شورى النواب »
وافتحه في ١٠ رجب سنة ١٢٨٣ هـ (١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٦) ، وهذه من أهم الخطوات
في سبيل الحكم النيابي في جميع ممالك الشرق بأسرها . وكان انتخاب هؤلاء الأعضاء
طريقة الانتخاب بأغلبية الأصوات في جميع البلاد ، إلا أن عيها الكبير هو أن المدير كانت
له اليد الفعالة في انتخاب الأعضاء ، ولذلك كان معظمهم يُنتخب من أغنياء
المديريات من غير نظر الى علمهم ومداركهم ، وكان أغلبهم يأبى أن يكون منتخباً
مخافة أن يُغضب المدير أو الحكومة في أمر من الأمور ، حتى أن الحكومة كانت
تضطر في أغلب الأحيان الى انتخاب الأعضاء بالقوة الجبرية . ويقال ان اسماعيل
باشا لم يكن غرضه من هذا المجلس أن يتدخل معه في أمور البلاد بل ليشركه اعضاؤه
في الموائدة . وكانت وظيفة هذا المجلس أن يناقش الحكومة ويبدى لها رأيه في كل
التغيرات المالية ، وفي المشروعات العامة الجديدة ، وكل ما يتعلق بصالح البلاد من
الأمور التي تعرضها عليه الحكومة . وكان يجتمع في كل عام مدة شهرين فتعرض
عليه الحكومة التقرير السنوي عن ادارة البلاد أثناء العام
جهل الاعضاء . وكان أعضاء هذا المجلس لا يدرون في أول الأمر شيئاً من أعمال المجالس النيابية
ونظامها . فلما هم شريف باشا بتعليمهم واجباتهم وطريقة السير في العمل ظهر من
جهلهم وغرارتهم ما يضحك

٧ — * التقدم المادى والأعمال العامة *

يجدر بنا الآن بعد أن تناولنا الكلام على الاصلاحات الاجتماعية والأدبية في عصر
الخديوى اسماعيل باشا أن نذكر شيئاً من اصلاحاته المادية التي لا تزال آثارها تدل
على عظمتها وعلى ما كان يطمح اليه في سبيل رقى البلاد وفلاحها
وان كثيراً من أعداء اسماعيل يدعون انه لم يفد البلاد ، ولم يرق فيها بعمل يذكر ،

الا ما شيد من القصور الجديدة والمباني الضخمة ، والبذل عن سعة في ملاذهِ وأغراضهِ حتى استنفد أموال البلاد وتركها تنوء تحت عبء ثقيل من الديون ، ولكننا سنظهر هنا بالبراهين القاطعة ، مستشهدين بكلام مشاهير عصره ، ان أكثر أقوالهم غير مطابق للواقع ، وأن اسماعيل باشا أفاد البلاد ورقاها ، وان ما قام به وتم في عصره من الاصلاحات والمشروعات العامة لا يضارع ولا يتسنى لأى حاكم آخر في موضعه أن يأتى بمثله . إلا أن خطاه الوحيد يرجع الى السرعة وتعدد المشروعات وعدم الحيلة في الانفاق على أعماله

الزراعة

كان اسماعيل يعلم أن ثروة البلاد في زراعتها ، لذلك وجه جانباً عظيماً من عنايته اصلاح الرى الى تحسين حالها . فكان أول عمل قام به أن حفر أكثر من مائتى ترعة ، ورصف مسافات طويلة من شواطئ النيل ، وأنشأ آلاف الأميال من الطرق الزراعية في جميع أنحاء القطر ، وأقام عليها ما لا يقل عن ٥٠٠ قنطرة : من أهمها قنطرة الجزيرة (كبرى قصر النيل) التى تعتبر من أعظم الأعمال الهندسية في القطر المصرى . ثم أصلح ما لا تقل مساحته عن ١,٥٠٠,٠٠٠ من الفدادين ، فزاد بذلك الأراضى المزروعة فى القطر بنسبة ٣٠ ٪ . وان لم يكن لاسماعيل باشا حسنة أو اصلاح فى زيادة الاراضى المزروعة البلاد غير هذه لكفى

وفى أوائل حكمه اشتعلت نار الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة ، فخصرت ولايات الشمال تجارة الولايات الجنوبية ومنعت صدورها الى أسواق أوروبا ، وفى ذلك القطن الذى لا غنى لانبجالتة وفرنسا عنه ، فارتفعت بذلك أسعار القطن فى مصر ارتفاعاً لا مثيل له . فاتهم الخديوى هذه الفرصة وأكثر من زرع هذا المحصول ، وشاركه فى ذلك والقطن المصرى الأهليون من تلقاء أنفسهم ، حتى صار المال يتدفق الى مصر تدفقاً ، وزادت قيمة الصادرات المصرية من ٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيهه فى عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) الى

١٤٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه في عام ١٢٨١ هـ (١٨٦٤م) . ولكن ما لبثت الحرب الامريكية أن انتهت ، وعادت أثمان القطن الى حالتها الاولى

قصب السكر فوجه الخديوى عنايته الى زرع قصب السكر ، فكان ذلك شغله الشاغل ، وأنفق عليه الأموال الطائلة ، وسخر الاهالى في زرع ، وأنشأ من أجله خطاً حديدياً من القاهرة الى أسيوط . وقد احتكر زراعته في أملاكه الخاصة على الضفة اليسرى من النيل بين القاهرة وأسيوط ، واشترى لصنعه من الخارج الآلات الكافية لتشيد أربعة وعشرين معملأً أقيم بعضها وأهمل بعضها الآخر . وقد أنفق اسماعيل على هذه المعامل وما يلزمها سبعة آلاف ألف جنيه ، عدا نفقات التربة البراهيمية التى حفرها لرى هذه الاراضى ، وسخر فى حفرها عدداً عظيماً من أهالى القطر ، وبعد أن أتم حفرها نصب عليها الآلات الرافعة . وهذه التربة من اكبر الترع التى أنشئت فى مصر وأعظمها فائدة وأكثرها نفقة

وكان معظم العمال الذين يشتغلون فى معامل السكر يُجبرون على العمل ويتقاضون أجورهم اما من السكر أو العسل

التجارة

بناء ١٥ منارة ووجه اسماعيل همه أيضاً نحو تحسين حال التجارة ، لعلمه ان مصر كانت من قديم الزمان مركزاً عظيماً للتجارة . فبنى خمس عشرة منارة فى البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، لترشد السفن التجارية القادمة الى مصر ، فأنفق عليها ما لا يقل عن ٢٠٠,٠٠٠ جنيه ، ثم شرع فى بناء مرافئ ميناء الاسكندرية وميناء السويس ، فناط اصلاح ميناء السويس بشركة فرنسية ، وبلغت نفقاته ٥٠٠,٠٠٠ جنيه . أما ميناء الاسكندرية فإنه عهد أمر اصلاحه الى شركة انجليزية عقدت معه اتفاقاً على ألفى وخمسمائة ألف جنيه . وقد اعترف « السير رفرز ولسن » أحد الموظفين فى الحكومة المصرية فى عهد اسماعيل ان هذا الاتفاق كان مجحفاً بمصر ، وان الميناء لم

مراق
الاسكندرية
والسويس

ينفق عليه أكثر من خمسمائة ألف والف ألف . فخدع اسماعيل في هذا العقد كما خدع قبله سعيد باشا في عقد قناة السويس . وهذا في الحقيقة مثل من كثير من أنواع الاتفاقات التي كان يُخدع فيها اسماعيل ويُضيع من جرائها الأموال الطائلة وبنى أيضاً أسطولاً تجارياً ليحمل المتاجر والبريد بين مصر والدولة العلية وبلاد اليونان وغيرها ، وأنفق عليه خمسمائة ألف وألف ألف من الجنيهات

الاسطول
التجارى

الأعمال العامة

قام اسماعيل باشا بعدة مشروعات وأعمال عامة تمت في عصره فأفادت البلاد وجعلتها تضارع البلاد الأوروبية في المدنية والحضارة ومن بين هذه المشروعات مد السكك الحديدية في جميع أنحاء البلاد ، وقد أنفق عليها الأموال الطائلة . وكان طول ما أنشئ من السكك الحديدية قبل توليته لا يزيد عن ٣٣٠ ميل ، فازدادت في مدته حتى بلغت ١٣٣٠ ميل ، أنفق عليها ما يقرب من عشرة آلاف ألف من الجنيهات وقد شرع في مدته أيضاً في مد خط حديدى يخترق أواسط افريقية مبتدئاً من دنقلة ، فكان تصميمه أن يبالغ ١١٠٠ ميل . إلا أن العمل أوقف لقلّة المال بعد أن دُفع من نفقاته ٤٠٠,٠٠٠ جنيه . على أن هذا الخط لو تم لأثى بنفقاته في مدة سنين قلائل ، لمروره في وسط سهول فيها الأنواع الكثيرة من الحيوان مما يكفي لسد حاجات مصر بل كل جنوبى اوربا ، كما أثبت ذلك القائد « استون » رئيس أركان حرب الجيش المصرى حينما كان يستكشف عن أواسط افريقية ، اذ قال : « ان محصول الحيوان في هذه الجهة لا ينفد »

وأنشأ اسماعيل باشا أيضاً ما لا يقل عن ٥,٢٠٠ ميل من خطوط الأسلاك
الاسلاك
البرقية والبريد
البرقية ، واشترى مصلحة البريد من أحد الغربيين المدعو المسيو « شبنى » في عام ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) ، وبذلك أصبحت تحت ادارة الحكومة ونفوذها . وأسس ما

يزيد على ٢١٠ من مكاتب البريد في طول البلاد وعرضها ، فكان مقدار ما وُزِع
من الخطابات في عام ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) يبلغ ٢,٥٠٠,٠٠٠
وأنار أيضاً امهات المدن كالاسكندرية والقاهرة بالغاز ، ومدّها بها أنابيب المياه
وأنشأ الشوارع الفسيحة بالقاهرة والاسكندرية والسويس وزينها على النمط الغربي
الحديث ، وقد بلغ ما أنفقه عليها ما يقرب من ثلاثة آلاف ألف من الجنيهات
وان أكبر دليل قاطع على تقدم البلاد المادى ازديادُ صادراتها ووارداتها في
ذلك العصر ازدياداً مُطّرداً

الغاز والمياه
والشوارع

٨ — * حروب اسماعيل باشا والفتوح التي تمت في عصره *

لم يكن اسماعيل باشا ميالاً للحروب كجده الأكبر محمد علي ، إلا أنه رغم ذلك
كان يُعنى بجيشه عناية كبيرة ، اذ أحضر له كبار الضباط من الممالك الأوربية وأمريكا
لتدريبه ، نخص بالذكر منهم « استون باشا » الأمريكي رئيس أركان حربه
وقد بلغ أقصى عدد الجيش النظامي في عصره ستين ألف مقاتل مسلحة بنحو
١٤٤ مدفعاً ، عدا ثلاثين ألف مستحفظ وستين ألف جندي غير نظامي

تنظيم الجيش

عدده

وكان من أهم أغراض اسماعيل باشا توسيع نطاق ملكه في افريقية وضم كل ما
يمكن كشفه أو فتحه من أراضيها الى مصر . فمن ذلك أنه عهد الى السير صمويل
بيكر بالاستكشاف عن الجهات التي قرب منابع النيل الأبيض وضمها الى الحكومة
المصرية (١٢٨٦ هـ : ١٨٧٠ م) كما سبق ذكره عند الكلام على منع الرقيق

آمال الخديوى
في افريقية

وفي عام ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) ولى « مُنْزِنَجَر » السويسرى محافظاً على
« مصوِّع » ، وكان الخديوى قد اشتراها هي وسواكن من الباب العالي في عام ١٢٨٣ هـ
(١٨٦٦ م) في مقابل ضريبة سنوية قدرها ٣٠,٠٠٠ جنيه . وقد اهتم « منزنجير » هذا
بتوسيع أملاك مصر في السودان الشرقى فألحق بها « بلاد البوغوس » و « بركة القضايف »

منزنجير
في مصوِّع

أما في وادي النيل فقد طلب الخديوى من الحكومة الانجليزية بارشاد ولى عهد
انجلترا أن تمنحه تنصيب القائد « غردون » مديراً لمقاطعة خط الاستواء . فوصل
الى مصر ونصبه الخديوى « حكاماً » لخط الاستواء في ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ
(يناير سنة ١٢٧٤ م) . ومن ذلك الحين اهتم الخديوى بأمر السودان اهتماماً عظيماً ،
فقسم بلاده الجنوبية الى قسمين : أولها السودان الحقيقى (وآخر حدوده « فاشودة »
جنوباً) ، وجعل ادارته لحاكم السودان العام . والثانى إقليم خط الاستواء وهو ما كان
جنوبى فاشودة ، وجعله تحت ادارة غردون . فبسط غردون نفوذ الحكومة المصرية
على تلك الجهات ، وأسس النقط العسكرية لضبط السفين التى تتجر بالريق

بسطه نفوذ
مهر هناك

فتح دارفور

وفي عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) حسن « الزبير » للخديوى أمر فتح بلاد اقترح الزبير

دارفور ، وكانت مملكة مستقلة ،
فعضدته الحكومة المصرية ، وتلاقى
الزبير بجيش سلطان دارفور المؤلف
من ٢٠ ألف مقاتل ، فهزمه مراراً
وانتهى الأمر بفتح هذه البلاد ،
وصارت تابعة للحكومة المصرية .
فعمدت الحكومة الى الزبير ادارة
الجهات الجنوبية من دارفور ، ومنحه
الخديوى رتبة باشا . ثم شكا الزبير
كثيراً من ثقل الضرائب على
الأهالى ، وطلب أن يتشرف بمقابلة
الخديوى ، فأذن له بذلك ، فسافر



فتح دارفور

تنصيبه مديراً لها

الزبير باشا

قدومه مصر

ابقاؤه بها الى القاهرة وأُتِيب عنه قبل سفره اليها ابنه سليمان . ولما لم ينل الزبير مطالبه عند قدومه الى القاهرة لم تأذن له الحكومة المصرية بالرجوع الى السودان ، وأبقتة في القاهرة مخافة أن يثور بالسودان عند عودته

فتح هرر

تنازل تركيا
عن زيلع
في سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) تنازلت الدولة العلية للحكومة الخديوية عن مدينة « زِيلَع » وملحقاتها في مقابل مبلغ تدفعه سنوياً قدره ١٣,٣٦٥ جنيه مصري وبعد أن ضُمت زيلع الى الأملاك المصرية أخذت الجنود المصرية تستطلع أحوال « هرر » وتتعرف مسالكها . ولما تم لها ذلك سارت فرقة بقيادة « محمد رؤوف باشا » في شعبان سنة ١٢٩٢ هـ (سبتمبر ١٨٧٥ م) فوصلت بعد قليل الى مدينة هرر ، واحتلتها بدون مقاومة تذكر ، ورفعت العلم المصري فوق قصر أميرها

حملة نهر جوبا وجهات قسمايو

حملة ماكيلوب
باشا في
الصومال الجنوبية
ولما أن تم للخديوى توسيع الأملاك السودانية من الجهة الجنوبية عزم على ارسال حملة الى بلاد الصومال الجنوبية لضم البلاد الواقعة على نهر جوبا الى مصر حتى يتسنى له إيصال أملاكها في تلك الاصقاع بما لها في جهات خط الاستواء . فجهز لذلك حملة بقيادة « ماكيلوب باشا » من طريق البحر في شهر المحرم سنة ١٢٩٢ هـ (فبراير ١٨٧٥ م) فلما وصلت الى بلدة « براوة » الواقعة شرقي نهر « الجُب » خضعت بعض القبائل للحكومة المصرية . ثم ترك فيها ما كيلوب باشا محافظاً وحامية وتقدم الى « قسمايو » عند مصب نهر جوبا . ولما لم تتمكن الجنود من السير فيه بالقوارب رجعوا الى « قسمايو » ونزلوا الى البر ، وأخذت الحملة تستكشف عن النهر . ولكن الحكومة رأت أن تستدعى ما كيلوب باشا وحملته خوفاً من وقوع المشاكل بينهما وبين حكومة زنجبار التي رجوع الحملة كانت تحت حماية انجاعة ، هذا الى نشوب الحرب وقتئذ بين مصر والحبشة

حرب الحبشة

علمنا فيما سبق أن الحكومة المصرية ضمت الى أملاكها في السودان الشرق مشكلة الحدود بلاد البوغوس وبركة القضايف على يد « منزنجر باشا » والى مصوع . ثم أرادت أن تعين الحدود بينها وبين الحبشة من تلك الناحية ، وأنت تستولى على بعض مقاطعات تتمكن بها من مد طريق حديدى بين مصوع والخرطوم على طريق كسلة « والتاكة » . فجرت لذلك حملة بقيادة « أرندروب بك »

فلما وصلت هذه الحملة الى بلدة « سعد زجه » ورأى النجاشى توغل الجنود المصرية فى بلاده أخذ يتقهقر أمام القوات المصرية خديعةً منه . حتى اذا وصلت الجنود المصرية الى بلدة « عدخالة » أرسل القائد « أرندروب بك » الى ملك الحبشة « يوخنا » يطلب منه جعل نهر « خور الجاش » الحد الفاصل بين الأملاك المصرية والحبشة ، فلم يقبل . وكان « أرندروب » قد بلغه أن ملك الحبشة يستعد للهجوم عليه من ثلاث جهات ، فعزم على أن يبدأ بالهجوم ، فتقدم نحو « جونديت » واشتبك مع العدو وكان جيشه أضعاف الجيش المصرى يقوده النجاشى نفسه ، فكانت الدائرة على الجيش المصرى ، وفى معظمه وقتل قائده العام . وتقهقرت فلوله الى الحدود الأصلية بين الحبشة ومصر

وكان الخديوى فى هذه المدة أمر منزنجر باشا حاكم السودان الشرق والبحر الأحمر بشل حملة منزنجر أن يجرى حملة على بلاد الحبشة ويذهب بها من طريق « غندار » (عام ١٨٧٥ م) فخرج عليه بعض القبائل فى الطريق ، فاغتالته وفتكت بجيشه

ولما ذاعت أخبار هذه الهزيمة غضب الخديوى وعزم على الفتك بالحبشة محافظةً على شرف الجيش المصرى ، فأخذ يجهز لذلك جيشاً عظيماً نصّب عليه « راتب باشا » قائداً عاماً والجنرال « لورنج باشا » الأمريكى رئيس أركان الحرب له

وبعد ان تمت كل المعدات أخذت السفن تنقل الجيوش من السويس الى جيش عظيم للفتك بالحبشة

مصوع . وكان الخديوى قد أصدر أمراً لثالث أنجاله «الأمير حسن باشا» بمرافقة الحملة تشجيعاً للجنود وتدريباً له . وبعد ان نزلت كل الجنود فى مصوع أخذ الجيش يزحف على بلاد الحبشة ، فاستمر فى التوغل حتى وصل الى «قرع» فى ٣ المحرم سنة ١٢٩٣ هـ (يناير سنة ١٨٧٦ م) بعد ان ترك وراءه بعض الجنود لحفظ خط الرجعة بين مصوع والحبشة . ولما عسكر الجيش فى قرع وأقام الاستحكامات رأت القبائل المجاورة قوته ، فأخذت تنضم اليه وتذعن له بالطاعة

وصول
رانب باشا
الى قرع

اما الأحباش فانهم لما رأوا ذلك جمعوا جيشاً عظيماً بقيادة النجاشى وقصدوا المصريين أولاً فى «قياخور» ، وكانت تحمىها قوة مصرية بقيادة «عثمان رفقى باشا» ، فلم يفلحوا فى مهاجمتها لمناعة الاستحكامات المصرية ، فقصدوا جيش القائد العام وأخذوا فى مهاجمته عند قرع ، وبعد معركة لم تدم طويلاً تشتت شمل الجيش المصرى بعد ان هُزم شر هزيمة وقتل منه عدد عظيم ، منهم «محمد على باشا الحكيم» الطبيب الشهير ، وقد نجح القائد العام والأمير حسن بعد ان رأيا الهلاك عياناً . أما الأحباش فكانت خسارتهم أيضاً فى هذه الحروب جسيمة

الفتك
بالجيش المصرى

ثم ابتدأت المفاوضات فى أمر الصلح ، فقبلت الحكومة المصرية المهادنة بشرط ان ترد الحبشة ما أخذته من الأسلحة المصرية ، وان تكون التجارة متبادلة بين المملكتين . فامتنع ملك الحبشة من رد السلاح معتذراً بأن جيشه ليس منظمًا حتى يتسنى له جمع كل الأسلحة . وبعد مدة وجيزة تقرر الصلح واذن ملك الحبشة بعودة الأسرى (٢٧ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هـ : ابريل سنة ١٨٧٦ م) . ثم عاد القائد العام والأمير حسن وفلول الجيش المصرى

الصلح

رجوع غردون الى الحكومة المصرية

وفى عام ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) دعا الخديوى «غردون باشا» للخدمة فى الحكومة المصرية ، فاشتراط عليه أن يجعله الحاكم العام على جميع الأقطار السودانية ، فقبل منه

غردون حاكماً
عاماً للسودان

ذلك . ولما تولى الأمر في هذه الأصقاع الواسعة رأى عدم استطاعته الانفراد بالحكم تنظيمه للسودان فيها وإدارة شؤنها وحده ، فقسم المديريات الاستوائية الى قسمين : سعى الأول منهما « مديرية خط الاستواء » وجعل مقرها « لادو » ، وجعل الحاكم عليها امين باشا (الدكتور شنتزر) ، اما القسم الثانى فأنه سماه « مديرية بحر الغزال » وجعل المدير لشؤونها المسيو « جيسى » الطليانى

وكان للمسيو جيسى اليد الطولى في كشف جميع مجاهل هذه المديرية ، وقد أحسن جيسى في معاملة الأهالى فيها وعودهم الأعمال العسكرية وشجعهم على انشاء السفن للتجارة ، فكان ذلك مدعاة لحق الجلابين ، لأن فيه كسداً لتجاريتهم . فأرادوا أن يخرجوا عليه ، فتجمعوا بقيادة « سليمان بن الزبير » الشديد الحنق على الحكومة المصرية لمنعها والده من العودة الى بلاده

فلما علم غردون بذلك وجهه اليه بعض الجنود تحت امرة « جيسى » ، فتقاتلا قتالاً شديداً كان النصر فيه حليف الجيش المصرى . وقُتل سايمان في هذه الموقعة . وقد وجد « جيسى » معه رسائل من والده « الزبير باشا » تدل على أنه كان هو المحرض على هذا العصيان

وبقى غردون يدير شئون السودان ويكافح تجارة الرقيق فيه حتى استقال فى استقالة غردون أوائل حكم توفيق باشا

٩ — * اتمام قناة السويس *

سبق ان أفردنا فصلاً فى هذا الكتاب للكلام على نعمة السويس أوضحنا فيه اسماعيل مشروع حفرها وأتينا بشيء من تاريخ هذا المشروع منذ أزمان غابرة . ولا بد لنا من كلمة هنا على افتتاح هذه التركة ، لأن ذكرها مقرون دائماً باسم اسماعيل ، اذ له العمل الاكبر فى نجاح مشروعها واليد القوية فى انجازه بعد ان دخل فى طور احتضار وكاد يذهب ادراج الرياح

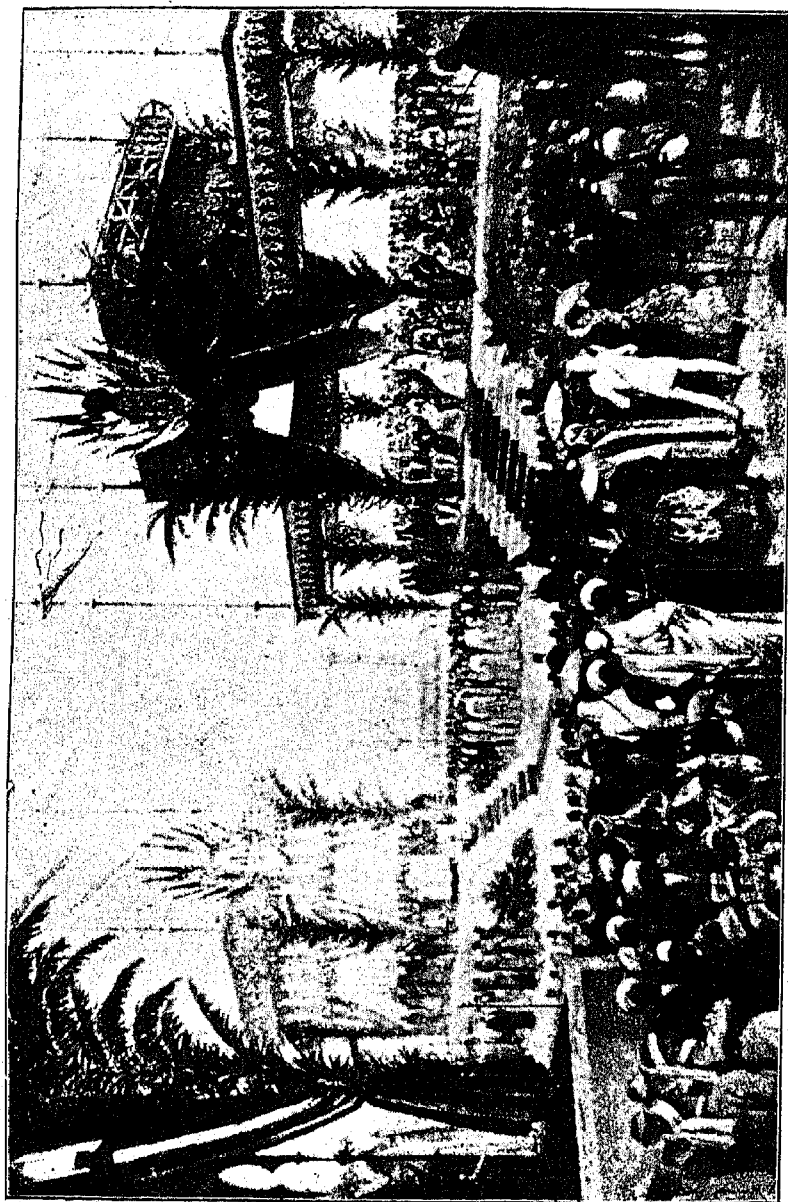
حفلة
افتتاح القناة
عزَّ على اسماعيل باشا أن يقف هذا المشروع الخطير بعد أن قارب الانتهاء ، فأقبل عليه يعرضه بكل الوسائل ، حتى إذا قرب أجل افتتاح التريعة أخذ على عاتقه أن يتكفل باقامة حفلة الافتتاح على نفقاته الخاصة ، غير مدّخر وسعاً في جعلها على حال من العظمة والفخام بحيث تلائم ذلك المشروع الخطير

بعض الزائرين
أقام اسماعيل باشا حفلة الافتتاح بالاسماعيلية ، فكانت غاية في الإبداع : دعا إليها ملوك أوربا وامراءها وعظماءها وعلماءها وأدباءها ، فأجاب الدعوة منهم عدد عظيم ، وفي مقدمتهم « الامبراطورة يوجيني » (زوجة امبراطور فرنسا نابليون الثالث) ، ثم امبراطور النمسا « فرنسيس يوسف » ، والأمر فرديريك ولي عهد ألمانيا

عظم الاستعداد
ثم أخذ اسماعيل باشا يعد المعدات ويقم الزينات ، غير ضان بما يحمله ذلك من المال ، ظاناً أن في ذلك ارضاءً لزواره الأوربيين ووسيلة الى رفع قدره وقدر مصر في أعينهم . ومن أهم ما أعده لتلك الحفلة أن شيّد بالاسماعيلية قصرًا بديعاً على شواطئ قصر الاسماعيلية بحيرة التمساح ، لتقام فيه حفلة راقصة احتفاءً بالامبراطورة يوجيني ، لما كان لها من المكانة في هذا الاحتفال ، إذ كانت هي النائبة فيه عن فرنسا صاحبة المشروع . وأقام السراقات الفخمة المزينة بجميع أنواع الزينة ، لتُمدّ فيها الأسمطة للزائرين أيام الاحتفال

انشاء
طريق الهرم
ولما علم أن الامبراطورة يوجيني ربما تود أثناء اقامتها في مصر أن تزور الاهرام أمر أن يُنشأ على وجه السرعة طريق يصلح لسيير العجلات (العربات) من القاهرة الى قاعدة الهرم الأكبر . فجدّ في انشائه نحو ١٠,٠٠٠ عامل حتى تم في أقل من ستة أسابيع . ومن المباني التي شيّدها سريعاً بمناسبة هذا الاحتفال أيضاً ملهى « الأوبرا » بالقاهرة

اما ما لاقاه الزائرون في مصر من انواع الكرم والحفاوة فلا يكاد يدخل تحت وصف ، إذ كان قدومهم من أوربا وعودتهم اليها على نفقة مصر ، وسُمح لهم بالسفر مجاناً في جميع خطوط السكك الحديدية ، وأمرت الحكومة موظفيها أن لا يتذخروا وسعاً في مساعدتهم وارشادهم أثناء وجودهم بمصر ، وأعدت لهم العجلات والدواب اكرام الزائرين والتراجمة بدون مقابل . وفي الجملة لا نكون مغالين اذا قلنا انه كان في استطاعة كل



مفتحة افتتاح قناة السويس بالاسماعيلية

زائر أن يقضى بمصر نحو شهرين من غير أن يصرف درهماً واحداً من ماله . وقد بلغ نفقات الحفلة مجموع ما أنفق على هذا الاحتفال نحو ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيه
وكانت الحفلة في شعبان سنة ١٢٨٦ هـ (نوفمبر سنة ١٨٦٩ م) ، وبها ابتداء طور جديد في تاريخ الملاحة . فصارت السفن التي تبحر بين الشرق والغرب تسير بطريق ترعة السويس بعد أن كانت تعاني اعباء الرحلة الطويلة حول جنوبى افريقية . وقد كان لابتداء هذا الطور وقع عظيم في أنحاء العالم المتحدين ، ولم يأت ذكره في ناد من الأندية أو دائرة من الدوائر إلا كان مقروناً باسم بطله الأكبر « اسماعيل باشا خديوى مصر »

الفصل الرابع

المسألة المالية وانتهاء حكم اسماعيل باشا

لو نظرنا الى مقدار ما قام به « اسماعيل باشا » من المشروعات والأعمال العامة كثرة النفقات في أنحاء البلاد ، وراعينا ما كلف في قصوره وحفلاته من أنواع البذخ والأبهة مما ضارع به أكبر ملوك الأرض ، علمنا ان ذلك كان يتطلب نفقات جمة تضيق خزائن مصر عن تحملها . فكان رحمه الله يستعين على ذلك بانجاز بعض أعماله من غير أن يدفع أجرها نقداً فيبقى عليه ديناً (وهو ما يسمى بالدين السائر) ، ويفترض ديوناً من الدول الأوربية لتسديد نفقات بعضها الآخر (وهذه تسمى ديوناً ثابتة) . وكانت الديون الثابتة لا تعطى إلا اذا قُدم لأصحابها ما يضمن سدادها ، مثل دخل بعض مصالح الحكومة ، والأموال المحببة من بعض المديريات . فاذا تعذر عليه الحصول على ما يينى من الدول الأوربية لجئ الى جمع ما يطلبه من المال من أهل البلاد : سواء أكان ذلك بزيادة الضرائب أم باقتراض ديون أهلية ومن أشهر ما جمعه بهذه الطريقة الأخيرة المبالغ التي جياها بمقتضى القانون

قانون المقابلة المعروف بقانون « المقابلة ». أعد هذا القانون بمشورة ناظر المالية الشهير « اسماعيل باشا صديق المفتش » ، الذى يعرف اسمه كل فلاح عاش فى هذا العهد ، والذى كانت له المقدرة العظيمة فى جباية الضرائب من الفلاحين . ومؤذاه ان كل مالك من ملاك الأرض يمكنه أن يصبح مُعفى على الدوام من دفع نصف ما عليه من الضريبة السنوية ، اذا دفع للحكومة ما يعادل تلك الضريبة ستة أعوام ، وله أن يدفع هذا المبلغ جملةً أو على ستة أقساط سنوية (وفى هذه الحالة تُدفع أيضاً الضريبة الأصلية حتى يتم تسديد الأقساط)^(١)

صعوبة القرض ولما كثرت الديون الأوربية على مصر ، وأوشكت موارد الضمان التى يمكن تقديمها عنها أن تنفذ ، أصبح من الصعب اقتراض ديون جديدة ، وما أمكن اقتراضه منها كان بأرباح باهظة جداً لم يسبق لها مثيل . من ذلك ان اسماعيل باشا استقرض فى جمادى الثانية سنة ١٢٩٠هـ (يونيه سنة ١٨٧٣م) ديناً قدره ٣٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيهاً ليسدده جميع الديون السائرة ، فلم يتمكن من عقد القرض الا فى شهر مايو سنة ١٨٧٤ فكان مجموع ما قبضته الحكومة بالفعل من هذا الدين بعد طرح جميع أنواع التفتقات والخصم (السمسة) يبلغ ٢٠,٠٦٢,٠٠٠ جنيهاً فقط ، أى بنقص ٣٧ ٪ عن مقدار ما حُسب ديناً على الحكومة ، فضلاً عن ان المبلغ الذى قبضته الحكومة لم يدفع كله نقداً بل كان منه ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من سندات الخزنة المصرية^(٢)

الرزنامة وتعهد اسماعيل باشا فى عقد هذا القرض أن لا يقترض ديوناً أخرى مدة سنتين ثم اشتدت حاجته الى المال ، فلجئ الى جمع قرض من الأهلىين يعرف بدين « الرزنامة » . وشروطه ان كل من يدفع للحكومة مبلغاً يأخذ نظيره دُفعاً سنوية على الدوام قدر كل منها ٩ ٪ من أصل ما دفعه . فجمعت الحكومة بهذه الطريقة

(١) كل من له المام بالرياضة يعلم ان هذه الطريقة فيها غبن فاحش للحكومة

(٢) معنى ذلك ان الحكومة نظير حصولها على ١١,٠٠٠,٠٠٠ جنيهاً نقداً فقط زادت دينها بقدر ٢٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيهاً (الفرق بين ٣٢,٠٠٠,٠٠٠ و ٩,٠٠٠,٠٠٠)

٣,٤٢٠,٠٠٠ جنيهًا، ولكنها لم تدفع من الدفعة السنوية المذكورة إلا جزءاً من دفعة السنة الأولى فقط

وفي سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) ازدادت أزمة الخديوى المالية ، وصار يصدر اشتداد الازمة سندات على خزائن الحكومة بقيمة تقل كثيراً عن قيمتها الاسمية . ولما اشتدت الأزمة على الحكومة عرضت ما لها من أسهم القناة للبيع ، (وكان عددها ١٧٦٦٠٢) فاشتريتها الحكومة الانجليزية بثمن بخس يقل عن ٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . فلم يفرج ذلك شيئاً يذكر من الأزمة ، وصار يُخشى كل يوم من تدخل الدول الأوربية في شؤون مصر محافظةً على الأموال التي أقرضتها رعاياها الحكومة المصرية

وفي رمضان سنة ١٢٩٢ هـ (أكتوبر سنة ١٨٧٥ م) حدث ما يمكن اعتباره مبدأ وفد كيف التدخل الأوربي في الشؤون المصرية . وذلك ان «الخديوى اسماعيل باشا» طلب الى الحكومة الانجليزية أن تبعث الى مصر موظفاً انجليزياً ذا المام بالشؤون المالية ليساعده على اصلاح مالية مصر . فاختارت إنجلترا لذلك «المستركيف» . فخصص الأمور مستعيناً في عمله بما أمكنه الوقوف عليه من المعلومات ، ثم قدم تقريراً بما يلزم عمله لتسوية الديون المصرية . ولكن الخديوى لم يعمل باقتراحه ، فلم يكن لبعثه الى مصر أثر يذكر*

وفي ١١ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هـ (١٨ ابريل سنة ١٨٧٦ م) توقف الخديوى ابتداء التدخل الاوربي عن صرف قيمة سندات الخزانة المصرية ، فكان ذلك اليوم المبدأ الحقيقي للمشكلة المالية المصرية ولتدخل أوربا في شؤون مصر

* يقدر مجموع الديون المصرية في ذلك الحين من سائرة وغير سائرة بنحو ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . فلو راعينا ان مجموع دخل الحكومة المصرية زاد على نفقاتها في مجموع المدة التي حكمها «اسماعيل باشا» بمبلغ ٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه وان نصيب مصر من أسهم القناة بيع بمبلغ ٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه كان مجموع ما صرفه اسماعيل باشا وسعيد باشا في غير شؤون الادارة العادية يساوى ١٣٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . من ذلك ١٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه أنفقت على قناة السويس و ٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه على السكك الحديدية- واصلاح الاراضى وغير ذلك من الاشغال العامة . ونحو ٥٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه في تسوية الديون واستبدالها ودفع أرباحها وأقساطها . فيكون الباقي حينئذٍ نحو ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ لا تعرف الأوجه التي صرف فيها

صندوق الدين عند ذلك تذرعت دول أوروبا، فاهتم الخديوى بتأمينها على أموال رعاياها، وسعى الى ذلك بكل الوسائل، الى أن أصدر أمراً في يوم ٨ ربيع الثانى سنة ١٢٩٣ هـ (٢ مايو سنة ١٨٧٦ م) بإنشاء لجنة يقال لها « صندوق الدين » تُشكّل من مندوبى الدول ويُعهد اليها ادارة شؤون الدين المصرى وتدير ما يجب لانتظام تسديده. ثم أصدر أمراً آخر في ٧ مايو بتوحيد جميع الديون المصرية من سائرة وغير سائرة وجعلها ديناً واحداً قدره ٩١,٠٠٠,٠٠٠ جنيه وربحه ٧٪ وينتهى تسديده في ٦٥ سنة. ولم تقبل الحكومة الانجليزية إرسال مندوب يمثلها في صندوق الدين أسوة بباقي الدول ولكن أضيف الى لجنة الصندوق فيما بعد عضو انجليزى بدون مواخذة انجلترا وهو « السير إفلين بيرنج » الذى مُنح فيما بعد لقب « لورد » وصار يعرف « باللورد كرومر » وسنعود الى ذكره في هذا الكتاب

عدم موافقة انجلترا على أن توحيد الديون المصرية على هذا الوجه لم يُرض انجلترا، لأن معظم الدائنين الانجليز كانوا حملة سندات مضمونة بموارد ثابتة، وغير الانجليز كان معظم أموالهم ديوناً سائرة. فلم ير الانجليز من الانصاف أن يعامل الفريقان بطريقة واحدة. لذلك أرسلت كل من انجلترا وفرنسا مندوباً للنظر في تعديل هذا الاتفاق، فاختارت انجلترا « المستر غوشن » « اللورد غوشن فيما بعد » واختارت فرنسا « الميسيو جوير »، ففحصا الحالة المالية وقدا ما اقتراحاً بما يازم، وأصدر الخديوى به أمراً عالياً في غرة ذى القعدة سنة ١٢٩٤ هـ (١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ م) حذَف به من الدين الموحد ما يأتى : —

انقاص الدين الموحد نوفمبر ٧٦ (١) ٤,٢٩٣,٠٠٠ جنيه قيمة الديون التى اقترضت في سنة ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ م، أى قبل اشتداد الأزمة المالية. واعتُبر ذلك الدين نوعاً قائماً بذاته، ويسدد من أقساط المقابلة

(٢) ١٧,٠٠٠,٠٠٠ جنيه قيمة سندات جديدة أطلق عليها اسم « الدين الممتاز »، وجُعِل سعرها ٥٪ وجعل الضامن لسدادها دخل السكك الحديدية وميناء

الاسكندرية* ترغيباً في شرائها ليصرف ثمنها في تسديد الديون السائرة
(ح) ٨,٨١٥,٠٠٠ جنيه قيمة دين الدائرة السنوية . واعتبر هذا الدين قائماً
بذاته ويسدد من دخل تلك الدائرة

وبذلك نقص الدين الموحد الى ٥٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه وجعل سعره ٦ ٪ / وافق
على أن يسدد ١ ٪ / من أصله سنوياً

واقتراح الورد غوشن على الخديوى عدة اصلاحات لتوطيد مركز الحالة المالية
وتسهيل السير بانتظام في دفع أرباح الدين وأقساطه
فشرح الخديوى في انفاذ هذه الاقتراحات، وأدخل بحكومته عدة موظفين أوربيين
من أصحاب الكفاءة الكبيرة للقيام بذلك الاصلاح

من ذلك أنه وافق على تعيين مراقبين عموميين لحساب الحكومة : أحدهما انجليزى
لمراقبة الدخل وهو « السير رفرز ولسن » ، والثانى فرنسى لمراقبة المصروفات وهو
« المسيو بلنير »

على أن الخديوى لم يلبث أن رأى ذلك يُنقص من نفوذه ، فلم يطلق للمراقبين
كل الحرية في العمل . فلم يكن لذلك الاصلاح الأثر المطلوب ، ولم تُوفق الحكومة
الى أن تجمع قبل الميعاد المحدود لدفع أرباح الدين ما يكفي من المال لتسديدها ، فأتبعت
كل طريقة في جمع الضرائب قبل ميعادها حتى تيسر جمع المال المطلوب فسُلِّمَ
لصندوق الدين في آخر لحظة أى قبل الميعاد المحدود ببضع ساعات

دلت هذه الحالة السيئة عل أن شؤون الحكومة لم تزل في حاجة الى الاصلاح ،
وأحست لجنة صندوق الدين ان اتفاق سنة ١٨٧٦ م بشأن تسديد الدين ربما
كانت شروطه شديدة . فطلبوا الى الخديوى أن يأمر بتشكيل لجنة تحقيق تفحص
الشؤون المالية فحاصلاً شاملاً حتى تقف على أسباب ذلك العجز في مورد الحكومة .
فلم يرض الخديوى في أول الأمر بمنح اللجنة كل هذه الحقوق الكبيرة ، ورأى

(*) وجبت هاتان المصلحتان تحت مراقبة لجنة من مندوبى الدول

أن تكفى اللجنة المراد انشاؤها باعادة النظر فى المقدار الحقيقى للدخل . ولكن الدول
تمسكت بطلب لجنة صندوق الدين ، وفى غرة ربيع الثانى ١٢٩٥ هـ (٤ ابريل
شروع اللجنة سنة ١٨٧٨ م) أصدر اسماعيل باشا أمراً عالياً بتشكيل لجنة للتحقيق* لها الحق
فى العمل المطلق فى اجراء كل ما تريد من التحريات والتحقيقات ، وعهدت رئاسة اللجنة الى
« المسيو ديلسبس » ، وجعل رياض باشا والسير فرزولسن وكيلين لها ، وجعل
مندوبو الدين أعضاء فيها

فشرعت اللجنة فى فحص كل شىء يختص بالمالية المصرية : من النظر فى الانظمة
الادارية والضرائب وأنواع الديون المطالب بها وأصلها وغير ذلك . ولم يكد الأعضاء
يشرعون فى انجاز مهمتهم حتى اعترضهم حادث وقف العمل فترة ، وذلك أنه لما كان
قد خول لهم حق الاستفسار من أى موظف فى الحكومة عن أى شىء استدعوا
« شريف باشا » (ناظر الحقانية وأعظم الوزراء اذ ذاك) للحضور أمامهم للإجابة
عن استعلاماتهم ، فلم يرض « شريف باشا » بالحضور أمامهم محافظة على كرامته ، وقال
أنه مستعد للإجابة عن أسئلة اللجنة كتابةً ، فأصرت اللجنة على استحضاره فاضطر
الى الاستعفاء . وبعد مضى هذه الحادثة التى اعترضت السير فى التحقيق عادت
اللجنة الى مباحثها وانكب أعضاؤها على العمل يومياً حتى وقفوا على مواضع الخلل
فى المالية فكشفوا بذلك عيوباً خطيرة مما لم يكن على بال ، من أهمها عدم التفريق
بين المطلوب من الحكومة والمطلوب من الأسرة الخديوية ، والاسراف فى شراء
لوازم الجيش وغيره لمجرد الرغبة فى اقتناء كل شىء جديد أو اختراع ظريف
يعرضه الأوربيون على الخديوى وبيالغون له فى محاسنه ، وزيادة أجور الأعمال التى
يقوم بها المتعهدون الأوربيون ونحوهم زيادة فاحشة عما تستحق (من ذلك أن
نققات اصلاح ميناء الاسكندرية بلغت ٢,٥٠٠,٠٠٠ جنيه مع أنها لم تعادل أكثر
من ١,٥٠٠,٠٠٠ جنيه) ، واقتراض الاموال بأرباح باهظة لم يسمع بمثلا



شريف باشا

ولاحظت اللجنة أن الحكومة فضلاً عن ائصالها كاهل الأهلين بجميع أنواع الضرائب قد جبت منهم مبلغين بشروط لا يمكن الاستمرار على العمل بها : أولهما ما أخذ منهم بمقتضى قانون «المقابلة» ، وثانيهما دين «الرزنامة» ، فعولت على مراعاة ذلك عند تسوية الحالة المالية . ورأت أيضاً ان الدائنين لم ينحصروا في أصحاب المصارف والمقاولين بل منهم طائفة كبيرة من أصحاب المهنات الحفيرة كالحجارين والجمالين والحلاقين ، وان كثيراً منهم لم تكن بأيديهم من الحجج القوية ما يكفي لتبرير دفع مطالبهم

وقفت اللجنة على كل ذلك ، وقررت الحيطة العامة التي يجب اتخاذها لتلافي هذا

المرض ، ولكنها رأت قبل التعرض للتفصيلات الواجب اتباعها في حل المشكلة
مقترحات اللجنة المالية ان تطلب الى الخديوى اصلاحات لا يتسنى بدونها السير بمقتضى اقتراحاتها
فطلبت من سموه أمرين : الأول أن يتنازل عن جميع أملاكه للحكومة ، ويجعل
له نظير ذلك راتب سنوى يفي بحاجاته اذا راعى جانب الاعتدال ، والثانى أن
لا يستقل بادارة شؤون البلاد ، بأن يُشرك معه وزراء مؤاخذين على أعمالهم ، حتى
لا يتم عمل الآ بعد مراعاة مصلحة البلاد

وأرسلت اللجنة الى سموه تقريراً بذلك في أوائل شعبان سنة ١٢٩٥ هـ
(اغسطس سنة ١٨٧٨ م) ، وبعد أن نظر في مطالبهم عول على اجابتها ، وأمر بتشكيل
وزارة مستقلة برئاسة نوبار باشا بتاريخ ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٥ هـ (٢٣ اغسطس ١٨٧٨)
وادخل في عدادها السير رفرز ولسن والمسيودى بلنير ، فصار للأوربيين وزيران
في الحكومة بعد ان كان لهم مراقبان محدودا النفوذ ، وفي ١٩ شوال (اكتوبر)
أصدر أمراً عالياً بالتنازل عن معظم املاك الأسرة الخديوية للحكومة ، وجُعِلت هذه
الأمالك « الدومين » ضماناً لدين جديد قدره ٨,٥٠٠,٠٠٠ جنيه للاستعانة به في
عدة شؤون ، منها تسديد الديون الثابتة (ذات السندات) . وهذا الدين هو الذى
عرف بدين « روتشيلد » نسبة الى أصحاب البيت الذين اقترضوه الحكومة . وقد تم
تسديده في سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) فألغيت اذ ذاك مصلحة الدومين التى كانت
تدير الاملاك الضامنة لهذا الدين ، ودخلت هذه الأملاك من ذلك الحين ضمن
الأملاك الأميرية العادية

واستمرت اللجنة في فحص الشؤون المالية وادخال الاصلاحات الجديدة تمهيداً
لتسوية الدين بطريقة نهائية . وكانت بالطبع تتبع فيما يختص بدفع أرباح الدين
واقساطه النظام الذى سُن بموافقة صندوق الدين في سنة ١٨٧٦ م (نتيجة بعث
غوشن) ، ريثما تفرغ من وضع نظامها الجديد . ولا يخفى أن ذلك النظام لم يكن بحيث

تقوى موارد البلاد على القيام بشروطه ، فعانى الوزراء مصاعب حمة في جمع الأموال اللازمة ، ولم يعاونهم الخديوى بنفوذ الأدي ، فظن الأوروبيون انه يعرقل مساعى الإصلاح الذى يريدونه لما فيه من سلبه بعض نفوذه ، وساعدهم على هذا الاعتقاد أن ثار الجند لعدم قيام الوزارة الجديدة بدفع ما تأخر لهم من الرواتب ، فتجمعوا ثوران الجند أمام وزارة المالية وقبضوا على « نوبار باشا » و « السير رفرزولسن » وأهانوهما ، ولم ينصرفوا إلا بعد أن حضر الخديوى وأمرهم بالانصراف فانصرفوا سريعاً . فكان ذلك سبباً في الظن بأنهم ثاروا بإيعاز منه

وعند ذلك أعلن الخديوى أعضاء اللجنة انه لا يعد نفسه مؤاخذاً عما يحدث من الخلل أو الاضطراب بالبلاد ، ما لم يكن له نصيب فعّال في حكمها . وبعد أن تداول معهم في هذا الشأن أُقيل « نوبار باشا » من رئاسة الوزارة ، تخافت الدول أن يعود الخديوى الى الاستبداد بالسلطة ، ففاوضوه في الأمر . ثم أقرّ الخديوى على ان يعهد برئاسة الوزارة الجديدة لولى العهد ابنه « الأمير توفيق » ، بشرط أن لا يتدخل هو في قرارات مجلس النظار ، وإن يكون للنظرين الأوربيين جميع الحقوق المحولة لباقي النظار فشرعت الوزارة الجديدة في العمل بالاتفاق مع أعضاء صندوق الدين ولجنة التحقيق حسب العادة ، وكانت أرباح بعض الدين تستحق الدفع في ٨ ربيع الثانى سنة ١٢٩٦ هـ (أول ابريل سنة ١٨٧٩ م) ، فلم يتوافر لدى صندوق الدين المبلغ اللازم لدفعها في حينها ، فقرر أعضاؤه بالاتفاق مع لجنة التحقيق والوزارة تأجيل الدفع الى أول مايو ، فأظهر الخديوى استياءه من ذلك ، وقال انه عار على مصر ، وعده دليلاً على ان كل هذا التدخل الأوربى لم يأتِ بالنتيجة المطلوبة . وكان تقرير لجنة التحقيق قد قارب الانتهاء وعُرف جل ما فيه . وعلم الخديوى ان التقرير سيعان رسمياً إفلاس الحكومة المصرية ، فانتهاز فرصة حدوث كل ذلك ، وعمل على استرجاع نفوذه وخلع الوزارة التى بها عضوان من الفرنج وكل أعمالها باشارتهما

وقام هو باعداد مشروع لتسوية الأمور المالية مخالف لمشروع اللجنة ولا يقتضى رضا الخديوى

اقالة نوبار
وتنصيب
الأمير توفيق

تقرير
تأجيل الدفع

عدم

خلع الوزارة التي بها اوريان بالنيابة عن الأمة استياءهم من الحالة الحاضرة ومن عزم الفرنج على اعلان افلاس الحكومة ، وطلبوا اليه تشكيل وزارة مصرية محضة تكون مؤاخذه أمام مجلس الأعيان ، فعزل الخديوى الوزارة وشكل غيرها برئاسة « شريف باشا » اختار جميع أعضائها من المصريين ، وعوّل أيضاً على رفض المشروع الذى ستقدمه لجنة التحقيق لحل المسائل المالية ، وعزم على العمل بموجب المشروع الذى حضره هو بمعونة أتباعه فثارت كل هذه الأمور غضب الدول الأوربية وعلّموا انه لا يمكن أنجاز أى عمل لتسوية المالية المصرية وتثبيت حقوق رعاياها ، ما دام اسماعيل باشا خديوياً على مصر ، إذ ظهر انه يأبى الآن أن يكون هو صاحب السلطة فى البلاد ، وأن يتصرف فى شؤونها وما لها كيف شاء ، وبعد أن تفاوضت فيما بينها قررت عزله من خديوية مصر ، فعرضت عليه أن يستقيل ، فلم يقبل وأحال الأمر على السلطان . فما زالت الدول تستعمل النفوذ والتهديد لدى الباب العالى حتى استصعدوا منه أمراً بعزل اسماعيل باشا ، فجاء منه الى مصر نبأ برقى بذلك فى ٦ رجب سنة ١٢٩٦ هـ (٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ م) ، فلم يبدِ اسماعيل باشا مقاومة أخرى وعهد بأمر البلاد الى ابنه « توفيق باشا » (وكان قد ورد اليه نبأ برقى آخر بتوليته على مصر)

وخرج اسماعيل باشا من مصر فى ١٠ رجب (٣٠ يونيه) وأبحر من الاسكندرية على سفينته « المحروسة » الى ايطاليا

التأهب لرفض
اقتراح اللجنة

عزل
اسماعيل باشا

فصل الخامس

أوائل حكم توفيق باشا

١٢٩٦ - ١٢٩٨ هـ (١٨٧٩ - ١٨٨١ م)

تولى توفيق باشا أريكة مصر (١٩ شعبان سنة ١٢٩٦ هـ : ٨ أغسطس ١٨٧٩ م) المصاعب عند
والمصاعب تحيط بالبلاد من كل جانب : فالخزانة خالية والجيش معتل النظام ، والأهلون
ساخطون — الفقراء منهم لما نالهم من الجور ، والأغنياء مخافة أن يفقدوا ما نالوه من



توفيق باشا

المزايا في عهد اسماعيل — والأوروبيون ناقصون ، لأن أموالهم لم تُدفع اليهم ولأن الاضطرابات السائدة جعلت التجارة في كساد فقلت بذلك أرباحهم . ولم يكن لتوفيق باشا رحمه الله من الدهاء والعزم ما يجعله خير مكافح لكل هذه الخطوب ، إلا أنه كان محباً للبلاد شديد الميل الى ما فيه راحتها ، فلم يذخر وسعاً في العمل على إسماعيلها وإيقادها مما حل بها من العناء بادخال كل ما يمكنه من الإصلاح

وقبل ان يسير هذا الإصلاح في مجراه اقتضت الأحوال الفصل في أربعة أمور هامة : أولها تحديد مقدار نفوذ الخديوى في حكم البلاد ، والثاني تقرير العلاقة بين الخديوى والدولة العلية ، والثالث تعيين نوع الإشراف الذى يكون للأوربيين على شؤون مصر ، والرابع الفصل فى المسائل المالية بطريقة تكفل الاتفاق بين الحكومة المصرية ودانيتها الأوربيين

٤ امور
للفصل فيها

ففى المسألة الأولى عول الخديوى على اشراك وزرائه معه فى حكم البلاد وعدم الاستئثار بالسلطة ، فعهد الى « شريف باشا » بتشكيل وزارة . فقدم اليه هذا مشروعاً يقتضى جعل الحكومة نيابية محضة ، فلم يوافق عليه الخديوى لاعتقاده ان البلاد لا تستطيع أن تخطو دفعة واحدة من حكومة استبدادية مطلقة الى حكومة نيابية محضة ، فاضطر شريف باشا الى الاستقالة (٢٩ شعبان سنة ١٢٩٦ هـ : ١٨ اغسطس سنة ١٨٧٩ م) . فعزم الخديوى على ترؤس مجلس الوزراء بنفسه ، إلا أن هذه الطريقة لم تدم طويلاً ، وفى ٤ شوال (٢٢ سبتمبر) استدعى « رياض باشا » وكلفه لتشكيل وزارة . وحفظ الخديوى لنفسه الحق فى ترؤس مجلس الوزراء متى رأى حاجة الى ذلك ، إلا أنه جعل للوزراء نفوذاً حقيقياً فى ادارة شؤون البلاد . فخلت بذلك المسألة حلاً مرضياً وشرعت وزارة رياض باشا فى مباشرة أعمالها على أساس ثابت

١ . الخديوى
والوزارة

وزارة
رياض باشا

أما مسألة علاقة مصر بالدولة فكان الباب العالى يريد بمناسبة عزل اسماعيل باشا أن يزيد من سيادة الدولة على مصر ويلغى الامتيازات التى منحها لاسماعيل . وكان عند اصدار الأمر بعزله أصدر معه أمراً سلطانياً بالغاء تقليد سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) .

٢ . مصر
والدولة



رياض باشا

ولما كانت تولية الخديوى الجديد تقتضى اصدار تقليد آخر عول الباب العالى على أن يكون هذا سالباً للامتيازات الأولى ، فعارضت دولتا فرنسا وإنجلترا فى الأمر وطلبنا الاطلاع على صورة التقليد قبل اصداره

وقد علمنا فيما سبق ان تقليد سنة ١٨٧٣ م يتضمن الميزات الأربع الآتية : —
مبشرات تقليد
سنة ١٨٧٣
(١) جعل الوراثة لأكبر أولاد الخديوى بدلاً من جعلها لأكبر فرد فى الأسرة (٢) منح مصر الحق فى عقد معاهدات تجارية مع الدول (٣) تخويل الخديوى حق اقتراض المال من الدول الأجنبية (٤) تخويل حق زيادة الجيش الى أى عدد أراد

فعارضت فرنسا فى الغاء هذه الامتيازات كل المعارضة ، لأنها كانت تعمل فى ذلك الحين على تقويض أملاك الدولة ونزعها من يدها ، فلا ترضى بأن يرجع اليها

في مصر نفوذ كان قد ضاع منها . أما انجائتها فلم يكن من سياستها اذ ذاك العمل على اضعاف الدولة ، فلم تعارض فيما يريد به الباب العالي الا في مسألة الوراثة ، فانها رأت بقاءها في أكبر اولاد الخديوى أضمن للسكينة في مصر . ولكن فرنسا تمسكت كل التمسك بأمر آخر وهو عدم الغاء الامتياز الخاص بعقد المعاهدات التجارية . وبعد أخذ ورد أذعن الباب العالي لهذين الطالبين واكتفى في التقليد الجديد بتعديل ما جاء في تقليد سنة ١٨٧٣ م بشأن الجيش واقتراض الديون من الدول الأجنبية ، فاشتراط أن لا يزيد الخديوى الجيش على ١٨,٠٠٠ في وقت السلم (وفي وقت الحرب يكون الأمر للدولة) ، وأن لا يعقد قروضاً جديدة « الا بالاتفاق مع الدائنين الحاضرين أو وكلائهم ويكون ذلك منحصراً في تسوية أحوال المالية الحاضرة »

إبقاء ميزتين

أما المسألة الثالثة وهي تعيين نوع اشراف الأوربيين على شؤون الحكومة فقد تم الاتفاق بين الخديوى وبين الدول الأوربية على أن تجدد « المراقبة الثنائية » التي كانت في عهد اسماعيل ، بشرط أن تقتصر أعمال المراقبين على الفحص والتحقيق ، وان لا تتعداهما الى التدخل في شؤون الادارة . فعُيِّن « السير إفلين بيرنج » مراقباً من قبل انجلترا ، و « الميودى بلنير » مراقباً من قبل فرنسا (ذى الحجة سنة ١٢٩٦ هـ : نوفمبر سنة ١٨٧٩ م) ، واشترطت حكومتاهما أن لا يُعزل أحدهما من منصبه الا بعد موافقة دولته . فسلم المراقبان أعمالهما ، ولم يقسما اختصاصهما بل عملاً سوياً بالتكافل ، وعوّلا في مهمتهما على السير مع رجال الحكومة المصرية بالحزم والمجاملة كي يكسبا ثقتها ، فتيسر لهما اجراء ما يلزم من الاصلاح في مالية البلاد وشؤونها بدون مقاومة منها . وبالفعل حازا ثقة الحكومة فأذن لهما بحضور جلسات مجلس النظار . وأعدداً مشروعات كثيرة نافعة كان لها الأثر الأكبر في تسوية الديون المصرية تسوية نهائية ، وفي كثير من الاصلاح الذي تم بالبلاد عقب الاحتلال البريطاني وأما المسألة الأخيرة وهي الفصل بين الحكومة المصرية ودائليها فنقرر بشأنها تشكيل لجنة شبيهة بلجنة التحقيق التي سبق ذكرها يقال لها « لجنة التصفية » ، الغرض

٣ . الاشراف
الاوربي

المراقبة الثنائية

٤ . الدين
المصرى

منها عمل حل نهائى للمشاكل التى بين الحكومة ودانيتها ، بحيث لا يُعْبَن أحد الطرفين أكثر من الآخر . فشكّلت اللجنة من أعضاء ممثلين للدول الأوربية العظمى ، وفيهم أعضاء لجنة صندوق الدين ، برئاسة « السير رَفَرَز وِلْسَن » ، واتفقت الدول على ان ترضى بما تقرره اللجنة فى هذا الشأن . ولم يكن المراقبان من بين أعضاء هذه اللجنة ، بل بقيا فى جانب الحكومة ليدفعا عنها من الغبن ما عسى أن يطمع فيه أعضاء اللجنة

وفى أثناء اشتغال اللجنة بالفحص والمناقشة فى أمر تصفية الدين انصرف المراقبان مشروع المراقبين للتصفية الى عمل كل اصلاح فيه اتسهل لسير أعمال الحكومة فى المستقبل على أساس متين وقاما من تلقاء نفسيهما بتحضير مشروع لتصفية الديون رجاء أن تتبعه اللجنة ان لم تُوفَّقْ هى الى عمل مشروع من عندها (لوقوع الخلاف يومئذٍ بين بعض أعضائها) . وأهم ما جاء فى هذا المشروع ان يُنْقَصَ ربح الدين الموحد من ٧٪ الى ٤٪ ، وان يصرف النظر عن جميع الأرباح المتأخرة التى لم تدفع فى المضى : ومن الاصلاحات التى قام بها المراقبان انها سهرت على العمل بما اقترحته لجنة التحقيق من الاصلاح : فأُلغى قانون المقابلة نهائياً ، وأُنْقَصَ الفرق بين الأراضى العشرية والخراجية بزيادة ضريبة اضافية على الأراضى العشرية قدرها ١٥٠.٠٠٠ جنيهًا ، وأُلغى معظم الضرائب الدنيئة مثل العوائد الشخصية ورسوم القبانة والصرافة ورسوم الأراضى فى أسواق الريف . ومن أهم هذا الاصلاح تعيين مواعيد محدودة لجمع ضريبة الأراضى بحيث تُدفع الأقساط فى أوقات تناسب المزارعين . ولا يخفى ما كان يلاقيه هؤلاء من قبل من جراء مطالبتهم بها فى غير موعد وبدون انذار

وَأما مسألة تصفية الدين فلم يقدم أعضاء اللجنة عنها تقريراً ، وانما تم الاتفاق على حل للمسألة (ربما استمدَّ أكثره من اقتراحات المراقبين) ، وصدر بذلك أمر عال فى ٨ شعبان سنة ١٢٩٧ هـ (١٧ يوليه سنة ١٨٨٠ م) يُعرف « بقانون التصفية » . ويُخلص فيما يأتى :

الموافقة
على المشروع

قانون التصفية (١) يخفض ربح الدين الموحد الى ٤ ٪ ويكون الضمان لذلك الدين دخل المكوس (الجارك) بما فيها رسوم الدخان، ودخل مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة، وتُدفع هذه الأموال الى صندوق الدين مباشرة

(٢) يدخل في الدين الموحد الباقي من الديون القصيرة الأجل التي اقترضت في سنة ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ م بنقص ٢٠ ٪ من قيمتها

(٣) يُستصدر قرض ممتاز جديد بمبلغ ٨,٧٤٣,٨٠٠ جنيه لدفع الديون السائرة التي لم تسدد بعد

(٤) تدبر « الدائرة السنوية » ادارةً تشرف عليها هيئة من مندوبي الدول ، ويكون ربح القرض المستصدر عليها ٤ ٪ حتماً و ٥ ٪ اذا كفت غلة أراضي الدائرة لذلك (لم تكف الغلة قط لدفع ٥ ٪)

(٥) تدفع الديون السائرة جزئياً أو بالكامل ، وبالنقد أو بسندات مالية من السندات الممتازة، حسب أهمية المستندات التي بأيدي أصحاب هذه الديون

(٦) يُصرف مبلغ ١٥٠,٠٠٠ جنيه سنوياً لمدة ٥٠ سنة للذين دفعوا أموال « المقابلة » ، اذ ان الضرائب المفروضة على أرضهم لن تخفض كما كانوا ينتظرون

(٧) يقسم دخل الحكومة الى قسمين : قسم خاص بنفقات ادارة البلاد لايزيد بحال من الأحوال على ٤,٥٢٠,٠٠٠ جنيه ، وقسم لسد أرباح الدين وأقساطه وهو الباقي من الدخل (البالغ في تلك السنة ٨,٤١٢,٠٠٠ جنيه)

حل المسألة المالية نهائياً هذه هي الأنظمة النهائية التي حُلَّت بها مسألة المالية المصرية وأقرتها الدول . ويلاحظ أنه بمقتضاها نقص مقدار الدين المصرى وأرباحه عما كان عليه بمقتضى الأنظمة السالفة

أما بيان اجزاء الدين عند صدور قانون التصفية فيمكن تلخيصه فيما يأتي :

الدين
وقت صدور
قانون التصفية

الدين الموحد	الدين الممتاز	دين الدائرة السنية	دين الدومين (روتشيلد)	الجملة	جملة الأرباح سنوياً
بسعر ٤ ٪	بسعر ٥ ٪	بسعر ٤ ٪	بسعر ٥ ٪		
٥٧,٧٧٦,٢٤٠	٢٢,٥٨٧,٨٠٠	٩,٥١٢,٦٠٠	٨,٤٩٩,٦٢٠	٩٨,٢٧١,٦٦٠	٣,٩٧٢,٣٨٧

وبعد الفصل في مسألة الدين تفرغت المراقبة الثنائية والوزارة المصرية لإدخال كثير من الإصلاح. وكان من أهم ذلك ان شُكلت لجنة علمية للنظر في أمر التعليم برئاسة على ابراهيم باشا ناظر المعارف في ٧ جمادى سنة ١٢٩٧هـ (٢٧ مايو ١٨٨٠م) فاجتمعت مراراً وعدلت مناهج التعليم ووسعت نطاقه في البلاد. ثم قدمت تقريراً بما تراه من الإصلاح، فأقرته الحكومة وأبلغت ميزانية المعارف الى ضعفي ما كانت عليه. واهتمت الحكومة ايضاً بطرق الري وانشاء الترع والقناطر والجسور وغير ذلك من أسباب زيادة الثروة. وبالاختصار دخلت البلاد في طور اصلاح جديد كان يُرجى منه خير كبير لولا ان داهمتها تلك الحوادث المشؤمة المعروفة بالثورة العراقية

فصل السافس

الحوادث العراقية .

١٢٩٨ — ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ — ١٨٨٢ م)

عند ما كانت الاصلاحات التي ذكرناها سائرة في طريق تقدم البلاد كان روح تدمير الضباط الاستياء يتفشى في الجيش يوماً بعد يوم . ذلك لأن معظم الترقى بين ضباطه كان قاصراً على الأتراك منهم والشراكسة ، وقلما وُجد وطني متقلداً احدى الرتب والألقاب السامية . وكان الضباط المصريون يتوقعون أن ينال الجيش شئ من الاصلاح العام الذي دخل البلاد فلم يحظوا بأمنيتهنم ، فخذوا على الحكومة . وازداد

سبب سخطهم حينما أصدر « عثمان رفقي باشا » الشراكسي الأصل ناظر الحربية قانون القرعة القاضى بمنع الترقى من « تحت السلاح » ، اذ جعلت فيه مدة الخدمة العسكرية فى الجيش العامل أربع سنوات فقط ، يذهب الجندى بعدها الى بلده ويبقى « رديفاً » خمس سنوات و « احتياطياً » ست سنوات . والمدة الأولى غير كافية للحصول على معلومات عسكرية تؤهل الجنند للترقى

اتفاقهم على عند ذلك تدمير بعض الضباط المصريين بزعماء « على فهمى » و « احمد عرابى » و « عبد ارسال معروض العال حامى » من أمراء (الآلايات) ، وقرروا الاحتجاج على ذلك بارسال معروض الى رياض باشا رئيس النظار يطلبون فيه : — أولاً عزل « رفقي باشا » من وزارة الحربية ، وثانياً اجراء تحقيق فى كفاءة من فازوا بالترقى حديثاً بدون استحقاق . وكان المعروض شديد اللهجة فأدى الى سلوك الحكومة مسلكاً جعل هذه الحادثة فاتحة لغيرها من الحوادث التى سُميت بالثورة العرابية

لم يكن احمد عرابى الحرك الأول لهذه الثورة ، وانما كان الحرك لها « على فهمى بك » لأنه أمير (الآلاى) المعبود اليه حراسة القصر الخديوى ، وكان قد أوقع به رفقي باشا عند الخديوى لأمر فى نفسه ، فحقد « على فهمى » عليه ذلك وعمل على النكاية به . أما اطلاق لفظ « عرابية » على هذه الحوادث فلأن احمد عرابى هو الذى بعد انضمامه الى أصحاب الحركة الأولين ظهر عليهم حتى صار هو الحرك لكل شئ ، فيما بعد . وسبب ظهوره على غيره انه كان قبل الانضمام الى الجيش يطلب العلم بالأزهر الشريف ، فكانت له مقدرة متوسطة فى الخطابة لم تكن عند غيره من الضباط ، فضلاً عن أن انتماءه للبيت العلوى الشريف يرشحه لا كبر زعامة اسلامية ، فأصبح بكل هذا صاحب المقام الأكبر فى الثورة . واعتقد الناس فى اخلاصه ، لأنهم لم يروا له غرضاً خاصاً مما كان يُظن فى غيره من أصحاب هذه الحركة

تقديم المعروض أما المعروض الآنف الذكر فقدمه الى رياض باشا احمد عرابى وعلى فهمى بأنفسهما (١٣ صفر سنة ١٢٩٨ هـ : ١٥ يناير ١٨٨١ م) . فألح عليهما أن يسترجعاه ، وهو

في نظير ذلك يبذل غاية وسعة في تلبية مطالبهما . فلما لم يذعن الضابطان لنصحه ، وسمع الخديوى بالأمر ، استشاط غضباً ، وأمر بتأديب هؤلاء العصاة وقمع روح الفتنة في الجيش . وفي يوم ٢٨ صفر (٣٠ يناير) عُقد مجلس النظر برئاسة الخديوى (ولم يصرَّح للمراقبين الأوربيين بحضور الجلسة) ، وقرر القبض أولاً على الضابطين المشار اليهما ونحاكتهما أمام مجلس حربى ، ثم النظر في مظالمهما

رياض باشا
برجوههم
استرجاعه

عزم الخديوى
على محاكمتهم

وفي غرة ربيع الأول (فبراير) استدعى الضابطان الى وزارة الحربية دون أن يُخبراً بأن ذلك لمحاكمتهم . ولكن قرار مجلس النظر كان قد بلغهما سراً ، فاتفقا مع ضباط فرقهما ورجلها على ان هؤلاء ان وجدوا ان رئيسيهما لم يعودا بعد ساعتين ذهبوا لاقتاذهما بالقوة . ولما بلغ الضابطان نظارة الحربية (قصر النيل) قبض عليهما وأحيلوا في الحال على مجلس عسكرى للمحاكمة . فبينما هذا المجلس مجتمع اذ هجم ضباط (الأولايين) ورجلها وأخرجوا رئيسيهما من حجرة اجتماع المجلس بعد ان عبثوا بأثاثها وأهانوا ناظر الحربية . ثم سار احمد عرابى وعلى فهمى بجندهما الى قصر عابدين وطلبا الى الخديوى عزل ناظر الحربية . وبعد ان نظر الخديوى في حرج الأمر لم يرَ بداً من اجابة طلبهما ، فصرف عثمان رفقي باشا بمحمود باشا ساعى البارودى . ففرح الثوار ، وطلب فهمى بك وعرابى بك العفو من الخديوى بعد ان أعربا له عن رغبتهما فى الولاء لسموه

تنصيب
البارودى
على الحربية

هذه هى ثانى مرة ثار فيها رجال الجيش : ثاروا فى عهد اسماعيل فلم يصبهم اذى ، وعزل نوبار باشا من رئاسة الوزراء عقب ثورتهم ، وثاروا هذه المرة فغلبوا الوزارة والخديوى على أمرهم ، وفازوا فى الحال بعزل رفقي باشا موضوع كراحتهم وأصل تمردهم . فعلموا من ذلك ان لا شئ يقف فى سبيل مطالبهم وان الفوز فى ثباتهم وتمسكهم برأيهم وبعد ان عزل الخديوى ناظر الحربية أمر بتشكيل لجنة للنظر فى مظالم رجال الجيش ورفع رواتب الضباط والجند المصريين ، وأعلن انهم سيكونون فى مستوى واحد مع غيرهم من الأتراك والجرأكسة . وبالاختصار هذأت الأحوال قليلاً ، وكان

النظر فى
مظالم الجيش

يُظَن أن الخطب انتهى عند هذا الحد

خوف رجال الجيش
على أن رجال الجيش لم يهدأ روعهم وعاشوا في خوف من الخديوى ، خشية أن يكيد لهم كيداً ، عقاباً لهم على ثوراتهم ، وكانوا يرون كل يوم من الشبهات ما زاد اضطرابهم ، خصوصاً أن ناظر الحربية الجديد « محمود سامى باشا » عُزل ونُصب مكانه « داود باشا » ابن أخى الخديوى . وفى مساء ١٣ شوال (٨ سبتمبر) ذهب الى بيت عرابى بك رجل غير معروف ، فلم يسمح له بالدخول . فرأى عرابى بك أمره ، وذهب فى الحال ليقص ذلك على زملائه من الضباط ، وإذا بهم قد حدث لهم ذلك الأمر بعينه ! فأيقنوا أن هناك مكيدة لاغتيالهم

مظاهرة عابدين
وازداد اعتقادهم يقيناً عند ما أصبحوا فرأوا أن الأوامر صدرت (للآلاى) الثالث (من الرجال) بالسفر الى الاسكندرية . فهاجوا وماجوا ، وسار عرابى بك بقسم من الجيش يبلغ ٢,٥٠٠ رجل معهم ١٨ مدفعاً الى ميدان عابدين ، واصطفوا أمام قصر الخديوى فى عصر ١٥ شوال (٩ سبتمبر) يريدون مطالب جديدة

الخديوى
يستشير
أوكلند كلفن
فقال الخديوى الأمر وطلب « السير أوكلند كلفن » المراقب الانجليزى* ليستشير فيما يجب عمله . فحضر هذا وسار مع الخديوى الى قصر عابدين ، ونصح له بالظهور بالثبات ، وأن لا ينس أنه ملك البلاد ، وأن له هبة تصغر أمامها كل شجاعة لعرابى ورجاله

عرابى يخاطب الخديوى
فنزّل الخديوى الى الميدان ، فتقدم اليه عرابى بك ليعرض مطالبه ، وكان ممتطياً جواده ويده حسامه . فناداه الخديوى أن « تَرَجَّل واغمد سيفك . ففعل ذلك بالامثال الواجب للملوك . ثم سأله الخديوى عما يقصد من عمله هذا فقال : « يا مولاي للأمة ثلاثة مطالب قد أتى الجيش الى هنا للحصول عليها بالنياحة عن الأمة ، ولن ينصرف حتى يحظى بها »

عند ذلك أشار « السير أوكلند كلفن » على الخديوى أن لا يناقش الجند فى

* وكان هذا قد نصب مكان السير افلن بيرنج الذى نقل الى منصب آخر بالهند .

هذه الأمور ، حفظاً لكرامته ، وأن يدخل القصر ويترك له أمر المفاوضة معهم فيما
يريدون فخطب السير اوكاند كلفن الجيش ، وشرح لهم حرج الحالة ، ونصح لهم
بالانصراف قبل أن يتفقم الخطب . فتمسك الثائرون بمطالبهم وهي :
نصيحة
اوكاند كلفن
للجيش
مطالب العراقيين

(١) عزل جميع النظار وتشكيل وزارة جديدة

(٢) تشكيل مجلس نيابي للأمة

(٣) زيادة عدد الجيش الى ١٨,٠٠٠

وبعد المداولة رضی الخديوى بعزل النظار مع إرجاء الفصل في الطلبين الآخرين
الى ان يؤخذ رأى الباب العالى
منح
المطلب الاول

فقبل عرابى ذلك ، وانصرف الجيش داعياً للخديوى بطول البقاء . وطلب عرابى انصراف الجيش
الى الخديوى ان يصفح عنه ، فكان له ذلك

وكانت شوكة عرابى قد عظمت ، ونفدت كلمته في الجيش ، ثم تعدته الى الكثير
من العمدة والأعيان والعلماء ، بما ينشره بينهم من الأقوال الجاذبة من « انقاذ الوطن »
وغير ذلك من الزخارف الباطلة التي كان لها أسوأ عاقبة في البلاد . وسهل اقتياد
بعض الأهليين له ما رأوه من تدخل الأجانب في شؤون مصر ، واجحافهم بحقوق
الوطنيين عند اعداد قانون التصفية . ثم داخل « عرابياً » الفرور ، فبالغ في ادعاء
ما ليس من حقه . من ذلك انه أصدر في ٩ سبتمبر منشوراً لقناصل الدول يطمنئهم
فيه على رعايا دولهم ويخبرهم انه المؤاخذ على حفظ النظام ! وهو حق غريب استباحه
لنفسه ، وكان الأجدر تركه لأمر البلاد أو لأحد وزرائه
اتساع
نفوذ عرابى
مشور عرابى
للقناصل

ولما انقضت مظاهرة عابدين طلب الخديوى من شريف باشا أن يشكل وزارة
جديدة ، فتردد أولاً لعله انه سيكون ألعبوبة في يد الحزب العسكرى ، اذ كانوا هم
العاملين على اسقاط من قبله . ثم ألح عليه الأعيان ورجال الجيش ، فقبلها على شرط
ان يتعهد رؤساء الحزب العسكرى بالامثال للأوامر ، فقبلوا ذلك ، وشكلت الوزارة
في ٢٠ شوال سنة ١٢٩٨ هـ (١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ م)
وزارة
شريف باشا



أحمد عرابي

ابعد عرابي
وعبد العال
ورأى شريف باشا تهديّة للأفكار ان يُبعد رؤساء الحزب العسكري عن العاصمة،
فأشار على عرابي بالذهاب مع (آلايه) الى رأس الوادي، وعلى عبد العال بالذهاب
مع آلايه الى دمياط، فامثلا. وصادف غيابهما عن القاهرة حضور وفد من قبل
الباب العالي للنظر فيما سمعته الدولة من المشاكل الجارية في مصر، فوجد ظاهر
الأمر هادئاً فأعلم الدولة بذلك

تشكيل
مجلس الشورى
وبعد سفر الوفد أصدر الخديوي أمراً في ٢٦ المحرم سنة ١٢٩٩ هـ (١٨ ديسمبر
١٨٨١ م) بتنصيب « محمد سلطان باشا » رئيساً لمجلس شورى النواب، فاجتمعت
أعضاؤه وشُكلت منهم لجنة لمراجعة قانون المجلس. فأقرّت اللجنة أكثر مواده، إلا
ما تعلق منها بميزانية الحكومة، فان اللجنة رأت أن للمجلس الحق في مراجعتها، مع

ان شريف باشا قد شرّع في القانون عدم جواز ذلك للمجلس، عملاً برغبة المراقبين رنض
والدول الأوربية ، لأنهم كانوا يخشون تسرّب الاضطراب ثانيةً إلى الشؤون المالية مطالب الاعضاء
مما يؤدي الى نقض أحكام قانون التصفية

وكانت عُرِي الاتفاق بين الأعيان ورجال الجيش قد وثقت ، ثم قوى جانب
الجميع بثبوت قدم الحزب العسكري وتنصيب عرابي باشا في ربيع الأول سنة ١٢٩٩ هـ
(يناير ١٨٨٢ م) وكيلًا لنظارة الحربية ارضاءً لذلك الحزب . فتمسكت اللجنة برأيها ، تمسكهم بمطلبهم
ولم يرَ شريف باشا وسيلة الى اجابة طلبها لعله ان الدول لا تسمح بذلك مطلقاً
وكانت الحكومة الفرنسية منذ مظاهرة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ م ترى وجوب بسط
انجلترا وفرنسا شيئاً من الإشراف على الديار المصرية . فلما رأس الوزارة الفرنسية اغراض فرنسا
المسيو « غَمْبِتّا » في شهر ديسمبر عمل بكل قواه على تنفيذ هذه السياسة ، وعرض
الفكرة على اللورد « غِرْنِفِل » وزير الخارجية البريطانية ، موضحاً له ان الحوادث
الجارية بمصر تستدعي التدخل في شؤون تلك البلاد محافظةً على الأموال والمصالح
الأوربية لانهاز الفرصة

ولم يكن من سياسة بريطانيا العظمى في ذلك الحين مشاركة فرنسا في بسط شيء سياسة انجلترا
من النفوذ على مصر ، ولكن دَفَعَتْهَا الرغبة في ارضاء تلك الدولة (لما بينهما من
التحالف) الى اظهار شيء من الموافقة على رأى المسيو غمبِتّا . على ان هذا الوزير
طالما عرض عليه اللورد غرنفل أن يطلب من الباب العالي أن يتدخل هو في أمر مصر
ويحتلها بجنوده ان اقتضى الأمر ذلك ، فكان دائماً يقابل ذلك بالرفض

ثم وجد المسيو غمبِتّا من عزم مجلس شورى النواب المصري على طلب فحص اقتراح فرنسا
الميزانية فرصةً للشروع في انفاذ ما يرمى اليه . فعرض على اللورد غرنفل أن ترسل على انجلترا
حكومتا انجلترا وفرنسا بالاشتراك مذكرة الى معتمديهما بمصر ليخبرا الخديوي « برغبة
دولتيهما في مساعدته ومساعدة حكومته للتغلب على المصاعب المتنوعة التي تزيد
الارتباك والقلق في القطر المصري ، وان الدولتين على وفاق تام فيما يختص بمصر ،

خصوصاً بعدما حدث من الحوادث الأخيرة التي من أهمها اجتماع مجلس شورى النواب »

مذكرة
انجلترا وفرنسا
الى الخديوى

فوافق اللورد غرنفل على ارسال المذكرة بعد تردد واشترط في جوابه ان موافقة الحكومة البريطانية على ذلك لا يقيد بها بالقيام بأى عمل فى المستقبل للتدخل فى مصر ان اقتضى الأمر ذلك . فرضيت الحكومة الفرنسية بالشرط ، وأرسلت المذكرة وبلغت رسمياً للخديوى فى ١٩ صفر سنة ١٢٩٩ هـ (٨ يناير ١٨٨٢ م) ، فقابلها الخديوى بالشكر والامتنان

اثر المذكرة
السيء فى مصر

على ان المذكرة وقعت على غير الخديوى وقوع الصاعقة ، وارتاب جميع الطبقات فى نيات الدولتين . واعتقد أعضاء مجلس الشورى انهم المقصودون بذلك ، وان الدولتين تريدان تقويض سلطة مجلسهم . فزاد اتحادهم مع رجال الجيش وتمسكوا بأذيال عرابى وحزبه . أما الباب العالى فثار خاطره أيضاً لهذا العمل الذى فيه افتيات على حقوقه ، اذ هو صاحب السيادة فى مصر ، وكان هو الأولى بالتدخل فى شؤونها

اقترح ارسال
مذكرة ايضاحية

فلما رأى شريف باشا ما كان المذكرة من الأثر السيئ طلب الى الدولتين أن ترسلوا مذكرة ايضاحية تفسر الأولى وتبين ان الدولتين لا ترميان الى غرض سيئ . فوافقت الحكومة الانجليزية على هذا الرأى ، ولكن المسيو غمبتا عارض أشد المعارضة وقال انه يذهب بهيبة الدولتين ، فعملت الحكومة الانجليزية هذه المرة أيضاً برأيه على غير رغبته

استقار وزارة
شريف باشا

وفى هذه الأثناء كان يزداد سخط أعضاء مجلس الشورى ، وازدادوا تمسكاً برأيهم فى أمر الميزانية . ولما رأوا ان شريف باشا يعارضهم طلبوا الى الخديوى اقالته فاستقال . ثم شكّل الخديوى وزارة جديدة فى ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٩٩ هـ (١٥ فبراير سنة ١٨٨٢) برئاسة « محمود سامى باشا البارودى » طبقاً لرغبة أعضاء المجلس ، وجعل أيضاً عرابى وزير الحرية فيها

على ان اذعان الخديوى لرغبة الأعيان بهذه الصفة لم يقصد به إلا حل عاجل



محمود باشا سامى البارودى

المشكلة ريثما يتم الاتفاق على من يوكل اليه قمع هؤلاء الثوار بالقوة ، لأنه يستحيل
حكم البلاد بوزارة رأسها من المنتمين للحزب الثائر ، ووزير الحرية فيها عرابى نفسه ،
وهو اكبر عامل فى الثورة

وبمجرد تشكيل الوزارة الجديدة أخذ نفوذ الحزب العسكرى فى الازدياد يوماً بعد
يوم ، حتى امتد الى جميع أعمال الحكومة ، وفى يوم ٢٠ فبراير كتب « السير إدورذ
مات » المعتمد البريطانى بمصر الى حكومته يخبرها بأن المراقبة الثنائية أصبحت
اسمية فقط

ثم زادت الوزارة الجديدة من عدد الجيش ، ورفعت روائب رجاله ، بلا اكتراث
بما يصيب الميزانية من جراء ذلك ، ووقّت كثيراً من الضباط بدون اختبار ، فجرّ
كل ذلك الى اشتداد الخلاف بين الخديوى ووزرائه ، وتفاقم الخطب حتى كان يُظن

الخلاف
بين الخديوى
ووزرائه

ان العربيين يرمون الى عزل الخديوى وتنصيب محمود باشا سامى مكانه
تحريك الدول كل هذه الأعمال حرّكت همّة الدول الأوربية من جديد . وكانت وزارة المسيو
غيمبتا فى فرنسا قد سقطت وخلفه المسيو « دى فريسنيه » . ولم يكن هذا شديد
الإصرار على التدخل فى مصر كما كان سلفه ، إلا أنه رأى ان فرصة عدم التدخل
قد فاتت ، وان الحال فى مصر وصلت الى حد يستحيل معه السكوت ، اذ ظهرت كل
معالم الثورة فى أنحاء البلاد

احتجاج الباب العالى قد احتجّ على ارسال مذكرة إنجلترا وفرنسا ، فرأت هاتان
على المذكورة عرض المسألة على باقى الدول الأوربية للنظر فى الطريقة التى يجب بها الفصل فى
سكوت الدول الأمر . فلم تبد الدول معارضة فى النظر فى الأمر ، ولكنها لم تفعل شيئاً فعلياً للوصول
الى نتيجة . فبادرت الحكومة الفرنسية بمفاوضة الحكومة الانجليزية فى الأمر ، فأقرّ
قرارهما على ارسال أسطول من قبل الدولتين الى مياه الاسكندرية وتكليف الوزارة
انجلترا وفرنسا المصرية الاستقالة . ورأت الحكومة الانجليزية فوق ذلك أن يُطالب الى الباب العالى
تقرّان أن يصدر أمراً الى مصر يعضد به الخديوى ، ويستدعى زعماء الثورة الى الاستانة
استعمال القوة للاجابة عن عملهم ، فوافقت على ذلك الحكومة الفرنسية بعد تردد

وفى ٨ رجب (٢٦ مايو) قدّم معتمدا إنجلترا وفرنسا مذكرة الى رئيس مجلس
النظار طلبا فيها استقالته من الوزارة ، وإبعاد عرابى باشا عن القطر المصرى مؤقتاً مع
حفظ راتبه وألقابه ، وأن يقيم عبد العال باشا وعلى فهمى باشا فى الأرياف ، ولهما أيضاً
رواتبهما وأوسمتهما . فاستقالت الوزارة ، ولكن لم يسافر أحد من ذكروا فى المذكرة
أما الأسطول الانجليزى الفرنسى فقد وصل الى مياه الاسكندرية حسب
الاتفاق . وكان قائد السفن الانجليزية « السير بوشمب سيمور » ، فلما وصل وجد
ان النفوذ كله فى المدينة بيد الحزب العسكرى ، وان الأحوال فى هيج واضطراب ،
فأخبر دولته بذلك . وكانت الوفود من الأعيان والعلماء وغيرهم تذهب الى الخديوى
يرجونه ارجاع عرابى الى منصبه ، فلم يقبل منهم

أما الباب العالي فإنه لما باغى رجاء إنجلترا وفرنسا أراد أن يظهر بمظهر صاحب
السيادة في البلاد ، وقال انه سيرسل سفيراً من قبله لفحص المسئلة ، وانه لا داعي
لبقاء أساطيلهما بالاسكندرية . فلم توافق الدولتان على استرجاع أساطيلهما ، ورأت
أن مجرد بقاءها بالمياه المصرية يكفي لارهاب الثائرين وإلقاء الرعب في قلوبهم
ولما لم يُجِدِ هذا التأثير الأدبي نفعاً ، وازدادت الحالة خطورة يوماً بعد يوم ، دعت
إنجلترا وفرنسا الدول الأوربية الى مؤتمر بالاستانة للنظر في المسئلة المصرية ، ودُعِيَ
اليه الباب العالي ، فلم يرش بارسال مندوب من قبله اعتقاداً ان حل المسئلة المصرية
من شأنه هو ، لا من شأن مؤتمر يعقده غيره من الدول . ثم أسرع الى ارسال المشير
مصطفى درويش باشا مبعوثاً من قبله الى مصر لتتقّد أحوال العسكرية . ومن الغريب
ان الباشا المذكور قال في تقريره الى الحضرة السلطانية ان العسكر محافظة على الطاعة
والنظام ، وطلب لضباط الجيش نحو ٢٠٠ وسام منها الوسام المجيدى من الطبقة الأولى
لعرابى نفسه !

ثم اشتد غلو الحزب العسكرى ، وأخذ يجمع الجيوش ويعدّ العدة ، فزاد خوف
الأوربيين المقيمين بالبلاد ، حتى ان سكان الاسكندرية منهم تأهبوا للدفاع عن
أرواحهم عند الحاجة ، وبقيت الاحوال تزداد صعوبة واضطراباً حتى جاءت تلك
الحادثة المشؤمة الشهيرة بحادثة ١١ يونيه أو « واقعة الأحد »

وأصل هذه الحادثة انه فى يوم ٢٤ رجب سنة ١٢٩٩ هـ (١١ يونيه سنة ١٨٨٢ م)
تساجر رجل مالطى مع مكارم مصرى فى الاسكندرية لامتناع المالطى عن اعطاء
الأجر الكافى نظير ركوب حمار المكارى . وكان المالطى ثملاً بالخر ، فطعن المكارى
بمدية ، فانتصر لكل منهما قوم من ابناء ملتة ، فذمر بعض الرعاع من الوطنيين
وأرادوا أن يثاروا من الأوربيين ، ولا سيما ان حوادث الحركة العرابية كانت قد
أوغرت صدور بعض الفريقين من بعض ، وابتدأ الأوربيون يطلقون النيران من
نوافذ بيوتهم على كل مار من الوطنيين . فازداد غضب المتجمهرين ، وتضاعف

الدولة ننوى
ارسال سفير
الى مصر

• مؤتمر
القسطنطينية

مندوب الباب
العالي فى مصر

استعداد
الحزب العسكرى

حادثة ١١ يونيه
(واقعة الاحد)

الخطب . ولم يوجد مَنْ يزرع الرعاع أو يشرح لهم ضرر فعلتهم مع تمادى الأوربيين المتحصنين في بيوتهم في اطلاق النار حتى عظم القتال بين الفريقين ونهب كثير من مخازن المدينة . ثم صدرت الأوامر للجند بتفريق المتجمهرين ، فلم يأت الغروب إلا وقد هدأت الأحوال وسكن الاضطراب . وقبضت الحكومة على كثير ممن وقعت

سكون
الاضطراب

عليهم شبهة القيام بهذه الثورة

وقد كان لهذه الحادثة الحزنة أثر سيئ لدى الدول الأوروبية ، وقللت من عطفهم على مصر والمقاتلين بالحركة العربية فيها ، وقالوا ان هذه الحركة يصحبها شيء من التعصب الذميمة . وقد كان ذلك من اكبر المؤثرات فيما قرره في المؤتمر الذي عقد في الاستانة للنظر في شؤون مصر

أثر الحادثة في
أوروبا

أعمال المؤتمر أما ما كان من أمر هذا المؤتمر فإنه عُقد بالاستانة في ٦ شعبان (٢٣ يونيه) وشرع أعضاؤه في التفاوض في الأمر ، ولكن مفاوضاتهم سارت بغاية البطء لاختلاف مشارب الدول الأوروبية في أمر مصر ، وخوف كل منها من تحمّل المواجهة ، بالرغم من اعتقادهم جميعاً بأن الحالة في مصر أصبحت تدعو الى التدخل بالقوة . وبقي الباب العالي محجماً عن ارسال مندوب من قبله الى المؤتمر . ثم عرض عليه المؤتمر في ٦ يولييه ان يرسل قوة الى مصر بشروط معينة لتثبيت عرش الخديوي بمقتضى التقاليد السابقة فأخذ يرجئ ويماطل الى ان أعان في يوم ٢١ شعبان (١٠ يولييه) انه سيرسل

الباب العالي
يرسل مندوباً

مندوباً الى المؤتمر في اليوم الثاني

ولكن بعد فوات الفرصة على ان الفصل في أمر مصر كان في الحقيقة قد أفلت من يد الباب العالي والمؤتمر باعلان قائد الاسطول الانجليزى بالاسكندرية في فجر ١٠ يولييه المذكور انه سيضرب

قلاع المدينة ان لم تسلّم له في مدة أربع وعشرين ساعة

وذلك انه منذ قدومه الى المياه المصرية كان يلاحظ الهيج يزداد في المدينة يوماً بعد يوم ، ثم بلغه ان عرابي باشا يأمر بزيادة تحصين قلاع الثغر ليضرب منها الاسطول الانجليزى . فطلب ابطال هذا التحصين ، فأخبره عرابي انه ليس بالقلاع أدنى حركة

تحصين قلاع
الاسكندرية

تحصين جديدة ، وان ليس بها إلا المدافع القديمة العهد . ولكن « سيمور » أبصر
بعد ذلك ان الاستعداد في القلاع قائم على قدم وساق ، فأصدر بلاغاً الى قناصل
الدول بالاسكندرية في فجر ١٠ يولييه بأنه سيضرب المدينة ان لم تسلم اليه قلاعها
وكانت الحكومة الانجليزية قد عرضت على الحكومة الفرنسية ان تشرك أسطولها
مع الأسطول الانجليزي في ضرب المدينة ان اقتضى الأمر ذلك ، فامتنع المسيو
« فريسينيه » بعله ان حكومته تأبى أن تتحمل تبعه هذا العمل . فعزم الأسطول
الانجليزي على الانفراد بالعمل ، وفي الساعة السابعة من صباح ٢٢ شعبان ١٢٩٩ هـ
(١١ يولييه سنة ١٨٨٢ م) أطلقت العماره الانجليزية (وعددها ١٤ سفينة بين مدرعة
ومدفعية) مدافعها على قلاع الاسكندرية ، فجاوبتها قلاع الاسكندرية بعد ١٥
طلقة ، واستمر تبادل النار بين الفريقين ١٠ ساعات انتهت بذلك تلك القلاع الضعيفة
دكاً من غير أن يصيب السفن الانجليزية أذى يُذكر

وفي اليوم التالي تراجعت حامية المدينة الى الداخل ، وعند خروجها من الاسكندرية
أمر أحد أمراء (الأليات) المدعو « سليمان داود » (بغير علم عرابي) ان تحرق
المدينة ، فاشتعلت فيها النيران ، ونهبها الرعاع . وفي يومى ٢٤ و ٢٥ شعبان أنزل
الأسطول الانجليزي بعض الجنود ، فاحتلوا المدينة ، فعاد اليها الأمن وأخذ الأهليون
يرجعون اليها بعد أيام قلائل

ثم أخذت الجيوش الانجليزية والهندية تغد الى الاسكندرية لمحاربة عرابي .
بقيادة « جازنت ولسلى » . وكان عرابي قد عسكر بجهة « كفر الدوار » على بعد
بضعة أميال من الاسكندرية ، فلما وجد الانجليز ان موقعه هناك حصيناً رأوا أن
يدخلوا البلاد من الشرق من جهة قناة السويس . وعلم بذلك عرابي ، فعزم على
ردم القناة كي لا تمر منها السفن الانجليزية . ولكن المسيو ديلسبس حمله على الكف
عن هدم هذا العمل الخطير ، وقال انه يمنع بحق حياذ القناة مرور أى سفن حربية
منها . فخدع عرابي بأقواله ، ولم يقدر ديلسبس طبعاً على انجاز وعده ، ونزلت الجنود

اعلان سيمور
أنه سيضرب
الاسكندرية

انفراد الاسطول
الانجليزي

ضرب
الاسكندرية

احراق
الاسكندرية

معسكر كفر
الدوار

عزم عرابي على
ردم قناة السويس

نزل الانجليز الانجليزية من طريق القناة . فاستعد العرابيون للقائهم بجهة «التل الكبير» . وكانت من طريق القناة أهالى القطر تمد جيش عرابى بحاجاته طوعاً أو كرهاً ، حتى اجتمع له من الخيل والبغال شئ كثير

الباب العالى والدول
وكان الباب العالى طول هذه المدة يتباطأ فى الفصل فى أمر مصر ، وأخيراً اشترك فى مفاوضات مؤتمر الاستانة بارساله مندوبين من قبله فى ٢٠ يولييه . ثم أعرب لرجال المؤتمر أنه مستعد لارسال جيش لاختاد الثورة المصرية ، فاشتترط عليه الدول شروطاً خاصة موثداًها أن لا يغير علاقة الدولة بمصر عما تقضى به التقاليد السابقة . وكانت فى مقدمتهم فى ذلك انجلترا ، لأنها أصبحت منذ ضرب الاسكندرية أكبر الدول ارتباطاً بالشؤون المصرية . ولم تُبد لها احدى الدول شيئاً من المعارضة لعلها بموجب قيام احدى الدول باطفاء الثورة

انجلترا والباب العالى
فاشتترط انجلترا على الباب العالى أن لا يرسل جندياً واحداً الى مصر الا بعد أن يصدر منشوراً بأن عرابى باشا عاص للسلطان ، وبعد ابرام اتفاق حربى مع انجلترا بشأن اعمال الجيش التركى والانجليزى بمصر

منشور السلطان
فأخذ الباب العالى يعرض عدة صور بما يصدره فى المنشور على انجلترا (فتشير هذه بتعديلها حسب ما تراه موافقاً للأحوال) ثم كتب صورة نهائية ونشرها قبل أن يطالع مندوب انجلترا عليها ٢٢ شوال (٦ سبتمبر) . ففضبت لذلك انجلترا وامتنعت عن توقيع الاتفاق الحربى . عند ذلك شرع الباب العالى يفاوض انجلترا بشأن توقيع الاتفاق بالرغم مما حصل ، وكادت الحكومة الانجليزية تقبل ذلك فى ٢٩ شوال (١٣ سبتمبر) لولا أن جاءت الانباء فى ذلك اليوم بأن الجيوش الانجليزية بددت شمل جيش عرابى فى صبيحة ذلك اليوم عند التل الكبير ، وبذلك زالت الاسباب الداعية الى مفاوضة الباب العالى فى هذا الشأن

موقعة التل الكبير
أما موقعة التل الكبير فكانت فى السحر فى الساعة الرابعة من صباح ٢٩ شوال سنة ١٢٩٩ هـ (١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م) . وكان عدد الجيش الانجليزى فيها يبلغ

١٧٤٠٠ مقاتل . وجيش عرابى نحو ٢٧ ألف جندى ما بين نظامى وغير نظامى . هزيمة العرابيين فلم يُجد هذا الفرق شيئاً أمام العلم وحسن النظام ، ولم تدم الواقعة أكثر من عشرين دقيقة انتهت بتبديد الانجائز لجيش عرابى . وفرَّ عرابى نفسه الى القاهرة بعد أن بذل جهده عبثاً فى رد المنهزمين من جيوشه الى اماكنهم . وأراد عرابى الوقوف للانجائز فى طريق القاهرة فخذله الناس وانكسرت نفوس مساعديه فسار الانجائز الى القاهرة فدخلوها بلا مقاومة ، وتسلخوا القلعة وبقى الثكنات العسكرية فى ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ (١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م) ، وبذلك ^{دخول} الانجائز القاهرة ابتداء احتلالهم للقطر المصرى ثم سلم عرابى نفسه وقبض الانجائز على معظم زعماء الثورة

الفصل السابع

عهد الاحتلال البريطانى

١ — * قدوم اللورد دُفرين الى مصر *

دخلت مصر منذ عام ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢ م) فى طور جديد ، وهو الاسترشاد بدولة أوربية عظيمة فى السير فى سبيل تهدئة أحوالها وتنظيم ادراتها ؛ وقد سبق أن أوضحنا الأسباب التى دعت بريطانيا العظمى الى ارسال جيش لاحتلال مصر ، والآن نبين كيف امتد هذا الاحتلال الى اليوم ، مع ذكر أهم الأعمال العامة التى تمت فى عهده بعد أن أودع عرابى السجن وأُخذت نار الثورة كان . أول واجب أعمال التدبير ^{مهمة} تهدئة أحوال البلاد ومنع حدوث مثل هذه الفتنة فى المستقبل . لذلك أمرت الحكومة البريطانية اللورد « دُفرين » (سفيرها فى الاستانة) أن يسافر الى مصر ويبدى للحكومة الخديوية ما يراه من المشورة والنصح ، لاتخاذ الحيلة الكافلة بثبوت عرش ^{اللورد دُفرين}

سمو الخديوى وإسعاد جميع طبقات الأمة . وكانت الحكومة قد سجنّت ، غير زعماء
الثورة ، عدداً كبيراً من الأهلين والعلماء لشبهات يسيرة . فلما حضر اللورد «دفرين»
الى مصر نصّح للحكومة بالنظر فى أمرهم ، فعملت بمشورته ، ثم أصدر الخديوى أمراً
بالعفو عن جميع الضباط الذين تقل رتبتهن عن (البكباشى) ، مع تجريدهم من رتبتهن
وحرمانهن من معاشهن



اللورد دفرين

محاكمة
ثم عُيِّنَتْ « لجنة تحقيق » للنظر فى أمر عرابى ومحمود سامى وعبد العال وطلبة
زعماء الدرايين وعلى فقهى ، فأقرّت محاكمتهم أمام مجلس عسكري بتهمة ثوراتهم على الحكومة .
فأثبت المجلس إدانتهم وحُكِمَ عليهم بالاعدام ، ثم أُبدل بالحكم أخف منه وهو النفي
المؤبد الى جزيرة « سَرَنديب » (سيلان) بالهند

بعد أن دخلت الجنود الانجليزية مصر واحتلتها لم يكن هنالك داع للمراقبة
الثنائية ، اذ في إنجلترا وحدها الكفاية للمحافظة على الأموال الأوربية ، وفي بقاء المراقبة الثنائية
المراقبة احتمال الفساد العلائق بين فرنسا وإنجلترا ، لتوقع الخلاف بينهما في
الرأى . على أن الحكومة المصرية نفسها طالما وجدت المراقبة الثنائية حجر عثرة
في سبيل أعمالها ، ولذلك اقترح شريف باشا الغاءها . فأيدته الحكومة الانجليزية في
رأيه وساعدته على انفاذ رغبته بالرغم من احتجاج فرنسا وتشجيع الصحف الفرنسية
عنه ، وفي ٩ ربيع الأول سنة ١٣٠٠ هـ (١٨ يناير سنة ١٨٨٣ م) أصدر الخديوى
أمراً عالياً بالغائها . فعاد المراقب الفرنسى مصر بحجة قيامه بأجازة ، وعين المراقب
الانجليزى مستشاراً مالياً للحكومة المصرية

ونظر اللورد دفرين أثناء اقامته بمصر في عدة أمور لإصلاح البلاد . فمن أهم ذلك
انشاء جيش مصرى جديد ، لأن القديم قد حلّ لقيامه بالثورة ، ولأن إنجلترا كانت
في ذلك الوقت تنوى استرجاع جيوشها من مصر في أقرب فرصة ، فيحل الجيش
الجديد محل الجيوش البريطانية . ولما لم يجد اللورد دفرين العدد الكافى من المصريين
اللائقين لأن يكونوا ضباطاً في الجيش اقترح أن ينصبّ عليه قائد انجليزى ويضمّ
اليه بعض كبار الضباط من الانجليز . فوقع الاختيار على «السير افلن وود» ، فنصبّ
(سرداراً) للجيش المصرى في أوائل سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣ م) وأخذ في القيام
بتنظيم الجيش

واقترح اللورد دفرين اصلاح الشرطة ، فعهد بأمرها الى «الجنرال بيكر» وألحقت
ادارتها بوزارة الداخلية

ونظر أيضاً في تشكيل هيئات نيابية تساعد الحكومة في ادارة شؤون البلاد ،
فاقترح انشاء مجلس شورى لسنّ القوانين يؤلف من ٢٦ عضواً ، يكون بمثابة مرشد
لمجلس النظار ، وتشكيل جمعية عمومية مكوّنة من ٤٦ من الأعيان تجتمع كل
سنتين مرة يسترشد بهم كل من مجلس النظار والشورى في الوقوف على رغبات أهل
مجلس الشورى والجمعية العمومية

البلاد . على ان هذا النظام لم يمكن انفاذه دفعة واحدة لعدم تدريب البلاد على الحكومة النيابية ، ورأت انجلترا ارجاءه الى ان يتم هذا التدريب

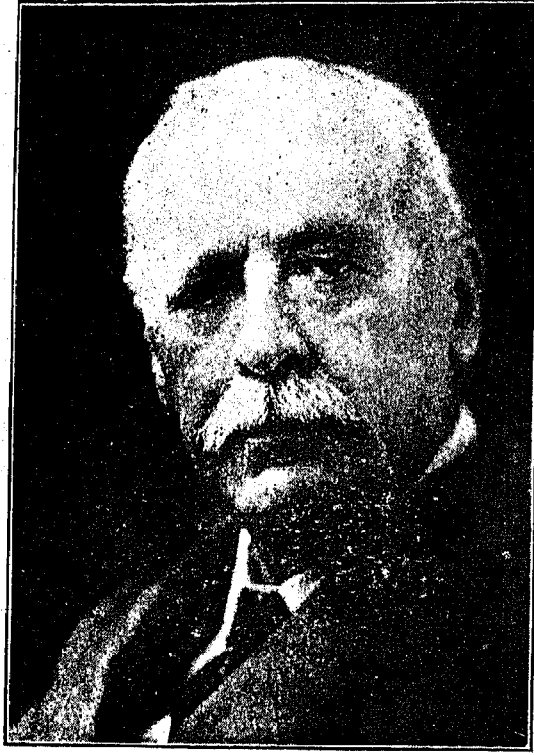
امد الاحتلال على ان انجلترا لم تقصد بقاءها بمصر أمداً طويلاً ، بل كانت على العكس من ذلك عازمة على الجلاء عنها بعد ان ترسخ قدم الاصلاح فيها وتخرج من الأزمه التي كانت سبباً في نزول الجيش البريطاني الديار المصرية : يدل على ذلك ما جاء في خطاب الملكة فكتوريا يوم افتتحت البرلمان البريطاني في ٧ ربيع الثاني سنة ١٣٠٠ هـ (١٥ فبراير سنة ١٨٨٣ م) وتصريحات اللورد دفرين في التمرير الذي رفعه للحكومة البريطانية عن حالة مصر

غير انه حدثت أمور ومشاكل عاقت تقدم مصر على الوجه الذي تريده انجلترا ، فاضطرت للبقاء فيها الى هذا اليوم . ومن أعظم هذه المشاكل قيام الثمن والحروب في السودان ، فإنها ، فضلاً عن جعلها البلاد في خطر اذا انفجرت عنها الجيوش البريطانية ، عاقت سير الاصلاحات العديدة التي اقترحها اللورد دفرين ، وهي تتناول أموراً كثيرة أهمها الجيش والشرطة والهيئات النيابية والتعليم والمحاكم والرى ومسح الأراضي وتخفيض الضرائب واصلاح حال الفلاح وغير ذلك

وعند ان وضع اللورد دفرين الخطة للاصلاح الذي يريده في مصر عاد الى مقره بالاستانة ، وعهد بانفاذ هذا الاصلاح الى معتمد بريطانيا العظمى في مصر بحيث يكون مركزه في ذلك مركز الناصح والمرشد للحكومة المصرية ووزرائها

اللورد كرومر معتمد بريطانيا ثم اختير لهذا المنصب « السير افلين بيرنج » . (اللورد كرومر فيما بعد) فوصل الى مصر في ٩ ذى القعدة سنة ١٣٠١ هـ (١١ سبتمبر سنة ١٨٨٣ م) ، أى بعد مغادرة اللورد دفرين بأربعة أشهر ، فبقى فيها يواصل هذا العمل الى ان استقال من منصبه في صيف عام ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م)

ولما كان للحروب السودانية الأثر الأكبر في تأخير سير هذه الاصلاحات حُسن بنا ان نأتى على ذكرها أولاً ثم نعود الى الكلام على الاصلاحات التي لم نشرحها بعد



اللورد كرومر

٢ - * حروب السودان *

استولى محمد على باشا على السودان سنة ١٢٣٥ هـ (١٨٢٠ م)، ولكنه لم يوظد فيه نفوذ مصر، فبقيت سلطة الحكومة عليه ضئيلة منذ هذه المدة. وكاد يكون الحل والعقد فيه بأيدي الباشوات الترك وجباة الضرائب من البشيزق وغيرهم، ممن لم يكن لهم هم سوى جمع الثروة وابتزاز الأموال من أبناء السودان العباس. وكان الشغل الشاغل لكل حاكم عام على السودان في هذه المدة اطفاء الثورات التي لم تخمد ناراها قط في أنحاء البلاد، وصدهجمات الحبشة على الحدود السودانية وقد استتب النظام نوعاً في المقاطعات الاستوائية في سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م)

اسباب الثورة في السودان على يد وال انجليزى هو « الجنرال غردون » ، ولكنه ما لبث ان غادر البلاد في سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) فعاد باشوات الأتراك الى ظلمهم القديم ، وبعد قليل قامت ثورة في السودان استفحل أمرها وانتهت بزوال حكم المصريين من تلك البلاد ومن أهم الأسباب التي أفضت الى قيام هذه الفتنة :

أولاً — ظلم حياة الضرائب وحبهم للرشوة

ثانياً — وقوف الحكومة المصرية في وجه تجارة الرقيق

ثالثاً — مؤازرة بعض رجال الجيش المصرى للثائرين وإطعامهم في النجاح اذا ثاروا على الحكومة . فقد قيل ان «عرايباً» كان يرسل اشارات برقية الى أهل السودان يحرضهم على مقاومة سلطة الخديوى

ومما سهل الأمر على الثائرين جلاء الجنود المصرية عن السودان لاطفاء الثورة العرابية

المهدى ثم استفحلت الثورة بزعامه رجل يدعى محمد احمد ظهر في السودان وادعى انه « المهدى » المنتظر ولذلك لقب بالمهدى

نشأته وُلد «المهدى» في مدينة دنقلة عام ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) ، واشتغل في صباه مع عمه في صنع السفن بجزيرة أمام « سنار » . ثم ضربه عمه ذات يوم ففر منه والتحق باحد معاهد التعليم العربية التي كان يتعلم فيها الدراويش ، فدرس بها الدين مدة ، ثم ذهب الى « بربر » ومنها الى « كانا » على النيل الأبيض ، فتقلد بها منصب « فقير » (شيخ) في سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) واستوطن بجزيرة « أبا » بالقرب من كانا المذكورة

نهوضه ودعوته ثم أخذ صيته في الازدياد ، فجمع ثروة طائلة ، والتفت حوله التلاميذ ، وتزوج بينات أعظم رؤساء قبائل البقارة ، فعظمت بذلك عصبية بين قبائل تلك الجهة — وفي سنة ١٢٩٨ هـ (١٨٨١ م) أخذ يكتب الرسائل الى فقهاء السودان يخبرهم أنه هو المهدى المنتظر ، ولأنه بكل من لم يؤمن به هالك لا محالة ، سواء أكان وثنياً أم



المهدى

مسيحياً أم مسلماً . فشاع ذكره في السودان ، حتى بلغ أمره مسامع الحاكم العام اتحاد السودان
رؤوف باشا في أوائل رمضان سنة ١٢٩٨ هـ (بوليه سنة ١٨٨١) . ولم يكذ يسمع على الحكومة
العلماء بأمره حتى أفتوا بأنه دجال ، وكاد السودانيون أنفسهم ينفضون من حوله ،
بالرغم من جهلهم وتخريفهم ، ولولا استياؤهم من الحكومة في ذلك الوقت ، ما اندفعوا
معه في مقاومتها

المهدى
ورؤوف باشا فاستدعاه رؤوف باشا الى الخرطوم ليحضر في مجمع من العلماء و يقيم الحجة على
دعواه ، فأبى المهدى الحضور . وخرج رؤوف باشا ليقبض عليه ، فانقض عليه أتباع
المهدى في الطريق وقتلوا بمن معه وقتلوه

فلما خلفه « عبد القادر باشا حامى » في ولاية السودان انتصر على أتباع المهدى

(الدراويش) في بضع مواقع صغيرة . غير ان ذلك لم يذهب بقوتهم ، وأخذت ثورتهم تتضاعف يوماً فيوماً حتى اتضح للحكومة المصرية المتباطئة في أمره ، انها ليست بالأمر اليسير ، بعد أن أهملت المهدي حتى اقتض على مدينة « الأبيض » في أوائل سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣ م) واستولى عليها

استيلاؤه
على الأبيض

على ان مركز الحكومة المصرية ازاء هذا الحادث كان في شدة الحرج ، لعدم وجود جيش مدرب لديها تمتد به والى السودان ، الذي لم يعدل منذ نشوب الفتنة عن استصراخها واستنجاها . وقد كان لإنجلترا جيش احتلال في مصر ، لكنها لم ترغب اذ ذاك في التدخل في الأمر ، كي لا تضطر الى تجريد حملة على السودان كالتي جردتها على مصر . فأخبرت الحكومة انها اذا أرادت إخماد الفتنة في السودان فليكن ذلك بالجيش المصرية

انجلترا تحجم
عن محاربته

وفي ربيع سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣ م) استخدمت الحكومة المصرية عدداً من الضباط الانجليز في الجيش المصرى المؤلف لانتفاذ السودان وعلى رأسهم « هكس باشا » . فقلد قيادة الجيوش السودانية في رمضان (يولييه) ، وجعل وكيله « علاء الدين باشا » التركى . غير ان جيوشه لم تكن على مايرام من التدريب ومعظمهم (من جنود وضباط) كان من جيش عربى المنحلّ ومن نبذهم « الجنرال وود » لعدم لياقتهم لجيشه الجديد . ذلك الى قلة وسائل النقل ، وعدم توافر الأموال الكافية للاتفاق على الحملة خرج هكس باشا بجيشه المختلط من الخرطوم في ذى القعدة سنة ١٣٠٠ هـ

حملة
هكس باشا

(سبتمبر سنة ١٨٨٣ م) يريد استرداد « الأبيض » . فوصل الى « الدويم » انهزامها بين دون أن يلقى أحداً من الأعداء ، وقد أخذ التعب والظما يفعلان بجيشه أكثر مما تفعله النيران . وبينما هم بين الدويم والأبيض اذ خرج عليهم الدراويش من كمين في الطريق وأفنؤهم عن آخرهم

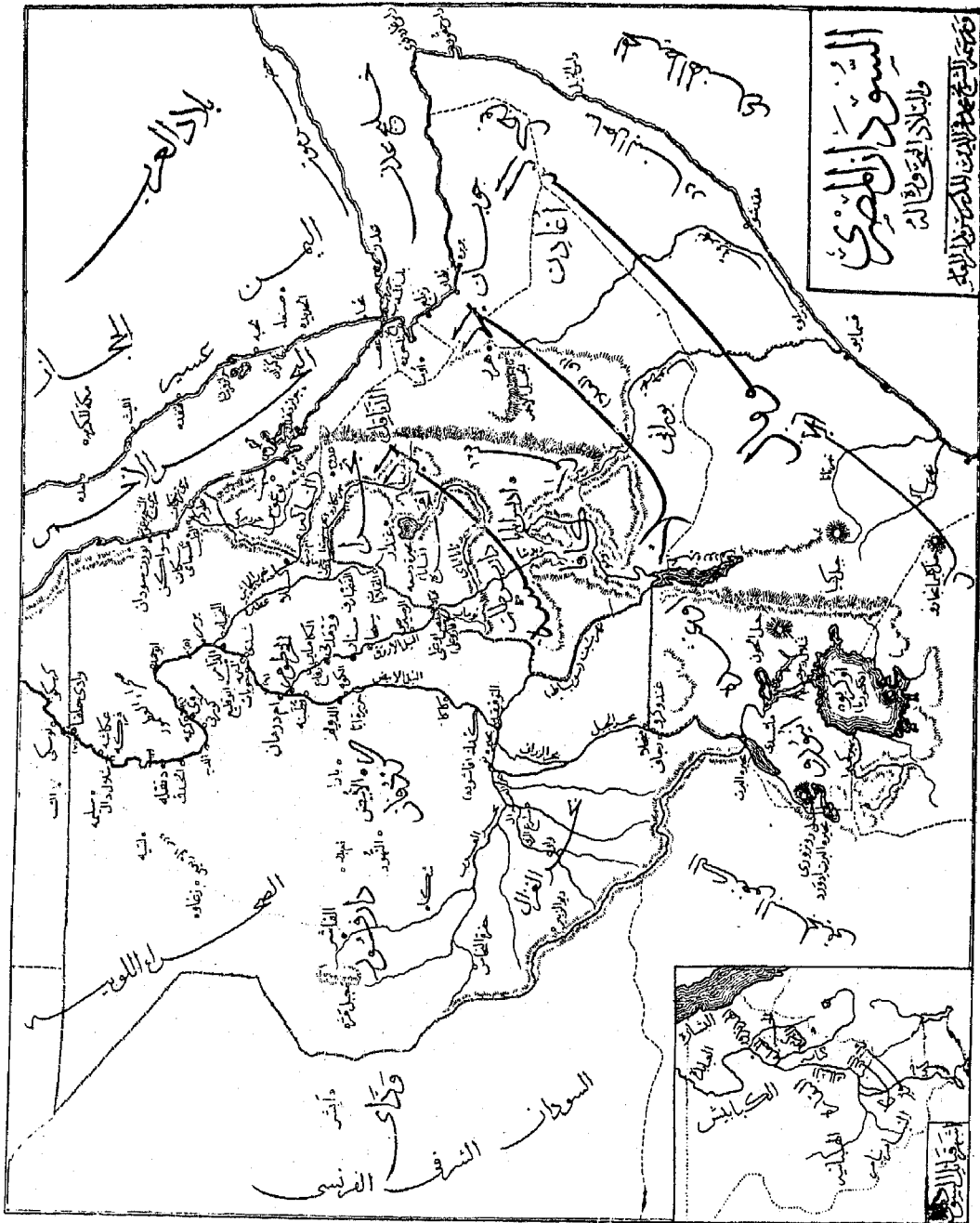
انهزامها بين
الدويم والأبيض

وصل خبر هذه الفاجعة الى القاهرة في الحرم سنة ١٣٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٨٨٣ م) فكان وقعه كالصاعقة في نفوس أولى الشأن ، اذ به انقطع كل أمل في القضاء على المهدي عاجلاً ، وخشى الناس أنه عما قريب يأخذ « الخرطوم » نفسها

هول الفاجعة
في مصر

السودان المصري

والبلاد المحيطة به
وتحت إشراف اللجنة المصرية للبحوث



إخلاء السودان

وكانت الحكومة الانجليزية لا تزال مصرة على عدم ارسال جيش من قبلها الى مشورة إنجلترا السودان ، ورأت أن الجيوش القليلة التي يتسنى للحكومة المصرية ارسالها لا تفيد بشيء ، بل ربما أدى ارسالها الى زيادة الويل . فنصحت للحكومة المصرية بإخلاء السودان : من خط الاستواء الى جنوبى وادى حلفا ، ربما تتحسن الأحوال ويقوى مركز مصر ذاتها فتعود الى فتح السودان من جديد . فلم يوافق « شريف باشا » رئيس الوزارة على اخلاء السودان بحجة انه المورد الحيوى لمصر ، ولأن الاقرار بسلخه عنها مُسقط لحقوقها عليه فيصبح نهياً للدول ، فاعتزل منصبه وخلفه فى رئاسة الوزارة « نوبار باشا » فوافق على سلخه من مصر

وكان فى النية أولاً ارسال عبد القادر باشا الى الخرطوم لتولى استرجاع الجنود المصرية من السودان ، ولكن قرّر الأمر أخيراً على ارسال غردون باشا (الجنرال غردون) الانجليزى فى هذه المهمة ، لما له من النفوذ والحجة عند أهل السودان ، اختيار غردون فيكون ذلك أكبر عون فى هذا العمل الشاق الذى ان لم تُراع فيه الحكمة ورباطة الجأش لإخلاء السودان استخف السودان بالحكومة المصرية وفتكوا بمجيشها قبل أن يجلو عنهم ، وكان يُظن أن « غردون » يستطيع بماله من المكانة المذكورة أن يطيب خاطر القبائل فلا تنتشر الثورة أثناء جلاء الجيش المصرى . وفى ربيع الأول سنة ١٣٠١ هـ (يناير ١٨٨٤م) أرسل غردون فى هذه المهمة وجعل وكيله « الكولونيل استيوارت » وكان من أحمق الضباط الانجليز

وفى أثناء ذلك كان أمر المهدي قد استفحل ، وأخذت دعوته تنتشر فى أنحاء السودان حتى لحقت السودان الشرقى . وفى شوال سنة ١٣٠١ هـ (اغسطس سنة ١٨٨٣ م) وصلت رسل المهدي الى تلك الجهة بالقرب من «سينكات» وأخذوا يثيرون القبائل على الحكومة . وكان زعيم هذه الحركة رجل من سلالة تركية قديمة عثمان دقنة فى السودان الشرقى

يدعى « عثمان دقنة » أصله تاجر رقيق جهة سواكن ، ولما كسدت تجارته بتضييق الحكومة على الرقيق تألب عليها وانضم الى المهدي ، فلقبه أميراً من امرائه ، ولم يلبث ان انضمت اليه جميع قبائل السودان الشرقى ، فلم يبق تحت نفوذ الحكومة المصرية الا حاميات « سنكات » و « طوكر » و « سواكن » و « ترنكتات » على البحر الأحمر

ورأت الحكومة المصرية ان ترسل لانقاذ حاميتي طوكر وسنكات « الجنرال بيكر » مع رجال الشرطة الذين عهد اليه تدريهم . وربما كان هؤلاء الرجال فى الجملة خيراً ممن خرج بهم « هكس باشا » ، وان لم يكونوا على ما يُرام من النظام والتدريب ، اذ أن بعضهم لم يفق فى تعلمه رجال الشرطة العاديين ، وكثير منهم كان قريب العهد بمبادئ الحركات النظامية . خرجت هذه القوة لانقاذ غرضها ، فالتقت بال دراويش عند « الطيب » فى جمادى الأولى سنة ١٠٣١ هـ (فبراير سنة ١٨٨٤ م) ، فانهمزمت شرّ هزيمة ، اذ كانت الجنود ترمى سلاحها وتلوذ بالفرار لقلّة تدريهم على الحرب . وقد كان عدد رجال هذه الحملة ٣٧٠٠ فلم ينبج منهم سوى ١٠٣٠٠ رجل

عند ذلك اضطرت الحكومة الانجليزية بعد ابادة الجيوش المصرية القديمة والجديدة الى فعل ما لم ترض به من قبل ، وهو ارسال حملة الى السودان . فأمرت القائد البحرى « هيوت » بانزال قوة فى « سواكن » ، وأرسلت الى « ترنكتات » قسماً من جيش الاحتلال بمصر بقيادة « السير جيمس جراهام » ، وكانت حاميتا طوكر وسنكات قد اضطرتا الى التسليم قبل ان تصلهما النجدة ، فخرج « جراهام » الى الطيب حيث هُزم بيكر من قبل ، فكسر الأعداء كسرة شنيعة . ثم جدّ فى اقتفاء « عثمان دقنة » فالتقى به بجهة « طماى » ، ففتك بجيشه من قبل وأحرق معسكره ، ولكنه لم يقدر على القبض عليه

وبعد ان ألحق هاتين الهزيمتين بالدراويش اكتفى بالرجوع الى سواكن ، وباتت هذه المدينة هى وترنكتات فى مأمن من العدو . ثم استدعى جراهام الى مصر فى

حملة بيكر

لانقاذ حاميتي طوكر وسنكات

هزيمتها عند الطيب

حملة

هيوت البحرية

جراهام يهزم الدراويش عند الطيب

أواخر جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ (مارس سنة ١٨٨٤ م)

أما غردون باشا فإنه بلغ الخرطوم في ١٩ ربيع الثاني سنة ١٣٠١ هـ (فبراير
١٨٨٤ م) فنُصّب حاكماً عاماً على السودان . وقد كان لقدمه في أول الأمر وقع
حسن في نفوس القبائل ، واستتبّت السكينة في الخرطوم . غير أنه لم يشرع توجّه في



غردون باشا

إخلاء السودان حسبما كان معهوداً إليه ، بل أخذ يضيع الوقت في مخابرة أولى الشأن
بالقاهرة في الطريقة التي يجب أن يُحكّم بها السودان بعد إخلائه ، وعرض عليهم من
ذلك عدة خطط ومشروعات ، مندفعاً في ذلك بخوفه على الأهالي من ثورة المهدي
ومن الفوضى التي لا بد أن تنتشر في طول البلاد وعرضها عقب جلاء الجيش المصري .
ومما اقترحه في هذا الشأن أن يُرسل إليه « الزبير باشا » ليسانده في الجلاء ، وبعد

ذلك تُعهد إليه ولاية السودان . وقد عرض هذا الاقتراح بالحاح أكثر من مرة ثم رأى أولو الشأن بعدُ رفضه بته . على أن غردون كان في ذلك الحين يستهين بقوة المهدي ويطلب من الحكومة مراراً أن تمدّه بجيش « ليقضى على المهدي » ، وان تعدل عن اخلاء السودان

ولا يخفى ان ذلك كان مخالفاً للاتفاق الذي أرسل بمقتضاه الى السودان ، فلم ترسل اليه الحكومتان الانجليزية والمصرية شيئاً من الجند . وصار نطاق نفوذ المهدي يتسع يوماً بعد يوم حتى عم القبائل التي بين « بربر » و « الخرطوم » فانضموا الى المهدي في أواخر رجب سنة ١٣٠١ هـ (مايو ١٨٨٤) . فانقطع بذلك خط الرجعة على غردون ، وأصبحت حالته تؤذّن بالخطر

الدرأويش
يحصرونه
في الخرطوم

حملة انقاذ غردون

والظاهر أن الحكومة الانجليزية لم تعرف بادئ الأمر الخطر الذي كان يهدد « غردون » مع وجوده بلا جيش في السودان . فلما حدث ما تقدم ، ورأت الخطر يحقد به أسرع الى ارسال نجدة من القاهرة لانتقاذه بقيادة « اللورد ولسلي » * . وبينما هذه الحملة في طريقها أرسل غردون « الكولونيل إستيوارت » في نفر من الرجال على باخرة من الخرطوم قاصدين مقابلة الحملة القادمة لنجده وابلأغها ما يهمها معرفته عن الحالة في السودان . فمرت الباخرة على « بربر » دون أن تلاقى شيئاً ، إلا أنها اصطدمت بصخر قرب « أبي حمد » ، وفنكت بمن فيها احدى قبائل البدو غدرًا بعد أن أنزلتهم في ضيافتها

انجليزية
تهم بأمره

حملة ولسلي

وفي يوم ٣٠ ديسمبر وصل « ولسلي » بجيشه الى « كورتى » فرأى أن يُسير قوتين للقاء الدراويش جهة « المتمة » : قوة تذهب بطريق النيل ، والأخرى بالصحراء ، فوصلت هذه القوة الأخيرة الى « المتمة » ، وهزمت جيوش المهدي عند « أبي قليب »

ولسلي
في كورتى
واقعة ابي قليب

* هو الذي قاد الجيوش البريطانية في واقعة التل الكبير

ثم بلغت « جوبات » في ٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٢ هـ (٢٠ يناير سنة ١٨٨٥ م) ، وهنا اتصلت بالبواخر التي ذهبت بطريق النيل . وعلم « ولسلى » أن غردون في خطر ، وأنه يخشى العاقبة كثيراً إذا تأخر وصول النجدة عن ٢٤ يناير ، فأسرع « ولسلى » الى تسيير باخرتين بالجند لا تقاذه . ولكن هذه الرحلة لم تكن بالأمر السهل تأخر الحملة في وفي ٨ ربيع الثاني (٢٥ يناير) اصطدمت إحدى السفينتين بصخور الشلال السادس ، طريق الخرطوم فمطل المسير أربعة وعشرين ساعة

وبينا هذه النجدة تعاني الوصول الى « الخرطوم » إذ استولى الدراويش على سقوط الخرطوم المدينة ، وقتلوا « غردون » ، وذلك في ٩ ربيع الثاني سنة ١٣٠٢ هـ (٢٦ يناير ١٨٨٥) ومقتل غردون ومما ساعد على سقوط المدينة خيانة « فرج باشا » قائد الحصوص ، فإنه انضم الى جيوش المهدي في الليلة السابقة لسقوط المدينة

وعند ذلك صدرت الأوامر للورد « ولسلى » أن يهاجم الخرطوم ليستردها ، فشرع يهاجمها من ثلاث جهات . ولكن بعد قليل عدلت الحكومة الانجليزية عن استمرار القتال لاشتغالها ببعض مناوشات على حدود الهند . وفي ٢٢ رمضان (٥ يولييه) اخلاء السودان أخليت مدينة « دنقلة » ، وصارت « وادى حلفا » أقصى الحدود المصرية

وكان هذا النصر قد ضاعف ثقة اتباع المهدي به ، وظنوا أنه سيقودهم الى فتح جميع ممالك الأرض ، وأنه لن يموت الا بعد فتح الحرمين . ولكن ما لبث أن خاب فألهم ، اذ لم تمض عليه بضعة أشهر في عاصمته « أم درمان » حتى لحقته المنية كغيره من البشر في ٩ رمضان سنة ١٣٠٢ هـ (٢١ يونيه سنة ١٨٨٥ م) . وكان قبل وفاته قد أوصى بالخلافة من بعده « لعبد الله التعايشى » ، فبايعه اتباع المهدي وسموه « خليفة المهدي » التعايشى يخلفه أما جثة المهدي فانها دفنت في الحجرة التي فارقه الحياة فيها ، ثم أقيمت عليها قبة صار الناس يزورونها للتبرك

ولم يكد « التعايشى » يتسلم مقاليد الأمور حتى عزم على فتح مصر . ولكن الجيش عزمه على المصرى كان قد تم تدريبه ، فخرجت من مصر فرقة بعض جيوشها مصرية وبعضها فتح مصر

الدفاع عن مصر الإنجليزية ، وهزمت جيوش « الخليفة » بلا عناء عند « جنس » في ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٣ هـ (٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥ م) فسلمت مصر من غارته

نفوذ التعايشي في السودان الشرق ولكن نفوذه عمّ السودان ولم يخرج عن دائرة سلطته إلا عدة من المقاطعات النائية ، فانها كانت من نصيب الممالك المجاورة لها : فأعطيت « مصوَّع » وما يجاورها ليطاليا ، وأعطيت « بوغوس » لملك الحبشة ، مكافأة له على مساعدته في تسهيل جلاء الجيوش المصرية من « اماديت » و « سنيت » و « غلباط » ، خصوصاً أن هذه كلها بلغت مصر سالمة . وأعلنت إنجلترا امتلاك مقاطعة « بربرة » وزيلع واوغندا ، وضمت بلجيكا الى مستعمراتها (الكنفو الحرة) وبعض الأقاليم المجاورة لها وشرعت فرنسا في الاستيلاء على بحر الغزال والنيل الابيض

الباب العالي والسودان مضت كل هذه الحوادث ولم يفعل الباب العالي فيها شيئاً يذكر ، وانما أرسل في آخر الأمر سفيراً الى مصر ليساعد الخديوى في توطيد الأمن في السودان بالطرق السلمية . فابتدأت المفاوضات مع الدراويش ، ولكن لم يكن لذلك أية نتيجة . على ان مصر كانت طول هذه المدة آخذة في النهوض من افلاسها شيئاً فشيئاً ، وقوى جيشها وصار يصد جموع الدراويش كلما حاولوا الاعتداء على الأراضى المصرية ، وفي ربيع الثانى سنة ١٣٠٦ هـ (ديسمبر سنة ١٨٨٨ م) أجابهم حامية سواكن عن الجهات المجاورة لها ، فلم يعيدوا الكرة عليها بعد

نهب مصر ولد النجومى وفي سنة ١٨٨٩ م حدث حادث من اكبر حوادث هذه الحروب . اذ ان « ولد النجومى » أحد الأمراء المستمسكين بدعوة المهدي خرج في ١٣,٠٠٠ مقاتل يريد غزو مصر في رمضان سنة ١٣٠٦ هـ (١٠ ايو سنة ١٨٨٩ م) ، فالتقى بجيش يقوده « السير فرانسيس غريفيل » عند « طوشكى » ، فكانت هذه اول تجربة عظيمة لاختبار قوة الجيش المصرى الجديد ، فانتصر على جيش « ولد النجومى » انتصاراً ميّناً فلم ينج منه الا ٣,٠٠٠ رجل وضُرِعَ ولد النجومى نفسه وهو يقاتل في هذه الموقعة قتالاً شديداً . وبعد هذه الموقعة اخذت قوة التعايشي في أسباب الضعف

هزيمته
عند طوشكى

وفي سنة ١٣٠٨ هـ (١٨٩١ م) رأت الحكومة أن الدراويش لا يزالون في تهديّة
سواكن ، وأن تجارة الرقيق سائرة بلا انقطاع بين بلاد العرب وفرض البحر الأحمر ، السودان الشرق
فأرسلت عليهم حملة بحرية من سواكن الى « ترنكنات » . فانهزم الدراويش بجهة
« طوكر » وفر « عثمان دقنه » وقتل معظم من معه من الأمراء . ومن ذلك الحين
هدأت الأحوال في السودان الشرق

استرجاع السودان

لم يأت عام ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) حتى تقدمت مالية مصر وتحسنت حال جيشها
فصار يُظن من السهل تجريد حملة على السودان لاسترجاعه . وكانت الحكومة إذ
ذاك تنظر في مشروع آخر عظيم وهو إقامة خزان على النيل (خزان اسوان) ، ورأت
أن ادخار المال لهذا المشروع النافع أولى من صرفه على الحروب السودانية ، فكان يُظن
أن فتح السودان سيُرجأ الى ما بعد ذلك ، لولا أن حدثت أمور خارجية اضطرت
الحكومة الى العمل بغير رغبتها . وذلك ان الأحباش اتحدوا مع الدراويش وشنوا
الغارة على الطليان وهزمهم بجهة « عدوة » في رمضان سنة ١٣١٣ هـ (مارس ١٨٩٦ م)
وذاع الخبر أنهم عما قريب يهجمون على كَسَلَة * . ولذلك طلبت ايطاليا من إنجلترا
لما بينهما من الصداقة ان تساعدوا بارسال حملة الى السودان تهدد الدراويش فتقل
وطأتهم على المستعمرة الايطالية الجديدة (مصوع والإريتريا)

وقد كان لدى إنجلترا حينئذ من الأسباب والاعتبارات ما يحملها على تلبية هذا
الطلب ، الذي أقل ما فيه سبق فرنسا الى أعلى النيل وصدها عن التوغل في جنوبي
السودان ، والأخذ بثأر غردون الذي لم يزل قلب كل أنجليزى يدعى لمصرعه .
فقررت إنجلترا اجابة دعوة ايطاليا ، وفي الحال أُعدّ لذلك جيش مكون من الجنود
المصرية والانجليزية بقيادة « السير هربرت كَنَشِر » سردار الجيش المصرى في
انجلترا
تحيب الطلب

* كان الطليان قد استولوا على كَسَلَة من الهدى في سنة ١٨٩٤ م ، ولكنهم تخلوا عنها
عام ١٨٩٧ لكثرة النفقات التي يتطلبها حكمها ، فعادت الجيوش المصرية الى احتلالها
(٢٥ ديسمبر سنة ١٨٩٧)



اللورد كيتشنر

ذلك الوقت (وهو اللورد كيتشنر المتوفى غرقاً سنة ١٩١٦ م. وكان يشغل منصب وزير الحربية البريطانية)

حملة كيتشنر

خرج كيتشنر من مصر ووجهته دنقلة ، فأمر بإنشاء خط حديدي من وادي حلفاء ، وكلما أنشئ منه جزء تقدم الجيش ، حتى وصل في ذي الحجة سنة ١٣١٣ هـ (يونيو ١٨٩٦ م) الى جهة قرية من « عكاشة » . فبلغه هناك ان ٣٥٠٠ من الدراويش مجتمعون عند « فرقة » جنوبي عكاشة على بعد ١٦ ميلاً منها ، فسار اليهم ليلاً وفنك بهم فنكاً ذريعاً . ثم تفشى الهواء الأصفر في الجيش ، ولكن تيسر التغلب على المرض وعلى غيره من المصاعب حتى سقطت « دنقلة » في يد الجيش المصري الانجليزي

انشاء

خط حديدي

واقعة فرقة

في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٣١٤ هـ (٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٦ م) وجلت جيوش
التعايشى عن هذه المديرية بأكملها. ثم استمر الجيش في الزحف نحو الخرطوم، متغلباً
على ما لاقاه من المصاعب في طريقه، حتى استولى على «أبي حمد» في ٧ أغسطس
سنة ١٨٩٧ م وعلى «بربر» في ٣١ منه ووقف تقدم الجيش بعد ذلك عدة أشهر
ريثا يتم انشاء الخط الحديدي المحترق صحراء العطور

وفي ٧ شعبان سنة ١٣١٥ هـ (أول يناير سنة ١٨٩٨ م) سمع السير هربرت
كشنران الدراويش سيمهجمون على جيشه في جموع كبيرة، فبعث إشارة برقية الى
القاهرة يطلب المدد، فأرسل اليه قسم من الجيوش البريطانية. ثم وقفت الجيوش
المصرية الانجليزية وقفة المدافع الى أن ترى فرصة ملائمة للزحف على الخرطوم

وكان «الأمير محمود» (ابن عم التعايشى) قد عسكر بنحو ١٢,٠٠٠ مقاتل واقعة النخيلة
عند «النخيلة» على نهر عطبرة، فخرج كشنران لملاقاته في ٢٦ ذى القعدة (٢٠ مارس)
متوخياً التانى في مسيره، وفي ١٦ ذى الحجة (٨ ابريل) التحم الجيشان فلم تدم
الموقعة أكثر من ٤٠ دقيقة، وانتهت بأسر الأمير محمود وقتل نحو ٢,٠٠٠ من رجاله
ولم ينجو منه شهر أغسطس عام ١٨٩٨ م حتى تمكن السردار من حشد نحو ٢٢,٠٠٠
مقاتل على بعد ٤٠ ميلاً شمال الخرطوم، وعزم على لقاء الاعداء. وفي ١٥ ربيع الثاني
سنة ١٣١٦ هـ (٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ م) التقى بالدراويش في موقعة «أم درمان»
الفاصلة التي لم تقم لهم بعدها قائمة: كان عددهم يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ ألف مقاتل،
فُقُتِل منهم أكثر من ١١,٠٠٠ وجُرح نحو ١٦,٠٠٠، ولم يخسر جيش السردار
سوى ٥٠٠ ما بين قتيل وجريح. وفي اليوم الرابع من شهر سبتمبر استولى الجيش
الانجليزى المصرى على الخرطوم ورُفِع على مكان مركز حكومتها العلمان المصرى
والانجليزى أحدهما بجانب الآخر

أما الخليفة التعايشى فإنه فرّ من وجه الجيوش الفاتحة. وأراد في العاصم المقبل أن
يغير على أم درمان، فسار اليه جيش السودان وقتله وبدد شمل جيشه، في رجب



واقعة أم درمان

سنة ١٣١٢ هـ (نوفمبر سنة ١٨٩٩ م) . وبقتله انقضت دولة الدراويش *
اتفاقية السودان وقد هدأت أحوال السودان منذ فتح أم درمان بفضل حسن ادارة الحكومتين
الانجليزية والمصرية اللتين تحكمانه بالاشتراك . وفي ٦ رمضان سنة ١٣١٦ هـ
(١٩ يناير سنة ١٨٩٩) عُقد وفاق بين الحكومتين يُعرف « باتفاقية السودان » وُضحت
فيه شروط حكم السودان وأُنفى به ما كان للباب العالي من السيادة على تلك البلاد
تقدم السودان وما زال السودان في تقدم تدريجي مستمر منذ دخوله تحت حكم إنجلترا ومصر ،
وهو وإن كان الآن لم يُكسب احدى الحكومتين شيئاً وصُرفت من خزانة مصر
الخاصة بمبالغ سنوية لإصلاحه ، فإنه بلا شك سيعوّض ذلك ، لوفرة موارده الطبيعية
خصوصاً عند ما يزداد عدد سكانه بعد أن نقص نقصاً فاحشاً أيام فتنة المهدي

* ولما فتح كتشنر باشا أم درمان رأى الا يبق لذكري المهدي تعلقاً بقلوب قبائل
السودان ، فأمر بهدم قبره ونُش قبره وبعثت عظامه في النيل وبعث بجمجمته الى دار التحف
البرطانية . وقد أعجبت إنجلترا بفوزه فنحتته لقب « لورد الخرطوم » وصار من ذلك الحين
يسمى « لورد كتشنر »

٣ -- * تقدم مصر منذ عام ١٨٨٢ م *

خصوصاً الأشغال العامة التي تمت بها منذ ذلك العهد

يرجع التقدم العام الذي حدث بمصر منذ عام ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢ م) الى أمرين أساسيين : الأول الاصلاحات الادارية التي أجريت في مصالح الحكومة على اختلافها . والثاني الأشغال العامة التي أجريت لتحسين الري وزيادة ثروة البلاد

وقد كانت الحالة المالية في مقدمة ما نُظر فيه بعد اختام الثورة العرابية، وذلك من المسائل المالية وجهتين : الأولى حالة السكان وما يمكن عمله لتحسينها ، والثانية حال ميزانية الحكومة وكيف يتسنى وضعها على أساس متين بحيث يكفي الدخل المنصرف مع عدم الإضرار بتقدم البلاد

فبالنظر في أحوال الأهلين اتضح انهم في بؤس شديد ، وأن المفروض على أرضهم سوء حالة الفلاح من الضرائب يزيد كثيراً عن الحد المعتدل بالنسبة لقيمة ما تنتجه الأرض من المحصول إذ أن أثمان المحصولات كانت قد نزلت كثيراً في السنوات الأخيرة : فصار ثمن أردب القمح مثلاً ٧٥ قرشاً بعد أن كان ١٠٩ قروش في ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) ، وكذلك ثمن الطن من السكر نزل من ٢٣ جنيهاً الى ١٥ جنيهاً . ذلك الى ضعف الأرض بسبب اجهادها بزراعة القطن ، اذ دلت الاحصاءات أن محصول الغدان من القطن في الأربع السنوات ١٢٩٦ — ١٢٩٩ هـ : (١٨٧٩ — ١٨٨٢) نقص من ثلاثة قناطير ونصف الى قنطارين وعشر قنطار

فأرأت الحكومة أن أول واجب عليها تحسين حال الفلاح ، حتى اذا ما انتعش وزادت ثروته أدى ذلك حتماً الى زيادة دخل الحكومة . فخففت ضريبة الأرض في المديرية الفقيرة ، وأبطلت ضريبة الملح وغيرها ، وألغت السخرة التي هي في الحقيقة نوع من الضريبة*

غير أن هذه الإصلاحات وحدها لم تكن تكفي لتحسين دخل الحكومة والقيام

(*) وبقي مسموحاً بها لحماية شواطئ النيل وقت الفيضان فقط

الميزانية والدين بعبء الدين والشروط الثقيلة التي تكفلت بها مصر بمقتضى قانون التصفية . فبذات انجاذرة ميسرها لدى الدول في تخفيف هذه الشروط مخافة الوقوع في افلاس نهائى ، فزادت نسبة ما يخص الحكومة المصرية من الدخل بتخفيض نسبة ما يعطى لصندوق الدين ، وصار للحكومة الحق أيضاً في الاستيلاء على نصف ما يزيد من الدخل بعد دفع الأرباح ، بدل ان كان جميعه يُعطى لصندوق الدين لتسديد الأقساط الدين المضمون ورأت الحكومة أيضاً أن كل ذلك ربما لا يكفي لإصلاح حال المالية المصرية وهى على وشك الإفلاس ، فتوسطت انجاذرة لدى الدول في عقد قرض جديد ، لتستعين به مصر على وضع ميزانيتها على أساس متين ، وللقيام بمشروعات عامة فى الرى تزداد بها ثروة البلاد حتى تتحسن مآليتها على مدى الأيام . وبعد الجهد الطويل امكن عقد قرض جديد بضمانة انجاذرة قدره ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيهه يسمى « الدين المضمون » فى سنة ١٣٠٢ هـ (١٨٨٥ م) ، واشترط فى عقده أن تنتظم حالة المالية المصرية قريباً ، وإلاَّ شُكِّلت لجنة دولية أخرى للنظر فى شؤون مصر وقد خُصص هذا المبلغ للأوجه الآتية :

اوجه صرفه

(١) تعويض ما خسره أصحاب الأملاك بالاسكندرية وقت نشوب الفتنة فى تلك المدينة أيام الثورة العرابية

(٢) سد العجز فى ميزانية الحكومة لعامى ١٨٨٢ و ١٨٨٣ م

(٣) تحسين الرى (وسيأتى الكلام على ذلك مفصلاً)

وقد جعلت الحكومة نصب عينها أن لا يحدث أى فشل فى تنظيم المالية ، كى لا يفضى الأمر الى تدخل الدول الأوربية حسبما اشترطته فى عقد الدين الأخير . فتوخت الاقتصاد التام فى جميع أوجه الصرف ، اللهمَّ إلاَّ فى تحسين الرى الذى كان من شأنه زيادة الثروة فيما بعد والمساعدة الكبيرة فى تثبيت الحالة المالية التى هى موضوع الخوف والقلق

حرص
الحكومة
على الاقتصاد

وقبل الانتقال الى وصف الأشغال العمومية التى تمت بمصر فى ذلك العهد نقول

كلمة عن المصاعب التي لاقتها إنجلترا من الدول في سبيل السير في عملها في مصر :
كانت فرنسا أول من وضع العراقيل في سبيل إنجلترا في مصر ، لحثها من الغاء المسائل الدولية
المراقبة الثنائية واستئثار إنجلترا بأمر مصر . ثم عضدتها روسيا في ذلك ، وشاركهما
الباب العالي طبعاً في الاستياء ، احتجاجاً على استمرار الاحتلال البريطاني لمصر
ثم كرر الباب العالي احتجاجه ، وبعد المفاوضة مع إنجلترا تمّ الاتفاق في المحرم
سنة ١٣٠٣ هـ (اكتوبر ١٨٨٥ م) على أن ترسل كل من الدولتين العثمانية
والانجليزية سفيراً الى مصر لفحص شؤونها والاتفاق على أجل ينتهي فيه
الاحتلال البريطاني

فأرسلت إنجلترا «السير دِرْمَنْدُ وُلف» ، وأرسل الباب العالي «مختار باشا الغازي»
غير أنه لم يتم الاتفاق على تحديد أجل الجلاء لمعارضة فرنسا والروسيا في شروط الاتفاق ،
وكل ما نتج عن بحوث السفيرين أن جرت بعض مفاوضات مع الدراويش لم يكن
لها أثر يُذكر ، وقد أشرنا الى ذلك عند الكلام على السودان . وقد بقي مختار باشا
بمصر الى وقت قريب احتجاجاً حياً على الاحتلال البريطاني

على أنه قد حُلّت في عام ١٨٨٥ م مسألة من المسائل الدولية الكبرى وهي بيان
مركز قناة السويس من الوجهة الدولية . فحصل الاتفاق على أن تكون هذه القناة
مفتوحة لجميع السفن وقت السلم ، وفي أوقات الحرب يُسمح لسفن المتحاربين بالمرور من
القناة بشرط ألا تقع بينها أعمال حربية الى مسافة ثلاثة أميال من طرفي القناة ، وأن
لا يُسمح للسفن الحربية التابعة للدول المتحاربة بالبقاء في الموانئ المصرية أكثر من ٢٤
ساعة . وحُفظ للحكومة المصرية الحق في عمل أي شيء تراه ضرورياً للحفاظ على القناة
وبقيت فرنسا تنظر شزراً الى بقاء إنجلترا في مصر ، وتضع العراقيل في سبيلها الاتفاق الودي
مهما كان عملها في صالح مصر ، حتى عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) فعقدت الدولتان
بينهما «الاتفاق الودي» المشهور ، وبقيت فرنسا أن تُطابق يد إنجلترا في مصر ،
في نظير أن تسمح إنجلترا بإطلاق يد فرنسا في مراكش . وبذلك حُلّت مشكلة من

أكبر المشاكل الدولية الخاصة بمصر . وبمقتضى هذا الاتفاق أيضاً صار جميع دخل الحكومة يرد الى الخزانة المصرية ، بعد أن كان جزء منه يورد الى صندوق الدين توتاً . وكان لدى صندوق الدين مبلغ ١٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه متوافر من السنين الماضية ، فسلّمه الى الحكومة لستعين به على إنجاز بعض المشروعات العامة

الأشغال العامة

قد كانت الأشغال العامة التى تمت بمصر منذ عام ١٨٨٢ م لتحسين الري وتوسيع نطاقه من أعظم الأمور التى سهلت تنظيم المالية المصرية ، وسارت بالبلاد فى طريق التقدم العظيم الذى نشاهده الآن :

١ . مصر السفلى شرعت الحكومة منذ عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣ م) فى الاهتمام بشؤون الري ، فبدأت فى ذلك العام باصلاح « القناطر الخيرية » . أنشئت هذه القناطر فى عهد محمد على باشا كما ذكرنا فى غير هذا المكان ، ولكنها أهملت مدة طويلة وقرر الخبيرون أن قد لحقها من الخلل ما يجعلها غير صالحة للاستعمال : إذ حدثت صدوع فى عقود المنافذ ، وجرى الماء تحت الأساس نفسه . وكان الغرض من انشاء هذه القناطر فى أول الأمر أن تحجز المياه وراءها حتى يرتفع سطحها عن المستوى الأصلي (بعد القناطر) بقدر $\frac{1}{4}$ من الأمتار ، وبذلك تستقى منها ثلاث ترع كبيرة سطحها أعلى من سطح النيل وهى : الرياح البحيرى ، والرياح المنوفى ، والرياح التوفيقي . على أن الرياح الأول يجرى فى الصحراء بعد تفرعه من القناطر بمسافة صغيرة ، فلما أهمل تراكت عليه رمال الصحراء وطمرته . أما الرياح الثانى فكان مستعملاً عام ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣ م) ، ولكن الثالث كان لا يزال مشروعاً لم ينفذ بعد

فأرت مصلحة الري أن من أول واجباتها إصلاح هذه القناطر العظيمة والترع التى تستقى منها ، فوجهت الى ذلك معظم عنايتها بين عامى ١٣٠١ و ١٣٠٦ هـ (١٨٨٤ و ١٨٨٩ م) . وقد قامت بعبء هذا العمل الشاق عاماً بعد عام فى أيام

انخفاض النيل ، بالرغم من عِظَم الصدوع التي بالبناء ، وما اعترض العمل من المصاعب ، الى أن أصلح الأساس وضُمت الصدوع (بالأسمنت) ، وانتهى الأمر ببناء منطقة وقاية الأساس من الحجر حول الأساس لوقايتها . ومما زاد العمل صعوبة ان القناطر كانت تُستخدم في أيام الفيضان فيما أعدت له ، وقد قال أحد المهندسين في ذلك : « إن هذا العمل كان أشبه شئء باصلاح ساعة دون إيقاف أتراسها »

وتم في أثناء ذلك كَرُي رِيّاح البحيرة ، ومنعت عنه الرمال بزرع ضفافه بالأعشاب . الرياح وزيد أيضاً في عمق رياح المنوفية ، ووُضع باب (هاويس) عند تفرعه . أما الرياح التوفيقى وهو الذى يروى المديرىات التى شرق فرع دمياط فحفر بين عامى ١٨٨٧ و ١٨٨٩ م

ولم تكد تتم هذه الأعمال العظيمة حتى ظهرت فائدتها ، فقد زاد محصول القطن بالوجه البحرى فى ١٣٠٩ — ١٣١٠ هـ (١٨٩١ — ١٨٩٢ م) على متوسط محصول الاحدى عشرة سنة السابقة بنحو ١٠٦٠٠,٠٠٠ قنطار . هذا الى ما حدث من الزيادة فى المحصولات الأخرى . وقد بلغت قيمة ما زاده محصول القطن وحده فى مجموع المدة التى أصلحت فيها القناطر (١٣٠١ — ١٣٠٦ هـ : ١٨٨٤ — ١٨٨٩ م) ما يربو على ٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه

أما نفقات هذا العمل فقد دُفع معظمها من قرض عام ١٨٨٥ م ، ولكن جزءاً منها سُدد مما حدث فى الميزانية من زيادة الدخل على المصروفات

ولا يخفى ان الغرض من القناطر ليس خزن المياه وقت الفيضان للانتفاع بها وقت انخفاض النيل ، إنما كان الغرض منها حجز المياه حتى يرتفع سطحها فتصب فى الرياحات الثلاثة العظيمة ، فتروى هذه الوجه البحرى بمياهها ، ولو كان النيل منخفضاً

وقد أُجرى اصلاح آخر فى القناطر عام ١٣١٤ هـ (١٨٩٧ م) ، وذلك بإنشاء سد امام القناطر سد أصم أمام القناطر (نحو المصب) ، كي لا تندفق المياه دفعة واحدة بعد حجزها ، فأصبحت تتسرب على دفعتين ، وبذلك تقص الفرق بين مستوى المياه خلف القناطر

وأمامها (فرق التوازن) ، وذلك يخفف من الضغط الشديد على القناطر أثناء الفيضان

٢ . قناطر زفتى وما زاد فى انتظام توزيع المياه فى الوجه البحرى انشاء « قناطر زفتى » ، فإنها أيضاً تحجز المياه وراءها حتى يعلو سطحها فتملأ الترعى التى تنفرع من النيل عند هذه النقطة . وقد بلغت نفقات هذه القناطر ٣٢٠,٠٠٠ جنيه ، وتم انشاؤها فى سنة ١٣٢٠ هـ

(١٩٠٢ م)

٣ . المصارف وأجرى منذ ذلك العام تعديل كثير فى ترعى الوجه البحرى . وابتدأت الحكومة

فى انشاء مصارف عظيمة فى مديرتى البحيرة والغربية . وبذلك سيتسع نطاق أراضى مصر الزراعية ، وعلى مدى الأيام سيتم تخفيف بحيرة ريوط وتصبح أرضاً صالحة للزراعة على ان ما تم من الأعمال فى الوجه البحرى لم يصرف الحكومة عن الاهتمام بالوجه القبلى . إلا ان قلة المال والرجال حتمت عليها فى أوائل هذا العهد الاقتصار فى مصر

العليا على المشروعات الصغيرة . وكان معظم الوجه القبلى فى ذلك الحين يُروى بالحياض ، أى انه وقت الفيضان تغمر مياه النيل المساحات الفسيحة من الأرض ،

ب . مصر العليا فلا يتسنى مباشرة شىء من الأعمال الزراعية فيها الى انخفاض النيل . وفى عام ١٣٠٨ هـ

(١٨٩١ م) أنشأت الحكومة بجهة « قشيشة » بينى سويف سداً لتصرف المياه ،

فكان ذلك اكبر عون على تنظيم المياه التى تركد على تلك الأراضى الواسعة

١ . تحويل رى ولا يخفى ان هذه الطريقة وهى الرى بالحياض معيبة بالاضافة الى مزايا الرى

الدورى ، اذ به تجرى المياه الى الأراضى فى الترعى فيقتضى تنظيم توزيعها من حيث

الزمن والمقدار معاً . لذلك أقدمت الحكومة على مشروع عظيم وهو تحويل الرى

بالحياض الى رى دورى فى مديريات أسبوط والمنية وبنى سويف والجيزة ، فخرت

لذلك الترعى ، واهتمت اهتماماً خاصاً بترعة الابراهيمية العظيمة فوسّعتهما وأصلحتها

وفى سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٨ م) شرعت فى انشاء « قناطر بأسبوط » لحجز المياه

حتى ترتفع وتملأ ترعة الابراهيمية فتروى المديريات التى تمر فيها . وقد تم انشاء

هذه القناطر عام ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) قبيل الفيضان ، وكان النيل منحطاً جداً فى

٢ . قناطر

اسبوط

هذه السنة ، فبادرت وزارة الأشغال بإغلاق أبواب القناطر ، فارتفع سطح المياه في ترعة الابراهيمية متراً ونصف متر . وقد قُدِّر ما اكتسبه المزارعون من هذا العمل تلك السنة بما يربو على ٦٠٠,٠٠٠ جنيه

ولما رأت الحكومة ثمرة عملها في المديرية التي تقدم ذكرها عوّلت على اجراء ٣ . قناطر اسنا مثله في المديرية التي في أقصى الصعيد ، فأنشأت « قناطر اسنا » التي تم انشاؤها عام ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) ، فأفادت مديرتي قنا وجرجا فائدة قناطر اسيوط في المديرية الشمالية

ويلاحظ ان جميع هذه القناطر لا تخزن المياه لادخارها الى وقت الحاجة ، وانما هي ترفع سطح الماء في النيل حتى يتسنى ملء الترع فتوزع المياه بها في أنحاء البلاد وكانت الحكومة قد فكرت منذ عام ١٣٠٧ هـ (١٨٩٠ م) في مشروع لخزن مياه النيل وقت الفيضان للانتفاع بها وقت انخفاض النيل في رى جميع أنحاء مصر ، فلا يُحرم جزء منها من الزراعة . فتأخر انفاذ المشروع الى سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٨ م) ، اذ ابتدئ في انشاء خزان عظيم عند « اسوان » في نفس الوقت الذي ابتدأ فيه انشاء قناطر اسيوط . وهذا البناء من أعظم ما شيّده الانسان ، انتهى تشييده سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) فكان طوله يبلغ ٢١٥٦ متراً ، وارتفاعه عن قاع النهر نحو ٢٨ متراً ، والفرق بين مسطح الماء قبله وبعده (فرق التوازن) ٢٠ متراً ، وبو ١٨٠ باباً ، ويخزن المياه الى ارتفاع يزيد على سطح البحر بنحو ١٠٦ امتار . وقد بلغت نفقات انشائه هو وقناطر اسيوط ٤,٧٠٠,٠٠٠ جنيهًا ، ولكنه أفاد من اول سنة من انشائه فائدة تكاد توازي كل هذه النفقات ، اذ لولاه في تلك السنة هو وقناطر اسيوط لكانت الطامة الكبرى على البلاد ، فقد كان النيل فيها منخفضاً جداً ، ولم يكد يشعر بنقصه أحد . وجاء منخفضاً مرة أخرى عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) ، فكان الخزان أيضاً اكبر عون للبلاد ويتضح من الجدول الآتي الفائدة التي عادت على مصر من هذه المشروعات العامة في سنى انخفاض النيل

سنة م	عدد الأفدنة التي لم تزرع (الشرقي)	سنة	عدد الأفدنة التي لم تزرع (الشرقي)
١٨٧٧	١,٠٠٠,٠٠٠	١٩٠٢	١٢٨,٦٦٣
١٨٨٨	٢٦٩,١١٠	١٩٠٤	٤٦,٨٧١
١٨٨٩	١٨٨,١٣٧	١٩٠٥	٤٥,٠٠٠

تعلية الخزان وعند ما أنشئ الخزان كان الغرض منه إيجاد المياه اللازمة لجميع أراضي مصر المزروعة في أى وقت من السنة . ثم فكرت الحكومة في زيادة سعته بتعليته بحيث يمكن به رى ١,٠٠٠,٠٠٠ فدان في شمالى (الدال) لم تكن تصل إليها المياه من قبل . فتم هذا العمل عام ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) وزاد مقدار ما يُخزن وراء الخزان من المياه من ٩٤٠,٠٠٠,٠٠٠ متر مكعب الى ٢,٤٢٠,٠٠٠,٠٠٠ متر مكعب ، وهى زيادة هائلة جداً ، وسببها ان الزيادة في ارتفاع الخزان زادت في امتداد المياه المحجوزة خلفه جنوباً الى بُعد ٣٢٥ كيلومتراً

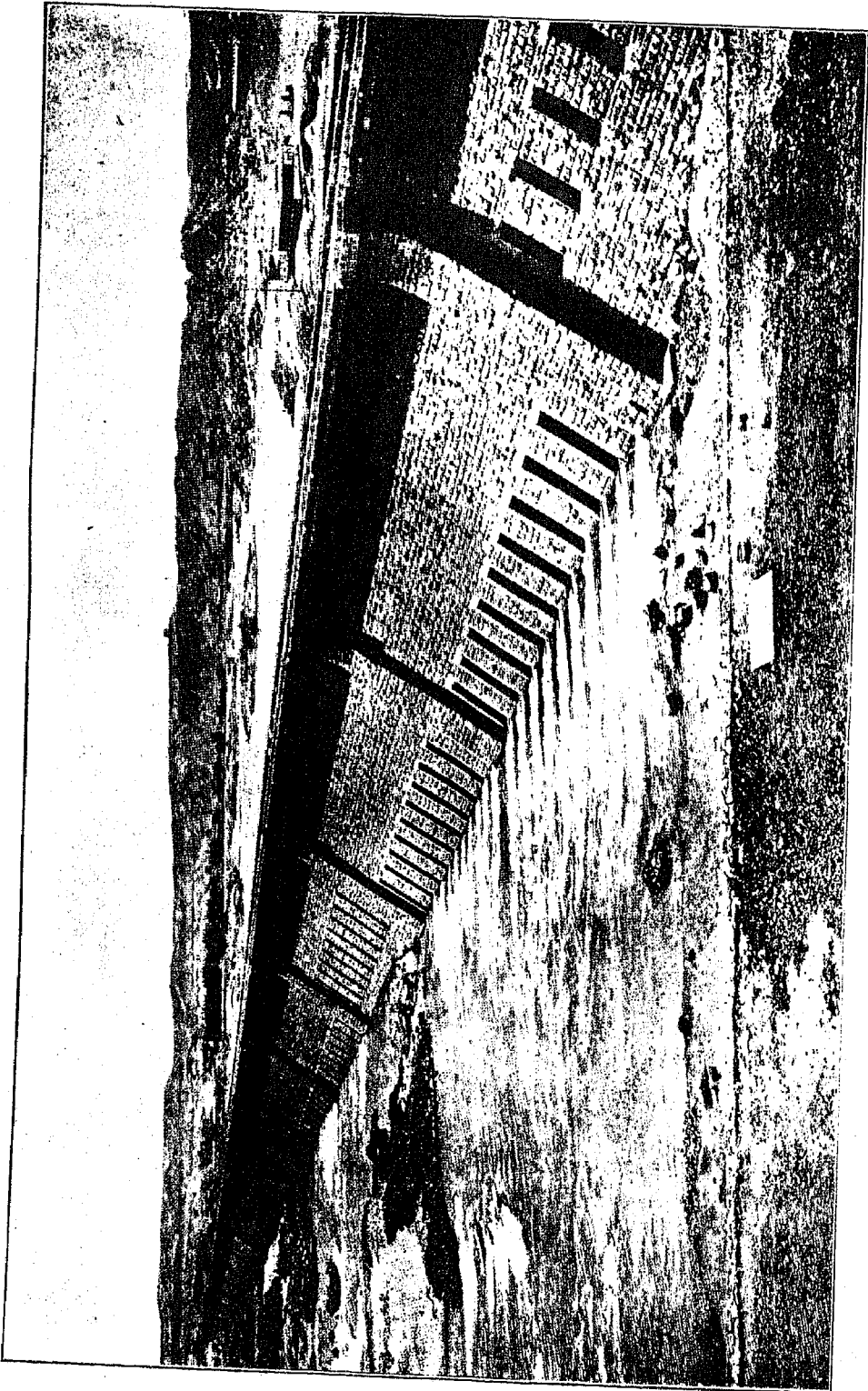
وقد تم بفضل انشاء الخزان تحويل رى الحياض بمصر الوسطى الى رى دورى وعند ما تجفف بحيرة مربوط وغيرها سيرويها الخزان بمياهه طول اوقات السنة

مشاريع جديدة على ان الحكومة لا تزال لديها مشروعات أخرى لتحسين الرى ، ففي نيتها ان تصاح رى المديرية الجنوبية ، بانشاء قناطر عند تفرع ترعة السوهاجية لتسهيل امتلاء تلك الترعة . وشرعت كذلك فى انشاء خزان آخر عظيم على النيل الأبيض ، ليحفظ

البلاد اذا اشتد الفيضان ويكون بمثابة حوض عظيم لخزن مقادير وافرة من المياه . وقد ذكرنا ان نفقة انشاء خزان اسوان وقناطر اسيوط بلغت ٤,٧٠٠,٠٠٠ جنيه ،

ولكننا لا نكون مغالين اذا قلنا ان مجموع ما اكسبته مصر الى الآن من وراء انشائها لا يقل عن خمسة امثال هذا المبلغ . وكذلك بلغت نفقات تحويل رى الحياض الى رى دورى بمصر الوسطى نحو ٦,٥٠٠,٠٠٠ جنيه ، ولكننا عاد على البلاد بفائدة تقدر بنحو ٢٦,٧٥٠,٠٠٠ جنيه

ثمرة خزان اسوان وقناطر اسيوط والرى الدورى



مزارع اسوان

وبالجدول الآتى بيان دخل الحكومة ومصروفها فى عدة سنوات ، ولكن يجب اذدياد الميزانية عند الرجوع اليه ان نلاحظ ان ضريبة الأرض فى تلك المدة نقصت عما كانت عليه

السنة	الوارد	المصرف	السنة	الوارد	المصرف
١٨٨٦	٩,٢٤١,٥٨٦	٩,٢٣٢,٧٤٦	١٩٠٥	١٤,٨١٣,٠٠٠	١٢,١٢٥,٠٠٠
١٨٩٠	١٠,٢٣٧,٠٠٠	٩,٥٩٠,٠٠٠	١٩٠٧	١٦,٣٦٨,٠٠٠	١٤,٢٨٠,٠٠٠
١٨٩٤	١٠,١٦١,٠٠٠	٩,٤٧٠,٠٠٠	١٩٠٨	١٥,٥٢٢,٠٠٠	١٤,٤٠٨,٠٠٠
١٨٩٥	١٠,٤٣١,٠٠٠	٩,٤٢١,٠٠٠	١٩٠٩	١٥,٨٨٧,٣١٣	١٤,٩٠٠,٠١٥
١٨٩٧	١١,٠٩٣,٠٠٠	٩,٧٠٩,٠٠٠	١٩١٠	١٥,٩٦٥,٦٩٣	١٤,٤١٤,٤٩٩
١٩٠١	١١,٩٤٤,٠٠٠	٩,٩٢٤,٠٠٠	١٩١٢	١٧,٥١٥,٧٤٣	١٥,٤٧٠,٥٨٤
١٩٠٣	١٢,٤٦٤,٠٠٠	١١,٧٢٠,٠٠٠	١٩١٣	١٧,٣٦٨,٦١٦	١٥,٧٢٨,٧٨٥

وقد تم فى هذا العصر أيضاً اصلاحات أخرى كثيرة تناولت كل مصالح الحكومة .
من أهم ذلك اصلاح المحاكم الأهلية ، فانها كانت قبل الثورة العرابية غير منتظمة ،
لا تحكم بمقتضى قانون خاص . وكانت الحكومة المصرية قد أحسّت بهذا النقص ،
وأعدت قانوناً أهلياً شبيهاً بالقانون الفرنسى ، لتجعله سارياً فى جميع المحاكم الأهلية .
فلما احتل الانجليز مصر وابتدأت نهضة الاصلاح عقب قدوم اللورد دفرين عرضت اصلاح المحاكم
الوزارة المصرية هذا القانون فتمت الموافقة عليه ، وعمل به

وكانت المحاكم الأهلية قبل لا تنظر فى قضايا الجرائم الكبيرة ، بل كانت تنظر
أمام لجان خاصة يرأسها المدير تسمى «لجان الأشقياء» لم تكن أحكامها دائماً مطابقة
للعدالة . فتقرر الغاؤها . على ان حالة المحاكم الأهلية كانت سيئة جداً ، ولم يكن من
السهل اصلاحها فى وقت قريب . فبقى الاصلاح سائراً فيها يبطئ الى ان اقترح
اللورد كرومر عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩١ م) تعيين مستشار قضائى بوزارة الحقانية ،
ليشرف على هذه المحاكم ويصلح ما اعتل فيها . فعارض فى ذلك رياض باشا رئيس
الوزارة واعتزل منصبه ، فخلفه مصطفى فهمى باشا ، ووافق على تعيينه

المستشار
القضائى

بذلك دخلت المحاكم في طور اصلاح جدى ، فنُظِّمَت أعمالها وسُهلَت حركتها وفُصلَ منها القضاة الذين لم تتوافر فيهم شروط الكفاءة ، وأصلحت مدرسة الحقوق لتخرج قضاة أكفاء . ثم زيد في عدد المحاكم تسهيلاً للتقاضى بين أهل القطر . وفى الجملة يُعتبر جوهر نظام المحاكم الحالى مستحدثاً فى هذا العصر

طور جديد
للمحاكم

كذلك عمَّ الاصلاح باقى مصالح الحكومة . فنُظِّمَت أعمال المالية ، وضُبطَ حسابها ، ومُسحت الأراضى ، وحُدَّت الضرائب ، وعُيِّنَت لجبايتها مواعيد تناسب حال الفلاح . وأُلغيت السخرة ، وبطل استعمال السوط (الكراباج) ، إلا فى بعض أنواع العقاب . وزيد من الطرق الزراعية فى أنحاء البلاد حتى صار مجموعها لا يقل عن ٢٥٠٠ كيلومتر . وسُمح للشركات الأوربية بمباشرة أعمال مالية شتى ، فانتشرت بذلك سكك الحديد الضيقة فى الوجهين القبلى والبحرى ، وفيها تسهيل كبير لنقل حاصلات البلاد . وأنشأت الشركات أيضاً خطوط (الترام) فى القاهرة والاسكندرية ، فسهل الانتقال فيهما ، كما أنشئ فيهما كثير من المباني العظيمة التى اكتسبت هاتين المدينتين فخامة وجمالاً تضارعان فيهما كثيراً من المدن الأوربية العظيمة . ومن أعظم ما أنشأته الحكومة من هذه المباني قصر المحكمة المختلطة الكبرى بالاسكندرية ، ودار العاديات المصرية بالقاهرة ، ولا سيما البناء الأخير الذى أصبح بجماله وفخامته لا تُقارَن لأن يضم بين جدرانها تلك الكنوز النفيسة من الخلفات المصرية القديمة

الاصلاحات
العامة

وكثرَت العناية بالأمور الصحية ، وانتشرت المستشفيات فى أنحاء البلاد . ذلك الى ما أنشئ من المكاتب والمدارس فى جميع أطراف القطر ، وإعادة عهد البعوث العلمية الى اوربا حيث يغترف الشبان المصريون من أبحر المعارف والعلوم الأوربية وجملة القول ان فى البلاد المصرية نهضة مباركة عظيمة ، يجب على كل مصرى معاضدتها والسير بها الى ما فيه خير مصر وفلاحها



ملخص لأهم الحوادث في الباب الثالث

٢	٥	
١٨٦٣ — ١٨٤٩	١٢٧٩ — ١٢٦٥	عباس باشا الأول وسعيد باشا *
١٨٥٤ — ١٨٤٩	١٢٧٠ — ١٢٦٥	عباس باشا الاول
١٨٥٦ — ١٨٥٢	١٢٧٢ — ١٢٦٨	انشاء الخط الحديدي بين القاهرة والاسكندرية
١٨٥٤ يوليه	١٢٧٠ ذى الحجة	مقتل عباس باشا الاول في قصره بينها
١٨٦٣ — ١٨٥٤	١٢٧٩ — ١٢٧٠	سعيد باشا
١٨٥٤	١٢٧١	اذه له يلبس بس ابتداء بحفر قناة السويس
١٨٥٦ يناير	١٢٧٢ ربيع الثاني	عقد الاتفاق النهائي لحفر القناة
١٨٥٨	١٢٧٤	سن قانون الاراضى
»	١٢٧٥	موافقة الباب العالى على حفر القناة
١٨٥٩ يناير	» رمضان	ابتداء العمل في حفر القناة
١٨٦٢	١٢٧٨	امضاء عقد أول قرض مصرى في لندن
١٨٦٣	١٢٧٩	وفاة سعيد باشا
١٨٧٩ — ١٨٦٣	١٢٩٦ — ١٢٧٩	اسماعيل باشا
١٨٦٣	١٢٨٠	افتتاح دار الآثار المصرية رسمياً بيولاى
١٨٦٤	١٢٨١	غلاء القطن بسبب الحرب الاهلية في أمريكا
١٨٦٥	١٢٨٢	شراء اسماعيل باشا مصلحة البريد للحكومة
١٨٦٦ ٢٧ مايو	١٢٨٣ ٢ الحرم	جعل الوراثة في اكبر أنجال الخديوى
»	»	شراء اسماعيل باشا مصوع وسواكن من الباب العالى
»	» رجب	تشكيل مجلس شورى النواب
» يوليه	١٢٨٤ ربيع الاول	منح اسماعيل باشا لقب خديوى
١٨٦٧	١٢٨٤	سن قانون ١٠ رجب بشأن التعليم وترقيته
١٨٦٩ نوفمبر	١٢٨٦ شعبان	اتمام حفر القناة وحفلة افتتاحها
١٨٧٠	١٢٨٧	تولية منزهج السويصرى على مصوع
١٨٧١	١٢٨٨	اعلان ضم المقاطعات الاستوائية الى مصر رسمياً

١٨٧٢ — ١٨٧١	١٢٨٨	انحطاط قيمة سهام قناة السويس لقلة الربح
١٨٧٣	١٢٩٠	انعقاد مؤتمر دولي بلندن للنظر في أمر القناة
»	»	تقليد من الباب العالي مؤيد للتقاليد السابقة
»	»	ومنح اسماعيل باشا استقلالاً داخلياً
»	»	فتح دارفور
١٨٧٥	يناير ١٢٩١	تشكيل المحاكم المختلطة
»	فبراير ١٢٩٢	الحملة على حوض نهر جوبا وجهات قسمها
»	سبتمبر ١٢٩٢	فتح هرر على يد محمد رؤوف باشا
»	»	فشل حملة منرنجر على بلاد الحبشة
١٨٧٥	١٢٩٢	تنازل الدولة عن زيلع للحدوي مقابل جزية
»	»	بيع نصيب الحكومة من سهام القناة لانبجثة
»	اكتوبر ١٢٩٢	وقد « كيف » لاصلاح المالية المصرية
١٨٧٦	يناير ١٢٩٣	هزيمة الجيوش المصرية عند قرع
»	»	افتتاح المحاكم المختلطة
»	ابريل ١٢٩٣	ابرام الصالح بين مصر والحبشة بعد موقعة قرع
»	»	توقف اسماعيل عن دفع قيمة سندات الخزانة
»	نوفبر ١٢٩٣	انقاص الدين الموجد باتفاق انجلثة وفرنسا
١٨٧٧	١٢٩٤	عودة غردون وتنصيبه حاكماً عاماً على السودان
١٨٧٨	ابريل ١٢٩٥	تشكيل لجنة التحقيق
»	اغسطس ١٢٩٥	وزارة مؤاخذه براسة نوبار باشا
»	اكتوبر ١٢٩٥	التنازل عن معظم أملاك الاسرة الخديوية
»	»	نوران الجند وقبضهم على نوبار ورفرزلسن
»	»	اقالة نوبار باشا وتنصيب الامير توفيق
»	»	عدم رضاء الخديوي بقرارات لجنة التحقيق
١٨٧٩	١٢٩٦	والوزارة وحله الوزارة
»	يونيه ١٢٩٦	تنازل اسماعيل باشا عن اريكة مصر
»	اغسطس ١٢٩٦	توفيق باشا (توليته)

فهرست

كتاب تاريخ مصر من الفتح العثماني

صحيحة	بالاستكشافات البرتغالية	٦٨
٧٤	(٦) أشهر الولاة وأهم الحوادث	
٧٨	عودة النفوذ الى المماليك البكوات	
	زوال ما كان للسلطان من القوة	
	والنفوذ في مصر على يد على	
٨١	بك الكبير	
	ملخص بأهم الحوادث التاريخية	
	الواردة في الباب الاول	
	الباب الثاني	
	تاريخ مصر من الحملة الفرنسية	
	الى انتهاء حكم محمد على	
	الفصل الاول — الحملة الفرنسية	
٨٩	على مصر	
	الفصل الثاني — محمد على باشا	
١١٠	(١) نشأته ونهوضه	
١٢١	توطيد سلطة محمد على في مصر	
١٢٤	القضاء على المماليك	
	(٢) الحروب الوهاية في بلاد	
١٢٧	العرب	
١٣٤	(٣) فتح السودان	
	(٤) أعمال محمد على باشا في	
١٤١	الديار المصرية	
١٤٢	الحكومة في عهد محمد على	
	الباب الاول — عهد الدولة العثمانية	
صحيحة	الفصل الاول — الفتح العثماني	١
	الفصل الثاني — نبذة في تاريخ	
١٢	الدولة العثمانية	
١٢	(١) منشأ العثمانيين ونهوضهم	
	(٢) اضمحلال الدولة البوزنطية	
	وسقوط القسطنطينية في	
١٨	يد العثمانيين	
٢٢	(٣) الدولة العثمانية في أوج عظمتها	
	(٤) ابتداء اضمحلال الدولة	
٣٤	العثمانية	
	(٥) عهد سلطة الوزراء —	
٤٢	اسرة كبريلى	
	(٦) الدولة العثمانية وحروبها مع	
	الروسيا والنمسا في القرن	
٥٠	اثنامن عشر	
	الفصل الثالث — حكم العثمانيين	
٥٩	في مصر	
٦٠	(١) نظام الحكومة	
٦١	(٢) الضرائب	
٦٢	(٣) المباني	
٦٥	(٤) المماليك وأهل البلاد	
	(٥) تجارة مصر وشواطئ	
	البحر الابيض وتأثرها	

صحيفة	
٢٢٠	(٢) الاستقلال الداخلى والادارة
٢٢١	(٣) الاصلاحات القضائية
٢٢٤	(٤) التربية والتعليم
٢٢٨	دار الكتب
٢٢٩	دار الآثار المصرية
٢٣٢	(٥) منع تجارة الرقيق
	(٦) منح السلطة للنظار وانشاء
٢٣٥	مجلس شورى النواب
	(٧) التقدم المادى والاعمال
٢٣٦	العامة
٢٣٧	الزراعة
٢٣٨	التجارة
٢٣٩	الاعمال العامة
	(٨) حروب اسماعيل باشا
٢٤٠	وفتوحه
٢٤٥	(٩) آتام قناة السويس
	الفصل الرابع - المسألة المالية وانتهاء
٢٤٧	حكم اسماعيل
	الفصل الخامس - أوائل حكم
٢٥٧	توفيق باشا
٢٦٣	الفصل السادس - الحوادث العراقية
	الفصل السابع - عهد الاحتلال
	البرطانى
	(١) قدوم اللورد دفرين الى
٢٧٧	مصر
	(٢) الحروب السودانية (ظهور
٢٨١	المهدى واخلاء السودان)
٢٩١	استرجاع السودان
	(٣) تقدم مصر منذ عام ١٨٨٢م
	(خصوصاً من جهة الاشغال
٢٩٥	العامة)

صحيفة	
١٤٤	التقدم المادى
١٤٥	الزراعة
١٤٨	الصناعة
١٥٠	الاشغال العامة
١٥٥	نهضة التعليم
١٥٩	الجيش
١٦٤	البحرية
١٦٥	ميزانية الحكومة
١٦٦	(٥) حرب اليونان
١٧١	(٦) حرب الشام
	حكومة محمد على فى بلاد الشام
١٨٠	وغزوته الثانية لها
١٨٧	تدخل دول أوربا
١٩٠	الحملة الاخيرة
	(٧) شيخوخة محمد على وحكم
١٩٧	ابراهيم
	الفصل الثالث - الطريق البرى
٢٠٠	للهند
	ملخص لاهم الحوادث التاريخية
	فى الباب الثانى
	﴿ الباب الثالث ﴾
	تاريخ مصر بعد عهد محمد على باشا
	الفصل الاول - عباس باشا الاول
	وسعيد باشا
٢٠٣	(١) عباس باشا الاول
٢٠٦	(٢) سعيد باشا
٢٠٨	الفصل الثانى - قناة السويس
٢١٦	الفصل الثالث - اسماعيل باشا
٢١٩	(١) وراثة العرش

١٨٧٩	١٨ اغسطس	١٢٩٦	٢٩ شعبان	استقالة وزارة شريف باشا
»	سبتمبر	»	شوال	تشكيل وزارة برياسة رياض باشا
١٨٨٠	١٧ يوليه	١٢٩٧	٨ شعبان	اصدار قانون التصفية
»	٢٧ مايو	»	١٧ جمادى ٢	تشكيل لجنة علمية للنظر في أمر التعليم
١٨٨١	١٥ يناير	١٢٩٨	١٣ صفر	تقديم العرايين معروض الى رياض باشا
»	٩ سبتمبر	»	١٥ شوال	مظاهرة غابدين
»	٩ سبتمبر	»	١٥ شوال	منشور عرابي لسفراء الدول يطعنهم فيه
»	١٤ سبتمبر	»	٢٠ شوال	تشكيل وزارة برياسة شريف باشا
»	١٨ ديسمبر	١٢٩٩	٢٦ المحرم	تنصيب محمد سلطان باشا رئيساً لمجلس الشورى
١٨٨٢	يناير	»	ربيع الاول	تنصيب عرابي باشا وكيلاً للحرية
»	٨ يناير	»	١٩ صفر	ارسال فرنسا وانجلترا مذكرة الى الخديوى تعدانه بالمساعدة ان اقتضى الحال
»	فبراير	١٢٩٩	ربيع الاول	استقالة وزارة شريف باشا وتشكيل وزارة البارودى
»	مايو	»	رجب	طلب فرنسا وانجلترا استقالة الوزارة وابعاد عرابي
»	١١ يونيه	»	٢٤ رجب	حادثة ١١ يونيه (واقعة الاحد)
»	٢٣ يونيه	»	٦ شعبان	انعقاد مؤتمر فى الاستانة للنظر فى شؤون مصر
»	١١ يوليه	»	٢٢ شعبان	ضرب الاسطول الانجليزى قلاع الاسكندرية
»	١٣ سبتمبر	»	٢٩ شوال	موقعة التل الكبير
١٨٨١		١٢٩٨		أول ظهور المهدي
١٨٨٢		١٣٠٠		قدوم اللورد دفرين الى مصر
١٨٨٣	يناير	»	ربيع الاول	صدور أمر عال بالغاء المراقبة الثنائية
»		»		تنصيب السير افن وود سرداراً للجيش المصرى
»	سبتمبر	»	ذى القعدة	تنصيب السير افن بيرنج معتمداً لانجلترا فى مصر
»		»		استيلاء المهدي على مدينة الابيض
»	سبتمبر	»	ذى القعدة	خروج جيش هكس من الخرطوم لاسترداد الابيض
»	نوفمبر	١٣٠١	المحرم	خبر ابادة جيش هكس باشا

٢	١	١٨٨٤	يناير	١٣٠١	ربيع ١	خروج غردون الى السودان لاخلائه
»	»	»	فبراير	»	جمادى ١	هزيمة الجنرال بيكر عند الطيب
»	»	»	مارس	»	»	جراهام يقهر عثمان دقنة عند طماي
»	»	»	فبراير	»	ربيع ٢	وصول غردون الى الخرطوم
»	»	»	مايو	»	رجب	قطع المهدي خط الرجعة عليه
١٨٨٥	٢٥	يناير	١٣٠٢	ربيع ٢	٨	وصول حملة انقاذ غردون الى الشلال السادس
»	٢٦	يناير	»	»	٩	استيلاء الدراويش على الخرطوم ومقتل غردون
»	يوليه	»	»	رمضان	»	وفاة المهدي وتولى التعايشي الخلافة
»	ديسمبر	»	١٣٠٣	ربيع ١	»	قهر التعايشي عند جنس بعد عزمه على فتح مصر
١٨٨٩	مايو	»	١٣٠٦	رمضان	»	قهر ولد النجمي الزاحف على مصر في طوشكي
١٨٨٩ — ١٨٨٤	»	»	١٣٠٦ — ١٣٠١	»	»	اصلاح القناطر الخيرية
١٨٩١	»	»	١٣٠٨	»	»	تهدة السودان الشرقي
١٨٩٦	»	»	١٣١٣	»	»	خروج كشنر لاسترجاع السودان
١٨٩٨	سبتمبر	»	١٣١٦	ربيع ٢	»	واقعة أم درمان
١٨٩٩	يناير	»	١٣١٦	رمضان	»	اتفاقية السودان بين مصر وانجلترا
١٨٩١	»	»	١٣٠٨	»	»	انشاء سد قشيشة
١٩٠٢	»	»	١٣٢٠	»	»	انشاء قناطر زفتي (انتهىها)
١٩٠٢ — ١٨٩٨	»	»	١٣٢٠ — ١٣١٥	»	»	انشاء قناطر أسبوط وخزان اسوان
١٩٠٩	»	»	١٣٢٧	»	»	» اسنا (انتهىها)
١٩١٢	»	»	١٣٣٠	»	»	تعلية خزان اسوان (انتهىها)

هذه السلسلة تضم :

- ١ - فتح العرب لمصر
- ٢ - تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
- ٣ - الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
- ٤ - تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
- ٥ - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
- ٦ - تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبل الوقت الحاضر
- ٧ - ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
- ٨ - تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد أول)
- ٩ - تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد ثاني)

- ١٠ - فتوح مصر وأخبارها
- ١١ - تاريخ مصر الحديث مع فزلقة في تاريخ مصر القديم
- ١٢ - قوانين الدواوين
- ١٣ - تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
- ١٤ - الحكم المصري في الشام
- ١٥ - تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
- ١٦ - آثار الزعيم سعد زغلول
- ١٧ - مذكراتي
- ١٨ - الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
- ١٩ - وادي النظرون وربهاته وأديرته ومختصر البطارقة
- ٢٠ - الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية

Bibliotheca Alexandrina



0354355

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مطبول

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١ Tel. : 5756421 6 Talat Harb Sq.